

سَكْبُ الْأَدَبِ عَلَى لَامِيَّةِ الْعَرَبِ

تَصْنِيفُ

الْعَلَامَةِ الْأَدِيبِ

سليمان بن عبد الله الشاوي

المتوفى ١٢٠٩ هـ

تحقيق

محمد عثمان



مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة

البريد الالكتروني :

Alsakafa_aldinaya@hotmail.com

هاتف: +2025922620

فاكس: + 2025936277

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية :

الشاوى ، سليمان بن عبد الله بن شاوى الحميرى ، 1794-000

سكب الادب على لامية العرب

تأليف : سليمان بن عبد الله الشاوى

ط-1 القاهرة :مكتبة الثقافة الدينية 2014

عدد الصفحات :

1-الشعر العربى -تاريخ-العصر الجاهلى

ا-عثمان ، محمد (محقق)

ب-العنوان

رقم الايداع :14689

الترقيم الدولي:1-62-341-977-978

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله تعالى وهو للحمد أهل، وأشكره وقد وعد الشاكرين بالزيادة والفضل،
أشهد أن لا إله إلا الله، بفضلته اهتدى المهتدون، وبعده ضل الضالون، لا يُسألُ عَمَّا
يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، بلِّغ الرسالة، وأدى الأمانة،
ونصح لهذه الأمة، وبيّن لها طريق الحق وأمرها بسلوكه، وحذّرها من طرق الضلالة
والغواية، وجاهد في الله حق جهاده فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه،
الذين استقاموا على سنته، ودعوا إلى ملته، ومن سار على نهجهم ولزم هديهم، ودعا
بدعوتهم إلى يوم الدين.
أما بعد:

تحتل "لامية العرب" مكانة بارزة جعلتها من أقوى القصائد الجاهلية، بل إنها
تزاحم المعلقات وإن لم تكن منها، وهي من حيث الشهرة وعناية العلماء بها ترتفع إلى
منزلة لامية كعب بن زهير (بانت سعاد) التي أنشدها في مدح النبي صلى الله عليه
وسلم، دون أن تعتمد في شهرتها مرتكزاً دينياً كقصيدة كعب، بل بلغت ما بلغته بفضل
ما فيها من جودة شعرية ووفرة المادة اللغوية التي أغرت العلماء بشرحها.
كما أن لامية العرب جمعت ما يحويه شعر الصعاليك من مظاهر شعرية؛ لذا فهي
غنية بما تحتاجه الدراسة من مواد.

ولا يُعرف سبب تسميتها بـ"لامية العرب"، فهناك قصائد لامية نُسبت لشعراء
جاهليين عديدين مثل عنترة وزهير وكعب، ولكن ربما أُطلق على لامية الشنفرى هذا
الاسم لأنها عبّرت أشد تعبير عن حياة العرب الجاهلية بما فيها من ظروف وأخلاق
وطباع.

وقد لقيت "لامية العرب" اهتماماً بالغاً من طرف الشارحين والمحققين، وتعتبر من
أشهر قصائد الشنفرى، بل هي من أشهر ما أبدع الشعراء العرب قديماً وحديثاً، وشهرتها
الأدبية واللغوية بلغت الآفاق، كما لقيت اهتماماً بالغاً من طرف المستشرقين، فأكبوا

عليها يدرسونها ويترجمونها إلى لغات أوروبية مختلفة؛ لأنهم وجدوا فيها صورة متقنة لحياة الأعراب في الجزيرة العربية، فكان اهتمامهم بها لغرض اجتماعي، كما كان اهتمام العرب بها لغرض لغوي، بالإضافة لما تحويه من فنية الصور وجمالية الوصف ودقة التعبير وصدق العواطف وغيرها من جماليات الإبداع الأدبي.

وأفضل شروح لامية العرب على الإطلاق هو شرح "سكب الأدب على لامية العرب" للأديب اللغوي الشاعر الثائر سليمان بك الشاوي المتوفى (١٢٠٩هـ) لأنه قد جمع شروح سابقه فهذبها ونقحها وأضاف عليها، وأخرج لنا هذه الدرة اللغوية الرائعة "سكب الأدب".

فالشروح السابقة كانت تارة تكتفي بالمعني اللغوي أو شرح الأبيات، أو تارة تكتفي بإعراب اللامية كالعكبري مثلاً، ولكن جاء سليمان الشاوي فأبدع وأمتع بأن جمع كل شيء عن القصيدة من حيث معاني الألفاظ أو شرح معاني الأبيات أو إعرابها، ولم يكتف بذلك بل نهل من قطوف كتب اللغة والأدب فزين بها هذا الكتاب الرائع، فهو بحق أفضل الشروح على لامية العرب.

وقد حاولنا جاهدين إخراج هذا الكتاب الممتع في أبهى صورة، وندعو من الله التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيد البلغاء من الناس مُحَمَّد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ظاهرة الشعراء الصعاليك في الأدب العربي

الصعلكة في اللغة:

جاء في لسان العرب: الصعلوك: الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري: ولا اعتماد، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك. قال حاتم الطائي:

غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصْعَلِكِ وَالْغَنَى وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ

أي عشنا زماناً

وتصعلكت الإبل: خرجت أوبارها، وانجردت، وطرحتها.

ورجل مصعلك الرأس: مدوره.

ورجل مصعلك الرأس: صغيره، وأنشد:

يُخَيِّلُ فِي الْمَرْعَى لَهُنَّ بِشَخْصِهِ مُصْعَلُكَ أَعْلَى قَلَّةِ الرَّأْسِ نَقْنِشُ

وقال شمر: المصعلك من الأسنمة: الذي كأنما حَذَرَجَتْ أعلاه حدرجة، كأنما

صعلكت أسفله بيدك، ثم مطلته صُعداً أي رفعته على تلك الدملكة وتلك الاستدارة.

وقال الأصمعي في قول أبي داؤد يصف خيلاً:

قَدْ تَصْعَلَكُنْ فِي الرَّيْعِ وَقَدْ قَدَّ رَعَّ جَلَدَ الْفَرَائِضِ الْأَقْدَامُ

قال: تصعلكن: دققن، وطار عفاؤها عنها، والفريضة: موضع قدم الفارس.

وقال شمر: تصعلكت الإبل إذا دقت قوائمها من السمن، وصعلكها البقل.

وصعلك الشريدة: جعل لها رأساً، وقيل: رفع رأسها. والتصعلك: الفقر. وصعاليك

العرب: ذوبانها. وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ؛ لأنه كان يجمع الفقراء

في حظيرة فيرزقهم مما يغنم."

ولكن يبدو أن هذا المعنى لا يعبر عن المفهوم اللغوي للكلمة تعبيراً دقيقاً كاملاً،

ولهذا نريد أن نقف وقفة أخرى عند تلك الزيادة التي أضافها الأزهري إلى هذا المعنى

اللغوي، وهي قوله (ولا اعتماد) فإن " قوله: (ولا اعتماد) يعبر عن معنى دقيق في مفهوم

الصعلكة بالمعنى المعروف لها، وإذا كان الفقر من أهم الدوافع إلى الصعلكة، فإن ما

يميز الصعاليك عن غيرهم من الفقراء أنهم رفضوا أن يعيشوا عالة على غيرهم، أو أن

يجعلوا من أحد من الناس عماداً لهم، في حين رضي بعض الفقراء لأنفسهم عيش

الذل، واستدرار الحسنات، ويعبر بكر ابن النطاح أحد الصعاليك عن هذا المعنى فيقول:
ومن يَفْتَقِرَ مَتَا يَعِشُ بِحُسَامِهِ ومن يَفْتَقِرَ من سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلِ

وعلى هذا نستطيع أن نقول: إن الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه، أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها، ويعينه عليها، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة، ويواجهون مشكلاتها يداً واحداً.

أما الاستعمال العربي في الجاهلية، فنجد أنه يغلب عليه ربط الصعلكة بمدلول آخر غير الفقر أو مع الفقر، فحينما يتحدثون عن الصعاليك يتحدثون عنهم على أنهم فئة خاصة تتميز عن المجتمع بطابع خاص، شعارهم الاعتداد بالنفس دون الأهل أو القبيلة، ووسيلته العدوان في أي صورة تنهياً له، فيقطع الطريق حينما يتاح له قطعها، ويسطو ويغزو متى وجد إلى ذلك سبيلاً، ويفتك حينما تمكنه العزة، ويتلصص إن لم يجد إلى ما سبق وسيلة، ويجعل غايته من ذلك كله الحصول على الغنى والمال في أغلب الأحيان أو تحقيق مآرب خاصة دائماً".

التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة:

كان للتقاليد القبلية التي احتكم إليها العرب في حياتها، ولتوزيع الثروة توزيعاً غير عادل بين قبائلهم؛ أثر واضح في نشأة ثلاث طبقات من الصعاليك في الجاهلية، أما الطبقة الأولى فطبقة الشذاز والخلعاء الذين تخلت قبائلهم عنهم، وتبرأت منهم، إما لما جرّوه من الجرائر عليها، وإما لفساد سلوكهم فيها، ومن أشهرهم حاجز الأزدي، وقيس بن الحداذية، وأبو الطمحان القيني.

وأما الطبقة الثانية فطبقة الأغربة السود الذين سرى السواد إليهم من أمهاتهم الحبشيات والذين لم تكن قبائلهم تسوي بينهم وبين أبنائها الأصلاء ممن ورثوا عروبة الأصل، ونقاء الدم في الآباء والأمهات، ومن أشهرهم: الشليك ابن السُلَكة، وتأبط شراً، والشنفرى.

وأما الطبقة الثالثة فطبقة الفقراء الذين كانوا يحيون حياة شاقة قاسية لم يجدوا معها ما يعينهم على أعباء العيش، بل على كسب أرزاقهم، وإقامة رمقهم، ومن أخطرهم: عروة بن الورد العبسي، وصعاليك قبيلتي هذيل التي كانت تقيم بالقرب من مكة، وفَهْمُ التي كانت تسكن بالقرب من الطائف.

وقد جمع الفقر والتشرد والتمرد بين صعاليك هذه الطبقات الثلاثة، وعاشوا في القفار ومجاهل الأرض، مؤمنين بأن الحق للقوة، وأنه لا سبيل إلى المحافظة على حياتهم، وتحصيل أقواتهم، وتحقيق وجودهم إلا بالغزو والإغارة للسلب والنهب. ومن أجل ذلك كانوا يغيرون على المناطق الخصبة وعلى القوافل والقبائل والأسواق، ويسلبون منها ما يسلبون، ثم يعودون إلى معاقلهم الحصينة في الصحراء.

واتصف أكثر الصعاليك الجاهليين بالشدة والاحتمال والصبر، والشجاعة والقوة والمضاء، والكرم والترفع والتسامي، لا لأنهم لم يكونوا يغزون السادة النبلاء الكرماء، ولا لأنهم كانوا أباة أعزة فحسب، بل لأنهم كانوا أيضاً يقتسمون ما يغنمون بالتساوي، مع البر بالضعفاء والمحتاجين من قبائلهم.

وفوق رمال البادية الحرة الأبية التي لا ترد لاجئاً إليها، وفي أعماقها الغامضة الرهيبة حيث الوحش والجن والفيلاق، عاشت هذه الجماعات المتمردة من الفقراء والخارجين على القانون والبهود السود، وانطلقوا في شعابها العاتية، وفوق مرتفعاتها الوعرة، وعلى امتداد طرق القوافل فيها، كما تنطلق الذئاب الجائعة الضارية، ينشرون جواً من الفرع بين القبائل، في محاولة ثورية عنيفة لتحقيق لون من العدالة الاجتماعية وصورة من التوازن الاقتصادي، غير مباليين في سبيل ذلك بوسائل تحقيقها فالحق للقوة، والغاية تبرر الوسيلة.

لذا اتسم الصعاليك - بصفة عامة - بصفات كالصبر والجرأة وقوة الإرادة والحزم، والحذر واليقظة ونحوهن من الصفات التي تمكنت منهم لظروفهم الاجتماعية، ولم يكن يتسنى لهم أن يكونوا صعاليك بدونها.

إن الجانب الاجتماعي في خلق الصعاليك ؛ قد جعل لهم طابعاً معيناً، ومنهجاً متميزاً، فاتخذوا في صلاتهم وصدقاتهم الشخصية اتجاهاً معيناً، من حيث الصفات التي يرونها لازمة فيمن تروق لهم الصلة به، ومن حيث سلوكهم هم نحو من تربطهم به صلة شخصية، حيث كانت نفوسهم تتميز بطابع خلقي ممتاز بنبلة وسموه، في عفتها عما من شأنه أن يكون حطة خلقية، أو سبة اجتماعية، وخاصة فيما يتعلق بالأعراض.

ويظهر ذلك في خلو شعرهم - إلا من النادر - من الغزل الصريح، بل إن أبيات الشنفرى وهو يتحدث عن مثال الجمال الأنثوي، صفة خلقية وهو أمر نادر في الشعر العربي القديم، حين فطن إلى الجمال المعنوي فيقول:

أُمِيمَةٌ لَا يُخْزِي نَثَاهَا حَلِيلُهَا إِذَا ذُكِرَ النِّسْوَانُ عَقَّتْ وَجَلَّتْ
(يَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالْمَلَامَةِ حُلَّتْ
لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي لَا سَقُوطُ قِنَاؤُهَا إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بِذَاتٍ تَلْفُتْ
كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نَسِيًّا تَقْضُهُ إِذَا مَا مَشَتْ وَإِنْ تُحَدِّثُكَ تَبْلُتْ

فصاحبته وقور خجول، لا يسقط قناعها أثناء سيرها، ولا تلتفت حولها، وقد حصنت بيتها عن كل مذمة ولوم، وهي لا ترفع رأسها في سيرها، خجلاً وحياء، كمن يبحث عن شيء ضاع منه، وإن الحديث العطر عنها في العشيرة ليملاً زوجها زهواً وخيلاء، فهي مثال العفة والجلاء.

كذلك يظهر عند عروة بن الورد هذا الغرض في وصفه لجارته، حيث يقول:
وَإِنْ جَارَتِي أَلَوْتُ رِيَاخَ بَيْتِهَا تَعَاَفَلْتُ، حَتَّى يَنْشُرَ الْبَيْتَ جَانِبُهُ
فهو يصف نفسه بالعفة، وايتها أنه يغض الطرف عن جارته، إذا حملت الرياح بيتها، إلى أن يحجبها الفناء عن أنظاره.

كذلك يظهر الطابع الاشتراكي في شعرهم، حيث لمع هذا الخلق الأصيل بينهم في العصر الجاهلي بين ظلمات ظلم اجتماعي حالك، وفي مجتمع كان من هذه الزاوية بالذات كالسمك يأكل كبيره صغيره، حتى أن الذي يشذ بمظهر فردي من مظاهر التعاون والتعاطف الاجتماعي، كان ينظر إليه بعين الإكبار والإعجاب، لغرابة سلوكه بالقياس إلى الوضع العام في المجتمع، ولكن الصعاليك كانوا في هذا الميدان يمثلون غرة في مجتمعاتهم، ولكن هذه الغرة لم يقدر لها اللمعان والبروز لظروف أحاطت بالصعاليك، وهذه الجوانب على انحسارها تبرز الإطار العام لوضعهم في المجتمع، وتشمل أهم النواحي التي تربط فرداً أو طائفة بمجتمعه.

وبفضل هذه النواحي نبغ جماعة من الشعراء تحللوا من العقد الفني الذي كان شعراء القبائل ملتزمين به، فاختلف من شعرهم الإحساس بالشخصية القبلية، وأصبح تعبيراً عن شخصياتهم الفردية، المبالغة في فرديتها، المتطرفة في الإحساس بها، وتعبيراً لحياتهم الثورية المتمردة بكل ما تنطوي عليه من خير وشر، وما يدور فيها من صراع رهيب بين الطبقات، وكفاح مرير في سبيل الحياة، وما يتردد من دعوة للتخلص من العنصرية الطبقية، وإعادة للتوازن والعدالة والحرية والإنسانية، فجاء شعرهم صورة

جديدة ولونا متميزاً بين الشعر الجاهلي في أفكاره، ومعانيه وطرائفه في التعبير والتصوير.

أخبار الصعاليك في المجتمع الجاهلي:

حين نرجع إلى أخبار هؤلاء الصعاليك نجدها حافلة بالحديث عن فقرهم، فكل الصعاليك فقراء، لا نستثنى منهم أحداً، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذي كانوا يلجئون إليه كلما قست عليهم الحياة ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا، فالرواة يذكرون أنه " كان صعلوكاً فقيراً مثلهم ".

وهذا الفقر الذي استبد بحياة الصعاليك حمل لهم في ركابه الجوع، نتيجة طبيعة له، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير.

ويكثر الحديث عن الجوع في أخبار الصعاليك وشعرهم، وفي لامية العرب صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذي يشعر به الصعلوك ولكن نفسه الأبية تأبى عليه أن يهينها من أجله، فلا يجد أمامه سوى الصبر والقناعة.

وإذا كان الجوع أقسى ما يصبه الفقر من سياط على جسد الفقير فإن هناك سياطاً أخرى لا تقل قسوة عن سياط الجوع، ولكنها سياط نفسية يصبها الفقر على نفس الفقير. يفسرها علماء النفس المحدثون على أساس ما يسمونه بالعقد النفسية ومن بين هذه العقد عقدة يسمونها عقدة الفقر.

والم تأمل في أخبار الصعاليك وأشعارهم يلفت نظره شعور حاد بالفقر وإحساس مرير يوقعه على نفوسهم، وشكوى من هواء منزلتهم الاجتماعية وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم.

وينظر هؤلاء الفقراء الجياع المنبوذون من إخوانهم في الإنسانية إلى الحياة وقد جردوا من كل وسائلها المشروعة، فلا يجدون أمامهم إلا أمرين:

إما أن يقبلوا هذه الحياة المهينة التي يحيونها على هامش المجتمع في أطرافه البعيدة، يخدمون الأغنياء، وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية، ينتزعون لقمة العيش من أيدي من حرموهم منها، دون أن يبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة، فالحق للقوة، والغاية تبرر الوسيلة.

وقد انقسموا إلى طائفتين: طائفة قبلت ذلك الوضع الاجتماعي الذليل وطائفة رفضته، وأبت أن تعيش تلك الحياة المهينة، ووجدت في القوة وسيلة تشق بها طريقها في الحياة.

والصعاليك برغم فقرهم وما يلاقونه من مجتمعهم كرماء، حتى ليضرب بهم المثل في الكرم ويقرن عروة بحاتم الطائي الذي يعد في نظر العرب المثل الأعلى للوجود والسخاء، بل إن الرغبة في الكرم التي كانت تملأ على عروة نفسه كانت بعض الدوافع التي دفعته إلى تلك الثورة الاقتصادية التي أعلنها في المجتمع الجاهلي:

يُريحُ عَلَى الليل أَضيافَ ماجِدٍ كَرِيمٍ، وَمَالِي سَارِحاً مَالٌ مُقْتَرِرٍ
أَيْهَلُكَ مُعْتَمٌ وَزَيْدٌ وَلَمْ أَقْمِ عَلَى نَدَبٍ يَوْمًا وَلِي نَفْسٌ مُخْطِرِ

كذلك تفيض أخبارهم وأشعارهم بأحاديث القوة مثل ما يصرح به الشنفرى بأنه يقدم في شجاعة وجراءة حيث يقف الجبان هلعاً جزوعاً:

إذا خشعت نفس الجبان وخيمت فلي حيث يخشى أن يجاوز مخسف

الظواهر الفنية في شعر الصعاليك:

شكلت حركة الصعاليك الشعرية أول حركة تمرد في تاريخ الشعر العربي، إذ شق هؤلاء الصعاليك عصا الطاعة وخرجوا على الإجماع الشعري الجاهلي.

ولم يكن شعرهم الصادر من موقفهم الراض لطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في القبيلة الجاهلية، قد تغير في الموضوع وفي المضمون، على حين جاء تغييرهم الفني جزئياً ضئيلاً باستثناء قليل من الدمثة اللغوية التي اصطنعها بعضهم اصطناعاً ليدنوا بها من روح الأفراد التي يريدون تحريكها في اتجاه الغضب الاجتماعي على وضعية الفوارق التي يثجج بها مجتمعهم القبلي، وحين نقول: إن شعر الصعاليك كان تمرداً مضمونياً لا تمرداً فنياً، فلسنا بذلك نقطع بأن شعرهم كان هشاً أو رديئاً على المستوى الفني السائد أو أنهم لم يخلفوا لنا شعراً ذا قيمة عالية في تاريخ الشعر العربي، فبيهم الشنفرى صاحب لامية العرب، وإنما نقصد أن هذا الشعر لم يمثل انعطافه فنية شكلية أساسية في مجرة الشعر العربي، وأن اختلافه عن الشعر السائد اختلاف جزئي بسيط.

على أن الإنصاف يقتضي أن نؤكد أن التقييم الدقيق لأية حركة شعرية، إنما يتأتى من حسابان السياق العام (التاريخي) الذي وجدت فيه هذه الحركة الشعرية، فليس التجديد أو الجمود ثابتاً على كل مكان وزمان.

إن الاعتداد بذلك السياق العام يجعلنا نرى أن حركة الصعاليك الشعرية لم يكن في وسعها أن تكون أبعد مدى في التمرد الفني عما كانت عليه، وذلك لأنها جاءت في فترة مبكرة من ولادة الشعر العربي، تلك الولادة التي يقدرها المؤرخون بنحو قرنين قبل الإسلام، فلم يكن خلف شعر الحركة الصعلوكية امتداد من التراث الشعري والخبرة الفنية والجمالية التي يمكن الانطلاق منها والتأسيس عليها في التجديد الفني، أو الإضافة إليها إضافة جديدة فجاءوا في غمار أول موجة من موجات الشعر العربي.

إلا أننا يمكننا أن نرصد بعض الظواهر الفنية في شعر الصعاليك والتي أبرزها:

١- شعر المقطوعات:

أول ما يلفت النظر في شعر الصعاليك ذبوع المقطوعة أكثر من ذبوع القصيدة " إذا استثنينا تائية الشنفرى المفضلية ذات الأبيات الأربعة والثلاثين فى بعض المصادر، ولامية عمرو ذي الكلب الهزلي ذات الثلاثين بيتاً، ورائية عروة بن الورد المشهورة، وفائه صخر الغي الهذلي، وكل منهما في سبعة وعشرين بيتاً، ثم تلك الأبيات المفردة لتأبط شراً في رثاء الشنفرى التي جمعها ناشر ديوان الشنفرى وتألفت منها قصيدة في سبعة وعشرين بيتاً، وقافية تأبط شراً المفضلية ذات الأبيات الستة والعشرين، وبائية الأعلام، وميمية أبي خراش، وكلتاهما في أربعة وعشرين بيتاً، ودالية صخر الغي ذات الأبيات الثلاثة والعشرين، إذا استثنينا هذه القصائد التسع، واستثنينا معها تلك المجموعة القليلة من القصائد الطويلة التي قيلت في أغراض عامة، فإننا نجد أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات التي يتراوح عدد أبيات الواحدة منها بين البيتين والسبعة.

ولعل مرجع كثرة المقطوعات يرجع إلى طبيعة حياتهم، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده، وإعادة النظر فيه، كما كان يفعل الشعراء القليلون.

وإما أن نفترض أن مجموعة شعر الصعاليك التي بين أيدينا ناقصة لا من حيث عدد قصائدها ومقطوعاتها فحسب، ولكن من حيث عدد أبياتها أيضاً، وهو فرض له إغراؤه لأنه مريح من ناحية، ولأنه يتفق مع ما يذكره مؤرخو الأدب العربي من ضياع أكثر الشعر الجاهلي من ناحية ثانية، ولأنه - من ناحية ثالثة - مقبول فى مثل حالة

الشعراء الصعاليك الذين رأينا أن قبائلهم لم تكن تحرص على شعرهم، وحتى لو حرصت عليه فليست السبيل إليه ميسرة لهم.

٢- الوحدة الموضوعية:

وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعه، تلك القصائد التي تبدأ عادة بمقدمة طلبية، ثم تظل تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهايتها، أما مجموعة شعر الصعاليك فلا تكاد تخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاتها وأكثر قصائدها، سواء ما كان منها في وصف المغامرات، أو الحديث عن سرعة العدو، أو الفرار، أو تقرير فكرة اجتماعية، أو اقتصادية، أو غير ذلك من موضوعات شعر الصعاليك، فلا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لها، المعبرة عنها، فالقصيدة وإن تعددت أغراضها إلا أنها ترجع إلى أصل موضوعي واحد تتفرع منه، فليس التعدد هنا تعدداً في الموضوع، وإنما هو تفرع في أغراض الموضوع.

٣- التلخيص من المقدمات الطلبية:

اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً أو استعاضوا به عن هذه المقدمات، وهو مذهب جعلوا محوره " حواء الخالدة " ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين، تلك التي يبكي الشاعر أيامه معها ويقف على أطال ديارها، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها، والتي تدعو دائماً إلى المحافظة على حياته.

٤- التحلل من الشخصية القبلية:

فظاهرة الصعلكة ناتجة عن فقد التوافق الاجتماعي بين الصعاليك وقبائلهم مما ترتب عليه فقد الإحساس بالعصبية القبلية في نفوسهم. ومن الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصبية القبلية.

فالشاعر الصعلوك لا يكون لسان عشيرته، لأن ما بينه وبين عشيرته قد انقطع، ولا يكون شعره: " صحيفة قبيلته "، وإنما يصبح شعره صورة صادقة من حياته هو يسجل فيه كل ما يدور فيها، ويصبح ضمير الفرد " أنا " أداة التعبير فيه بدلاً من ضمير الجماعة " نحن " الذي هو أداة التعبير في الشعر القبلي.

بمعنى أننا حين نتأمل شعرهم في جملته نجد أنهم لا يقصدون قصداً واضحاً إلى الحديث في غرض معين أو التركيز في موضوع خاص، وإنما الغرض المقصود نجده دائماً ينتهي إلى شيء واحد، وهو شخصية الصعلوك نفسها وحياته، فقد يتحدث

الصعلوك مثلاً عن الفقر، وقد يتحدث عن السلاح، وقد يتحدث عن الوحوش، وقد يتحدث عن الناس، ولكننا نحس أنه لا يتحدث عن شيء من ذلك لذاته، فلا يتحدث عن الفقر من حيث وصف آثاره وملامسته لذاته، وإنما يتحدث عنه من زاويته هو، وعن موقفه منه وتأثره به، ويتحدث عن البيئة مثلاً، فيصف ليلة شديدة البرد، أو يوماً شديداً الحر أو وحوشاً وإنما يتحدث عن مثل هذه الأشياء من رؤيته هو، ومن حيث ارتباطه في مزاوله الصعلكة وتأثره به.

٥- القصصية:

لأن شعر الصعاليك صورة صادقة من حياة أصحابه، فهو شعر قصصي يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي.

بل إننا يمكننا القول إن الشعراء الصعاليك قد وضعوا أسساً كثيرة لما يمكن تسميته مبادئ القصص الشعري، وقد وصلت النزعة إلى درجة تقرب من القصة القصيرة بكل مقوماتها الفنية التي يسمح بها الشعر، ونجد هذا كثيراً في قصائد شعر الهزليين، والذي يدل على أن اتجاه صعاليك الجاهلية للقصة كان اتجاهاً أصيلاً بل ومقصوداً، إننا نجدهم لم يكتفوا بهذا الوصف الذي يمكن أن يقال عنه أنه تصوير لهم، يمكن أن نجده في شعر غيرهم كوصف المعارك والرحلات ومتابعة أحداثها ونحو ذلك، بل اتجهوا إلى التخيل في القصة بتركيز أحداث أو قصص متخيلة وذكر الأحداث القصصية بطريق مهما يكن له مدلولات، فإن من بين هذه المدلولات النزعة القصصية، أعني الميل إلى القصص، الصورة الخيالية التي توهمها تأبط شراً في محادثته مع الغول، ووصفه إياها، ثم قتله إياها، وقد كان تصويره لهذا في شعره مؤيداً لنزعة القصص حيث كان التصوير والوصف والمحاورة في مستوى يقربها من نطاق القصة.

٦- الواقعية:

ومن مظاهر هذه الواقعية اتخاذهم الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضوعاتهم وبعدهم عن الإمعان في الحياة، فقد صور الشعراء الصعاليك في فهم البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها: الصحراء بشعابها وجبالها وأغوارها ولياليها المظلمة الرهيبة، وحيوانها الشارد، ووحوشها وحشراتهما.

ومظاهر الطبيعة كما شاهدها: طلوع الفجر، وغروب الشمس، والحياة الواقعية التي يحبونها بكل ما فيها من كرم ومروءة، وعطف على الفقراء والمرضى والسلب والنهب وسفك الدماء والشجاعة والبطولة والمغامرة.

والتفنن في تصوير الأسلحة والاعتزاز الشديد بها، والحديث عن أنواع كثيرة منها كالسيف الذي كان العربي يحرص على حمله واستعماله، والسهم والقوس وهو من ألزم الأسلحة للصعاليك بحكم حياتهم التي تعتمد على أسلوب الترصد، والرمح وإن لم يكن حديثهم عنه مستفيضاً ولا مطبوعاً بالاهتمام.

أشهر الشعراء الصعاليك:

١- عروة بن الورد - أبو الصعاليك: عروة بن الورد بن زيد العبسي (توفي ٣٠ ق.هـ/٥٩٤ م)، شاعر من غطفان من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد. كان يسرق ليطعم الفقراء ويحسن إليهم. وكان يلقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزى.

قال معاوية بن أبي سفيان: «لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم». وقال الحطيئة في جوابه على سؤال عمر بن الخطاب كيف كانت حروبكم؟ قال: «كنا نأتم في الحرب بشعره». قال عبدالملك بن مروان: «من قال إن حاتماً أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد».

وفي الأغاني من خبره: «كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سني شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم، ومن قوي منهم -إما مريض يبرأ من مرضه، أو ضعيف تثوب قوته- خرج به معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سمي عروة الصعاليك.

٢- السليك بن السلكة - من صعاليك العصر الجاهلي: السليك بن عمير بن يثربي بن سنان السعدي التميمي أحد شعراء العصر الجاهلي الصعاليك، توفي عام ١٧ ق.هـ/ ٦٠٥ م (تقديراً). أحد شعراء العصر الجاهلي.

نسبة إلى أمه "السلكة" وهي عبدة سوداء ورث منها سواد اللون. وأمّه شاعرة متمكنة وقد رثته بمرثية حسنة. كأبي صعلوك آخر، كان فاتكاً عداء يضرب المثل فيه لسرعة عدوه حتى أن الخيل لا تلحقه لسرعته وكان يضرب فيه المثل فيقال «أعدى من السليك»، لقب بالربئال. له وقائع وأخبار كثيرة ولم يكن يغير على مُضَر وإنما يغير على اليمن فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة.

وجاء من أخباره في الأغاني «وكان السليك من أشد رجال العرب وأنكرهم وأشعرهم. وكانت العرب تدعوه سليك المقانِب وكان أدل الناس بالأرض، وأعلمهم بمسالكها» وكان يقول: «اللهم إنك تهبي ما شئت لما شئت إذا شئت، اللهم إني لو كنت ضعيفاً كنت عبداً، ولو كنت امرأة أمة، اللهم إني أعوذ بك من الخيبة، فأما الهيبة فلا هيبة».

قتله أسد بن مدرك الخثعمي، وقيل: يزيد بن رويم الذهلي الشيباني.

٣- تأبط شراً - من صعاليك العصر الجاهلي: هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثل بن عدي بن كعب بن حزن.

وقيل: حرب بن تميم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار. وأمّه امرأة يقال لها: أميمة، يقال: إنها من بني القين بطن من، فهم ولدت خمسة: تأبط شراً، وريش بلغب، وريش نسر، وكعب جدر، ولا بواكي له ٠٠ وقيل: إنها ولدت سادساً اسمه عمرو.

وتأبط شراً لقب لقب به، ذكر الرواة أنه كان رأى كبشاً في الصحراء، فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول عليه طول طريقه، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش فلم يقله فرمى به فإذا هو الغول.

فقال له قومه: ما تأبطت يا ثابت؟ قال: الغول، قالوا: لقد تأبطت شراً فسمي بذلك.

وقيل: بل قالت له أمه: كل إخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك.

فقال لها: سأتيك الليلة بشيء، ومضى فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ما قدر عليه.

فلما راح أتى بهن في جراب متأبطاً له فألقاه بين يديها ففتحته فتساعين في بيتها فوثبت، وخرجت فقال لها نساء الحي: ماذا أتاك به ثابت؟

فقلت: أتانى بأفاع في جراب

قلن: وكيف حملها؟ قالت: تأبطها، قلن: لقد تأبط شراً فلزمه تأبط شراً.

وحدث علي بن الحسن بن عبد الأعلى عن أبي محلم بمثل هذه الحكاية وزاد فيها:

أن أمه قالت له في زمن الكمأة: ألا ترى غلمان الحي يجتنون لأهلهم الكمأة فيروحون بها؟

فقال أعطيني جرابك، حتى أجتني لك فيه فأعطته فملأه لها أفاعي وذكر باقي الخبر مثل ما تقدم.

٤- أبو النشاش النهشلي - من صعاليك العصر الأموي: كان يعترض القوافل فيسلبها حمولتها ويوزع ما يحصل عليه على المحتاجين وكثيراً ما ذم الفقر في شعره ووصف حياة التشرد.

٥- الأحيمر السعدي - من شعراء الصعاليك في العصر الأموي: هو الأحيمر بن حارث بن يزيد السعدي التميمي.

كان لصاً فاتكاً، مارداً، من أهل بادية الشام، أتى العراق فقطع الطريق وطلبه أمير البصرة سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ففر فأهدر دمه، وتبرأ منه قومه.

وطال ذلك عليه ثم تاب وعاد إلى الشام.

لقد كره بني البشر اجمعين وحقد على واقعه الاجتماعي المزري ورفضه الطلب من لئام الناس لأن خيرات الله تملأ الدنيا وليس على المرء سوى اخذها بالقوة.

الشنفرى أبرز شعراء الصعاليك

الشنفرى شاعر وأديب جاهلى، يُعد من كبار صعاليك العرب، بل عده بعض الكتاب من المظلومين اجتماعياً، قَتَلَ في سبيل البحث عن نسبه والثأر لأبيه تسع وتسعين رجلاً في حياته، وأكمل تمام المائة بعد موته، فحياته كانت مليئة بالإثارة.

المبحث الأول: اسمه ونسبه:

في الحقيقة أنه لم يختلف أحداً في أزدية الشنفرى، فنسبه ثابت في قبيلة الأزد، فقد قال بذلك كل من تطرق إلى ذكر الشنفرى قديماً وحديثاً، ولكن الاختلاف فيه هو: من أي بطون الأزد هو؟

فقد انقسم الباحثون في ذلك إلى ثلاث فئات:

أ - من يقول أنه من بني سلامان بن مفرج.

ب - من يقول أنه من زهران بن كعب.

ج - من يقول أنه من الحجر بن الهنؤ.

وقبل أن نبدي رأينا في نسب الشنفرى لابد من الإطلاع على أقوال الباحثين والعلماء في الماضي والحاضر حتى لا نرمي بالكلام على عواهنه، وأفضل أن نعرض أقوال الباحثين المعاصرين ونرى ما توصلوا إليه في نسب الشنفرى:

١ - يقول حمد الجاسر في كتابه (في سراة غامد وزهران): الشنفرى هو من بني الحارث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.

٢ - يقول عمر بن غرامة العمري في كتابه (قبائل إقليم عسير): الشنفرى هو ثابت بن مالك بن الحارث بن الأواس بن ربيعة بن نصر بن شهر بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.

٣ - يقول د / محمد بن مسفر الزهراني في كتابه (زهران في ماضيها وحاضرها): من بني سلامان كان الشنفرى الفاتك العداء المشهور في الجاهلية.

٤ - يقول د/ يوسف خليف في كتابه (الشعراء الصعاليك): الشنفرى من الأواس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.

- ٥- يقول د/ شوقي ضيف في كتابه (العصر الجاهلي): الشنفرى من عشيرة الأواس بن الحجر الأزدية اليمنية.
 - ٦- يقول سعيد الأسمرى في كتابه (تاريخ رجال الحجر): يعود نسب الشنفرى إلى قبيلة الأواس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.
 - ٧- يقول فائز العميري في كتابه (الوجيز في تاريخ بني شهر): إن الشنفرى من الأواس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.
 - ٨- يقول قينان بن جمعان الزهراني في كتابه (دراسة شاملة عن زهران): الشنفرى هو ثابت بن أوس الأزدي من بطن مالك بن زهران.
 - ٩- يقول الألوسي في كتابه (بلوغ الأرب): إن الشنفرى من بني الحارث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.
 - ١٠- يقول د/ محمد بن ظافر بن عساف الشهري في (مقالة في مجلة العرب): الشنفرى من بني الحارث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.
 - ١١- يقول محمد بن عوضه الأسمرى في كتابه (الأواس بن الحجر): الشنفرى هو عمرو بن مالك بن الأواس بن ربيعة بن نصر بن شهر بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.
 - ١٢- يقول علي بن محمد بن سدران الزهراني في كتابه (التبيان في أنساب زهران): الشنفرى من أبناء الأواس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.
 - ١٣- يقول علي العسبلي وظافر بن حبيب في كتاب (النماص مسيرة التعليم والتنمية): هو من بني الحارث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد.
- يتضح لنا أيضاً من أقوال العلماء القدامى أن نسب الشنفرى يعود إلى بني الأوس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد، وهذا قول ابن حبيب البغدادي والأصفهاني والحموي، بينما ابن حزم الأندلسي والعوتبي نسبوا الشنفرى إلى سلامان بن مفرج، والقول الثاني هو الذي اعتمدا عليه الأستاذين / محمد بن مسفر وقينان بن جمعان، خصوصاً أن ابن حزم رحمه الله يعد سلامان بطن من زهران، مع أن ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ عندما ذكر نسب سلامان لم يذكر الشنفرى منهم، وأعتقد أن ابن حزم والعوتبي عندما نسبوا الشنفرى إلى سلامان يقصدان أنه حليفاً لهم لأنه عاش معهم أغلب حياته وتزوج منهم، ومهما يكن فقد حسم الشنفرى النزاع في نسبه وأعلن في بيت من الشعر أنه

ينتمي إلى الحجر بن الهنؤ في قوله:

أنا ابن خيار الحُجْر بيتاً ومنصباً وأمي ابنة الأحرار لو تعرّفينها

وفي رواية أخرى يؤكد أنه من الأوس بن الحجر:

أليس أبي خير الأواس وغيرها وأمي ابنة الخَيْرين لو تعلمينها

لذلك نرجّح أقوال العلماء القدامى والمعاصرين الذين ينسبون فيها الشنفرى إلى الأوس بن الحجر بن الهنؤ بن الأزد، وكل قول غير ذلك يعتبر ضعيف لا يثبت أمام الأدلة الدامغة المذكورة سابقاً، وخير من قام بتحقيق نسب الشنفرى تحقيقاً علمياً شافياً وافياً هو الأستاذ / علي بن محمد بن سدران الزهراني في كتابه القيم "التبيان في أنساب زهران"

المبحث الثاني: ما هو سبب الاختلاف في نسب الشنفرى؟

من يطلع على سيرة الشنفرى في كتب التاريخ والأدب قد يعذر الباحثين في هذا الاختلاف، فقد عاش الشنفرى حياة الصعلكة التي يغلب عليها الغزو والنهب والسلب واليتم والتشرد، فعاش فترات من حياته متشتتاً بين قبائل فهم بن عمرو بن قيس عيلان، والحجر، وسلامان، ورافق الصعاليك في الفلالي والقفار، وكان يخط السراة وتهامة عرضاً وطولاً

المبحث الثالث: ضبط اسمه:

مازال الكثيرون يكتبونه وينطقونه بالياء "الشنفري" والصحيح أن اسمه يكتب بالشين المفتوحة المشددة وبالألف المقصورة في الآخر "الشنفرى"، ويخطئ من يقرأ آخره ياء: (الشنفرى).

المبحث الرابع: لقبه وسبب تلقيه بهذا اللقب؟

قال بعضهم: أن الشنفرى لقب له وهو يعني الغليظ الشفتين، وأن الشاعر لقب بذلك لعظم شفثيه.

المبحث الخامس: تاريخ مولده ومكانها:

لا نجد في مصادر ترجمته تاريخاً محدداً أو تقريباً لتاريخ ولادته ولا لمكانها ولا تعييناً دقيقاً لوالده أو لوالدته ونشأته فقد اختلف الرواة فيها إلى ثلاث أقوال:

- إذ قال بعضهم أنه نشأ في قوم الأزد ثم أغاظوه فهجرهم.

• وقال آخرون إن بني سلامان أسروه صغيراً فنشأ فيهم يطلب النجاة حتى هرب ثم انتقم منهم.

• وقالت فته ثالثة: أنه ولد في بني سلامان فنشأ بينهم وهو لا يعلم أنه من غيرهم حتى قال يوماً لابنة مولاه: اغسلي رأسي يا خية، فأغضها أن يدعوها بأختها فلطمته فسأل عن سبب ذلك فأخبر بالحقيقة فأضمر الشر لبني سلامان وحلف أن يقتل منهم مائة رجل وفعل.

المبحث السادس: صفاته الخلقية:

اختلف الأدباء والباحثون في لون بشرة الشنفرى على أقوال: فمنهم من يرى أنه أسود البشرة، ومنهم من يرى أنه أبيض؛ استناداً على عدة أدلة تؤكد أن الشنفرى كان أبيض اللون، وقد رجح الدكتور ريمان الحجري في ليس من أغربة العرب، والغريب والعجيب أن دهاقنة العربية مازالوا يصنفونه ضمن أغربة العرب وبين يديهم بيته المشهور:

أنا ابن خيار الحجر بيتاً ومنصباً وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها

المبحث السابع: صفاته الخلقية:

الشنفرى أحد صعاليك العرب وأشهر شعرائهم، لم يكن صعلوكاً في باديء أمره؛ لكنه عاش في مجتمع ظالم دفعه إلى مسلك الصعلكة، فأخذ يبحث عن نسبه ويثار لأبيه.

كان الشنفرى أديباً وفارساً شجاعاً... وقد عُرف عنه أنه من العدائين الذين لا تدركهم الخيل.

المبحث الثامن: سبب تصعلك الشنفرى:

اختلفت الروايات في سبب تصعلك الشنفرى فقد ذكر صاحب كتاب "الأغاني" ثلاث روايات:

• إحداها عن أبي هاشم محمد بن هاشم النمري وفيها: أن الشنفرى أسرته بنو شبابه بن فهم فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج من الأزد رجلاً من بني شبابه ففدته بنو شبابه بالشنفرى فنشأ في بني سلامان.

• أما الرواية الثانية فعن مجهول وتقول: أن الأزد قتلت الحارث بن السائب الفهمي فأبوا أن يبوؤوا بقتله فباء بقتله رجل منهم فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم.

• أما الرواية الثالثة جاء فيها أن بني سلامان سبت الشنفرى وهو غلام فجعله الذي سباه في بهمه يربعاها مع ابنه له فلما خلا بها ذهب ليقبلها فصكت وجهه ثم أخبرت أباها فخرج إليه ليقبله فوجده ينشد أبياتاً يأسف فيها، فسأله الرجل عن نسبه فقال الشنفرى: أنا أخو بني الحارث بن ربيعة، فقال أبوها: لولا أنني أخاف أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك بنتي، فقال له: عليّ إن قتلوك أن أقتل بك مائة رجل منهم، فأنكحه ابنته وخلقى سبيله فشدت بنو سلامان على الرجل فقتلوا أبوها ثم أخذ يوفي بوعدة فيغزو بني سلامان ويقتلهم.

ومهما تكن الروايات المختلفة فإنه من الثابت أن الشنفرى نشأ مع بعض رفاقه العدائين ومنهم تأبط شراً والسيلك بن السلكه وعمرو بن البراق وأسيد بن جابر وهم عصابة عُرفت في الأدب بالشعراء الصعاليك.

المبحث التاسع: وفاة الشنفرى وسببها:

توفي مقتولاً عام ٥٢٥ م تقريباً وسبب قتل الشنفرى أنه عندما قُتل والده رحلت به أمه صغيراً من بلاد الحجر إلى بلاد أخواله فهم، ثم بعد حين أعادوه بنو فهم في تبادل أسرى إلى سلامان أحد بطون الأزد، وعاش في سلامان وتزوج منهم، فقتلت سلامان عمه أبو زوجته فاشتعلت النار بينه وبين سلامان فقتل منهم الكثير حتى كانت نهايته على يد أسيد بن جابر السلاماني.

كيف قُتل الشنفرى؟

نقل الرواة عن مقتل الشنفرى روايتين:

• تقول الرواية الأولى أن بني سلامان هم الذين قتلوه بعد أن قتل منهم خلقاً كثيراً، قتلوه بمساعدة أسيد بن جابر أحد العدائين.

• وفي الثانية: أنه غزا بني سلامان فجعل يقتلهم ويعرفون نبله بأفواقيها في قتلاه حتى قتل تسعة وتسعين رجلاً ونحن نعلم أنه حلف أن يقتل منهم مائة رجل، المهم ثم غزاهم غزوة فنذروا به فخرج هارباً، وخرجوا في أثره فمر بامرأة منهم يلتمس الماء

فعرفته فأطعمته إقطا ليزيد عطشه ثم استسقى فسقته رائبًا ثم غيب عنه الماء ثم خرج من عندها وجاءها القوم فأخبرتهم بخبره ووصفته لهم فعرفوه ورصدوه على ركي لهم، وهو من ركي ليس لهم ماء غيره، فلما جن عليه الليل أقبل إلى الماء فلما دنى منه قال: إني أراكم، وليس يرى أحد إنما يريد بذلك أن يخرج القوم وقد كانوا أجمعوا قبل أن يقتل منهم قتيل أن يمسكوه رصدًا، ثم صاح فسكتوا فلم يتحرك أحد، ورأى سوادًا إلى جنبه فرمى رجلًا فقتله، فلما رأى ذلك أمن في نفسه وأقبل إلى الركي وضع سلاحه ثم انحدر فيه فلم يرعه إلا يهيم على رأسه قد أخذوا سلاحه، ثم خرج إليهم فقتلوه وصلبوه فلبث عامًا أو عامين مصلوبًا وبقي عليه من نذره رجل قال: فجاء رجل منهم أي بني سلامان كان غائبًا عن تلك الأحداث فمر به وقد سقط فركل رأس الشنفري برجله فدخل فيها عظم من رأسه فهاجت عليه رجله فمات فكان هذا الرجل تمام المائة.

لامية العرب (أجمل آيات الشعر العربي)

منَ الحقائق التي حملها إلينا التاريخ، وسرت مسرى الأمثال، قولهم: "العرب أمة شاعرة". وكذلك قولهم: "الشعر ديوان العرب". ولا مبالغة في ذلك: فالشعر هو الذي حفظ تاريخهم، وأيامهم، ومسيرة حياتهم.

ولامية العرب مطولة شعرية من ثمانية وستين بيتًا على قافية اللام، نظمها الشاعر الجاهلي الشنفرى، وهو شاعر من شعراء الصعاليك المشهورين.

ولهذه القصيدة شهرة لا تقل عن شهرة المقامات، بل تفوقت عليها في جوانب كثيرة، واشتهرت بهذا الاسم أي مضافة إلى العرب؛ لأنها جديرة بهذه النسبة لما فيها من قيم إنسانية، وكثير من جوانب الحياة العربية في عفوية ومصداقية، وتصوير بارع لمشاعر النفس ودخائل التراث، زيادة على وفرة المادة اللغوية مما دفع كثيرًا من العلماء إلى شرحها وإعرابها.

سميت اللامية بهذا الاسم لأن قافيتها لام، وعرفت باسم "لامية العرب" تمييزًا لها عن غيرها من القصائد، وقد شرحها عدد كبير من الأقدمين منهم الزمخشري الذي أعطى عنوان شرحه "أعجب العجب في شرح لامية العرب" كما اهتم بها المستشرقون ونقلوها إلى الفرنسية، وروس الذي نقلها إلى الألمانية.

وهناك حديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ لَامِيَّةَ الْعَرَبِ؛ فَإِنَّهَا تَعَلِّمُهُمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" وهي خير مثال للشعر الجاهلي، فيها يعاتب الشاعر قومه ويفضل عليهم الوحوش البرية كما يستغني عن الجميع بقلبه وسيفه وقوسه، وفي القصيدة يصف صبره على الجوع وسبقه القطا إلى الماء كما يصف الليل المظلم والنهار الشديد الحر ويسرد مغامراته.

واهتم بها كثير من المستشرقين، وقد قال عنها أحدهم "هي من أجمل آيات الشعر العربي".

شروح لامية العرب

عني بهذه اللامية عدد من العلماء العرب والمسلمين فشرحها نحو أربعين عالمًا بينهم:

- المبرد (محمد بن يزيد) ت ٢٩١ هـ / ٩٤٠ م، وقد نشرت (لامية العرب) في استانبول ١٣٠٠ هـ.

- التبريزي (يحيى بن علي) ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م

- الزمخشري (جار الله) ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م. ونشر (أعجب العجب في شرح لامية العرب)، في استانبول سنة ١٣٠٠ هـ.

- وتولى العكبري (عبد الله بن الحسين) ٦١٦ هـ - ١٢١٩ م (إعراب لامية الشنفرى) وصدر الكتاب بتحقيق (محمد أديب عبد الواحد جمران) - بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

- (المنتخب في شرح لامية العرب) ليحيى بن أبي طي الحلبي المتوفى سنة ٦٣٠ هـ، ومنه نسخة في الأسكوريال، رقمها ٣١٤

- ولابن ايلجك التركي (محمد بن الحسن) شرح ألفه سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م توجد نسخة منه بخط المؤلف في مكتبة ايا صوفيا في استانبول رقمها ٣١٤٥.

- وللنحجواني (المؤيد بن عبد اللطيف) شرح الفه سنة ٩٨٣ هـ / ١٥٧٤ م منه نسخة في مكتبة ليدن بهولندا رقمها ٣/٢٧٥٨.

- وللفيومي (جاد الله) شرح وضعه سنة ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م منه نسخة في دار الكتب المصرية في القاهرة رقمها أدب ١٩٥.

- ولابن زاكور (محمد بن قاسم) المتوفى سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م شرح له عنوان طريف هو (تفريج الكرب عن قلوب أهل الأرب في معرفة لامية العرب) منه نسخة في مكتبة البلدية بالاسكندرية رقمها ٣٨٨٩.

- شرح للسويدي (عبد الله بن الحسين) المتوفى سنة ١١٧٤ هـ / ١٧٦١ م منه نسخة في مكتبة المتحف البريطاني في لندن (رقمها اضافات ٥٨٤/٢٣).

- وللمصري (عطا الله بن أحمد) (من القرن الثاني عشر الهجري) شرح عنوانه: (نهاية الأرب في شرح لامية العرب).

- وشرح "سكب الأدب على لامية العرب" للأديب الشاعر سليمان الشاوي.

والمضامين الفكرية الرئيسية للقصيدة، تتلخص فيما يأتي:

غضب الشاعر على قومه، وميله بعيداً عنهم.

تفضيله وحوش الحيوانات عليهم إذ وجد فيها ما لم يجده فيهم.

فخره بنفسه، وتعداد صفاته، واعتداده بصبره على الجوع.

وصف الذئاب والقطا.

حديثه عن ضياعه النفسي وهمومه، وصبره، وحالي فقره وغناه.

ترفعه عن النومة.

قوته وبطشه في الليلة الباردة.

جلده وصبره في شدة الحر.

سيره في القفار، ووصفه الوعول.

نص لامية العرب

(من بحر الطويل)

- ١- أَقِيمُوا بَيْنِي أُمِّي ضُذُورَ مَطِيَّكُمْ
 - ٢- فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقَمَّرٌ
 - ٣- وَفِي الْأَرْضِ مَنَآىَ لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَدَى
 - ٤- لَعَمْرُكَ مَا بِالْأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى امْرِئٍ
 - ٥- وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ: سَيِّدٌ عَمَلَسَ
 - ٦- هُمُ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ
 - ٧- وَكُلُّ أَبِيِّ بَاسِلٌ غَيْرَ أَنْنِي
 - ٨- وَإِنْ مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ
 - ٩- وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةٌ عَنْ تَفْضُلٍ
 - ١٠- وَإِنِّي كَفَانِي فَقَدْ مَنْ لَيْسَ جَارِيًا
 - ١١- ثَلَاثَةٌ أَصْحَابٍ: فُؤَادٌ مُشِيْعٌ
 - ١٢- هَتُوفٌ مِنَ الْمُلْسِ الْمُتُونِ تَزِينُهَا
 - ١٣- إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كَانُهَا
 - ١٤- وَأَعْدُو خَمِيصِ الْبَطْنِ لَا يَسْتَفِرُّنِي
 - ١٥- وَلَسْتُ بِمُهَيَّافٍ يُعَشِّي سَوَامَهُ
 - ١٦- وَلَا جُبًّا أَكْهَى مُرَبِّ بَعْزِهِ
 - ١٧- وَلَا خَرِقَ هَيِّقَ كَأَنَّ فُؤَادَهُ
 - ١٨- وَلَا خَالِفٍ دَارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ
 - ١٩- وَلَسْتُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ
 - ٢٠- وَلَسْتُ بِمُخَارِ الظَّلَامِ إِذَا انْتَحَتْ
 - ٢١- إِذَا الْأَمْعَرُ الصَّوَانُ لَاقَى مَنَاسِمِي
 - ٢٢- أَدِيمُ مَطَالِ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيْتُهُ
 - ٢٣- وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلًا يُرَى لَهُ
- فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سَوَاكُمْ لَأَمِيلُ
وَشَدْتُ لَطِيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلَى مُتَعَزِّلُ
سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهُوَ يَعْقِلُ
وَأَرْقَطُ زُهْلُولٍ وَعَرْفَاءَ جِيَالُ
لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُحْذِلُ
إِذَا عَرَضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ
بَأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَفَضِّلُ
بِحُسْنَى وَلَا فِي قُرْبِهِ مُتَعَلِّلُ
وَأَبْيَضُ إِضْلِيَّتٍ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ
رَصَائِعُ قَد نِيَطَتْ إِلَيْهَا وَمِحْمَلُ
مُرَرَّةٍ عَجَلَى تُرْنُ وَتُعْوِلُ
إِلَى الزَّادِ حِرْصٌ أَوْ فُؤَادٌ مُوَكَّلُ
مُجَدَّعَةٌ سُقْبَانُهَا وَهِيَ بُهْلُ
يُطَالِعُهَا فِي شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ
يَظَلُّ بِهِ الْمُكَّاءُ يَغْلُو وَيَسْفُلُ
يَزُوحُ وَيَغْدُو دَاهِنًا يَتَكَحَّلُ
أَلْفٌ إِذَا مَا رُغْتَهُ اهْتِاجٌ أَغْرَلُ
هُدَى الْهَوَجَلِ الْعَسِيفِ يَهْمَاءُ هَوَجَلُ
تَطَايَرَ مِنْهُ قَادِحٌ وَمُفْلَلُ
وَأَضْرَبَ عَنْهُ الذِّكْرُ صَفْحًا فَأَذْهَلُ
عَلَيَّ مِنَ الطُّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

يَعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكُلٌ
 عَلَى الذَّامِ إِلَّا رَيْثُمَا أَتَحَوَّلُ
 خُيُوطَةُ مَارِيٍّ تُعَارُ وَتُفْلُ
 أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ
 يَخُوتُ بِأَذْنَابِ الشَّعَابِ وَيُغَسِّلُ
 دَعَا فَأَجَابَتْهُ نَظَائِرُ نُحْلُ
 قِدَاحُ بِأَيْدِي يَاسِرٍ تَتَقَلَّقُلُ
 مَحَابِيضُ أَرْدَاهُنَّ سَامٍ مُعَسِّلُ
 شُقُوقُ الْعِصِيِّ كَالِحَاتٍ وَبُسْلُ
 وَإِيَاهُ نُوحٍ فَوْقَ عَلِيَاءِ تُكُلُ
 مَرَامِيْلُ عَزَاهَا وَعَزَّتُهُ مُزْمِلُ
 وَلَلْصَبْرُ إِنْ لَمْ يَنْتَفِعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ
 عَلَى نَكْظٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مُجْمِلُ
 سَرَتْ قَرَبًا أَخْنَاوَهَا تَتَصَلَّصُلُ
 وَشَمَرٌ مِثِّي فَارِطٌ مُتَمَهِّلُ
 يُبَاشِرُهُ مِنْهَا ذُقُونُ وَحَوْصَلُ
 أَضَامِيْمُ مِنْ سَفَرِ الْقَبَائِلِ نُزْلُ
 كَمَا ضَمَّ أَذْوَادُ الْأَصَارِيْمِ مِنْهَلُ
 مَعَ الصُّبْحِ رَكْبٌ مِنْ أَحَاطَةِ مُجْفِلُ
 بِأَهْدَأُ تُنْبِيهِ سَنَاسِنُ فُحْلُ
 كَعَابٌ دَحَاهَا لَاعِبٌ فَهْيَ مُثْلُ
 لَمَّا اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرَى قَبْلُ أَطْوَلُ
 عَقِيرَتُهُ لِأَيِّهَا حُمٌّ أَوَّلُ
 حَثَاثًا إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلَّغُلُ
 عِيَادًا كَحُمَى الرِّبْعِ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ

٢٤- وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الذَّامِ لَمْ يُلَفْ مَشْرَبٌ
 ٢٥- وَلَكِنْ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُ بِي
 ٢٦- وَأَطْوِي عَلَى الْخَمِصِ الْحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ
 ٢٧- وَأَعْدُو عَلَى الْقُوتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَدَا
 ٢٨- غَدَا طَاوِيًا يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِيًا
 ٢٩- فَلَمَّا لَوَاهُ الْقُوتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّهُ
 ٣٠- مُهَلَّلَةً شَيْبُ الْوُجُوهِ كَأَنَّهَا
 ٣١- أَوِ الْخَشْرَمِ الْمُبْعُوثُ حَثَّكَ دَبْرُهُ
 ٣٢- مُهَرَّتَةً فُوهَ كَأَنَّ شُدُوقَهَا
 ٣٣- فَضَجَّ وَضَجَّ بِالْبُرَاحِ كَأَنَّهَا
 ٣٤- وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ وَاتَّسَى وَاتَّسَتْ بِهِ
 ٣٥- شَكَا وَشَكَتْ ثُمَّ ارْغَوَى بَعْدُ وَارْغَوَتْ
 ٣٦- وَفَاءً وَفَاءَتْ بِإِدْرَاتٍ وَكُلُّهَا
 ٣٧- وَتَشْرَبُ أَسَارِي الْقَطَا الْكُدْرُ بَعْدَمَا
 ٣٨- هَمَمْتُ وَهَمَمْتُ وَابْتَدَرْنَا وَأَسْدَلْتُ
 ٣٩- فَوَلَّيْتُ عَنْهَا وَهِيَ تَكْبُو لِعَقْرِهِ
 ٤٠- كَأَنَّ وَغَاها حَجَرَتِيهِ وَحَوْلَهُ
 ٤١- تَوَافَيْنِ مِنْ شَتَّى إِلَيْهِ فَضَمَّهَا
 ٤٢- فَغَبَّ غِشَاشًا ثُمَّ مَرَّتْ كَأَنَّهَا
 ٤٣- وَالْفُ وَجْهَ الْأَرْضِ عِنْدَ اقْتِرَاشِهَا
 ٤٤- وَأَعْدِلُ مَنْحُوضًا كَأَنَّ فُضُوصَهُ
 ٤٥- فَإِنْ تَبَيَّسَ بِالشَّنْفَرَى أُمَّ قَسْطَلِ
 ٤٦- طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تِيَّاسَرْنَ لَحْمَهُ
 ٤٧- تَنَامُ إِذَا مَا نَامَ يَقْظَى غِيُونُهَا
 ٤٨- وَإِلْفُ هُمُومٍ مَا تَزَالُ تَعُودُهُ

٤٩- إِذَا وَرَدَتْ أَضْدَرْتُهَا ثُمَّ إِنَّهَا
 ٥٠- فَلَمَّا تَرَيْنِي كَابِنَةَ الرُّمْلِ ضَاحِيًا
 ٥١- فَإِنِّي لَمَوْلَى الصَّبْرِ أَجْتَابُ بَرَّه
 ٥٢- وَأَعْدِمُ أَحْيَانًا وَأَغْنَى وَإِنَّمَا
 ٥٣- فَلَا جَزَعٌ مِنْ خَلَّةٍ مُتَكَشِّفٍ
 ٥٤- وَلَا تَزْدَهِي الْأَجْهَالُ حِلْمِي وَلَا أَرَى
 ٥٥- وَلَيْلَةً نَحْسٍ يَضْطَلِي الْقَوْسَ رَبُّهَا
 ٥٦- دَعَسْتُ عَلَى غَطِّشٍ وَبَغِشٍ وَضَحَبْتِي
 ٥٧- فَأَيْمُتْ نِسْوَانًا وَأَيْتَمُتْ إِلْدَةً
 ٥٨- وَأَصْبَحَ عَنِّي بِالْغُمِصَاءِ جَالِسًا
 ٥٩- فَقَالُوا: لَقَدْ هَرَّتْ بَلِيلُ كِلَابِنَا
 ٦٠- فَلَمْ يَكْ إِلَّا نَبَأَةٌ ثُمَّ هَوَمَتْ
 ٦١- فَإِنْ يَكُ مِنْ جِنِّ لِأَبْرَحَ طَارِقًا
 ٦٢- وَيَوْمَ مِنَ الشَّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ
 ٦٣- نَضَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَلَا كِنَ دُونَهُ
 ٦٤- وَضَافٍ إِذَا طَارَتْ لَهُ الرِّيحُ طَيَّرَتْ
 ٦٥- بَعِيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ وَالْفَلْيِ عَهْدُهُ
 ٦٦- وَخَرَقَ كَظْهَرِ الثُّرَيْسِ قَفَرٍ قَطَعْتُهُ
 ٦٧- فَأَلْحَقْتُ أَوْلَاهُ بِأَخْرَاهُ مُوفِيًا
 ٦٨- تَرُودُ الْأَرَاوِي الضُّحْمُ حَوْلِي كَأَنَّهَا
 ٦٩- وَيَزُكُّدُنَ بِالْأَصَالِ حَوْلِي كَأَنِّي

تَثُوبُ فَتَأْتِي مِنْ تُحِيْتُ وَمِنْ عَلٍ
 عَلَى رِقَّةٍ أَخْفَى وَلَا أَتَنَعُلُ
 عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ وَالْحَزْمِ أَفْعُلُ
 يَنَالُ الْغِنَى ذُو الْبُعْدَةِ الْمُتَبَذَّلُ
 وَلَا مَرِحٌ تَحْتَ الْغِنَى أَتَحَيَّلُ
 سَوْوَلًا بِأَغْقَابِ الْأَقَاوِيلِ أَنْمِلُ
 وَأَقْطَعُهُ اللَّاتِي بِهَا يَتَبَلَّلُ
 سَعَارٌ وَإِزْزِيزٌ وَوَجَرٌ وَأَفْكَلُ
 وَعُدْتُ كَمَا أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلِيلُ
 فَرِيقَانِ: مَسْؤُولٌ وَآخِرُ يَسْأَلُ
 فَقُلْنَا: أَذِئْبُ عَسَّ أَمْ عَسَّ فُرْعُلُ
 فَقُلْنَا: قَطَاةٌ رِيْعٌ أَمْ رِيْعٌ أَجْدَلُ
 وَإِنْ يَكُ إِنْسَاءً مَا كَهَا الْإِنْسُ تَفْعُلُ
 أَفَاعِيهِ فِي رَمَضَائِهِ تَتَمَلَّلُ
 وَلَا سِشْرَ إِلَّا الْأَتْحَمِي الْمُرْعَبِلُ
 لِبَائِدٍ عَنْ أَعْطَافِهِ مَا تُرَجَّلُ
 لَهُ عَبَسَ عَافٍ مِنَ الْغُسْلِ مُحْوِلُ
 بِعَامِلَتَيْنِ، ظَهَرُهُ لَيْسَ يُعْمَلُ
 عَلَى قُنَّةٍ أَفْعِي مَرَارًا وَأُمَثَلُ
 عَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْمُلَاءُ الْمُذَيَّلُ
 مِنَ الْعُضْمِ أَذْفَى يَتَّحِي الْكِيحَ أَعْقَلُ

ترجمة المؤلف سليمان بك الشاوي

(... - ١٢٠٩ هـ = ... - ١٧٩٤ م)

اسمه ونسبه:

هو سليمان بن عبد الله بن شاوي الحميري: أديب، من شيوخ بادية العراق.

حياته:

ولد ونشأ في بغداد. وأقبل على الأدب، فنظم الشعر وكتب "سكب الأدب على
لامية العرب" مجلد في شرح اللامية، و"نظم قطر الندى" في النحو لابن هشام.
وكانت لأبيه إدارة العشائر في أطراف بغداد، وقتله أحد الولاة العثمانيين سنة
١١٨٣ هـ، فثار سليمان مع بعض إخوته في طلب الثأر لأبيهم، وقتل الوالي.
وأقيم سليمان (مديرًا للعشائر) مكان أبيه، ولجأ إليه ثائر على حكومة بغداد
(العثمانية) يدعى (عجم محمد) سنة ١٢٠٥ هـ، فطلبت حكومة بغداد منه وأمرته بإرساله
إليها مقيداً بالأغلال، فامتنع ابن شاوي أنفة من أن يقال: سلّم ضيفه.
قال المؤرخ ابن سند: لو فعلها لكان العرب يعدونه من قبيلة هثيم أو صليب هو
وذريته إلى أبد الأبد.

وأرسل والي بغداد (الوزير سليمان باشا أبو سعيد) جيشاً لإخضاع ابن شاوي،
فرحل هذا بضيفه، تاركاً أمواله وأثقاله، وأقام في الخابور، فطارده عساكر الوالي سنة
١٢٠٨ هـ فأوغل في البادية، فقتله محمد ابن يوسف الحربي من عشيرته.

وكان - كما يقول ابن سند - من أفراد الدهر عقلاً وحلماً وكرماً وشجاعة.
وله في رثائه قصيدة ضمنها ذكر كثيرين ممن قتلوا أو خلعوا من الأمراء والملوك،
على نسق قصيدة ابن عبدون الأندلسي في رثاء بني الألفطس.

وللشاعر محمد كاظم الأزري البغدادي مدائح فيه جمعت في "ديوان" مرتب على
الحروف.

وصف النسخة الخطية

اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب الطيب المبارك على مخطوطة محفوظة في خزانة المركز الوطني للمخطوطات تحت رقم (٣٠٢٤٣)، وهي تقع في (١٨٥) ورقة، وفي الصفحة (١٧) سطراً.

وهي نسخة جيدة، كُتبت بخط نسخ عادي وواضح. وعليها ختم العلامة محمود شكري الألوسي.

وجاء على طرة المخطوط:

هذه خلاصة ما في فنّ الأدب، كفاية في إيضاح دقائق معاني لامية العرب، مسبوكة في قالب الإفادة، من غير تعقيد ولا إحادة، نظم ألفاظه يحكي قلائد اللآلي، ونسج معانيه يروي عن معاهد المعالي، وما ذاك إلا أن الله تعالى صقل سجنجل مؤلفه لتطبع فيه صور المعارف السامية، ونور لوح ذهنه لينقش بحقائق العلوم العالية، شكر الله مساعيه، وأنال الله مباغيه وجعل ألسنة الناس بثنائه منطلقة، وأفئدة الطلبة بجواهره منطوقة.

حرره الفقير شريف زاده السيد محمد الحسيني النقيب سابقاً - عفي عنه - آمين.

عملنا في الكتاب

سار عملنا في الكتاب وفق المنهج التالي:

- ١- نسخ المخطوط نسخاً علمياً دقيقاً.
 - ٢- مطابقة النص ومراجعته.
 - ٣- ضبط المنظومة ضبطاً كاملاً بالشكل.
 - ٣- ضبط الشواهد الشعرية ضبطاً كاملاً بالشكل، وتخريج بحورها.
 - ٤- تخريج الآيات القرآنية وفق مواضعها من المصحف الشريف.
 - ٥- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة وفق مواضعها من كتب السنة النبوية المطهرة.
 - ٦- التعليق على المواضع التي تحتاج زيادة إيضاح، أو بسط مسألة، أو بيان مشكل.
 - ٧- عزو الشواهد الشعرية إلى مصادرها.
 - ٨- ترقيم النص حسب قواعد الترقيم الحديثة.
 - ٩- صنع مقدمة حول ظاهرة الصلقة في الأدب العربي وترجمة وافية للشنفرى ولاميته، وترجمة وافية للمؤلف.
 - ١٠- عمل فهرس تفصيلية لأبواب الكتاب.
- وأخيراً فهذا هو جهد المقل، والمرجو ممن يطلع على كتابنا فيجد فيه عيباً أن يبادرنا بالنصيحة، والتصويب، فكل معرض للخطأ، ولا كمال إلا لله سبحانه وتعالى.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.
- المحقق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَدَّبَ مِنْ اخْتَارَهُ بِأَدَبِهِ، وَوَفَّقَ لِلْحُسْنَى مَنْ أَرَادَ سَعَادَتَهُ فِي عَادَتِهِ وَذَائِبِهِ، وَشَرَحَ صَدْرَ مَنْ انْقَادَ لِأَوَامِرِهِ بِمُوسَى الْحِكْمَةِ، وَمَيَّزَ مَنْ تَخَلَّقَ بِطَاعَتِهِ بِالْإِجْلَالِ بَيْنَ أَفْذَاذِ الْأُمَّةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ فِي ذَاتِهِ، الْمُتَنَزَّهِ عَنِ الشَّيْءِ وَالنَّظِيرِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الْمُنَزَّلُ عَلَيْهِ قُرْآنٌ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْفَصَاحَةِ، الْمُعْجِزُ مَنْ تَحَدَّى بِآيَةٍ مِنْهُ لَذَوِي الْبَلَاغَةِ وَالرَّجَاحَةِ، الْمُبَيِّنُ لَنَا مِنَ الشَّرِيعَةِ رَفْزًا أَوْ سِرًّا، الْقَائِلُ^(١): "إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ لِحِكْمَةً، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا"، أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ، وَأَصْدَقُ مَنْ تَكَلَّمَ لِإِرْشَادِ الْعِبَادِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَفَ وَكَرَّمَ، مَا لَهَجَتِ الْعَرَبُ بِكَذَا وَكَئِثَ، وَمَا فَاهَتْ بِقَصِيدَةٍ أَوْ بَيْتٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ فَازُوا مِنَ الْفَصَاحَةِ بِالْقَدَحِ الْمُعْلَى، وَحَازُوا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ مَا هُوَ الْأَجْدَى وَالْأَوْلَى.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول أضعفُ أفرادَ الإنسانِ، وأحوجُهُمْ إلى لطفِ الكريمِ المَنَّانِ، الفقيرِ سليمان ابنِ الأكرمِ الأَمجد عبدِ الله بك ابنِ المرحومِ شاوي بك العبيدي الحميري:

لما كانت القصيدةُ الموسومة بـ "لامية العرب" للشَّنْفَرَى خالد بن ثابت الأزدي من غُرَرِ القصائدِ على الإطلاقِ، وأهداها إلى طريقةِ الكُرماءِ بالاتفاقِ، وكيف لا؟! وقد قال سيِّدُنَا عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: "عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ لَامِيَةَ الْعَرَبِ فَإِنَّهَا تَعَلِّمُهُمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، لَهَجَ بِهَا أَهْلُ الْأَدَبِ، وَجَنَحَ إِلَى حِفْظِهَا مَنْ لَهُ مَحَبَّةٌ بِأَثَارِ الْعَرَبِ".

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٣/٤)، رقم (٥٠١١)، وأحمد (٣٠٣/١)، رقم (٢٧٦١)، والطيالسي (ص ٣٤٨)، رقم (٢٦٧٠)، والطبراني (٢٨٧/١١)، رقم (١١٧٥٨). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٢٢٠/٤)، رقم (٢٣٣٢)، وابن حبان (٩٦/١٣)، رقم (٥٧٨٠).

وقد كانت محتاجةً إلى شرحٍ يُبَيِّنُ مغازيها ويُوضِّحُ معانيها، ويبين رموزَ فوائدها، ويكشفُ عن وجوه خرائدها، ويرفعُ عنها حجبَ الدِّقَّةِ والإغلاقِ، ويفتحُ لطالبيها من معاقل مبانيها الأبوابَ والأغلاقَ، وقد كان يخطرُ بالبال الفاتر، ويجولُ في الفكرِ القاصرِ، أني أشرحها شرحاً يُدِلُّ صعابها، ويفتحُ للطالبيين أبوابها، ثم أُحْجِمُ عن ذلك لعلمي أنَّ بضاعتي مزجاة كاسدة، وأن صناعتي لا تقوم بأعباء هذه الفائدة، حتى اجتمعت ذات يوم من أيام البطالة مع شيخي الكبير الشهير، العالم العلامة النحرير، شيخ العراق بالاتفاق، وملجأ أهل الخلاف والوفاق، الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ عبدالله الشهير بالسُّوَيْدِي، فتحاسينا معه كؤُوس الأدب، حتى انجر معه البحث إلى لامية العرب، فأمرني بشرحها، وأمره واجب الامتثال، ولاسيما وقد وافق ما كان يتردد بين فكري والخيال، فجاء بعون الله شرحاً لم يُنْسَجَ على منواله، ولم يستطع المتحدي أن يحذو على مثاله مع أنه أول ما سبكته في بيادق التأليف، وأفرغته في قوالب الترصيف، وسميته: "سكب الأدب على لامية العرب". والله أسأل أن يروي بريه قوماً عطاشاً لورد زلاله، ويزيد أرواحهم انتعاشاً بمطالعة مثاله، وها أنا أشرع بالمقصود مستعيناً بالربِّ المعبود، فأقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح لامية العرب

قال الشنفرى^(١): [الطويل]

١- أقيموا بني أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمِ سِوَاكُمْ لِأُمَيْلٍ

اللغة:

أقيموا: مأخوذ من الإقامة ضد الاعوجاج كما هو ظاهر البيت.
صدور: جمع صدر، وهو أعلى مُقَدَّم كُلِّ شَيْءٍ، وكلُّ ما واجهك من السهم والقناة من وسطه إلى مستدقه لأنه المقدم إذا رمي به. وهو مذكراً تأنيثه في ما ورد في بيت الأعشى^(٢): [الطويل]

كَمَا شَرِقْتُ صَدْرُ الْقَنَاءِ مِنَ الدَّمِّ

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زكور الفاسي في "تفريج الكرب": المطي كالمطايا، جمع مطيئة، وهي: الدابة تمطو في سيرها، أي: تجد وتُسرع. وإقامة صدور المطي: إعمالها في السير، والتوجه بها إلى وجهة، وقد يقصد به الجد في الأمر، والانتباه من الغفلة، فيكون تمثيلاً على سبيل الاستعارة، وهذا هو المراد هنا كما قيل، وهو الظاهر، وأصله في الراكب ينأى على راحلته فتتحرف به عن القصد، فيقال له: أقم صدر مطيئك؛ أي: انتبه من نومك. والميل إلى الشيء: الانحراف إليه بالقلب، والأُمَيْل: الأشد ميلاً، وبنو أمية، قيل: هم فهم وعدوان. والقوم سواهم رهطه من الأزدي، وكان نازلاً في بني أمية، فغير، فرحل إلى قومه، وهذا التغيير سبب قوله القصيدة.

والمعنى: جدوا يا بني أُمِّي في أمرِكُمْ؛ فإنَّكُمْ غارُونَ، وانتهوا؛ فإنَّكُمْ نائمون عن شأني الذي هو غير شأنِكُمْ، وبمراحل عمّا تتوهمونه من مئيلي إليكم لكوني نازلاً فيكم؛ فإنني أشد ميلاً إلى قوم غيرِكُمْ، أي: مئيلي إليهم أكثر من مئيلي إليكم وإن كنت بعيداً منهم، وهواي معهم وإن لم أكن فيهم. وهذا إنذار لبني أمية برحيله عنهم.

(٢) عجز بيت قائله الأعشى ميمون بن قيس، وصدرة:

وَتَشَرَّقَ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدَعَتْهُ

الشرح: "تشرق" بريقه، إذا غص، "أدعته" أفشيت، "صدر القناة" الرمح.

الشاهد: في "شرقت صدر" فإنها مؤنثة وفاعلها وهو الصدر مذكر، وكان القياس "شرق" ولكن لما كان الصدر الذي هو مضاف بعض المضاف إليه أعطي له حكمه.

مواضعه: ذكره من شراح الألفية: الأشموني ٢ / ٣١٠، والسيوطي ص ٧٤، وأيضاً في همعه ٢ / ٤٩، وابن هشام في المغني ٢ / ١١٣.

فانه لإضافته إلى المؤنث، وأظن لا تخفى عليك هذه القاعدة.
المطي: بفتح الميم والطاء المهملة جمعُ مَطِيَّةٍ، الدابة، سميت بذلك لأنها تَمْطُو في سيرها، أي تمتد، ويجوز تذكيرها وتأنيثها.

القوم: كَرَهَ لا واحد له من لفظه، وقد قيل: إنه موضوع للنساء والرجال، والأصح أنه للرجال فقط بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ...﴾ [الحجرات: ١١] إلى آخر الآية، وقول الشاعر^(١): [الطويل]

أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وسوى: كغير، وفيها لغات: سوى كرضى، وسوى كهدى، وسواء كبناء.
أميل: قيل: أفعل بمعنى فاعل أي عادل، إذ الميل بمعنى العدول، ويجوز أن يكون باقياً على بابه.

الإعراب:

أقيموا: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو ضمير الفاعل.
وبني: منادى حُذِفَ منه حرف النداء، وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع التصحیح وحذفت نونه لأنه مضاف، ويجوزُ نصبه على الاختصاص، وهو عندنا كما قال ابن مالك: [الرجز]

الِاخْتِصَاصُ كِنِدَاءٍ دُونَ يَا كَأَيْهَا الْفَتَى بِإِثْرٍ اِرْجُونِيَا

مضاف إلى أمي، وهي مضافة إلى الياء، وعلامة الجر كسرة مقدرة على ما قبل الياء لأن الياء تستدعي انكسار ما قبلها، فقدرت كسرة الإعراب لئلا يلزم اجتماع كسرتين.
صدور: مفعوله، مضاف إلى مطي الذي هو مضاف إلى ضمير المخاطبين الذي هو الكاف، وهو كمطلق الضمير من الوضع للموضع له الخاص، والقرينة فيه الخطاب.

(١) عجز بيت لزهير. وصدرة:

وَمَا أَذْرَى وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرَى

انظر: الديوان ٧٣/١، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ١٣١/١، وتحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر ١٤/١، وتاج العروس ٤٣٤/٢٤، ولسان العرب ٤٦٩/١٢، والإيضاح في علوم البلاغة ٣٥٢/١.

فاني: الفاء للتعليل، وإن من الحروف الناسخة لحكم المبتدأ والخبر، تنصب الأول على أنه اسمها، وترفع الثاني على أنه خبرها.
إلى قوم: جارٌ ومجرور متعلق بخبر إن الآتي.

سواكم: بدل من قوم، ويصح جعله أن يكون صفة، ولا يضر إضافتها إلى ضمير المخاطبين لأن هذه الإضافة لا تفيدها تعريفا كغير، لشدة إبهامها، ما لم تقع بين معرفتين متضادتين، كقولك: عجبت من الحركة غير السكون. وهي عند سيبويه ظرف لا يتصرف، والأصح في خلافه، حيث ورد في كلام العرب، كقول الشاعر^(١): [الكامل]
وَإِذَا تُبَاعُ كَرِيمَةٌ أَوْ تُشْتَرَى فَسَوَاكَ بَائِعُهَا وَأَنْتَ الْمُشْتَرَى
لأميل: هذه اللام تسمى اللام المرحلة بالفاء، رُحِلَتْ من إنَّ إلى خبرها، خشية اجتماع أداتي تأكيد، لأنَّ (إنَّ) للتأكيد واللام أيضاً، وتسمى المؤكدة، وأميل خبر إنَّ.

المعنى:

بادروا بأذوي الأرحام إلى الرِّحِيلِ والسَّفَرِ، وكونوا بعد اليوم من الأعداء على حذر، فانه لا يطمئن لكم بعدي بال، ولا تُدْرِكْ لكم الآمال، وقد كنتُ بينكم، سيفُكُمُ القاطع، والدرع المانع، حميتُ لكم الدِّمار، وأكسبتكم الافتخارَ، وأظن حين نأَتْ بيني وبينكم الدَّارُ، وتَسَمَّعَ أعداؤكم ماكان من بُعدِ المزارِ، يُقَلِّبونَ إليكم أحداقَ الأخذِ والانتهاجِ ويعظم لفقدي عندكم المصائب، وأما أنا فليستُ بعد اليوم معكم بالمقيم، واخترتُ التوحشَ عنكم وإنِّي به عن الحادثات سليم، ورغبْتُ في الميلِ إلى غيركم من الأقوام،

(١) هو لابن المولى - محمد بن عبد الله بن مسلم المدني -، يخاطب به يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، ويمدحه به.

والشاهد فيه: (فَسَوَاكَ) حيث وقعت (سوى) مرفوعةً بالابتداء، وخرجت عن النَّصب على الظرفية.
انظر: شرح الحماسة للبريزي ٣٥٧/٢، وشرح التسهيل ٣١٥/٢، وشرح الكافية الشافية ٧١٨/٢، وابن النظم ٣٠٥، وابن عقيل ٥٥٧/١، والمقاصد التَّحْوِيَّةُ ١٢٥/٣، والهمع ١٦١/٣، والأشمونى ١٥٩/٢، والذَّرع ٩٢/٣.

ولذَّ لي التغرُّبُ في الوغَالِ والآجَامِ، لِمَا شاهدتُ من عدمِ مراعاةِ صلَةِ الرَّحِمِ
وانغماسكم في الجفوة والغلظة والهضم، وما هذا شأنُ يرتاحُ له اللبيب، وصدوره مني
لهو العجب العجيب، واني كما قال بشار بن برد^(١): [المتقارب]

إذا ما قلتني بلدةً أو قلتها خرجتُ مع البازي عليَّ سَوَادُ
مع أنها مع ذوي القربى أحقُّ بالفراقِ، وموجة بعد التلاقِ، قال ابن مُقَرَّب:
[الطويل]

خليلي عن دار الهوان فقوضا خيامي وزما لارتحال النجائب
وله أيضاً^(٢): [الطويل]

وظلُّمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على المرءِ من وَقَعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ
شعرا^(٣): [البسيط]

شَرِّقْ وَغَرِّبْ تَجِدْ من غادرٍ بَدَلَا فالأَرْضُ من تُزْبِةٍ والناشِ من رَجُلٍ
قال أبو الطيب^(٤): [المنسرح]

في سعةِ الخافقين مُضطربٌ وفي بلادٍ من أختها بَدَلٌ

(١) البيت لبشار بن برد، وهو من قصيدة له في خالد بن برمك، وكان قد وفد عليه وهو بفارس، فأنشده قوله:

أَخَالَدُ لَمْ أَهْبَطْ عَلَيْكَ بِذِمَّةٍ سِوَى أَنِّي غَافٍ وَأَنْتَ جَوَادُ

وبشار هو أشعر المولدين على الإطلاق. أصله من طخارستان غربي نهر جيحون ونسبته إلى امرأة عائلية قيل أنها اعتنقه من الرق. كان ضريباً.

نشأ في البصرة وقدم بغداد، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية، وشعره كثير متفرق من الطبقة الأولى، جمع بعضه في ديوان. اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط، ودفن بالبصرة.

انظر: دلائل الإعجاز (١٦٠/١) ومختصر المعاني (١٥٧/١) وشرح الرضي على الكافية (٤٢/٢) والإيضاح في علوم البلاغة (١٦٧/١) وخزانة الأدب (٢١٦/٣).

(٢) البيت لطرفة، وانظر: الديوان ١٨/١.

(٣) انظر: لباب الآداب ١٤٩/١.

(٤) انظر: الخزانة ١٨٩/١.

تتمة:

إنما حذف صلة أفعل التفضيل، لدرج البيت، أي أميل من غيري، ويحتمل أن يكون لتعميم أصناف المفضل عليه بحيث لا يختص بصنف دون آخر، أو لتذهب نفس السامع إلى أي معنى أرادت. وأقيموا: أما كناية عن الارتحال كما تقدم، وأما للتحريض على القتال، كما قال الشاعر^(١): [الطويل]

أقيموا صدورَ الخيلِ للبيضِ والقنا يومِ يُشيبُ الطفلُ وهو رضيعُ

واختصاص الإقامة بالصدر، لأن قوة سير الدابة بصدرها، فان قلت: في البيت تكرار الإضافات، وهو مخل بالفصاحة كم صرح به بعضهم، قلت: الأصح خلاف ذلك لأنه ورد في الكتاب العزيز الذي أفحم ببلاغته العرب العرباء من مضاعغة الشيخ والقيصوم، كقوله تعالى: ﴿مِثْلُ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [غافر: ٣١].

قال^(٢):

٢- فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمَرٌ وَشُدَّتْ لَطِيَّاتِ مَطَايَا وَأَرْحُلُ

(١) انظر: الحماسة ٢٩٣/١.

(٢) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": حُمَّ الأمرُ، بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله: قُدِّرَ. ومعنى "الليل مقمرٌ": ذو قمرٍ، وقد يُقصد منه: الأمر واضحٌ، وهو تمثيل على سبيل الاستعارة، ولا تَبْعُدْ إرادته هنا، ومنه قول الشاعر:

وخالدٌ قال لي قولاً قَبِغْتُ بهلُو كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّي يَطْلُعُ الْقَمَرُ

والطِّيَّاتُ، كالتِّيَّاتِ لفظاً ومعنى، وواحدُها طِيَّةٌ كَثِيَّةٌ، وهو ما ينويه المسافر من وجه. وواحدُ الأَرْحُلِ، رَحْلٌ: وهو مركبٌ للبعير كالراحول. وشُدَّ الرحلُ: إيثاقُهُ. وشُدَّ المطايا: بمعنى شدَّ أَرْحُلَهَا وأَدَوَاتِهَا.

والمعنى: فقد قُدِّرَتِ الحاجاتُ الداعيةُ إلى الارتحالِ عنكم، والحالةُ أنَّ الزمانَ مُساعدٌ على ذلك، وهو الليلُ المقمرُ؛ فإنَّ السيرَ فيه يُسمَّى سُرَى، وعاقبتهُ محمودَةٌ عندَ الصباح، لا سِيَّماً إذا كانَ الليلُ مقمرًا؛ فإنَّ السُرَى في القمرِ يبلغُ الغايةَ، فتُرفعُ بحمده في الصباحِ الرائِةُ، ولَسْتُ بأوحدَ في الارتحالِ، فإنَّ الناسَ قد تَهَيَّئُوا لَهُ، وشَدُّوا أَرْحُلَهُمْ على مَطَايَاهُمْ لقصدِ جهاتٍ مختلفةٍ في طلبِ الحاجاتِ، فلي فيهم أُسُوَّةٌ. فهذه أمورٌ، كلٌّ منها يدعو إلى الارتحالِ، وهي تقديِرُ الحاجاتِ، ومساعدةُ الزمانِ، والائْتِسَاءُ بالإخوانِ، فاجتماعُها يكونُ أدْعَى إلى ذلك.

اللغة:

حمت: قدرت.

والحاجات: جمع حاجة كالحوجاء، وتحوج: طلبها، جمعه: حاج وحاجات وحوائج غير قياسي أو مولد، كأنهم جمعوا حائجة، وما في صدري حوجاء ولا لوجاء ولا حويجاء ولا لويجاء أي لا حاجة.

والليل: والليلة من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق أو الشمس، جمع ليال، وليلة ليلاء شديدة الطول، وهي التي يقول في حقها الشاعر^(١): [الكامل]

وتذكري أجياد وردي في الضحى وتهجدي في الليلة الليلاء

مقمر: مأخوذ من أقمر ليلنا إذا أضاء، والليل مقمر أي مضيء، إذا كان فيه القمر.

والقمر اسم لكوكب نير انفرد في السماء الدُّنيا، ولذا سميت فلك القمر، وقد يغلب على الشمس فيقال: القمران، ويراد به الشمس والقمر، فان قلت: لم لا يجوز العكس؟ قلت: جواز الأول لشرفية المذكر على المؤنث، بخلاف الثاني.

وشُدَّت: بضم الشين المعجمة من الشَّدِ أي قُوِّتْ وأوثقت، وبالفتح الحَمَلَةُ في الحَرْبِ.

الطيأت: جمع طية بكسر الطاء النِّثَة. قال الخليل: الطَّيَّةُ تكون منزلاً ومُتَنَوًى، تقول: طية بعيدة أي شاسعة، ومضى لطيته أي لنيته التي انتواها، ويستقيم هاهنا كلا المعنيين، ويجوز كون الطية للنوع من قولهم: طوى الحديث إذا كتمته، وجعل الطية بمعنى الحاجة لاتصافها بالكتمان كما ذكره الجلال السيوطي مأخوذ ممَّا ذكرنا.

المطايا: وقد تقدم تفسيره في البيت السابق.

وفيما يحكى عن ابن المُطَرِّزِ الشَّاعر أنه مرَّ وفي رجله نعل بالية بالشَّريف المرتضى وأمر بإحضاره، وقال له: أنشدنا أبياتك البائية المشهورة، فأنشده إياها، فلما انتهى إلى قوله^(٢): [الطويل]

(١) انظر: الكشكول ٢٧/٢.

(٢) انظر: طيب المذاق من ثمرات الأوراق ٤٨/١.

فإن لم تُبَلِّغني إليك رَكائبي فلا وَرَدَتْ ماءً ولا رَعَتِ العُشْبَا
أشار إلى نعليه، وقال: هذه كانت ركائبك؟ فأطرق ابن المطرز ساعةً ثم قال: لما
عادت هبات سيدنا إلى مثل قوله^(١): [الخفيف]

وَحُذَا النَّوْمِ من عيوني فإني قد خلعت الكرى على العُشَّاقِ
عادت ركائبي إلى مثل ما ترى، لأنك خلعت ما لم تملك على من لم يقبل، فخجل
الشريف، وأكرمه لذلك بما يليق به.

الأرحل: بفتح الهمزة وسكون الزاء وضم الحاء المهملتين جمع رحل: ما
يستصحب من الأثاث، والرحل أيضاً رحل البعير، وهو أصغر من القتب، والمعنيان
جائزان فيما نحن فيه.

الإعراب:

الفاء علة لما تضمنه البيت السابق من مصارمة قومه والعزلة عنهم، وقد: حرف
تحقيق، ويكون اسماً بمعنى حسب وكاف كقولك: قَدْ زَيْدٌ دِرْهَمٌ، وتأتي اسم فعل
بمعنى يكفي، كقول الشاعر^(٢): [الرجز]

(١) انظر: معجم الأدباء ٦١/٢.

(٢) قال ابن يعيش: قائله أبو بحدلة، وقال الجوهري: قائله حميد بن مالك الأرقط لعبد الملك بن
مروان، يصف تقاعده عن نصرته ابن الزبير وأصحابه ويمدح عبد الملك ويعرض بابن الزبير.
وعجزه: ليس الإمام بالشحيح الملحد، وهو من الرجز.

الشرح: "قدني" كافيني وحسبي "الخبسين" تشنية خبيب بضم الخاء وفتح الباء وهما عبد الملك بن
الزبير وأخوه مصعب، ويروى بصيغة الجمع، يريد أبا خبيب وشيعته، "الإمام" يريد به عبد الملك بن
مروان، "الشحيح" البخيل، "الملحد" الجائر الظالم.

المعنى: حسبي نصر هذين الرجلين، فإن أمامي منزّه عما تصف به ذلك المقيم في الحرم من
رذيلتي: الشح والإلحاد.

الإعراب: قدني: اسم بمعنى حسب مبتدأ والنون للوقاية والياء مضاف إليه "من نصر" متعلق
بمحذوف خبر المبتدأ ونصر مضاف و"الخبسين" مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله "قدني" تأكيد
للأولى ويجوز أن يكون "قد" اسم فعل، فإذا جعلته كذلك فقد اختلف العلماء في الفعل الذي هذا
اسمه، فجعله ابن هشام مضارعاً: أي يكفيني، وجعله غيره ماضياً: أي كفاني، ورجح قوم أنه أمر
وقدروه "ليكفني".

قَدْنِي مِنْ نَضْرِ الْخُبَيْبِ قَدِي

وقد يحذف الفعل بعدها كقول الشاعر^(١): [الكامل]

لَمَّا تَزَلْ بِرَحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِ

حُمَّتْ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، وتاؤه للتأنيث، وكسرت لالتقاء الساكنين.

والحاجات: نائب فاعل.

والواو: حرف عطف، والجملة الاسمية معطوفة على الفعلية قبلها، وتخالِفُ الجملتين لا ضررَ فيه.

والليل: مبتدأ، وخبره مقمر، ويجوز أن يكون الواو للحال، وقد ادّعى السُّويدي رحمه الله تعالى أن الفضل للمتقدّم، وليس كذلك، إذ توافَقُ الجملتين في العطفِ أولى من التخالِفِ، وما أوله غير مراد، فتأمل.

وشُدَّتْ: معطوفة على حمت.

لطيات: متعلق بها، ونائب فاعل هو المطايا.

وأرحل: معطوف على المطايا، وما بين سيبويه والخليل خلافٌ مشهورٌ في تعليلِ المطايا كالخطايا.

=

انظر: ابن النازم ص ٢٨، وابن عقيل ١ / ٦٣، والأشموني ١ / ٥٧، والمكودي ص ١٨، وابن هشام ١ / ٩٠، والسيوطي ص ١٧ وأيضاً في همع الهوامع ١ / ٦٤، وابن يعيش في شرح المفصل ٣٦ / ١٢٤، والشاهد ٤٤٩ في خزانة الأدب والكتاب ج ١ ص ٣٨٧.

(١) هذا من قصيدة النابغة الذبياني التي وصف فيها المتجدة امرأة النعمان بن المنذر وبالغ في وصف محاسنها حتى أغضب النعمان، وأول هذه القصيدة:

أَمِنْ آلِ مِئَةٍ رَائِحٍ أَوْ مِغْتَدِي عَجْلَانِ ذَا زَادٍ وَغَيْرِ مَزُودٍ

وصدر البيت:

أَفَدَ التَّرْحُلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا

انظر: الديوان ٢٣ / ١، والخزانة ١٨٣ / ٧، والبيان والتبيين ٣٥١ / ١.

المعنى: مراده تحصيل الإيأس لقومه من الإقامة، وتولعهم بالتأسف والندامة، وتحريض نفسه على الأسفار، والوقوف على الطلول، متمثلاً بقول الشاعر^(١): [البسيط]

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبال
عذيب يوماً ويوماً بالخليصاء

وما ذاك إلا أن ما يحتاج إليه المسافر تم وتيسر، واللَّيل مضيء يتأنس به ولا يتعسر، ويهدي لمعالم الطريق، ولا يحتاج في أرائه إلى رفيق، وبأن المطايا في الأسفار قد زملت اقتابها، وشُدَّت أحلاسها وأكوارها، وما يستصحبه المسافر من الأرحل قد حضرت، ولا ثمة مانع للإعتذار، فلعمري لقد صدق بما قال، وعن الصواب ما حال، فإنه إذا كان الأمر كما ذكر فقيم الإقامة في نادي قوم لا يراعون ذمامه، ولا يراعون له ذمة، ولا يعبأون ويشاهدون له حرمة، ولا يرتضي المكث بدار الهوان، فتى عرضه عن الدل يسان وقال ابن مقرب: [الرملي]

خلياني من وطاء أو وساد لا أرى النوم على الشوك القتاد
وارحلا من قبل أن لا ترحلا فالبلايا كل وقت في ازدياد
واتركاني من أباطيل المني فهو بحر ليس يزوى منه صادي
وابدلاً في العز مجهودكما لا يلام المرء بعد الاجتهاد
إنما تُدرك غاياث المني بمسير أو طعان أو جلاد

تتمة:

جاء بطيات بصيغة الجمع تنبيهاً على أنه لا يعييه التثقل، بل كلما ناله ما يريبه تركه إلى ما سواه، ولا يحصل له مقر إلا بمكان يظفر به العز، كما قال أبو فراس الحمداني^(٢): [الطويل]

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا بالمعالي نفوسنا ومن يطلب الحسنة لا يغله المهز

(١) انظر: معاهد التنصيص ٣٩٩/١.

(٢) انظر: الديوان ١٥٨/١.

وقول أبي تمام^(١): [البسيط]

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَمِيمٍ يُرَادُّ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ غَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ وَذَا يُشْجُ فَلَا يَزْثِي لَهُ أَحَدُ

تكملة:

ليس مراد الشاعر ذمّ عشيرته وأنه لا عزّ فيهم، لكن شكاً من جفوتهم له مع كونه من أركانهم التي شدّت بها أبنية مجدهم، كقول ابن قلاّيس الشاعر: [الطويل]

وَلَسْتُ تَرَى فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ سُورَةً تَقُومُ مَقَامَ الْحُمْدِ وَالْكُلِّ قِرْآنُ

وهذا ذهب إلى قول أئمتنا إنّ الفاتحة لا بُدَّ منها في كلّ ركعة مستدلين بقوله عليه الصلاة والسلام: "لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب" وفي لفظ: "لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ الفاتحة"، فإن قلت: لم سُمّيت بالسبع المثاني؟ قلت: لأنها تنثى في كلّ صلاة، وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فاستدلّ على عدم فرضية الفاتحة بقوله تعالى: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فعلى هذا لا يحسن ما تقدّم من معنى البيت، فتدبر.

وقد قال في مضمون ذلك أبو الغنائم مُحمّد بن المُعَلِّم شعراً^(٢): [الكامل]

سِرُّ طَالِباً غَايَاتِهَا إِمَّا تُرَى فَوْقَ الثَّرِيَا أَوْ تُرَى تَحْتَ الثَّرَى
لَا تَحْلُدُنْ إِلَى الْمَقَامِ فَإِنَّمَا سِرُّ الْهَلَالِ قَضَى لَهُ أَنْ يَقْمَرَا
لَا تَبْكِ دَاراً فَالْفَتَى مَنْ إِنْ دَعَا دَمْعاً عَصَاهُ، وَإِنْ دَعَاهُ دَمّاً جَرَى

وفي ما ذكرنا إشعار بأن الله تعالى لم يجمع منافع الدُّنيا في أرض، بل فرّقها وأحوج بعضها إلى بعض. وقد قيل: إن المسافر يجمعُ العجائب، ويكسبُ التجارب، ويجلب المكاسب. والأسفار ممّا تزيد علماً بقدرة الله تعالى وحكمته، وتدعو إلى شكر نعمته، وليس بينك وبين بلدٍ نسب، فخيرُ البلاد ما حملك.

(١) قيل: إنهما لرجل يمدح حاتمًا، وقيل: لحسان بن ثابت، وقيل: لغيرهما.
انظر: بغية الإيضاح (٩٠/١) والكلّيات (٤٠٣/١) وزهر الأكم في الأمثال والحكم (١٦١/١، ٣٥٨)
ومفتاح العلوم (٧٩/١) والإيضاح في علوم البلاغة (٤٣/١) وشرح نهج البلاغة (٢٢٢/١) والكشكول (٩٢/٢) وخزانة الأدب (٣٢٤/٦) ومعاهد التنصيص (٣٠٦/٢).
(٢) انظر: زهر الأكم ١٤٤/١.

ثم قال^(١):

٣- وَفِي الْأَرْضِ مَنْأَى لِلكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلَى مُتَحَوِّلٌ

اللغة:

المنأى: بفتح الميم مصدر ميمي، وعليه اقتصر ابن هشام في شرحه بانت سعاد، ويجوز أن يكون اسم مكان من: نَأَيْتُهُ، ونَأَيْتُ عَنْهُ أَي: بَعُدْتُ، والمُنْتَأَى المَوْضِعُ البَعِيدُ. الكريم: مأخوذ من الكَرَم، وهو مُحَرَكَةٌ ضِدُّ اللُّؤْم، كَرَمٌ كَرَامَةٌ وَكَرْمٌ وَكَرْمَةٌ مُحَرَكَتَيْنِ، فهو كَرِيمٌ وَكَرِيمَةٌ وَكَرْمَةٌ بالكسر، وَمُكَرَّمٌ وَمُكَرَّمَةٌ، وَكُرَامٌ وَكُرَابٌ وَرُمَانٌ وَرُمَانَةٌ، يُجْمَعُ عَلَى كُرَمَاءٍ وَكِرَامٍ وَكَرَائِمٍ، وَيَا مَكْرُمَانُ لِلكَرِيمِ الْوَاسِعِ الْخُلُقِ، وَكَارَمَةٌ فَكَرَمَهُ يُكْرِمُهُ كَنَصَرَهُ غَلَبَهُ فِيهِ، وَأَكْرَمَهُ وَكَرَّمَهُ عَظَّمَهُ وَنَزَّهَهُ، وَالكَرِيمُ الصَّفُوحُ، وَرَجُلٌ مِكْرَامٌ مُكَرَّمٌ لِلنَّاسِ، وَلَهُ عَلَى كَرَامَةٍ أَي: عِرَازَةٌ.

الأذى: بفتح الهمزة مقصوفاً المَكْرُوهُ، يقال: آذَاهُ يُؤْذِيهِ أَذَى، خَافَهُ يَخَافُهُ خَوْفًا، وَهُوَ ضِدُّ الْأَمْنِ وَضِدُّ الشَّجَاعَةِ، إِنَّمَا هُوَ الْجَبِنُ.

القلَى: بالكسر البُغْضُ، وَأَمَّا بِالْفَتْحِ فَبِالْمَدِّ، يُقَالُ: فُلَانٌ يَقْلِيهِ قِلَى وَقَلَاءٌ، وَيَقْلَاهُ لَعَةً طَيِّبَةً، قَالَ شَاعِرُهُمْ^(٢): [الهجج]

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": المنأى: المكان الذي يُنْأَى إِلَيْهِ، أَي: يُبْعَدُ. والكريم هنا: العزيزُ والسَّيِّدُ الْوَاسِعُ الْخُلُقِ. والقلى: البغضُ، والمُتَحَوِّلُ: المَوْضِعُ الَّذِي يَحْصُلُ التَّحَوُّلُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْمَعْنَى.

يقول: والأرض واسعة، ففيها ما يُبْعَدُ الْعَزِيزُ عَنِ الْإِذْلَالِ وَالْإِذَايَةِ، وَفِيهَا أَيْضاً مَا إِذَا تَحَوَّلَ إِلَيْهِ مَنْ خَافَ وَبَالَ الْبُغْضِ وَسُوءَ عَاقِبَتِهِ سَلِمَ وَأَمِنَ.

وهذا معنى قول مَعْنٍ بْنِ أَوْسٍ الْمُرْنَبِيِّ:

وَفِي النَّاسِ إِنْ رُتِّتْ جِبَالُكَ وَاصْلَوْ فِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْقَلَى مُتَحَوِّلٌ

وَأَفْهَمَ قَوْلُهُ: (وَفِي الْأَرْضِ مَنْأَى...) الْبَيْتَ.

أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةً غَيْرُ ضَيِّقَةٍ عَلَى الرَّاعِبِ فِي الْإِعْتِرَازِ وَالرَّاهِبِ مِنَ الْقَلَى.

(٢) هذان بيتان من الهجج، ولم أقف على قائلهما.

(وَأَقْلَاهُ: أَبْغَضَهُ، مِنْ قَلَاهُ يَقْلِيهِ؛ وَيَقْلَاهُ لَعَةً طَيِّبَةً، وَالشَّعْرُ عَلَى لُغَتِهِمْ.

انظر: شرح الكافية الشافية ١١٨٤/٣، وشرح عمدة الحفاظ ٥٧٣/١، وابن النّاظم ٥٠٩، والمقاصد النّحويّة ٩٧/٤، والهمع ٢٠٨/٥، والبهجة المرضيّة ١٢٤، والأشمونوي ٨٠/٣، والدّرر ٤٨/٦.

أَيَا مَنْ لُسْتُ أَقْلَاهُ وَلَا فِي الْبَعْدِ أَنْسَاهُ
لَكَ اللَّهُ عَلَى ذَاكَ لَكَ اللَّهُ لَكَ اللَّهُ

ويجوز أن يكون مصدر المعلوم والمجهول.

مُتَحَوِّلٌ: مصدر على صيغة اسم المفعول، وهو التَّنْقُلُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ،
والاسم الجَوْلُ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا جَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] وصيغة
المصدر والزَّمانِ والمكان واسم المفعول من المزيد واحد، كذا قيل، فتأمل.
وقد رأيتُ في شرح الشَّوَيْدِي منقولاً عن السيوطي لشرحه لبانت سعاد: "مُتَعَزِّلٌ"
مكان "مُتَحَوِّلٌ" وهو قريبٌ منه من جهة المعنى.

الإعراب:

الواو عاطفة، والأظهر أن تكون للاستئناف، وفي الأرض: مُتَعَلِّقٌ بمحذوف وجوباً
خبر مُقَدَّم.

ومئى: مبتدأ مؤخر.

للكريم: مُتَعَلِّقٌ به، ومثله من الأذى.

وفيها: الواو عاطفة، خبر مُقَدَّم.

لمن: اسم موصول.

وخاف: صلته.

القلبي: مفعول. والجار والمجرور متعلق بمتحول الذي هو المبتدأ.

المعنى:

إن الكريم بعيدٌ عن الهوانِ والقلبي، إذ الأرضُ عريضة الأرجاء، واسعة الفلا، وفيها
تحولٌ وتنقل لمن خشي أن يبغض أحداً، وتنزّه عن أن يبغضه أحد، تالله لقد أصاب
وحقق، وبالصدقِ تَوَشَّحَ وَتَمَنَّقَ، حيثُ إن الأرض تقوم مقام غيرها وبها يرتاح، وربما
يقع بجيرانٍ مكان جيرانه ويحصلُ له بقربهم الفلاح، والعاقل لا يسعه المكث بين
ظهراني قوم لا يراعون ذمامه، ويرتاح للهوان والأذى ويطلب الإقامة. وبعد هناء العيش
والعزِّ يُمَلُّ ويبغض، بل شأنه التشبث بأذيال الهجرة والارتحال، وليس عن ترك الأوطانِ

مجال، لكرامة نفسه ولذكاء غرسه، ولذا عَبَّرَ بالكريم عن المرء، قَالَ أبو فراس: [البسيط]

مَنْ كَانَ مِثْلِي فَالْدُّنْيَا لَهُ وَطَنٌ وَكُلُّ قَوْمٍ غَدَا فِيهِمْ عَشَائِرُهُ

وقال ابن مُقَرَّب: [من البسيط]

أَلَيْتُ أَنْفَكَ عَنْ حِلٍّ وَمُزْتَحَلٍّ أَوْ أَنْ تَقُولَ لِي الْأَيَّامُ خُذْ وَدَعْ
لَا صَاحِبَتِي نَفْسٌ لَا تُبَلِّغَنِي مَرَاتِبَ الْعِزِّ لَوْ فِي نَاطِرِ السَّبْعِ
لَا رَكَبَنَ مِنَ الْأَهْوَالِ أَعْظَمَهَا هَوَلاً وَمَا يَحْفَظُ الرَّحْمَنُ لَمْ يَضَعْ
أَقْبَلَ النَّقْصِ وَالْأَبَاءِ مَنْجَبُهُ وَالْبَيْتُ فِي الْمَجْدِ ذُو مِرْأَى وَمُسْتَمَعٍ

وقال مصعب الصقلي^(١): [الطويل]

إِذَا كَانَ أَصْلِي مِنْ تُرَابٍ فَكُلُّهَا بِلَادِي، وَكُلُّ الْعَالَمِينَ أَقَارِبِي

وقال المُتَلَمِّسُ: [البسيط]

إِنَّ الْهَوَانَ حِمَارُ الدَّارِ يَأْلِفُهُ وَالْحُرُّ يَنْكَرُهُ وَالْفَيْلُ وَالْأَسَدُ
وقال أبو تمام^(٢): [البسيط]

لَا يَمْنَعُنْكَ خَفْضُ الْعَيْشِ فِي دَعَا نُزُوعُ نَفْسٍ إِلَى أَهْلِ وَأَوْطَانِ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَلْتَ بِهَا أَرْضاً بِأَرْضٍ وَجِيرَاناً بِجِيرَانِ

وقال أبو الطيب^(٣): [الخفيف]

فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَطَى وَذَرِ الدُّلَّ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ

تتمة:

مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ^(٤): "رَهْبُوتٌ خَيْرٌ مِنْ رَحْمُوتٍ"، معناه أَنْ تُرْهَبَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُرْحَمَ،

(١) انظر: الحماسة المغربية ١/٧٧.

(٢) انظر: الحماسة ١/٩٨.

(٣) انظر: محاضرات الأدباء ١/٣٨٤.

(٤) انظر: مجمع الأمثال ١/٢٨٨، أَي لَأَنْ تُرْهَبَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُرْحَمَ قَالَ المبرد: رَهْبُوتِي خَيْرٌ مِنْ رَحْمُوتِي ومثله في الكلام جَبْزُوتٌ وَجَبْزُوتِي.

وهذا من دأب الكرماء قديماً وحديثاً، وأمّا اللّيثم الدُّنّي، فهو عبدُ بطنه، يطلبُ الأكلةَ ولو صفعَ وَ زَجَرَ وَ دُفِعَ، فما أحقه بقول الشاعر^(١): [البسيط]

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَنْهَضَ لِبُعَيْتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
وَقَوْلُ الطُّغْرَائِي^(٢): [البسيط]

وَدَعْ غِمَارَ الْعُلَى لِلْمُقَدِّمِينَ عَلَى رُكُوبِهَا وَاقْتَنَعْ مِنْهُمْ بِالْبَلَلِ

تكملة:

أجوادُ الجاهليّة الذين انتهى إليهم الجودُ ثلاثة نفر: حاتم بن عبدالله الطائي، وهَرَم بن سِنان المُرِّي، وكعب بن مامة الأيادي. ولكن المضروبُ به المثلُ: حاتم وحده، ومن خصاله إذا اشتدَّ البردُ وَكَلَبَ الشتاء أمرَ غلامه فأوقدَ ناراً في يَفَاعِ الْأَرْضِ، لينظرَ إليها من ضلَّ عن الطَّرِيقِ ليلاً فيبادرَ إليها، وكان ينشد لغلّامه^(٣): [الرجز]

أَوْقَدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرُّ وَالرَّيْحُ يَا مُوقِدُ رِيحٍ صَرُّ
عَسَى يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُرُّ إِنْ جَلَبَتْ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرُّ

وأمّا هَرَم بن سِنان، فهو صاحبُ زهير، الذي يقولُ في حَقِّه^(٤): [الطويل]

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَوَاحِي أَتَيْتَهُ فَلَجَّئْتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ

وأمّا كعب بن مامة الأيادي، فلم يأتِ عنه إلا ما ذُكِرَ عنه من إثارة رفيقه السَّعدي بالماء على نفسه، حتى ماتَ عطشاً، وأحيا السَّعديّ، وناهيك بهذا الكرم الذي ما سُبِقَ إليه.

وأمّا أجوادُ الإسلام فأحدَ عشر رجلاً في عصر واحد بعضهم قريب من بعض.

(١) انظر: نضرة الإغريض ٧٩/١.

(٢) انظر: معجم الأدباء ٤١٣/١.

(٣) انظر: الديوان ٣٤/١.

(٤) انظر: الديوان ٢٩/١.

أما أجوادُ الحجازِ فثلاثة: عبيدا لله بن العباس -رضي الله عنهما -، وعبدالله بن جعفر، وسعيد بن العاص -رضي الله عنهم -. وأجوادُ أهلِ البصرة خمسة متعاصرون أيضاً: عبدا لله بن عامر، وعبيدالله بن أبي بكره رضي الله عنه -مولي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومسلم بن زيادة، وعبيدالله بن معمر القرشي، وطلحة الطلحات، وهو ابن عبدالله بن خلف الخُزاعي. وأجوادُ أهلِ الكوفة ثلاثة متعاصرون: عتّاب بن ورقاء الرّياحي، وابن خارجة، وعكرمة الفَيّاض. ووددنا أن نذكر بعض خصالهم، لكن تركنا ذلك خشية الإطالة.

ثم قال^(١):

٤ - لَعْمُزُكَ مَا بِالْأَرْضِ ضَيْقٌ عَلَى امْرِئٍ سَرَى رَاغِباً أَوْ رَاهِباً وَهُوَ يَغِلُّ

اللغة:

لَعْمُزُكَ: بالفتح وبالضّم وبالضميتين: الحياة، إلا أنه في القسم لا يكون إلا مفتوحاً كما هنا.

والضيقُ: مفتوحاً ومكسوراً مصدرُ ضَاقَ الشيءُ يَضِيقُ، نَقِضُ السَّعةِ، والضِيقُ بالفتح جمعُ ضَيْقَةٍ، وهي: الْفَقْرُ وسوءُ الْحَالِ، وَأَضَاقَهُ وَضَيْقَهُ فهو ضَيْقٌ وَضِيقٌ وَضَائِقٌ، والضيق وهو: الشُّكُّ فِي الْقَلْبِ، وَيُكْسَرُ، وما ضَاقَ عنه صَدْرُكَ، والمَضِيقُ: ما ضَاقَ من الْأَمَكانِ والأُمُورِ، وَمَنْزِلٌ لِلْقَمَرِ، وطَرِيقٌ بَيْنَ الطَّائِفِ وَحُتَيْنِ، وَعَيْنٌ قُرْبَ عَيْنِذَابٍ، وَضَاقَ يَضِيقُ: بَخِلَ، وَأَضَاقَ: ذَهَبَ مَالُهُ، وَضَائِقُهُ: عَاسِرُهُ، وخرق طيب تستضيّقُ به المرأةُ. والأولان جائزان في هذه المقامة.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريح الكرب": لَعْمُزُكَ: بالفتح؛ أي: لِحَيَاتِكَ، وقيل: لِدِينِكَ.

يقول: لِحَيَاتِكَ قَسَمِي ما في الأرض من ضيقٍ على امرئٍ سَرَى، أي: سارَ ليلاً في حالة كونه راغباً في العزِّ مثلاً، أو راغباً من عُقْبِ الْعداوةِ، وهو يعقلُ، أي: يُمَيِّزُ ما رَغِبَ فِيهِ، وما رَهَبَ مِنْهُ، فحيثما وجد المرغوب فيه أقام، فَتَنَسَّعَ عليه الأرض بوجدانِ الراحةِ بِإِدْرَاكِهِ، وحيثما وجد المرغوب منه رحلَ فَتَنَسَّعَ عليه الأرض بالخلاص منه. وهذا معنى ضيقِ الأرض وسَعَتِهَا، فمرجعُه في الحقيقة إلى انقباض النفوس وانسراحها بحسبِ إدراكها للملائم وغيره كما أفصح به مَنْ قال:

لَعْمُزُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادٌ بِأَهْلِهَا وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقُ

والامرؤ: الإنسان أو الرجل، فان جثت بهمزة وَضِلَ كما هنا كان فيه ثلاث لغات: فَتَحُ الرَاءِ عَلَى كُلِّ حَالٍ كما حكاه الفراء، وضمُّها على كُلِّ حَالٍ، وموافقة حركة الآخر على كُلِّ حَالٍ، أمَّا تبعاً لآخره كما يقول البصريون، واستقلالاً كما يقول الكوفيون، تقول: هذا امرؤٌ، ورأيتُ امرأً، ومررتُ بامرئٍ، ولا جمع له من لفظه، وهذه امرأة بالفتح لا غير.

سَرَى: بفتح السين من الشرى بضمة مقصوراً، وهو سير عامة الليل.

راغباً: نعتٌ إما من رغبت في الشيء إذا أردته، أو من رغبت عنه إذا لم ترده، وكلا المعنيين محتملٌ في هذه اللفظة.

راهباً: نعتٌ من رَهَبَ بالكسر، يرهَبُ رَهْباً، ورُهْباً بالضم، ورَهْباً بالتَّحريك إذا خَافَ، والاسمُ الرُّهْبِيُّ ويُضَمُّ، وتَرَهَّبَهُ تَوَعَّدَهُ، والمرهوب: الأسد، والراهب: الناقة المهزولة، والجمال العالي، والرَّهْبَةُ: الرُّهْبَانِيَّةُ، قد يكون واحداً، جمعُ رهبانين ورهابة ورهبانون، "ولا رَهْبَانِيَّةَ في الإسلام"^(١)، هي الاختصاص واعتناق السلاسل ولبس المسوح وترك اللحم ونحوها.

يعقل: بالفتح من العَقْل، وهو كما قال المجدد اللغوي: العِلْمُ بِصِفَاتِ الْأَشْيَاءِ مِنْ حَيْثُ الْحُسْنُ وَالْقُبْحُ وَالْكَمَالُ وَالنَّقْصَانُ أَوْ مِنْ حَيْثُ الْإِطْلَاعُ عَلَى خَيْرِ الْخَيْرَيْنِ، وَشَرِّ الشَّرَّيْنِ، أَوْ مُطْلَقٌ لِأُمُورٍ، أَوْ اسْمٌ لِقُوَّةٍ بِهَا يَكُونُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْأَوَّلَيْنِ. والحقُّ أنه نورٌ روحانيٌّ به تُدْرِكُ النَّفُوسُ الْعُلُومَ الضَّرُورِيَّةَ أَوْ النَّظَرِيَّةَ، وابتداءً وجوده عند اختناس الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكْمُلَ عند البلوغ، وجمعه عَقُولٌ، عَقْلٌ يَعْقِلُ عَقْلاً وَمَعْقُولاً وَعَقْلٌ، فهو عَاقِلٌ، وقد عَقِلَ كَفَرَحَ، وَتَعَاقَلُوا دَمَ فُلَانٍ عَقَلُوهُ بَيْنَهُمْ، وَدَمُهُ مَعْقَلَةٌ بِالضَّمِّ عَلَى قَوْمٍ غَزَمَ عَلَيْهِمْ، وَالْمَعْقَلَةُ الدِّيَةُ نَفْسُهَا، وَاعْتَقَلَ رُوحَهُ: جَعَلَهُ بَيْنَ رِكَابِهِ وَسَاقِهِ، وَالشَّاةُ وَضَعَ رِجْلَيْهَا بَيْنَ سَاقِهِ وَفَخِذِهِ فَحَلَبَهَا، وَالْعَقَالُ: زَكَاةُ عَامٍ مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢): (لو منعوني عقلاً).

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر ٦٦٩/٢.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٧/٦، رقم ٦٨٥٥)، ومسلم (٥١/١، رقم ٢٠)، وأبو داود (٩٣/٢، رقم ١٥٥٦)، والترمذي (٣/٥، رقم ٢٦٠٧)، والنسائي (١٤/٥، رقم ٢٤٤٣)، وابن حبان (٤٥٠/١، رقم ٢١٧)، والبيهقي (١٧٦/٨، رقم ١٦٥٠٧).

الإعراب:

لَعَمْرُكَ: اللام موطئة للقسم، وعمرُك: مبتدأ مضاف إلى كاف الخطاب، وخبره محذوف وجوباً تقديره: قسمي، وهذا أحد المواطن التي يُحذف فيها الخبر وجوباً، وقد أشار إليها ابن مالك بقوله: [الرجز]

وَبَعْدَ لَوْلَا غَالِبًا حَذَفَ الْخَبَرُ حَتَّمْ، وَفِي نَصِّ يَمِينٍ ذَا اسْتَقَرَّ
وَبَعْدَ وَائٍ عَيَّنَتْ مَفْهُومَ مَع كَمِثْلِ كُلِّ صَانِعٍ وَمَا صَنَعَ
وَقَبْلَ حَالٍ لَا يَكُونُ خَبَرًا عَنِ الَّذِي خَبَرُهُ قَدْ أَضْمِرَا
ما: نافية.

في الأرض: مُتعلِّقٌ بمحذوف وجوباً، خبر مُقَدَّم.

وضيق: مُبتدأ مؤخر، وَسَوْغَ الإبتداء به مع كونه نكرة تقديم الخبر عليه، ووقوعه بعد النَّفي، وعمله في محلٍّ على امرئ، لأنَّ الجار والمجرور مُتعلِّقٌ به.

سَرَى: فِعْلٌ ماضٍ، وفاعله ضميرٌ يعود على امرئ، والجملة نعتٌ له، إذ الجُمْلُ لها حالان: إن وقعت بعد معرفة يكون محلُّها نَصْباً على أَنَّها حال، وإن وقعت بعد نكرة تكون نَعْتاً لِمَا قبلها، وإنَّمَا لَمْ يَعْكَسْ لاشتراط تعريف صاحب الحال، مع أنَّ احتياج النكرة إلى الوَصْفِ أَشَدُّ من احتياجها إلى الحال.

راغباً أو راهباً: حالان من ضمير امرئ الذي في سرى، أو منه، لتخصيصه بالوصف وبالجملة، والأوَّل أظهر فتأمل. [الرجز]

وَالْحَالُ وَصْفٌ، فَضْلَةٌ مُتَنَصِّبٌ، مُفْهِمٌ فِي حَالٍ كَفَرْدًا أَذْهَبُ
قاله ابن مالك في أَلْفَيْتِهِ، وفيه كلامٌ محلٌ بسطه كُتِبَ النَّحو.

وهو: الواو للحال، وليست بواجبة الذكر في مثل هذا التَّركيب، لِتَقْدُمِ الحال المُفْرَدَةِ، وهو مُسَوِّغٌ لِتَرْكِ الواو عن الجملة الإسمية إذا وقعت حالاً، كقوله^(١): [السريع]

(١) البيت لابن الرومي، انظر: الديوان (٤٢٧/١) ودلائل الإعجاز (١٦٨/١) ومحاضرات الأدباء

(١٨٣/١) والإيضاح في علوم البلاغة (١٦٨/١) وخزانة الأدب (٧٦/١) ومعاهد التنصيص (٣٠٥/١).

اللَّهُ يُبْقِيكَ لَنَا سَالِمًا بُرْدَاكَ تَعْظِيمٌ وَتَبْجِيلٌ

وَالضَّمِيرُ الَّذِي بَعْدَهُ مُبْتَدَأٌ، وَجُمْلَةُ يَعْقِلُ هُوَ الْخَبَرُ.

والكبرى: إمَّا حَالٌ مِنْ أَمْرٍ لِيَتَخَصَّصَ بِالصِّفَةِ أَوْ مِنْ ضَمِيرِهِ، وَعَلَى كِلَيْهِمَا تَكُونُ مُتَرَادِفَةً، أَوْ أَنَّهَا مِنْ ضَمِيرٍ رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا، فَتَكُونُ مُتَدَاخِلَةً، وَالتَّرْجِيحُ إِلَيْكَ، فَعَلَيْكَ بِهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.

المعنى:

لَقَدْ أَبَدَعَ الشَّنْفَرَى وَأَمْلَحَ وَأَفْصَحَ وَأَوْضَحَ، حَيْثُ جَرَّدَ مِنْ نَفْسِهِ شَخْصًا عَذْلَهُ عَنِ الْأَسْفَارِ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ تَزُكُّ الْأَوْطَانِ وَالْديَارِ، وَإِنْ الْاِغْتِرَابَ اِكْتِتَابَ، وَالْعُزْبَةَ كُرْبَةَ وَمُصَابَ، وَالتَّائِي عَنْ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ يَكُونُ ذَلِيلًا، وَلَوْ كَانَ مُوشِحًا بِالْإِمَارَةِ أَوْ مُلْكًا جَلِيلًا، وَالْمَرْءُ فِي نَادِي قَوْمِهِ مُرْتَاكِ، وَفِي الْغَزْوَةِ عَنْهُمْ لَا يَرَى الْفَلَاحَ، وَإِذَا تَذَكَّرَ الْأَوْطَانَ تَضَيَّقَ عَلَيْهِ الْأَرْضِي، وَإِنْ مَلَكَ الدُّنْيَا، فَهُوَ لَيْسَ بِرَاضٍ. فَعِنْدَ ذَلِكَ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلْجَوَابِ، وَلَمْ يَعْأَ بِالْعِتَابِ، مَقْسَمًا وَطَالِبًا لِلْغَزْوَةِ وَالْإِنْتِقَالِ، وَمُحَقِّقًا وَرَاغِبًا لِقَوْلِهِ فِي مِيدَانِ الْهَجْرَةِ وَقَطَعَ الْأَمَالَ:

وَحَيَاتِكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضَيْقٌ عَلَى بَشَرٍ سَرَى وَهُوَ يَمِيزُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ

سَوَاءٌ كَانَ طَالِبًا لِمَا يَرُومُهُ مِنَ الْمَأْرَبِ، كَادْرَاكَ عَلَاءً أَوْ جَلْبًا لِلْمَادِبِ، أَوْ خَائِفًا أَنْ يَجْرَّ عَلَيْهِ جَرِيرَةٌ، أَوْ رَاغِبًا عَنْ اجْتِرَاحِ كَبِيرَةٍ، وَمَا سَلَكَ إِلَّا طَرِيقَ ذَوِي الثَّفُوسِ الْأَبِيَّةِ، وَالْهَمُّ الرِّفِيعَةُ الْمَرْضِيَّةُ، قَالَ ابْنُ مُقَرَّبٍ:

قُمْ فَاشْدُدِ الْعَيْسَ لِلتَّرْحَالِ مُعْتَزِمًا	وَارْمِ الْفَجَاجَ فَإِنَّ الْخُطْبَ قَدْ نَقَمَا
وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى أَهْلٍ وَلَا وَطَنِ	فَالْحُرُّ يَرْحُلُ عَنْ دَارِ الْأَذَى كَرَمًا
كَمْ رَحْلَةً أَوْرَثَتْ عِزًّا يَدِينُ لَهُ	شَوْسَ الرِّجَالِ وَكَمْ أَبَدَتْ لَهُ نَعْمًا
فَكَمْ إِقَامَةً مَغْرُورٍ لَهُ جَلَبَتْ	ضَيْقًا، وَسَاقَتْ إِلَى سَاحَاتِهَا الْبَقْمَا
فَاسْمِعْ وَلَا تَلْغُ مَا أَنْشَأَتْ مِنْ حَكَمٍ	فَذُو الْحِجَا لَمْ يَزَلْ يَسْتَنْبِطُ الْحَكْمَا
إِنَّ الْمَنِيَّةَ عَيْدٌ عِنْدَ ذِي حَسَبٍ	وَلَا الدُّنْيَةُ هَانَ الْأَمْرِ أَوْ عَظْمَا
لَا يَقْبَلُ الضَّمِيرُ إِلَّا عَاجِزٌ ضَرَعُ	إِذَا لَقِيَ الشَّرَّ يَغْلِي قِدْرُهُ وَجَمَا

وقال الأَرَجَانِي: [الكامل]

وأخو اللَّيَالِي مَا يَزَالُ مُرَاوِحاً مَا بَيْنَ أَذْهَمِ خَيْلِهَا وَالْأَشْهَبِ
فَالْأَرْضُ لِي كُرَّةٌ أَوْاصِلُ ضَرْبِهَا وَصَوَالِجِي أَيْدِي الْمَطَايَا اللَّعْبِ

وقال الآخر: [الكامل]

حاولتُ أَنْ أَلْقَى الزَّمَانَ بِطَبْعِهِ لَوْلا الْوَفَاءُ وَشِيْمَةٌ لَا تَنْقُلُ
فِي الْأَرْضِ مُتَسَخِّعٌ لِنَفْسِ حُرَّةٍ إِنْ تَنْبُ مَنَزَلَةٌ رَعَاهَا مَنْزَلُ

وقال الطغراني^(١): [البسيط]

إِنَّ الْعُلَى حَدَّثَنِي، وَهِيَ صَادِقَةٌ فِيمَا تُحَدِّثُ إِنَّ الْعِزَّ فِي الثُّقُلِ

وليس هذا التجريد هو المُعَبَّرُ عنه عند أرباب البلاغة، وهو أن يُبالغ في صفةٍ فيدعي أنه حصل من موصفها موصوف آخر حقيق بتلك الصفة، كقولك: رأيت من فلان أسداً يصول، والصائل إنما هو نفسه، وكقوله^(٢): [الطويل]

وشوهاء تعدو بي إلى صارخ الوغى بمستلثم مثل البعير المرحل
بل المراد به هو ما عند الشعراء، وهو أن يُجَرِّدَ الشاعرُ من نفسه شخصاً يسأله، يعذله، أو يلومه ونحو ذلك، أو يفنِّده، وأكثرهم على تجريد اثنين، فالأول كقول أبي فراس^(٣): [الطويل]

أراك عَصِي الدَّمْعِ شِيْمَتِكَ الصَّبْرُ أَمَا لِلْهُوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ
وكقول أبي نواس^(٤): [البسيط]

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وداوني بالتي كَأَنَّتْ هِيَ الدَّاءُ
وكقول بعض شعراء المشاركة: [الوافر]

(١) انظر: خزانة الأدب ٤٢٤/١.

(٢) البيت لذی الرمة، وانظر: الديوان ١٥٣/١.

(٣) انظر: الديوان ١٥٣/١.

(٤) انظر: الأغاني ٢٢١/٧، والبديع في نقد الشعر ١٤٧/١.

علام وفيم ظلما تلحياني دعاني لا أبا لكما دعاني

تتمة:

أتى بالقسم المدلول عليه باللام، لكونه فرض الشخص المجرد منكرا عليه كما هو مقتضى المقام، فإن قلت: لِمَ عَبَّرَ بِسَرَى دُونَ سَارٍ؟ قلت: لكونه من وظائف الليل، فإذا كان متأهبا للسفر في الليل فمن باب أولى أن يكون بالنهار.

تنبيه:

يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ صَلَةً رَاغِبًا: فِي أَوْ عَنْ، وَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمَعْنَى: لَا ضَيْقَ عَلَيْهِ إِذَا سَرَى لِأَمْرِ مَا يُرِيدُهُ، وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ لَا ضَيْقَ عَلَيْهِ إِذَا سَرَى تَارِكًا أَوْ كَارِهًا لِأَمْرِ مَا، وَحَذَفَ لِذَهَابِ نَفْسِ السَّامِعِ إِلَى مَا شَاءَتْ مِنْهُمَا، كَحَذْفِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَزْعُبُونَ أَنْ تَنْكُحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]، وَقَيَّدَ الشَّرَى بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، لِأَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَرْتَكِبُ مَشَقَّةَ الْأَسْفَارِ إِلَّا لِأَحَدِ هَاتَيْنِ، إِذِ السَّفَرُ لَا عَنْ قَصْدٍ مِمَّا يُعَدُّ سَفَهًا وَعَبَثًا، بَلْ يُسَمَّى مَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ: رَاكِبَ التَّعَاسُفِ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ قَصْرُ الصَّلَاةِ وَجَمْعُهَا عِنْدَ أَصْحَابِنَا الشَّافِعِيَّةِ سَقَى عَهْدَهُمْ صِيبَ الرَّحْمَةِ.

تكلمة:

يَكْفِي الْهَجْرَةُ فَخْرًا مَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(١): (مَوْتُ الْغَرِيبِ شَهَادَةٌ)، وَأَقُولُ: "هَذَا مِمَّا يُؤَكِّدُ مَشَقَّةَ الْغُرْبَةِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدْخَلَهُ فِي جَمَلَةِ الشُّهَدَاءِ، كَالْقَتِيلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمَبْطُونِ، وَالْمَطْعُونِ، وَالْغَرِيقِ، وَالْمَيْتِ عَشَقًا، وَالْمَيْتَةَ طَلَقًا، وَالْمُرَادُ أَنَّ لِكُلِّ مَنْ هُوَ لَاءَ أَجْرِهِ، وَلَيْسَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُهُ: مِنْ عَدَمِ الْغَسْلِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا هَذَا فِي حَقِّ مَنْ مَاتَ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ، أَوْ أَصَابَهُ سِلَاحُ مُسْلِمٍ خَطَأً، أَوْ عَادَ عَلَيْهِ سِلَاحُهُ، أَوْ سَقَطَ عَنْ فَرَسِهِ مَيْتًا، أَوْ رَمَحَتْهُ دَابَّتُهُ، فَمَاتَ، أَوْ وَجَدَ قَتِيلًا عِنْدَ انْكَشَافِ الْحَرْبِ وَلَمْ يُعْلَمْ سَبَبُ قَتْلِهِ، سِوَاكَ كَانَ عَلَيْهِ أَثَرُ دَمٍ أَوْ لَا.

(١) أخرجه الطبراني (٢٤٦/١١، رقم ١١٦٢٨)، وأبو نعيم في الحلية (١١٩/٥) وقال: غريب. وابن عساكر (١٤/٤٥) وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٢٦٩/٤، رقم ٢٣٨١)، والقضاعي (٨٣/١، رقم ٨٣)، وابن عدي (٢٥٧/١)، ترجمة ٨٧ إبراهيم بن بكر أبو إسحاق الكوفي).

أَمَّا إِذَا مَاتَ حَتَفَ أَنْفَهُ، أَوْ بَقَتَالِ الْكُفَّارِ بَعْدَهُ، أَوْ مِنَ الْبُغَاةِ: فَقَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَإِنْ جُرِحَ فِي الْحَرْبِ وَبَقِيَ فِيهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ حَيَاةٌ مُسْتَقَرَّةٌ، فَقَوْلَانِ أَظْهَرُهُمَا أَنَّهُ لَيْسَ بِشَهِيدٍ، وَقِيلَ: إِنْ مَاتَ عَنْ قَرِيبٍ: فَقَوْلَانِ، وَإِنْ بَقِيَ أَيَّامًا، فَلَيْسَ بِشَهِيدٍ قَطْعًا.

أَمَّا إِذَا انْقَضَتْ الْحَرْبُ، وَفِيهِ حَرَكَةٌ مَذْبُوحٌ، فَشَهِيدٌ بِلَا خِلَافٍ، وَلَهُ مِنَ الْحُكْمِ مَا تَقَدَّمَ، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١): "زَمَلُوهُمْ فِي ثِيَابِهِمْ" .. الْحَدِيثُ، وَلَا يَصَلِّي عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ مَقْطُوعٌ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١٦٩].

فَإِنْ قِيلَ: الْأَنْبِيَاءُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ - مَقْطُوعٌ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَقَدْ ضَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى عَلَى حَمْزَةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَبْعِينَ مَرَّةً يَوْمَ أَحَدٍ، كُلَّمَا قُدِّمَ إِلَيْهِ مَيِّتٌ صَلَّى عَلَيْهِ مَعَهُ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْقَائِلِ فِي الْمَوْسُوسِ:

وَبَارِدِ النَّيِّةِ عَنِهَا يُكَرِّرُ الرَّعْدَةَ وَالْهَزَّةَ
مُكَبِّرًا سَبْعِينَ فِي مَرَّةٍ كَأَنَّمَا صَلَّى عَلَى حَمْزَةٍ

وَبِهِ قَالَتِ الْحَنْفِيَّةُ، مُسْتَشْهِدِينَ بِصَلَاةِ حَمْزَةٍ.

وَيَجَابُ عَنْ الْأَوَّلِ: بِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تُوجَدَ بَعْضُ الْمَزَايَا فِي الْمَفْضُولِ، وَلَمْ تَوْجَدْ فِي الْفَاضِلِ.

وَعَنِ الثَّانِي: بِأَنَّهُ صَلَاتُهُ عَلَى حَمْزَةٍ، إِنْ سَلِمَتْ، فَهِيَ وَاقِعَةٌ حَالٍ فَعْلِيَّةٍ، فَلَا تُعَارِضُ مَا ثَبَّتَ نَصًّا مِنْ عَدَمِ الصَّلَاةِ عَلَى الشَّهِيدِ.

وَالْمَسْأَلَةُ مُحَلٌّ بِسَطْهَا كَتَبَ الْأَصُولُ فَلْتَرَا جَع.

وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: إِنَّ الْوَلَدَ الصَّغِيرَ إِذَا قُتِلَ فِي الْحَرْبِ يُغْسَلُ، وَكَذَا الْبَاغِي يَمْنَعُ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ، مُسْتَدْلِينَ بِإِيجَابِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحَارَبَتِهِمْ.

وَأَمَّا عِنْدَنَا: فَإِنَّ الْقَاتِلَ وَالْمَقْتُولَ فِي حَرْبٍ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي

(١) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (٢٩/٦)، رَقْمُ (٣١٤٨). وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: الدَّيْلَمِيُّ (٢٩٤/٢)، رَقْمُ (٣٣٤٢).

الجنّة، لأنّ كلاًّ منهما اجتهد، فأصاب الأول وأخطأ الثاني، والمُجتهد إن أصاب له أجران، وإن أخطأ له أجر واحد.

وخالفوهم في الجُنُب أيضاً، إذ الشّهادة لا تُزيل الجنابة.

وقال أئمتنا: إنّما الغسل لأداء الفرض، ولا فرض.

فالشّهيد بالشروط المذكورة أعلى رُتب الشّهادة، واشترط أصحابنا في الميت عَشَقاً أمرين: العِفَّة والكتمان، لقوله صَلَّى الله عليه وسلم^(١): "من عَشَق فَعَف فَمَات مَات شهيداً"، وقال الشاعر^(٢):

خَلِيلِي هَلْ خُبَرْتَمَا أَوْ سَمِعْتَمَا بَأَنَّ قَتِيلَ الْغَانِيَاتِ شَهِيدُ
وَمَا أَحْلَى قَوْلِ ابْنِ رَوَاحَةَ الْحَمَوِيِّ^(٣):

لَا مُوَا عَلَيْكَ وَمَا دَرَوْا أَنَّ الْهَوَى سَبَبُ السَّعَادَةِ
إِنْ كَانَ وَضْلاً فَالْمُنَى أَوْ كَانَ هَجْراً فَالشَّهَادَةُ

وقد استدلّ بهذا الحديث للمسألة المذكورة الإمامُ النَّوَوِي في بعض مؤلفاته الفقهية، وأعتزّض عليه الصّلاحُ الصّفدي: بأنّ الحديث معلول لا يَضُحُّ الإحتجاجُ به، وخَبَطَ في شرحه لامية العجم، وأساء مع ذلك البحرِ المفعم، حتّى أنكر عليه الجُهالُ، وصارَ ضحكةً للأطفال. والذي يخطرُ في البال أنّ الإمامَ النَّوَوِي لَمَّا حَرَّمَ النَّظَرَ إلى الأمرِ الجميل، حَقَّدَ عليه هذا التَّيْلُ، حيث أبطلَ صناعته، وإلّا فالإمامُ النَّوَوِي كلامه حجة، والحديث البالغ الغاية في الضّعف إذا سطره النَّوَوِي بقرطاسه، ارتقى إلى درجة الصحة، إذ هو منه يُسأل، لا عنه يُسأل.

ثم قال^(٤):

(١) أخرجه الخطيب (٤٧٩/١٢).

(٢) انظر: نفح الطيب ١١٨/٣.

(٣) انظر: معجم الأدباء ٤١١/١.

(٤) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريح الكرب": الأهلون: جمع أهل، وأهل الرجل: عشيرته وذوو قُرباه، وهو هنا استعارة لما ذكره من السيّد - بالكسر - وهو من أسماء الذنوب. والعَمَلْس، بفتح العين المهملة والميم واللام المشددة: الخبيث من الذناب. والأرقط: الثمر، سمي

٥- وَلِي دُونَكُمْ، أَهْلُونَ سَيْنْدٌ عَمَلَسَ وَأَزَقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جِيَّالٌ

اللغة:

دُون: بِالضَّمِّ نَقِيضُ فَوْقَ، وَيَكُونُ ظَرْفًا، وبمعنى أَمَامَ، وَوَرَاءَ، وَفَوْقَ ضِدٌّ، وبمعنى غير كما هنا، قيل: ومنه^(١): "لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسٍ أَوَاقٍ صَدَقَّةٌ" أي: في غير خمس أواق، قيل: ومنه الحديث^(٢): "أَجَازَ الْخُلْعَ دُونَ عِقَاصِ رَأْسِهَا" أي: بما سَوَى رَأْسِهَا، إِذْ معناه بكل شيء إِلَّا عِقَاصَ رَأْسِهَا، وبمعنى الشَّرِيفِ وَالْحَسِيسِ ضِدٌّ، وبمعنى الوَعِيدِ وَالْأَمْرِ.

أَهْلُونَ: جَمْعُ أَهْلٍ، وَأَهْلُ الرَّجُلِ: عَشِيرَتُهُ وَأَقْرَبَاؤُهُ.

السَّيْنِدُ: بكسر السين المهملة وسكون المثناة التحتية آخر الحروف دال مهملة: الذَّبْتُ، والجمع: السَّيْدَانِ، والأنثى سيدة، وربما سُمِّيَ به الأسد، والداهية، وبالتحريك: القليل من الشَّعْرِ، وماله سبد ولا لبد محركاتان أي: لا قليل ولا كثير، وكضرد العانة، وثوب يسد به الحوض لئلا يتكدر الماء، وبالفتح حلق الشَّعر.

العَمَلَسُ: بالسَّينِ المهملة، والميم واللام المُشَدَّدَةُ المفتوحات، قال أبو عمرو: هُوَ الْقَوِيُّ عَلَى السَّيْرِ السَّرِيعِ، وأنشد^(٣): [الطويل]

بذلك لرفطته، وهي سواد مشوب بنقطة بيض. والزُهْلُولُ، بزنة عُجُوجٍ: الأملس. والعرفاء هنا: الضَّبْعُ، سُمِّيَتْ بذلك؛ لِأَنَّ لَهَا عَرْفًا، بضم العين، أي: شَعْرًا فِي غُنْفِهَا. وجيَّالٌ: مِنْ أَسْمَاءِ الضَّبْعِ، فَهُوَ بَدَلٌ مِنْ عَرْفَاءَ، وَهُوَ عَلَى وَزْنِ فَيْعَلٍ، وَمَعْرِفَةٌ بِلَا أَلِفٍ وَلَا لَامٍ، قَالَهُ فِي الصَّحَاحِ. ومعنى البيت: وَلِي دُونَكُمْ يَا بَنِي أُمِّي أَهْلُونَ، أي: مُؤَالِفُونَ مِنْ وَحُوشِ الْقِفَارِ وَالْمَقَاوِزِ، وَهُمْ ذُبْتُ حَبِيبٌ وَتَمَرَّأَمَلَسَ، وَضَبْعٌ ذَاتُ عَرْفٍ.

والمقصود أَنَّهُ اعْتَادَ السَّفَرَ، وَتَكَرَّرَ مِنْهُ قَطْعُ الْمَهَامِ، حَتَّى أَلْفَنَهُ وَحُوشُهَا فَصَارَتْ لَهُ بِمِثَابَةِ الْأَهْلِ، أي: فَلَا يُؤَدُّنِي الرَّحِيلُ، وَلَا يَشُقُّ عَلَيَّ السَّيْرُ.

(١) أخرجه البخارى (٥٤٠/٢، رقم ١٤١٣)، ومسلم (٦٧٤/٢، رقم ٩٧٩)، وأبو داود (٩٤/٢، رقم ١٥٥٨)، والترمذى (٢٢/٣، رقم ٦٢٦)، والنسائى (٣٧/٥، رقم ٢٤٧٦)، وابن ماجه (٥٧٤/١، رقم ١٧٩٩)، وابن خزيمة (٣٣/٤، رقم ٢٢٩٤)، وابن حبان (٦٢/٨، رقم ٣٢٦٨)، والدارقطنى (٩٣/٢).

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة (١٢٥/٤، رقم ١٨٥٢٦)، والبيهقى (٣١٥/٧، رقم ١٤٦٢٨).

(٣) انظر: الحماسة ٣٥١/٢.

عَمَلَسُ أَسْفَارٍ إِذَا اسْقَبْتُ لَهُ سَمُومٌ كَحَرِّ النَّارِ لَمْ يَتَلَثَّمْ
وَالْعَمَلَسُ: أَيْضاً الذُّبُّ، أَمَا قَوْلُهُمْ: هُوَ أَبْرُ مِنَ الْعَمَلَسِ، فَهُوَ اسْمُ رَجُلٍ كَانَ يَحْجُ
بَأَمِّهِ عَلَى ظَهْرِهِ، وَكَلَبُ الصَّيِّدِ، وَالْعَمْلُوسَةُ بِالضَّمِّ: الْقَوْسُ الشَّدِيدَةُ السَّرِيعَةُ السَّهْمُ،
وَالْعَمْلَسَةُ: الشُّرْعَةُ.

وَالْأَرْقَطُ: بِهِمْزَةٌ مَفْتُوحَةٌ، وَرَاءَ مَهْمَلَةٍ سَاكِنَةٍ، وَقَافٌ مَفْتُوحَةٌ، وَآخِرُ الْحُرُوفِ طَاءٌ
مَهْمَلَةٌ: التَّمِيرُ، وَمِنَ الْغَنَمِ الْأَبْلَقُ، وَلَقَبَ حُمَيْدُ بْنُ مَالِكٍ الشَّاعِرَ، لِأَنَّهُ كَانَ يَبْجُهِ،
وَالرُّقْطَاءُ: الْفِتْنَةُ، وَلَقَبُ الْهَلَالِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا قِصَّةُ الْمُغِيرَةِ، وَالْمُبْرَقِشَةُ مِنَ الدَّجَاجِ،
وَالكَثِيرَةُ الزَّيْتِ مِنَ الثَّرِيدِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَرْقِطِ دَلِيلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
فِي الْهَجْرَةِ، وَتَرَقَّطَ ثَوْبُهُ: تَرَشَّشَ عَلَيْهِ نُقْطٌ مَدَادٍ أَوْ شَبْهَهُ.

الزُّهْلُولُ: بَضَمَ الزَّاءِ، وَسَكُونُ الْهَاءِ: الْأَمْلَسُ، وَجَبَلٌ، وَالزُّهْلُ: التَّبَاعُدُ عَنِ الشَّرِّ،
وَبِالتَّحْرِيكِ اِمْلِيْلَاسٌ وَبِيَاضٌ، وَزَهْلٌ كَفَرَحَ، وَالزَّاهِلُ: الْمُطْمَئِنُّ الْقَلْبُ.

الْعَرْفَاءُ: بَفَتْحِ الْعَيْنِ، وَسَكُونِ الرَّاءِ الْمَهْمَلَتَيْنِ، وَبِالْفَاءِ: الضَّبُّعُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ
شَعْرِ رَقَبَتِهَا.

وَالجِيَالُ: بَفَتْحِ الْجِيمِ، وَسَكُونِ الْمَثْنَاءِ التَّحْتِيَّةِ، وَفَتْحِ الْهَمْزَةِ، آخِرُ الْحُرُوفِ لَامٌ:
اسْمٌ لِلضَّبُّعِ، وَجِيَالْتُ الْجُرْحُ: غَشِيَتْهُ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: مِنْ غَيْرِ أَدَاةِ التَّعْرِيفِ، قَالَ
الرَّاجِزُ^(١): [الرجز]

قَدْ زَوَّجُونِي جِيَالاً فِيهَا حَدَبٌ دَقِيقَةَ الرُّفْعَيْنِ ضَخْمَاءَ الرُّكْبِ
قَالَ الْكَسَائِيُّ: هِيَ جِيَالَةٌ، وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ النَّحْوِيُّ: رُبَّمَا قَالُوا: جِيَالَةٌ لِلتَّخْفِيفِ،
وَيَتَرَكُونَ الْيَاءَ غَيْرَ مَعْلَةٍ، لِأَنَّ الْهَمْزَةَ وَإِنْ كَانَتْ مَلْغَاءَةً فِي اللَّفْظِ، فَهِيَ مُرَاعَاةٌ فِي النِّيَّةِ،
وَمَعَامَلَةٌ مَعَامَلَةُ الْمُثَبَّتَةِ غَيْرِ الْمَحْذُوفَةِ، فَلَمْ يَقْلَبُوا الْيَاءَ كَمَا قَلَبُوهَا فِي نَابٍ وَنَحْوِهِ، لِأَنَّ
الْيَاءَ فِي نِيَّةٍ سَكُونٍ.

الإعراب:

ولي: الواو عاطفة، ولي خبر مُقَدَّم.

(١) انظر: اللسان (رفع).

ودون: حال من أهلون على رأي من يُجَوِّز مجيئه من المبتدأ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَهَذَا بَغْلِي شَيْنًا﴾ [هود: ٧٢]، ولا يضُرُّ إضافتها إلى ضمير المخاطبين لأنها بمعنى غير، فحكمها حكمها.

أهلون: مبتدأ معرب إعراب جمع المذكر السالم، لأنَّه ملحق به.

سيد: بدل من أهلون، بدل مفصل من مجمل.

عملس: إما صفة لسيد أو بدل على اختلاف معناه.

وأرقط: معطوف على سيد.

وزهلول: نعته.

وعرفاء: إما معطوف على أرقط أو على سيد، على الخلاف المشهور في العطف على المتعدد.

وجيأل: بدل من عرفاء، ولا يصحّ كونه عطف بيان، لما قال ابن هشام: إنه معرفة، وعرفاء نكرة، وهذا يُشكل قاعدة النحويين حيث قالوا: كلُّ ما جازَ أن يكون بدلاً، جازَ أن يكون عطف بيان، ويجاب باستثنائه، كما استشهدوا بقول الشاعر^(١): [الوافر]

أَنَا ابْنُ الثَّارِكِ الْبَكْرِيِّ بِشَرٍّ عَلَيْهِ الطَّيْرُ تَرْقُبُهُ وَفُوعَا

حيث إنَّه لا يجوز أن يكون بشر بدلاً من البكري، لأنَّ شرط البدل أن يصحَّ حلوله محلَّ المبدل منه، وههنا لا يستقيم ذلك، لأنَّه يلزم إضافة الوصف المقرون بالألف واللام إلى ما هو خال عنها، كما بين سبب منعه في كتب النحو.

(١) للمرار الأسدي، يصف نفسه بالشجاعة وأنه ابن الذي ترك البكري بشراً مجندلاً في العراء، مشخناً بالجراح في حالة يرثى لها، تنتظر الطير خروج روحه لتهبط عليه وتنهش من جسده، فهو شجاع من نسل شجاع.

انظر: الكتاب ١/١٨٢، وشرح المفصل ٣/٧٢، ٧٣، والمقرب ١/٢٤٨، وشرح عمدة الحافظ ١/٥٥٤، وابن النّاطم ٥١٨، وأوضح المسالك ٣/٣٦، وابن عقيل ٢/٢٠٤، والتّصريح ٢/١٣٣، والهمع ٥/١٩٤، والخزانة ٤/٢٨٤.

المعنى:

بعد أن حثَّ نفسه، ورغَّبها في التحول والتنزه عن نادي قومه، والتنقل، التفت إليهم مخاطباً وقائلاً بالصواب: ولي غيركم أهالي متعددة لا يروعي بينهم المصائب، الذئب السريع القوي على السير، والنمر الأملس، والضبع، الألى لا تمكث على الضير، ولا تظنوني إذا فارقتكم لا أجد عشيرة وأصحاب، بل إن لي من الوحوش والأناسي قرابات متعددة وأحباب.

وكان مراد الناظم من الإبتداء إلى ما يتوصل إلى الانتهاء إعلام قومه أنه غير محتاج إليهم، ولا إلى غيرهم من الناس، في الإعانة، والإغاثة، والمأكل، والمشروب، واللباس، فبين لهم أنه يخالط الوحوش ويصبر على الجوع، والحر، والبرد، وإذا ظمى يسبق القطا الكدري إلى الورد، ومع ذلك لا يترك غاراته ويرتاح، إلى غير ذلك من الصفات في المساء والصباح.

تنبيه:

في التعبير بلفظ الملحق بالجمع، للإشعار بأن كل نوع أهل على حدة، وخص هذه الأنواع الثلاثة دون ما سواها من الوحوش: كابن آوى، والثعلب، لأنها مما لا تليق بالمخالطة، هكذا ذكر السويدي - رحمه الله تعالى - في شرحه، وتعليقه بالمخالطة فيه نظر، فتدبر.

وأما ما فوقها، كالأسد، فلا يظن به التجاء إلى من هو أقوى منه، فيكون هارباً من ذل إلى ذل، ومن ضيم إلى ضيم، فيقع مما فر منه، ولأن الأسد لا يألف أحداً، لزعمه أن ليس له كفاء، هذا على تقدير أن لا يكون معنى السيد الأسد، وأما إذا أريد به الأسد كما هو أحد معنييه، فلا يحتاج إلى التأويل. وفي البيت إشعاراً بأنه لم يجد خيراً من قومه فيوألّفهم، فلذلك اختار الوحوش، وموآلفتها أمر ممكن بالواقع، ويحتمل أنه نفر من نوع الإنسان، إذ كل واحد من غير قومه يجوز عليه ما جاز على قومه.

قال أبو الطيب^(١): [الوافر]

وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَضْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
وَأَنْفُ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي إِذَا أَنَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكَرَامِ
أَرَى الْأَجْدَادَ يَغْلِبُهَا كَثِيرًا عَلَى الْأَخْلَاقِ أَوْلَادَ اللَّئَامِ
وقال الأرجاني^(١): [الطويل]

أَسِفْتُ عَلَى عُمْرٍ تَصَرَّمَ ضَائِعًا وَجُدْتُ بَدَمْعٍ يَسْتَهْلُ هَتُونِ
وَأَسْنِي بُعْدِي عَنِ النَّاسِ جَانِبًا وَإِنْ هُمْ عَلَى أَحْدَاqِهِمْ حَمَلُونِ
وَلَمَّا غَدَا عِيًّا عَلَى جَفْنٍ نَاطِرِي لِقَاءِ الْوَرَى مِنْ صَاحِبِ وَخْدَيْنِ
أَلَفْتُ الْفَلَاحَ مُسْتَوْطِنًا ظَهَرَ نَاقَتِي تَلَفَّ سَهُولَ دَائِمًا وَحَزُونِ
وَمَا سِرْتُ إِلَّا فِي الْهَوَاجِرِ وَخُدَهَا كِرَاهَةً ظَلَمِي أَنْ يَكُونَ قَرِينِي

تكملة:

ربما ألبأ الشَّنْفَرَى إِلَى التَّغْرِبِ مَعَ الْوَحُوشِ عَدَمَ فَائِدَةِ التَّشَبُّثِ بِالْأَسْبَابِ، سَوَى
سَدِّ الرَّمَقِ مَعَ تَذَكُّرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ^(٢): [الوافر]

فَلَا تَبْعُدْ فَكُلَّ فَتَى سَيَّاتِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُغَادِي
وَمِمَّا اتَّفَقَ أَنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا أَمَرَ مَسْرُورًا الْخَادِمَ بِقَتْلِ جَعْفَرِ الْبِرْمَكِيِّ، دَخَلَ عَلَيْهِ وَابْنُ
زَكَارٍ يَغْنِي بِهَذَا الْبَيْتِ.

وقال الآخر بهذا المعنى^(٣): [من البسيط]

(١) انظر: زهر الأكم ١٨٠/١.

(٢) انظر: ديوان بشار ٧١٨/١.

(٣) قال العيني: لم أقف على اسم قائله، وبالبحت لم أعثر على قائله.

الشرح: "لا طيب" الطيب بكسر الطاء وسكون الياء اسم لما تستطيبه النفس، "منغصة" اسم مفعول من التنغيص، وهو التكدير؛ ويقال: نغص فلان عيش فلان إذا كدره، "لذاته" جمع لذة وهو ما يتلذذ به الإنسان، "ادكار" بتشديد الدال مكسورة وأصله اذتكار فقلبت التاء دالا ثم قلبت الدال المعجمة دالا ثم أدغمت الدال في الدال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

المعنى: لا يرتاح الإنسان إلى الحياة ولا يستطيب فيها العيش ما دام يتذكر أيام الهرم التي تجيئه بأسقامها وأوجاعها ولا ينسى أنه مقبل على الموت لا محالة.

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةٌ لَذَائُهُ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ

فإذا كان الأمر كذلك، فأبي بضاعة ترتجى مع مخالطة أبناء الدنيا والحاجة إليهم، وفيه سعة عن ذلك، مع علو همته وزكاء نفسه، ولا يرتضي ذلك إلا من كان منهم، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كَرَّمَ اللهُ وجهه ورضي الله عنه - في حقها^(١): [الطويل]

وَمَا هِيَ إِلَّا جِنْفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهَا كِلَابٌ هُمُهَا اجْتَذَابُهَا

فائدة:

من خصائص علي كرم الله وجهه، والحكمة في ذلك أنه ما سجد لصنم منذ ولدته أمه، ولكن ذكر العلامة ابن حجر المكي أن ذلك يُقال لأبي بكر رضي الله عنه أيضاً لهذه الحكمة.

وكان ثالث ثلاثة في أوّل الإسلام، وهم: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي ذلك قال علي كَرَّمَ اللهُ وجهه^(٢): [الوافر]

سَبَقْتَكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ طَرَأَ غَلَاماً مَا بَلَغْتَ أَوَانَ حَلَمِي

ثم قال^(٣):

الإعراب: "لا طيب" لا نافية للجنس واسمها، "للعيش" جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا، "ما" مصدرية ظرفية، "دامت" فعل ماض ناقص والتاء للتأنيث، "منغصة" خبر دام مقدم، "لذاته" اسم دام مؤخر والهاء مضاف إليه، "بادكار" جار ومجرور متعلق بقوله منغصة، "الموت" مضاف إليه، "والهرم" معطوف عليه.

ذكره من شراح الألفية: ابن الناظم ص ٥٥، وابن هشام ١ / ١٧١، والسندوبي، والأصطهناوي، والأشموني ١ / ١١٢، والسيوطي ص ١٣١، وابن عقيل ١ / ١٥٦.

(١) انظر: جواهر الأدب ٦٤/٢.

(٢) انظر: الحماسة المغربية ٥٦/١.

(٣) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الرهط: في معنى الأهل. والسرُّ المُستودع: الذي أودع، أي: جعل وديعة عند الشخص، بمعنى أن مَنْ أُلْفِيَ إِلَيْهِ يُطْلَبُ مِنْهُ كَيْمَانُهُ.

٦- هُمُ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَّلُ

اللغة:

المُسْتَوْدَعُ: اسمُ مفعولٍ، أو مصدرٌ مِنْ اسْتَوْدَعْتُهُ وَدِيعَةً إِذَا اسْتَحْفَظْتُهُ إِيَّاهَا، والمُسْتَوْدَعُ فِي شِعْرِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الْمَكَانُ الَّذِي جُعِلَ فِيهِ آدَمُ وَحَوَّاءُ - صلوات الله تعالى على نبينا وعليهما -، فِي الْجَنَّةِ أَوْ الرَّحِمِ، وَوَادَعَهُمْ: صَلَحَهُمْ، وَتَوَادَعَا: تَصَالَحَا: وَتَوَدَّعَا: صَانَهُ فِي مِيدَعٍ، وَفَلَانًا ابْتَدَلَهُ فِي حَاجَتِهِ ضِدًّا، وَتَوَدَّعَ مِنْهُ مَجْهُولًا: سَلِمَ عَلَيَّ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ، أَنْ تَقُولَ: إِنَّكَ ظَالِمٌ، فَقَدْ تَوَدَّعَ مِنْهُمْ"^(١)، أَي: اسْتُرْجِحَ مِنْهُمْ وَخَذَلُوا، وَخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَعَاصِي، فَتَحَفِظَ مِنْهُمْ وَتَوَقَّى كَمَا يُتَوَقَّى شِرَارُ النَّاسِ.

السِّرُّ: هُوَ الَّذِي يُكْتَمُ، جَمْعُهُ أَسْرَارٌ كَأَنْصَارٍ وَأَطْهَارٍ، وَالسَّرِيرَةُ مِثْلُهُ، وَالْجَمْعُ السَّرَائِرُ كَحَرَائِرٍ، وَيُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى: الْجَمَاعِ، وَالذَّكْرِ، وَالنِّكَاحِ، وَالْإِفْصَاحِ، وَالزَّيْنِ، وَفَرْجِ الْمَرْأَةِ، وَمُسْتَهْلِ الشَّهْرِ، وَآخِرُهُ، وَوَسْطُهُ، وَالْأَصْلُ، وَالْأَرْضُ الْكَرِيمَةُ، وَجَوْفُ كُلِّ شَيْءٍ وَلُبُّهُ، وَمَخْضُ النَّسَبِ وَأَفْضَلُهُ.

ذَائِعٌ: نَعْتُ مَنْ ذَاعَ الْخَبْرُ يَذِيعُ ذَيْعًا وَذَيْوَعًا ذَيْوَعَةً وَذَيْعَانًا، انْتَشَرَ، وَالْمِذْيَاغُ: بِالْكَسْرِ مَنْ لَا يَكْتُمُ السِّرَّ، وَأَذَاعَ سُرَّهُ: أَفْشَاهُ وَأَظْهَرَهُ، أَوْ نَادَى بِهِ فِي النَّاسِ وَالْإِبْلِ، أَوْ

يقول: هُم - أي: ما ذَكَرَ مِنَ الْوَحْشِ - الرَّهْطُ لَا غَيْرُهُمْ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِاسْمِ الْأَهْلِ وَالرَّهْطِ مِنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّ مَنْ اسْتَوْدَعَهُمْ سِرًّا كَتَمُوهُ فَلَمْ يُفْشِ عَنْهُمْ، وَمَنْ جَنَى جُنَايَةً عَلَى أَحَدٍ لَمْ يَسْلُمُوهُ إِلَيْهِ بِجَرِيرَتِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ خِذْلَانًا مِنْهُمْ لَهُ، فَأَيُّنَ هُمْ مِنَ الْمُسَمِّينَ بِالْأَهْلِ، الَّذِينَ يَشِيعُ لَدَيْهِمْ مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ، وَيُخَذَّلُونَ الْجَانِي بِمَا جَرَّ، فَيَسْلَمُونَهُ إِلَى الْمَجْنِيِّ عَلَيْهِ.

(١) أخرجه أحمد (١٩٠/٢)، رقم (٦٧٨٤)، والبزار (٣٦٣/٦)، رقم (٢٣٧٥)، وابن عدي (١٢٣/٦)، ترجمة ١٦٢٩ محمد بن مسلم بن تدرس)، والحاكم (١٠٨/٤)، رقم (٧٠٣٦) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. والبيهقي في شعب الإيمان (٨٠/٦)، رقم (٧٥٤٦). وأخرجه أيضًا: البيهقي (٩٥/٦) رقم (١١٢٩٦)، والحاثر كما في بغية الباحث (٧٦٣/٢)، رقم (٧٦١)، والدليمي (٢٦٣/١)، رقم (١٠٢٠). وقال الهيثمي (٢٦٢/٧): رواه أحمد، والبزار بإسنادين، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح، وكذلك رجال أحمد. وقال في (٢٧٠/٧): رواه أحمد، والبزار، والطبراني، وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح.

القوم بما في الحوض شربوا ما فيه، وبمالي ذهبوا به.

لدى: بمعنى عند، وتفارق لَدُنْ من جهة: أَنَّ لَدَى تستعمل استعمال عند مطلقاً، نحو: ﴿لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨]، ﴿لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] وَلَدُنْ لا تكون إلا إذا كان المحل محل ابتداء غاية، نحو: جِئْتُ مِنْ لَدُنْهُ، وقد اجتمعت لَدُنْ وعند في قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: ٦٥]، ولو جيء بعند فيهما، أو بَلَدُنْ فيهما، لصح، ولكن ترك للتكرار، وتفارق لَدُنْ أيضاً من وجه آخر، وهو أَنَّ لَدُنْ لا تكون إلا فضلة، بخلاف لَدَى وعند، بدليل: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤]، ومن وجه آخر أيضاً وهو أَنَّ جَرَّ لَدُنْ بمن أكثر من نصبها، حتى أنها لم تجئ في التنزيل منصوبة، وجرُّ عند كثير، وجرُّ لَدَى مُمتنع، وأيضاً أَنَّ لَدَى وعند معربان، وَلَدُنْ مبنية في لغة الأكثرين، إلا أَنَّ قيساً يعربونها، وبلغتهم جاءت قراءة: (مِنْ لَدُنْ)، بضم الدال وكسر النون، وأيضاً أَنَّ لَدُنْ قد تضاف إلى الجملة، كقوله:

لَدُنْ سَبَبَتْ حَتَّى شَابَ سُودُ الدَّوَابِّ

وأيضاً أَنَّ لَدُنْ قد لا تضاف، وذلك أنهم حكوا في غدوة الواقعة بعدها: الجَرُّ بالإضافة، والنصب على التمييز، والرفع بإضمار كان تامة، وهذا غاية ما قيل في الفرق بين لَدَى وَلَدُنْ وعند، فخذوه وكن من الشاكرين.

بقي شيء، وهو أَنَّ عند أمكن مِنْ لَدَى، من وجهين: أحدهما أنها تكون ظرفاً للأعيان والمعاني، تقول: هذا القول عندي صواب، وعند فلان علم، ويمتنع ذلك في لَدَى، ذكره ابن الشجري في أماليه ومبرمان في حواشيه، وثانيهما أنك تقول: عندي مال، وإن كان غائباً، ولا تقول لدي مال إلا إذا كان حاضراً، قاله الحريري وأبو هلال العسكري وابن الشجري، واتصاله بالمضمرات كاتصال على فتقلب ألفه ياء.

اللِّدَّة: كعدة الترب جمع لدات، ذكره المجد اللغوي.

الجانبي: نعتٌ مِنْ جَنَى الدَّنْبِ يَجْنِيهِ جَنَائَةً جَرَّهُ إِلَيْهِ.

جَرَّ: بفتح الجيم منَ الجَرِيرَةِ، وهي الذَّنْبُ والجَنَائَةُ، يُقَالُ: جَرَّ عليه جَرِيرَةٌ، أَي جَنَى عليه جَنَائَةً.

يُحَذِلُ: بضم المثناة التحتية، وسكون الخاء المعجمة، وفتح الذال المعجمة، مضارع حَذَلَ حَذَلَاناً إِذَا تَزَكَّتْ نُصْرَتُهُ، فهو خَاذِلٌ وَخَذَلَةٌ كَهَمْزَةٍ، وَالظُّبَيْةُ وَغَيْرُهَا تَخَلَّفَتْ عَنْ صَوَاحِبِهَا وَانْفَرَدَتْ، وَالظُّبَيْةُ أَقَامَتْ عَلَى وَلَدِهَا فَلَمْ تَلْحَقْ، كَأَخَذَلْتُ وَتَخَذَلْتُ، فَهِيَ: خَاذِلٌ وَخَذُولٌ وَمُحَذِلٌ، وَالْحَذُولُ: الْفَرَسُ الَّتِي إِذَا ضَرَبَهَا الْمَخَاضُ لَمْ تَبْرَحْ مِنْ مَكَانِهَا، وَتَخَذَلْتُ رِجْلَاهُ: ضَعُفَتَا، وَالْقَوْمُ تَدَبَرُوا، وَالْخَاذِلُ: الْمُنْهَزِمُ، وَأَخَذَلُ وَلَدُ الْوَحْشِيَّةِ وَجَدَ أُمَّهُ تَحْذِلُهُ.

الإعراب:

هم: ضميرٌ منفصلٌ في محلِّ رفعٍ على أنه مبتدأ.

والأهل: هو الخبر، والألف واللام فيه للكمال، كقولك: زيدُ الرَّجُلِ، أَي: الْجَامِعُ لجميعِ محاسنِ الرجالِ، أَي هم الأهل الكاملون.

لا: نافية للوحدة، لا للجنس، وأما النافية للجنس فهي تعمل عمل إن: تنصب الاسم وترفع الخبر، كقولك: لا حول ولا قوة، ويجوز فيها في حال التكرار خمسة أوجه، فلترجع في كتب النحو.

مستودع: مبتدأ مضاف إلى السر إضافة لفظية، وسُمِّيَتْ لفظية لأنها لا تكسب المضاف تعريفاً ولا تخصيصاً، بل تخفيفاً بحذف التنوين، فمرجعها إلى اللفظ فتدبر.

وهي: أما من إضافة الصفة إلى الموصوف، والتقدير: سرٌّ مستودع، أو من إضافة المصدر إلى مفعوله.

وذائع: خبره.

لديهم: ظرف مكان منصوب على الظرفية متعلق بذائع.

ولا: الواو عاطفة، كقول حسان في حق الزبير رضي الله عنهما^(١): [الطويل]

وَمَا مِثْلُهُ فِيهِمْ وَلَا كَانَ قَبْلَهُ وَلَيْسَ يَكُونُ الدَّهْرُ مَا دَامَ يَذْبُلُ
وتكون الواو أيضاً: للاستئناف، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وللابتداء، كقول الشاعر^(١): [الرجز]
اللَّهُ أَنْجَاكَ بِكَفِّي مَسْلَمَتٍ مِنْ بَعْدِ مَا وَبَعْدِ مَا وَبَعْدِ مَتٍ
وللمصاحبة، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، وتشرب اللبن، وتشرب
اللبن، وللقسم، كقول الشاعر: [الطويل]
فوالله لولا النار والخوف والحيَا لعانقُهَا بَيْنَ الحطيمِ وزمزمِ
لا: نافية.

والجاني: مبتدأ.

بما جرَّ: جار ومجرور، وما: أما موصول اسمي بمعنى الذي، وجملة جرَّ من الفعل
والفاعل المستتر صلة له، والعائد محذوف، والتقدير: بالذي جره، وأما حرفية، وهي وما
بعدها في تأويل مصدر مجرور بالباء، وعلى كلا التقديرين متعلق بيخذل، والباء للسببية،
وتأتي للإستعانة، والإلصاق، والتعديّة.

ويخذل: فعلٌ مضارعٌ مبنيٌّ للمجهول، وعلامةُ الفعلِ إذا كان مبنياً للمجهول في
الماضي ضَمُّ الأوَّلِ وكَسْرُ ما قبل الآخر، والضميرُ المستترُ جوازاً نائبُ فاعلٍ، والإستتار
أما جوازاً أو وجوباً، فالأوَّلُ: ما يصحُّ حلول الظاهر محله ويكون خالفاً له، والثاني: هو
الذي لا يخلفه الظاهر، كقولك: اضرب، والجملة في محل رفعٍ على أنها خبر المبتدأ.

تتمة:

حَذَفُ الْفَاعِلِ وإقامةُ المفعول مقامه لإغراضٍ: أمّا للخوفِ عليه، أو منه، أو لغير
ذلك، وإن لم يوجد المفعول به، فيجوزُ نيابةَ الجارِ والمجرورِ، والظرفِ، والمصدرِ،
منابِ الفاعلِ، قال ابنُ مالك: [الرجز]

(١) هذان بيتان من مشطور الرجز ينسبان إلى أبي النجم العجلي، وهما في المقصد النحوية للعيني
٥٥٩ / ٤، والخزانة ١٤٨ / ٢، وابن يعيش ٨٩ / ٥ ونسبهما في اللسان "ما".

وَلَا يَنْتُوبُ بَعْضُ هَٰذِي إِنْ وُجِدَ فِي اللَّفْظِ مَفْعُولٌ بِهِ وَقَدْ يَرُدُّ
وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ: إلى جواز نيابة الظرف، والجار والمجرور مع وجود المفعول به،
فليراجع في كتب النحو، وقد أشار إليه الناظم بقوله: وَقَدْ يَرُدُّ.

المعنى:

إِنَّ هَٰؤُلَاءِ الْوَحُوشَ فِي الْأَهْلِيَّةِ كَامِلُونَ، وَعَنْ مَا يَسُوءُ مِنَ الْحَوَادِثِ وَإِظْهَارِهَا
مَأْمُونُونَ، لَا يَفْشُونَ مَكْنُونٌ مَا أُسْرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا تُتْرَكُ نُصْرَةُ الْجَانِي بِسَبَبِ جَرِيرَتِهِ لَدَيْهِمْ،
وَالْمَطْلُوبُ الْأَهْمُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْقَرَبَى هَٰذَا الْوَصْفَانِ، إِذْ بِهِمَا تَتِمُّ الْأَلْفَةُ وَتَنْتَظِمُ، وَيَحْسُنُ
جَمْعُ شَمْلِ الْأَحْبَابِ وَالْخِلَانِ، وَيَقْوَى رُكْنُ الدِّفَاعِ، وَيَكْمُلُ الْإِجْتِمَاعُ، فَأَرَادَ الشَّاعِرُ
تَفْضِيلَ هَٰذِهِ الْوَحُوشِ عَلَى قَوْمِهِ بِهَٰذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ، وَإِظْهَارَ مَا دَعَاهُ إِلَى الْوَحُوشِ، وَفِيهِ
إِدْمَاجٌ لَدَمِهِمْ، وَإِنَّ السَّرَّ لَدَيْهِمْ غَيْرَ مَكْتُومٍ، وَإِنَّ الْجَانِي فِي نَادِيهِمْ مِنَ النُّصْرَةِ مُحْرَمٌ،
وَهَٰذَا عَيْبٌ عَظِيمٌ إِذَا كَانَ مِنَ الْأَجَانِبِ، فَكَيْفَ صَدُورُهُ عَنِ الْأَقَارِبِ؟!

تكميل:

فِي الْبَيْتِ مِنْ مُحَاسِنِ الْبَدِيعِ التَّعْرِيزِ، وَهُوَ أَنَّهُ هُنَا عَرَّضَ بِذِمِّ قَوْمِهِ، حَيْثُ مَدَّحَ
هَٰؤُلَاءِ الْوَحُوشَ فِي حَالِ مَخَاطَبَتِهِ قَوْمَهُ، بِأَنَّهُمُ الْأَهْلُ أَيْ: لَا أَنْتُمْ حَافِظُونَ الْأَسْرَارَ، لَا
أَنْتُمْ الْجَانِي بَيْنَهُمْ غَيْرَ مَخْذُولٍ، أَيْ: لَا أَنْتُمْ، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ الشَّنْفَرَى قَدْ جَنَّتْ عَلَيْهِ
قَوْمُهُ جَنَائِيَةً لَمْ تَجْنِهَا قَوْمٌ بِحَيْثُ أَلْجَأَتْهُ تِلْكَ الْجَنَائِيَةُ إِلَى التَّعْرِيزِ بِدَمِهِمْ، بَلْ إِلَى هَجْرِ
بَنِي آدَمَ كُلِّهِمْ، وَإِلَّا فَالشَّنْفَرَى لَمَا فِيهِ مِنْ عِلْوِ الْهَمَّةِ لَا يَرْتَكِبُ هَٰذَا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ قَوِيٍّ،
إِذْ مَنْ كَانَ فِي صِفَاتِهِ لَا يَرْضَى أَنْ يَنْتَقِصَ عَشِيرَتُهُ، وَيَنْسَبُ إِلَيْهِمْ هَٰذِهِ الْأَوْصَافُ دُونَ
غَيْرِهِمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، وَمِمَّا يَنْاسِبُ مَا ذَكَرْنَا قَوْلَ ابْنِ مُقَرَّبٍ: [البسيط]

وَأِنْ تَغَاضَيْتُ عَنْ قَوْمِي فَعَنْ كَرَمٍ مَنِّي وَمَا ذَنْبُ كُلِّ النَّاسِ يُغْتَفَرُ

فَمَا شَأْنُ اللَّيْبِ ذِمَّ عَشِيرَتِهِ، إِذْ بِهِمْ يَنَالُ الْعِزُّ وَالشَّرَفُ، وَمَا السَّيْفُ بِلَا سَاعِدٍ،
وَالْمَرْءُ بِعَشِيرَتِهِ، وَمِمَّا وَرَدَ فِي ذَلِكَ أَنَّ حِمِيرَ الْأَكْبَرِ لَمَّا أَوْصَى ابْنَهُ هَمِيسَ بِحِفْظِ
الْقَرَابَةِ، وَحَسَنِ السَّيْرِ، أَوْصَاهُ بِعَشِيرَتِهِ كَثِيرًا، وَمِنْ بَعْضِ ذَلِكَ قَوْلُهُ^(١):

وعُمْكَ وابنُ العَمِّ دونَكَ بعدهُ مردُّ الأعادي الكاشحين ويدفعُ
ولَيْسَ عُقَابُ الطَّيْرِ يوماً وإنَّ بها تَذَلُّ وتنقأُ البُعَاثُ وتخضعُ
تولي إلى وَكْرٍ سوى وَكْرِهَا الذي تَوُوبُ إليه للمُيْتِ وترجعُ

تتمة:

فإن قلت: كيف تتصور النصرة من الوحوش، وما معنى مناصرتهم له؟

قلت: المرادُ عدم المؤاخذه بما جنَّاه من إطلاقِ اللازم على الملزوم مجازاً مرسلٌ وعلاقته اللازمة والملزومية، وسُمِّيَ مرسلًا لإطلاقه إذ لم يُقيد بشيءٍ، وهو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة مانعة عن إرادة المعنى الموضوع له، فإن كانت علاقته المشابهة: فاستعارة، وإلا فمجازٌ مرسلٌ، وعلاقته تنقسم إلى خمسةٍ وعشرين مسطورة في علم المعاني، وآخر مجاز عقلي، وهو إسنادُ الفعلِ أو ما هو في معناه إلى غير ما هو له، كقولك: أنبت الربيعُ البَقْلَ، فإن الموحَّدَ يَعْلَمُ أن المنبتَ للربيع في الحقيقة هو الله تعالى، فإثباتُ الإنباتِ للربيع مجازٌ عقلي.

وَيُمْكِنُ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى حَقِيقَتِهِ كَمَا يُشَاهَدُ مِنْ مَنَاصِرَةِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ لِأَهْلِهَا كَالْكَلْبِ وَالْفِيلِ، فَلَا يَتَعَدُّ تَصَوُّرُ الْمُنَاصِرَةِ مِنْ هَذِهِ الْوَحُوشِ لِكثَرَةِ اخْتِلَاطِهِ، وَحَسَنَ مَعَاشِرَتِهِ لَهُمْ، فَصَارَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ.

تكملة:

ذَمُّ بَعْضِ النَّاسِ أَمَّهُ لَكُونِهَا لَا تَكْتُمُ سِرًّا بِقَوْلِهِ^(١): [الوافر]

أَغْرِبَالاً إِذَا اسْتُودِعَتْ سِرًّا وَكَانُونَا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ
وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ^(٢): [الطويل]

وَلَا أَكْتُمُ الْأَسْرَارَ لَكِنْ أَنْتُمْ هَا وَلَا أَتْرُكُ الْأَسْرَارَ تَغْلِي عَلَى قَلْبِي
فَإِنَّ قَلِيلَ الْعَقْلِ مَنْ بَاتَ لَيْلَهُ تُقْلِبُهُ الْأَسْرَارُ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ

(١) للحطيئة، انظر: ديوانه ٦١/١، واللسان (كنن).

(٢) انظر: التبريزي ٣/ ٧٥ والشريشي ١/ ٢٨٤ ومجموعة المعاني: ٧١ والكامل: ٤٢٧ ونسبهما

لبعض المحدثين، ومحاضرات الراغب ١/ ٦٠.

ولله دُرٌّ مُسْكِين الدَّارِمِي^(١) حَيْثُ يَقُولُ: [الطويل]

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أني جماعها
لكل امرئ شعب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يرام إطلاعها
يظلمون شتى في البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

ومما ورد في حفظ السر، قوله - صلاة الله وسلامه عليه - : "استعينوا على قضاء
حوائجكم بالكتمان"^(٢)، وقد ورد في المثل: (الأسرار عند الأحرار)، ولا ينبغي للرجل
أن يضع سره إلا لمن هو موضع للسر، ولو كان يرجو فيه مودة، وفي هذا المعنى قال
بعضهم شعراً^(٣): [مجزوء الكامل]

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما يكن العدو و فيكون أدرى بالمضمره

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه^(٤):

أحب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون عدوك يوماً ما
وأبغض عدوك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما

وقال المجنون^(٥): [الطويل]

(١) شاعر أموي من المتحيزين لبني أمية، راجع بعض أخباره وشعره في الأغاني ١٨ / ٦٨ والشعر
والشعراء ٣٤٧ والخزانة ١ / ٤٦٥ والأمال ١ / ٤٧٠ والأبيات في أمالي المرتضى ١ / ٣٩٩ والتبريزي
١٢٦ / ٣.

(٢) أخرجه الروياني في مسنده (١٤٥/٤)، رقم (١٤٣٨).

(٣) البيتان في كتاب الأدب: ٩٠ وقد نسباً للقاضي ابن معروف وانظرهما في شرح النهج ٤ / ٣٣٨
والشهاب الثاقب: ٤٤

(٤) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (مسند على ص ٢٨٣، رقم ٤٣٨)، وابن عدى (٢٩٦/٢)،
ترجمة ٤٤٦ الحسن بن دينار)، والدارقطني في الأفراد (كما في أطراف ابن طاهر ١ / ١٨٧، رقم ٢٥٤)،
وتمام (٢٠٦/٢، رقم ١٥٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٠/٥، رقم ٦٥٩٦). وأخرجه أيضاً: ابن
أبي شيبه (٢٦٠/٧، رقم ٣٥٨٧٦)، والبخاري في الأدب (٤٤٧/١)، والبيهقي في شعب
الإيمان (٢٦٠/٥، رقم ٦٥٩٣)، والضياء (٥٦/٢)، وأبو الشيخ في الأمثال (ص ٦٨ رقم
١١٢).

(٥) انظر: الأغاني ١٤ / ١٤٠.

ولا تجعلني بيني وبينك ثالثاً فكل حديث جاوز اثنين شائع
وناهيك أيها الناظر عن ضيق الصدر بكتمان السر، فإنه من سوء العمل. ونوع من
الهبل، يؤدي إلى الفشل.

ثم قال^(١):

٧ - وَكُلُّ أَبِي بَاسِلٍ غَيْرِ أَنِّي إِذَا عَرَضْتُ أُولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ

اللغة:

أبي: بفتح الهمزة، فموحدة تحتية، بعدها مثناة تحتية مشددة، مأخوذ من الإباء، وهو الامتناع، يقال: أبي يأبى بالفتح في الماضي والمضارع، وهذا مخالف للقاعدة الصرفية، لأنه يشترط عند أهل الصرف لمثل هذا أن تكون عينه أو لامه حرف حلق، وهو عندهم شاذ، وحروف الحلق ستة: الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء، مثل: سأل يسأل، ويشترط للفتح ما ذكر، ولا يلزم من وجوده وجود الفتح، إذ لا يلزم من وجود الشرط وجود المشروط، كدخل يدخل بضم العين في المضارع، فإن قلت: كيف تقولون بشذوذه، وقد ورد في الكتاب العزيز، قوله: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾ [التوبة: ٣٢]، قلت: الشاذ على ثلاثة أقسام: الأول: ما كان مخالفاً للقياس دون الاستعمال، والثاني: بعكسه، وكلاهما مأخوذ به، والثالث: ما خالف القياس والاستعمال، وما ورد في الكتاب العزيز ليس من هذا القسم.
وقيل: الأبي: الحمي الأنف الذي لا يقيم على الضيم.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الأبي: الذي يأبى الدنيا، ولا يقبل الضيم، فعلة أبا بالكسر إباء بالكسر أيضاً. والباسل هنا: الأسد، أو الذي بسَلْ بُسُولاً، عبس غَضَباً أو شجاعة، فهو أيضاً بَسَلٌ وبَسِيلٌ. وعَرَضْتُ: ظَهَرْتُ. والطَّرَائِدُ جمع طريدة، بمعنى مطرودة، وهي من الإبل ما يُرْعَجُ مِنْ مَحَلِّهِ فِي الْغَارَاتِ.

والمعنى: وكل واحد مما ذكرته من الأهلين حمي الأنف لا يضام، شديد الشكيمة لا يُرَامُ بهوان، غير أنني أشد إباءاً لذلك منها، إذا ظَهَرْتُ الأولى من الإبل التي شَلْتُ في الغارة، وتبعها أربابها لاستنقاذها وهم أحرذ شيء إذ ذاك، وأشد حنقاً، يكادون يتميرون من الغيظ علينا، فناهيك بقتالهم وبشجاعة من يجول في مجالهم، ولا يكثر بيزالهم.

الباسل: بموحدة مفتوحة، وكسر السين المهملة، وصف من البسالة، وهي الشجاعة، وقد بسل بالضم، وقوم بسل مثل: بازل وبزل، والمباسلة: المصاولة في الحرب، وأصله من البسل، وهو الحرام، فكأن حراماً أن يناله الرجال، ويطلق على الحلال ضد، والرجل الكريه المنظر كالبسيل، وتبسل: عبس غضباً أو شجاعة، والباسل: الأسد جمعه بسلاء، وقد بسل ككرم، ومن القول الكريه الشديد.

عرضت: بفتح العين، والراء المهملة، والضاد المعجمة: ظهرت.

أولى: بضم الهمزة تأنيث الأولى.

الطرائد: بطاء، فراء مهملتين مفتوحتين، فألف، فهزمة مكسورة، آخر الحروف دال: جمع طريدة، وهي ما طردت من صيد وغيره.

الإعراب:

الواو: حرف عطف.

وكل: مبتدأ، وسوغ الابتداء بها العموم، كقولك: كل يموت. وحصر بعضهم جميع المسوغات في نوعين، فقال: إن عمت أو خصت.

أو أن المسوغ لها كونها مضافة معنى على ما قيل إن تنوينها للعوض. وقد قسموا تنوين العوض إلى ثلاثة أقسام: إما عن مفرد، أو عن جملة، أو عن حرف، الأول مثل: كل قائم، والثالث مثل: غواش، والثاني مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ حِينَتِد تَنْظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤]، وتفصيلها في كتب النحو.

أبي: خبر كل.

باسل: خبر بعد خبر، وقد ورد تعدد الأخبار، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

وغير: منصوب على الحالية.

إنني: حرف من الحروف المشبهة بالفعل في الوضع، تنصب الاسم وترفع الخبر، الياء: اسمها.

إذا: ظرف لما يستقبل من الزمان.

عرضت: فعل ماضٍ، والتاء علامة التأنيث.

أولى: فاعل عرضت، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف منع من ظهوره التعذر، لأنها خلقها الله لم تقبل الحركة، مضاف إلى الطرائد، والجملة محلها الجر بإضافة إذا إليها، كما قال ابن مالك: [الرجز]

وَأَلْزَمُوا إِذَا إِضَافَةً إِلَى جُمْلِ الْأَفْعَالِ كَهُنْ إِذَا اغْتَلَى
وجواب إذا محذوف أغنى عنه ما دل عليه.

أبسل: خبر إن، وعلامة رفعه ضم آخره.

المعنى:

وكل واحد من هذه الوحوش ممتنع بقوته، حمي الأنف لا يقيم على ضيم مرتاحاً
لإهانتته، ولا يناله مكروه من احد، وإن عظمت الخطوب، وهو مع ذلك بطل شجاع،
مصاول في الحروب.

لكنني أبسل منها وأشجع، حين أوائل الصيد وأبدع، إذ كنت أجرى جناناً، وأعدى
في السرعة والحمل، وما صدر ذلك عني إلا عن تفضل وعقل.

ولقد صدق بما ادعاه وأصاب، لأنه كان من العدائين، من أولي الأبواب، فلذلك
ضرب في حقه المثل، فقليل: أعدى من الشَّنْفَرَى في إدراك الأمل.

تتمة:

ما ذكر من باب جلب المنفعة لنفسه، كقول القائل: فلان عالم لكنني أعلم منه، إذ
أثبت للوحوش البسالة، وأثبت له الزيادة عليهم، إذ الزيادة في الخصال الحميدة على
الموجود فيه خصال حميدة أكمل.

وأما التفضيل على الناقص، فهو في الحقيقة نقص، كما قال الشاعر^(١): [الطويل]

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل هذا السيف خير من العصا

وقيل أيضاً شعراً^(٢): [الطويل]

(١) انظر: السحر الحلال ١/٧٣.

(٢) انظر: المنصف من الكلام ١/٦٠.

إذا أنت فضلت امرءاً ذا نباهة على ناقص كان المديح من الذم
وما ادعاه الشَّنْفَرَى واقع، حيث إنَّ حالة بهذه الأوصاف، ليس كحال ما ذكر من
الحيوان، مع وجود زيادة العقل فيه، والعلم بما يضره وينفعه، ووقوعه بالمهالك،
والحيوانات لا إدراك لها بذلك، وصدور البسالة عنها، لا عن عقل، ولذا أنها عند تيقن
الموت تنقطع عن الأكل والشرب.

تكملة:

قوله: (غير إنني) استثناء منقطع معناه الإستدراك، ويجوز أن يكون متصلاً نظراً إلى
المعنى، وكل منقطع، فهو من جهة المعنى متصل، فكأنه قال: لا أحد يسأل فيهم غيري،
كقراءة بعضهم^(١): (فشربوا منه إلا قليلاً)، والاستثناء هو: إخراج بيلاً أو بإحدى أخواتها،
وهي: غير، وسوى مثلثة، وخلا، وعدا، وحاشا، وليس، ولا يكون.

وينقسم إلى: متصل ومنقطع، فالأول إذا كان المستثنى من جنس المستثنى منه،
كقام القوم إلا زبداً، والثاني: إذا كان من غير جنسه، كقام القوم إلا حماراً، كذا قالوا،
وفيه نظر، صرح به العلامة العصامي في شرح القطر لابن هشام.

فائدة:

من حسن مكارم الشاعر أنه أقر بالبسالة لهذه الوحوش، وما هذا دأب كل من رافق
رفيقاً، وقد قال - صلوات الله وسلامه عليه - : "الرفيق ثم الطريق"^(٢)، وقال عمرو بن
سعيد بن سلم شعراً^(٣): [الرجز]

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك

(١) بالرفع في الكشف أي فلم يطيعوه إلا قليل وأغرب ابن حجر وقال وهو إما لغة أو بتأويل فمن
استغنى بلهو أو تجارة أي استغنى بهما عن طاعة الله استغنى الله عنه أي فليعلم أنه تعالى مستغن عنه
وعن عبادته وعن جميع عبادته وإنما أمرهم بالعبادة ليتشرفوا بالطاعة والله غني بذاته حميد محمود في
جميع صفاته سواء حمد أو لم يحمد أو حامد يثني على مطيعه بالجميل ويشكره بإعطاء الجزيل على
العمل القليل. [انظر: مرقاة المفاتيح ٥١/٥]

(٢) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٤/٤٧٠)، رقم (١٧٢٠).

(٣) انظر: مجمع الأمثال ٣٤/١.

ومن إذا ريب زمان صدعك فرق من جميعه ليجمعك

وإن غدوت ظالماً غدا معك

قال الأبيات بحضرة المأمون، فأعطاه لذلك خمسين ألف دينار. قال بعض العلماء: ما فهم المأمون من البيت الأخير إلا ما فسرهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام حديثه المتقدم، وأما الجبن فأمر مذموم، قال صلى الله عليه وسلم: "لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموه فاثبتوا - وفي رواية: فاصبروا - واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"^(١).

وفي كتاب أبي بكر رضي الله عنه إلى خالد رضي الله عنه^(٢): (أحرص على الموت توهب لك الحياة)، وقال عمر رضي الله عنه^(٣): (الجرأة والجبن غرائز يضعهما الله حيث شاء، فالجبان يفر عن أهله وولده، والجريء يقاتل عمن لا يؤبه به).

ووقع في أبي فراس الحارث ابن حمدان نصل سهم أقام في بدنه ثلاثين شهراً حتى خرج، فقال شعراً^(٤): [الطويل]

طعامي مذ بعت الصبا وشرابي	فلا تصفن الحرب عندي فإنها
وشقق عن زرق النصول إهابي	وقد عرفت وقع المسامير مهجتي
فأنفقت من عمري بغير حساب	ولججت في حلو الزمان ومره

وقال أيضاً: [المديد]

وليس الفتى من حير الخطب صبره ولكنه من حار في صبره الخطب

استطراد:

نقل أصحاب التواريخ: أنه كان ملوك يلقبون بالخمارين، واشتهر عنهم أنه من دخل سجنهم الغالب عليه أنه لا ينجو من القتل، فاتفق أن وزيراً من وزرائهم كان مسجوناً،

(١) أخرجه البخاري (١٠٨٢/٣)، رقم ٢٨٠٤، ومسلم (١٣٦٢/٣)، رقم ١٧٤٢، وأبو داود (٤٢/٣)، رقم ٢٦٣١. وأخرجه أيضاً: أحمد (٣٥٣/٤)، رقم ١٩١٣٧.

(٢) انظر: غري الحديث لابن قتيبة ٢٥٦/٢.

(٣) انظر: بهجة المجالس ١٠٣/١.

(٤) انظر: الديوان ٥٣/١.

فأتي برجل عليه دين لبعض، فرأى الوزير محبوساً، مطوقاً بالحديد من يديه ورجليه لا يستطيع إمساك شيء، وفي خدمته غلام له يأتيه بقدرح الشراب، فيشرب ويغني، فهو في لهو وطرب، فتعجب الرجل، وبقي متفكراً في أمر الوزير وما هذا اللهو في مثل هذا المكان، وعلى هذه الحالة التي رآه عليها؟!

فعند ذلك التفت الوزير إليه، وقال: يا رجل مالي أراك متفكراً؟

فقال: كيف لا تأخذني دهشة من فعلك، وهناء عيشك - مع ما أراه من حالك -، فقال له: عندي لك ما هو أعجب مما رأيت، قبل دخولك خرج من عندي خادم الملك يخبرني أنه غداة غد بعد صلاة الظهر - يقتلك الملك -، فقال الرجل: وما هذه الحالة مع تيقنك بإنصرام الأجل؟! واني حبست على كذا وكذا من الدُّنانير، لا أرقب قتلاً، وقد ضاقت علي الأرض بما رحبت، فعند ذلك أمر الوزير غلامه، فدفع للرجل ما حبس عليه من الدُّنانير، وقال له: يا هذا؛ (اليومَ خَمَرٌ، وَغَدًا أَمْرٌ^(١)) وما يدريك ماذا تنسجه يد القدرة إلى غد، فخرج الرجل من السجن، فبكر في اليوم الثاني لينظر ما يصنع بصاحبه، فلما وصل إلى باب السجن رأى رجلاً يطرق الباب، وينادي لمن بالسجن: من يعطني شيئاً، وأنا أطلقه من السجن، فسئل عن السبب، فقال: إن الملك باكر بشرب الخمر مع ندمائه، فأخذ أحدهم السكر، فضرب الملك، فقتله، فأطلق الوزير وإذا صاحبه في الباب، فقال: يا هذا لو أنني لم أجعل الصبر ترساً للنائبات، واضجر منذ جلست، ما ذقت لذة الحياة. ولقد أحسن الشُّفْرَى في قوله فيما يأتي: ولا الصبر إن لم ينفع الشكو أجمل.

ثم قال^(٢):

(١) انظر: جمهرة العسكري ٤٣١ / ٢ والميداني ٢٥١ / ٢ والمستقصى: ١٤٣. والخزانة ١ / ١٦١ والعبدي: ١٥٤.

(٢) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الأَجْشَعُ، بتقديم الجيم على الشين: الأكثر جَشَعاً، بالتحريك، وهو أشدُّ الحِرْصِ وأَسْوَأُهُ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْإِنْسَانُ نَصِيْبَهُ وَعَيْنُهُ فِي نَصِيْبٍ غَيْرِهِ.

يقول: إذا اجتمع الناس على زَادِهِمْ، ومدُّوا أَيْدِيَهُمْ لتناوُلِهِ، لَمْ أَكُنْ أَنَا أَكْثَرَهُمْ عَجْلاً إِلَيْهِ بِأَنْ أَسْبِقَهُمْ إِلَى ذَلِكَ جَمِيعَهُمْ، أَمَّا سَبَقُ بَعْضِهِمْ فَقَطُّ، كَمَا إِذَا كَانَ سَبَقُ بَعْضِ الْآكَلِينَ الْجَمِيعِ فِتْلَةً بَعْضُهُمْ عَلَى

٨- وَإِنْ مُدَّتْ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ

اللغة:

مدت: بضم الميم، وتشديد الدال المهملة، من المد، وهو بسط اليد، والمد: السيل، وإرتفاع النهار، والإستمداد من الدواة، وكثرة الماء، والبسط، وطموح البصر إلى الشيء. الأيدي: جمع اليد، وهي الجارحة.

الزاد: طعام يتخذ للسفر، تقول: زودت الرجل فتزود، والمزودة ما يجعل فيها الزاد. الأجشع: بهمزة مفتوحة، فجيم ساكنة، فشين معجمة مفتوحة، آخر الحروف عين مهملة، من الجشع بفتحتين، وهو أشد الحرص وأسوأه، وهو أن تأخذ نصيبك وتطمع في نصيب غيرك، تقول منه: جشع بالكسر، وتجشع مثله، وهو رجل جشع، وقوم جشعون، ومجاشع بن دارم أبو قبيلة من تميم، وابن مسعود السلمي صحابي، وتجاشعا الماء تضايقا عليه وتعاطشا، والتجشع: التحرص.

الإعراب:

وإن: الواو حرف شرط جازم يجزم فعلين، الأول يسمى شرطاً، والثاني جواباً، وتجزم المضارع لفظاً، لأنه معرب لمشابهته الاسم في اعتوار معان تركيبية لا يميزها إلا الإعراب، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، وتشرب اللبن، وتشرب اللبن، والماضي محلاً كما هنا.

مد: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء علامة التأنيث حركت بالكسر لإلتقاء

=
الفور قبل غيره، فإن ذلك قد لا يكون عيباً، بل زبماً كان من مكارم الأخلاق، لما فيه من رفع الحشمة عن السابق بما يناسبه بذلك، ولذلك نفى عنه الأعجائية دون مُطْلَقِ الْعَجَلِ، فإنه لا يكون من الزَّلَلِ، ولا يُعَدُّ صَاحِبُهُ مُخْطِئاً، فَيُدْعَى عَلَى أُمِّهِ بِالْهَبَلِ.
ويدل لما قلناه قوله: إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ، أي: أشد القوم حرصاً على الطعام لشدة نهمهم أشدُّهم عَجْلاً إلى مدِّ اليد إلى الزاد.

ووجه الدلالة منه أنه علَّل نفي كونه أَعْجَلُ بأن سببه شدة الجشع في الخارج، فيستدلُّ بالأعجائية على الجشع فيدلُّ بذلك من حيث إنه عنوانٌ على شدة النهم، فالذم في الحقيقة إنما هو بالجشع، أمَّا إذا كان سبب العجلة ما قلنا فلا ذم، والله أعلمُ سبحانه.

الساكين، ونائب فاعله الأيدي، وهو مرفوع بضمّة مقدرة على الياء، إذ في مثل هذا تقدر حركتين: الضمة والكسرة، والفتحة تظهر عليه، للثقل ثمة، ولعدمه هاهنا، وهذا البحث المذكور في موضعه تفصيلاً، وقد ورد شاذاً قولهم^(١): (أَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيهَا).

إلى الزاد: متعلق بمد.

لم: حرف نفي وجزم.

أكن: المجزوم به، واسمها مستتر وجوباً تقديره أنا، لأنها مضارع كان الناقصة التي ترفع الاسم وتنصب الخبر.

بأعجلهم: خبر أكن، والباء زائدة، وبهذا البيت استشهد النحاة على زيادة الباء في خبر الكون المنفي.

إذ: ظرف لما مضى من الزمان.

أجشع: مضاف إلى القوم، مبتدأ.

وأعجل: هذا هو الخبر. وجملة: لم أكن، جواب الشرط محلها الجزم.

استطراد:

تكون إن شرطية كما هنا، وتكون نافية، كقولهم: (إن يقولوا إلا شططا)، ويشترط لها وقوع إلا بعدها أو لما، كقولهم: (إن لما يذوقوا عذاب)، وتأتي زائدة، كقول الشاعر^(٢): [البسيط]

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

(١) انظر: الأمثال لابن سلام ١/١٣٨، والمستقصى ١/٢٤٧، ومجمع الأمثال ٢/١١٩.

(٢) البيت دون عزو وبهذه الرواية في الصحاح والعياب (صرف) والمقاييس: (٣/ ٣٤٣) وشرح شواهد المغني: (١/ ٨٤) وفي التاج واللسان (صرف) وأوردا له رواية ثانية أيضاً:

بني غدانة حقاً لستم ذهباً ولا صريفاً، ولكن أنتم خزف

وهو في أوضح المسالك برفع الذهب والصريف على اعتبار أنّ زيادة "إن" تبطل عمل "ما"، وأورده في الخزانة: (٤/ ١١٩) وقال: "ولم أر من نسب هذا البيت لقائله مع كثرة الاستشهاد به في كتب النحو واللغة".

المعنى:

بعد تفضيل نفسه بالشجاعة في التلاق، وشرع في ذكر ما جمعه زيادة عليهم من مكارم الأخلاق، من إثثار المروءة والكرم عن تفضل، وحسن المعاشرة عن رغبة وتأمل، إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بالأعجل من الآكلين، إذ ذاك آية الجشع، وشدة الحرص على الأكل، وتأباه طباع الكاملين.

ولقد صدق الشَّنْفَرَى وأفصح، وللطرق ذلل وأوضح، فإن هذه من الخصال الرديئة المذمومة، فالائق بمن كرمت نفسه أن يتعهد الأوصاف المحمودة الموسومة، فيتخلق بها، ويزايل النعوت القبيحة ولا يندم، وما بين ذوي المجد إن نطق فلا يتعلم، ولا سيما ما يتعلق بالأكل، فإن محموده محمود في الغاية، ومذمومه مذموم بلا نهاية، قال بعض الشعراء مخاطباً زوجته^(١): [الكامل]

لا تجزعي إن مُنفساً أهلكته	فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي
وإذا أتوك إخوتي فدعهم	يتعللوا بالعيش أو يلهو معي
لا تطردهم عن فراشي إنهم	لا بد يوماً أن سيخلو مضجعي

وقال الآخر^(٢): [من الطويل]

أبا ابنة عبدالله وابنة مالك	ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له	أكيلاً فإنني لست آكله وحدي
قصياً كريماً أو قريباً فإنني	أخاف مذمات الأحاديث من بعدي

(١) للنمر بن تولب، وهو في ديوانه ٣٥٧. من قصيدة يصف فيها نفسه بالكرم ويعاتب زوجته على لومها. وكان أضاف قوما في الجاهلية فعقر لهم أربع قلائص واشترى لهم زق خمر فلامته على ذلك. الجزع: الحزن، وقيل أخص فإنه حزن يمنع الإنسان ويصرفه عما هو بصدد النفس: الشيء الذي يتنافس فيه.

والبيت الأول من شواهد النحاة في باب الاشتغال على نصب "منفساً" بفعل محذوف يفسره المذكور بعده، أو رفعه بفعل محذوف أيضاً تقديره هلك.

انظر: الكتاب ١/١٣٤، والمقتضب ٢/٧٦، ٧٨، والخزانة ١/١٥٢، والعيني ٢/٥٣٥، وأمالى ابن الشجري ١/٣٣٢-٢/٣٤٦.

(٢) انظر: الأغاني ١٤/٦٩.

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً وما لي خلال غيرها شيمة العبد

تكميل:

مما ورد في إكرام الضيف إن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا بحي من أحياء العرب فلم يضيفوهم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتابوا ذلك الحي، فقال بعض الحاضرين: لا تغتابوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليست غيبة فإن لهم حقاً عليهم"، وقال الله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالشُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، قال المفسرون: إن المراد بالمظلوم هنا الضيف.

وقد نزلت الآية الآتية في حق رجل من الأنصار اسمه: ثابت بن قيس، كان عنده ضيف، فقدم الطعام له وجلسا، فأطفا الأنصاري السراج، وبقي يمد يده ولا يأخذ شيئاً من الطعام، وهو في حاجة الأكل، حرصاً على إكرام ضيفه، وانه لا يشاركه في الأكل، وهي قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، ومما ورد مثل ذلك في معنى قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، أنه لما مرض الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فنذر علي وأمه فاطمة رضي الله عنهما، وجارية لها تسمى فضة، إن شفي الحسين رضي الله تعالى عنه، يصوموا ثلاثة أيام، فشافاه الله تعالى، فصاموا، فذهب علي رضي الله عنه إلى ذمي كان يبيع شعيراً، فاستقرض منه ثلاث صاعات شعير، فأتى بها، فطحن وعجن وخبز ثلاث قرص، فصاموا، ففي أول يوم جاء مسكين، ودق على الباب، فقال: يا آل بيت محمد صلى الله عليه وسلم، مسكين جاء يطلب زاداً، فأمر علي رضي الله عنه، أن يعطى له ما كان من الخبز، وفي الليلة الثانية جاء يتيم، فكان كما تقدم في الأول، والثالثة جاء أسير، فأعطوه ما صنع لإفطارهم، فبقوا ثلاثة أيام طياً!

تتمة:

الضمير في أعجلهم يعود بحسب ظاهر السياق، والسياق إلى الوحوش لأنه كان اتخذهم أهلاً، لا يبعد أنه كان يأكل معهم لشدة اختلاطه بهم، وكان يتأخر في مد اليد عنهم ترفعاً لنفسه عن التجشع المذموم، ومما يدل على ذلك ما زعم الفرزدق إن الذئب

رأى ناره، فأتاه وأكل معه، وأنشد لذلك^(١): [الطويل]

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت لناري موهناً فأتاني
فلما أتى قلت: ادن دونك إنني وإياك في زادي لمشتركان
تعش فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وما ذكرنا من مراد الشُّفَرَى يشعر بعلو همته، وأنه يراقب مراعاة مكارم الأخلاق مع من لا يعيب، فكيف مع أبناء جنسه؟!

وهذا ليس شأن كل كريم ونجيب، ويمكن على بعد أن يريد به أبناء جنسه قبل مرافقة الوحوش، ويكون الضمير راجعاً إلى ما يدل على عموم الأيدي.

استطراد:

أطلق بعض أشراف العرب من سجن الخليفة بالشام، وأهله في العراق، فمرّ بعجوز فاستضافها، فأضافته، فعند الإنصراف التفت إلى غلام معه، فقال: كم عندك من الدنانير؟ فقال الغلام: مئة دينار، قال: ادفعها إلى العجوز، فعند ذلك قال له الغلام: يا مولاي، أنها لا تعرفك، ويرضيها اليسير من ذلك، ومزارنا بعيد، ولا يبقى معنا شيء، فإن أمرتني أن أعطيها شيء من هذه الدنانير وأبقي شيئاً، قال: يا هذا، أعطها الجميع، فإن لم تعرفني هذه العجوز، فأنا أعرف نفسي، فأرسل لها الجميع.

ومما شاهدنا في زمننا من ذوي المروءة والبسالة والنجدة، وال في بغداد يدعى بالوزير سليمان باشا، ومن بعض مناقبه أنه جاءه رجل من الرقة، وعليه ديون كثيرة، وكان من ذوي البيوت، فأمر له بإيفاء ديونه، وأجزل له العطاء.

وخصاله جمة لا تحصى، إلا أننا ذكرنا هذه إعلاما بذهاب المروءة، وكساد سوقها، وعدم الإعتناء والرغبة بذوي الحسب والنسب. ولنا في حقه أشعار كثيرة أحببنا أن نذكر بعضاً هاهنا، إشعاراً بما كان فيه من الخصال الحميدة، ومن ذلك ما أنشدناه في غزوة إلى طرف الخابور، وهي أصعب ما تكون من الغزوات، وحكم في العراق براً وبحراً مدة من الدهر، مطاعاً، مقدماً لا تروعه الأعداء كثرت أو قلت، ولم يعهد في مدة

حكومته إفشال كتيبة من الكتائب التي يرسلها، فضلاً عن أن تكون مصاحبة له، قولنا:
[الطويل]

أبى المجد عن كل الورى ما سوى فتى
أخا الطعن سل عنه الفوارس والقنا
له الحلم دأب والسخاء سجية
هو البطل الضرغام في حومة الوغى
سمي كل من سمى وزيراً مفخماً
يشار إليه بالأكف إذا بدا
فلا مثله يأتى و قبله أتى
كذا الجود فيه قد على وهو أهله
بسته أيام من الجسر قد وطء
أتى بجنود لا يرى قبلاً لها
على أشقياء قد بغوا قبل أن رأوا
فويل لهم من بطشة ثم ويلهم
فعاداته من قبل ذا الطعن في العدا
بصيرتهم أضحت خراباً وديرهم
غنائمهم أمسيت ب قيد جنوده
يجب لقد جبت لرعب قلوبهم
كذا بجباب البسوا بعد عزهم
فكم وقعة بين الورى شهدت له
أحصنه بالله من شر حاسد
وبالآل والأصحاب تأييد ملكه
جسرت على مدحي له بقصيدة
سليمان خذاها قد أتتك هدية
فليس مرادي منك فيها جوائزاً

كريم السجايا حاز كل فضيلة
إذا غمرات الموت يوماً تجلت
كسحبة غيث قد علت فاستهلت
هو الكاسر المقدام في كل وقعة
لعمري لا يصغي لرأي مذلة
إلى حومة الهيجاء والبيض سلت
من الروم ذو فخر وجود ورفعة
فطوبى لمن أوصافه فيه حلت
دياراً، سواه لم يطأها بسطة
فوارس لا يخشون سطو المنية
خطوب المنايا شرعاً قد أظلت
أعزتهم اضحوا بأسوأ ذلة
وعادات من عاداه شرب المنية
قد اهتز مما نال من عظم وطأة
وخابورهم قد خاب يا سوء همة
وغاض لهم مما لقوا ماء دخنة
لدى بعدهم خوفاً جباب المذلة
وأعيت سجاياه اللبيب وجلت
وأدعوا له بالمصطفى خير عترة
بطول بقاء وافتخار وعزة
لعمري، هل أحصيت بعض سجية؟!
وما هي إلا مثل إهداء نملة
ولا راغباً في نظمها لعطية

ولكن ثناءً واقعياً ومدحاً لقد وجبت قدماً على كل نسمة
ففرجو قبولاً منك يا صاحب الندا لتفخر بالازمان كل قصيدة
فلازلت غوثاً للصريح وناصرأ ولازلت ركنأ حارسأ للشريعة

وحيث جرى ذكر هذا الهمام، الذي جمع من المكارم أعلاها، وحاز من المفاحم أسناها وأغلاها، أحببت أن أطرز تألوفي هذا بذكر نبذة من مآثره الجميلة، وأوشيه بذكر جملة من مناقبه الجليلة، وهي مني بمنزلة أنة المصدور، ونفثة المقهور، علماً مني بأن الزمان الخوان قد بخل بمثله، واسترد ما أبداه من جميل فضله، لقول أبي الطيب^(١):
[المديد]

أبدأ تسترد ما تهب الدُّنيا فيا ليت جودها كان بخلا
شيم الغانيات فيها فلا أدري لذا أنث اسمها أم لا
مشيراً إلى قول الشاعر: [الطويل]

إذا ماطلت حسناء أوفت بعهدا ومن عهدا أن لا يدوم لها عهد
فوا لهفاً عليه، فقد كان ركنأ من أركان الدولة العثمانية فتهدم، وسيفاً من سيوف الصولة الخاقانية فتغلل وتثلم، ويا أسفاه على فقده، ويا طول حزنه على بعده، وكيف لا؟! وقد قال بعض مادحيه: [الوافر]

لقد أرضت شمائلك الليالي فكان سواد مفرقها شبابا
وعذلك أورث الأيام نورأ لذاك تداولن منك اقترابا
ولو نطق الزمان بما يراه لألف في مناقبكم كتابا
لقد فقت الملوك الصيد فخراً فديتك لن تداهن أو تحابي
وردت بمنهل الأفضال عذبأ وغيرك وارد وشلاً وصابا
وصرت على سنام المجد حقأ وغيرك لم ينل منه الركابا
وما رست الحروب فكل حرب عوان أنتجت منك العجابا
كأنك إن تسر فردأ جموع تعاف الأسد عند لقاءك غابا

وتنحاز القبائل عنك خوفاً جميعاً لا نـمـيـر ولا كـلـابـا

فنقول: كان المرحوم المبرور في بداية أمره كـتـخـدا المرحوم المبرور أحمد باشا نجل المرحوم حسن باشا، فبعد أن مات أحمد باشا المذكور ضوعفت له الأجور، بلغ السلطان أخبار هذا الكريم المرحوم، فصره وزيراً من جملة الوزراء، وولاه البصرة، فتوجه إليها في تمام الحادي والستين بعد المئة والألف، فدخلها.

فسار مع أهلها السيرة الحسنة، وأجراهم على عوائد بره المستحسنة، فاتفق أن صار ذلك العام في البصرة، الجذب والقحط، فحصل لأهلها فاقة وضيق معيشة، فخرج الوزير المذكور - رحمه الله - من البصرة، ترفيهاً لأهلها، وشفقة عليهم، كي يبقى ما ينفقه على نفسه، وعلى جنوده، لهم، وهو يقضي السنة من خارج، فلم يزل تنقله الهممة، وهو يشتري من أهل القرى و المزارع ما يحتاجه بنقود الدراهم، ويسير مع الضعفاء بسيرة الأكارم، حتى وصل إلى حلة ابن ديبس، فوجد لها رخية، كثيرة الغلات، وافرة الخيرات، فأقام في نواحيها ينتظر زوال اللاواء عن البصرة، حتى يرجع إليها، إذ هي كما قدمنا دار إقامته، ومنفذ حكومته.

فوشى به بعض أهل النفاق، وقاصدي البغضاء والشقاق، عند والي بغداد، بما تنهد من بهتانه الجبال، وتنظر من تزويره الأكباد، فثارت بين الوزيرين فتنة عظيمة يعرض من عاقبتها كل عاقل على يديه، ويغص من غائلتها كل كامل بريقه والماء لديه، وكان مع الوزير المرحوم إذ ذاك من العساكر نحو من سبعمئة فارس، قد تعودت في الحروب نهب الأرواح وتعوضت عن الصياح في الكفاح، الطعن بالرمح، والفلق بالفيالق بالبيض الصفاح، مع أن الوزير الكبير يغني وحده عن الجحافل، ويقوم مقام الألوف، من الصفوف، في إصابة المقاتل، من كل مقاتل.

وحشد وزير بغداد الجنود من جميع الأطراف، ووعدهم الوعود المقتضية للهلاك والتلاف، وجمع من بطون العشائر، ما لا تحيط بجمعه الأقلام والمحابر، فسارت إليه من بغداد كتائب كثيرة، وجموع غزيرة، لم يسر بها ذو القرنين، ولا سمع بمثلها ذو الرياستين، أمم من بطون مختلفة، وعشائر من أظهر مختلفة، أعراب وعرب وعجم وكرد وغير ذلك مما لا يعلم عددهم إلا خالقهم، فعبروا الفرات، واتوا إليه

من جميع الجهات، فكان ما مع الوزير من السلاح، كربع عشر ثمن كتيبة من هاتيك الكتائب، ولكن النصر بيد الله يؤتاه من يشاء، فحلف الله جمع الوزير بالنصر، وقرن بهم الغلبة والقهر، وفرق في مثل ساعة أو أقل تلك الجموع، تفريق الريح السحاب، وترك أكثر أولئك الفرسان نهبة للسمر القواضب، وهذه نصرة لم يتفق مثلها إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم، في بدر ولأحزاب، ولم نسمع بمثلها لملك في مصنف أو كتاب، وعن هذه الواقعة بعض شعرائه الفصحاء، ومداحه من العرب، يقول من قصيدة طويلة: [السريع]

أما ترى المغوار في وقعة الـ	أحزاب كم جدل فرساناً
إذ بصرة الفيحاء قد أجذبت	وكان فيها الشهم سلطاناً
فرام أن يخرج أجناده	منها إلى أكناف بغدادنا
لكي يخفف الجذب عنها وكي	يشمل منه اللطف سكانا
فسار بالجحفل عن قطرها	متخذ الحلة أوطاننا
وحيثما خيم في دوها	قد حصلت دون القرى شاننا
واستر أهلوها بمن زارهم	إذ امنوا ظلماً وعدوانا
لكن في بغداد مذ شاع ذا	حازت أهالي البغي أحزاننا
فاجتمعوا عند ملك لهم	وارتكبوا غدرًا وكفراننا
واجمعوا أن ملك الورى	حاد عن الدولة عصيانا
وأنه مال إلى غدرنا	وأنه جاء لينكاننا
فعند ذا قرر مفتيهم	بحربه جهلاً وخذلانا
جهز جيش الجور واليهم	مجمعاً عجماً وعرباننا
وحاولوا أن يبلغوا مأرباً	من فارس العصر سليمانا
لكنهم خابوا لما شاهدوا	منه راحة الحرب طحاننا
إذ قام كالقصور من غيله	تحفه الأشبال فرسانا
وجرد الأبيض من جفنه	واعتقل الأسمر طعاننا
واقترح الحرب كليث الوغى	صادف بعض الصيد غرثاننا
أحمى وطيس الحرب حتى غدا	له قمام الجو دخاننا

حتى إذا قابل جمعاً لهم ولوا وقالوا أنه جانا
فرقهم أيدي سباً في الفلا وقد قرى نسرأ وسرحانا

وغنم الوزير المذكور العسكر بما فيه، إلا أنه من على رئيس السرية، فأرسله إلى
مرسله - الوالي في بغداد - معززاً مكرماً، كما هو شأن الملوك الكرام إذا قدروا عفواً.
وبقي في الحلة قاطناً، حتى ذهبت الرسل إلى الدولة العلية، من كل ناحية، وبلغت
السلطان جميل آثاره، وحميد أخباره، فاختره والياً على بغداد، وفي هذا المعنى يقول
شاعره المتقدم: [السريع]

مذ بلغ الخنكار أخباره ولآه للراففة بغدادنا
حيث رآه بأسلاً فاتكأ يردي العدا فرساً وعربانا
ذا نجدة غوث صريخ أخا الجودة حساناً وحسانا
بعد العنى نال لذيذ العلا واغتنم الراحة تعباننا

فسار متوجهاً إلى بغداد، وتباشرت بقدومه الضعفاء من الأرامل والأيتام، لما
يعلمونه من عظيم الرأفة، وشفقته على الخاص والعام، ودخلها وقد لبست لقدمه
أثواب الأفراح، بعد أن كانت في زي محدة وزال عنها نكد الأتراح، وقد كانت قبل في
أنكاد متعددة وصارت بالسرور والهنا، محفوفة من هنا وهنا، وفرح أهلها، مذ جاء
بعلها، وزينت لقدمه الأسواق، وقام عندليب الأفراح يغرد على ساق، وسار بأهلها سيرة
الشيخين: أحمد والحسن، ونفى عنهم كل غين بخلقه المستحسن، وشمل بلطفه جميع
من فيها، وعم إحسانه في ظاهرها وخافيتها، وجدد أساس العدل والإنصاف، وهدم
قواعد الجور والإعتساف، ونام أهلها بأيامه رغداً، حيث امنوا من جميع الجهات نكدًا.

ومن جملة عدله أنه مدة حكومته في بغداد لم يسفك دمًا بغير وجه شرعي، ولم
يأخذ من أحد درهماً واحداً إلا قرضاً، وعاشت في أيامه أناس كثيرة على أنعامه
وإكرامه، وعمرت بيوت غزيرة، على عطاياه حيث كانت كثيرة، ولم يبق في بغداد
صوفي أو طالب علم إلا وفد شمله ألطافه، وعمه إسعافه، وكان - رحمه الله - مع ما له
من الهيبة والجلالة، صغير النفس جداً، كثير التواضع، وكانت له عبادات حسنة لا يشك
أحد في أنها مقبولة، وكانت له مع نفسه محاسبات ومعاتبات، وكان يتألم إذا سمع بأحد

من أهل البيوت في فاقة، حتى يعطيه ما يدفع فاقته، ولم يزل هذا دأبه رحمه الله حتى اشتاق جوار ربه، فمضى وطعم الموت في فيه أحلى من الشهد، حيث أنفق عمره في طاعة إنفاقا، وطنبت النحوسة على بغداد وكثر بعده الجور. والفساد، وانقلب فرحها حزناً عميماً، وصار عيشها هشيماً، ومصابها عظيماً، وخطبها

جسيماً، وفي ذلك يقول بعض شعراء الأماجد يرثيه من قصيدة طويلة: [المتقارب]

إلى الله أشكو من مصاب الورى	فزند الزمان فيهم ورى
وقد حل خطب جسيم عظيم	يزعزع رضوى ويوهي حرا
فيا دهر قد نلت ما ترتجي	ظفرت لعمرى بكنز الورى

وفيها يقول:

فهلا سواء فداء أخذت	من الصيد ألفاً ولن تعجزا
فمن للأرامل من بعده	ومن للضيوف، ومن للقرا
ومن للوفود، ومن للنقود	ومن للغني إذا أعسرا
ومن للسيوف ورغم الأنوف	ومن يورد الأمر أن أصدر
ومن لصروف تحل العنا	ومن لمخوف يحل العرى
ومن لانتظام أمور العراق	ورفع الشقاق ونفع الورى
ومن ذا يقيم لسد الثغور	وحفظ البلاد وحصن القرى
ومن يسطر العدل بين الأنام	ومن يقبض الجور والمنكرا
فهيهات أن يحتذى حذوه	وقد فاق هارون بل قيصرا

وفيها يقول:

عليه تشحب وجه العلى	وعين المراتب لن تصبرا
فحق علينا نشق القلوب	مكان الجيوب وان تضجرا
فقد قبح الصبر والاتسا	ومن ذا يطيق لأن يصبرا
ويا مهجة القلب ذوبي أسا	ويا قلب أن تفطرا
ويا ظلمة الليل لا تبرحي	فقد غيب الفجر تحت الثرى

وهو أحق بقول أبي الطيب من غيره، حيث يقول: [الكامل]

ما كنت أحسب قبل نعشك أن أرى رضى على أيدي الرجال تسير
ما كنت آمل قبل دفنك في الثرى أن الكواكب في التراب تغور
وقد رثيته بقولي: [الوافر]

دع العبرات تنسكب انسكاباً ونار الحرب تلتهب التهاباً
سأبكي كلما هبت شمال مدامع كلما ذكروا مصاباً
اتظفي زفرتي ويلذ عيشي وتاج المجد قد سكن التراباً
ألا تب الزمان بما أصابت يدها، وليس يدري من أصاباً
أيرجى بعد ذا منه وفاء لعمرك، وهل يحري جواباً
أيحلو للمعالي طيب عيش وسيف المجد قد فقد النصاباً
سليمان الزمان ثوى فصارت عتاة الأنس لم تخش العقاباً
لنأيك أضحت الأيام سوداً كما هتكت لرفعتك النقاباً
رعاك الله كم جندلت ليثاً وحسنت المناصب والنصاباً
وسهلت المعالي حيث ظنت بأن طروقاً ليست صعباً
فمن للمجد بعدك حاتمي له باتت منازل له خراباً
ومن لأرامل خافت كانت لهن على سما الجوزا قباباً
ومن يرجى لرد السبي إذ ما بشالك بعد فقدك ناب ناباً
أأخشى بعد نأيك من رزاء وأسعى بعد فقدك لاكتساباً
همام أعظم الوزراء حلماء وأكرمهم نداءً وأحد ناباً
وليس يرى له نطق بجهل ولا سفه سوى إن قال صاباً
ولا عيب سوى حلم وجود وضرب منه ليث الغاب هاباً
سيفقه إذا ما ناب دهر كبدر في ظلام الليل غاباً
لقد فخرت مكارمه افتخاراً كما فاقت مصييته مصاباً
أعيني أبكيه بكل يوم فما الخنساء منك أجل ناباً
أما وقباب مكة والمصلى لأنعاه الزمان ولا أعاباً

أعبد الله صبراً ليس يبقى الزمان به كريماً ما أصابا
ولا جزعاً فكل فتى سيلقى رز الأيام عدواً أو إيابا
لقد بكت السماء عليه دهرأ وبشرت الرياض به الترابا
جزاه ألها برضى وعفو وأدخله من الفردوس بابا
له نادى أولو التاريخ آه فكم قلب سليمان أذابا
ثم قال^(١):

٩ - وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةٌ عَنْ تَفْضُلٍ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَفَضِّلُ

اللغة:

البسطة: بفتح الموحدة، وسكون السين، وقد تبدل صاداً: السعة.
التفضل: مصدر تفضل عليه إذا أحسن، والمتفضل أيضاً الذي يدعي الفضل على
أقرانه، ومنه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، والأفضل: هو
الزائد في الفضل لأنه من أفعل التفضيل، والفضيلة: المبرء من النقص.

الإعراب:

الواو: عاطفة على لم أكن، وما نافية.
وذاك: اسم إشارة محله رفع على الابتداء، والكاف حرف خطاب.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": البسطة هنا: السماحة
والسعة في الكرم، والتفضل كالإفضال: الإحسان، يُقَالُ: أَفْضَلُ عَلَيْنَا وَتَفَضَّلَ.
والمعنى: وليس انقباض يدي عن تناول الزاد قبلهم لعلَّ سَوَى سماحة ناشئة عن إحسان إليهم، أو
سَوَى سعة في إحسان إليهم.

ف(عَنْ) بمعنى (في) على هذا التقدير الأخير، وَكَانَ الْمُتَفَضِّلُ، أي: المحسن، الأفضل بالنَّصْبِ على
أنَّه خبرٌ (كَانَ) مُقَدِّمًا على اسْمِهَا. وجملة (وَكَانَ الْأَفْضَلُ... إلخ) أَكَّدَتْ ما أَفْهَمْتُهُ التي قبلها بمعونة
المقام من كونِ الْمُتَفَضِّلِ أكثرَ فَضْلاً من غيره، وهذا يُسَمَّى تَدْيِيلاً، وقد تكونُ الجملةُ المُدَيَّلَةُ مُؤَكِّدَةً
لمنطوق ما قبلها، وهي على كلِّ حالٍ لا محلَّ لها من الإعراب.

ومن الناس من يُسَبِّي مثل هذه الجملة اعتراضاً، وإن كان في آخر الكلام؛ بناءً على أنَّه عنده لا
يختصُّ بآثاء الكلام الواحد، أو ما في معناه من الكلامين المُتَّصِلَيْنِ معى، ولا مُشَاحَّةً في الاصطلاح.
ونُكِّنَتْ هذا التذييل أو الاعتراض الحث على التفضل.

إلا: أداة حصر.

وبسطة: خبر المبتدأ.

عن تفضل: جار ومجرور متعلق به.

عليهم: متعلق بمتفضل.

وكان: الواو واو الحال، وقد مقدرة، وكان فعل ماض ناقص.

الأفضل: بالنصب خبر مقدم.

والمتفضل: بالرفع اسمها مؤخر.

المعنى:

ليس تأخر يدي عن خوف وذل، وإنما هي سعة ناشئة عن إحسان وتفضل، علماً مني بأن المتفضل أفضل على الأكلة وأكمل، وإن عفة النفس عن الخصال المذمومة أكرم وأجمل، وإني لذلك حري قدير، وفي إدراك المزايا الحسنة بصير خبير، وأنهر نفسي عن صدور ما يخل بالمروءة، ولو لم أعب، وأعرضها على إدراك ما يقتضيها من السؤدد علو النسب، وقد قال الشاعر: [الطويل]

حنانيك عني إنما عفة الفتى إذا مال عن لذاته وهو قادر

تكملة:

من الطباع الغريزية الممدوحة ما نقل عن الأصمعي، قال: قصدت في بعض الأيام رجلاً كريماً أغشاه لكرمه، فوجدت على بابه بواباً، فمنعني من الدخول إليه، ثم قال الحاجب: يا أصمعي، ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرثة حاله وقصور يده، فكتبت له رقعة أقول فيها: [الوافر]

إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم

ثم قلت له: أوصل رقعتي إليه، ففعل، فعاد بالرقعة، ورقعة معها مكتوب فيها شعراً: [الوافر]

إذا كان الكريم قليل مال تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمئة دينار، قلت: والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر، فلما رأياني قال: من أين يل أصمعي؟ قلت: من عند رجل أكرم الأجياد ما حاشا أمير المؤمنين، قال: ومن هو؟ فدفعت إليه الرقعة، فلما رأى الصرة، قال: هذه من بيت مالي؟! ولابد من الرجل، قلت: والله، يا أمير المؤمنين إني أستحي أن أروعه برسلك، فقال لبعض خواصه: امض مع الأصمعي، فإذا رآك الرجل فقل له: أجب أمير المؤمنين - من غير إزعاج -، فلما أحضر الرجل، قال المأمون: أما أنت الذي وقفت بالأمس وشكوت رقعة حالك، وأن الزمان قد أناخ بكللكه عليك، ودفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها ما بذلك، فقصدك الأصمعي بيت واحد فدفعتها إليه؟! قال: نعم يا أمير المؤمنين، والله ما كذبت فيما شكوته إليك، فقال المأمون: لله أنت! فما ولدت العرب أكرم منك، ثم بالغ في إكرامه، وجعله من خواصه.

وقد نقل عن حاتم الطائي أنه أخذ إبله غزو من بعض العرب، فطلبها مع عشيرته، فلما لحقوا الغزو أخذوا من أيديهم الإبل، فلحق حاتم رئيس السرية، فالتفت وإذ هو يرى حاتم من خلفه قد قارب طعنه، فقال يا حاتم: اعطني رمحك! فقال حاتم: خذه، وناوله الرمح!

فقال له رفقاؤه: يا حاتم كيف تعطي عدوك رمحك في مثل هذا الموطن؟!!

قال: يا هؤلاء ما جواب من يقول أعطني!

وما ذكرنا من ذكر هذين القضيتين إشعار بأن الشُّفَرَى ليس فيه من مكارم الأخلاق تخلق منه، بل غريزة، إذ لو كانت غير غريزة لم يتكلفها مع مرافقة الحيوانات لأنه لا موجب للتكلف، إذ ليست مدركة.

ومما يناسب هذا المقام أن الأصمعي مر بكناس يكنس كنيفاً وهو رافع صوته، وهو يتغنى بهذه الأبيات: [الوافر]

أضاعوني وأي فتى أضاعوا	ليوم كرهية وسداد ثغر
وخلوني لمعترك المنايا	وقد شرعت أستها انحري
أجرر في الساجد كل يوم	فيا لله مظلمتي وصبري
كأنني لم أكن فيهم وسيطاً	ولم تك نسبتني في آل عمرو

فقال له: أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فبه، وأما سداد الكنف فمعلوم، فأعرض عنه ملياً، ثم أقبل عليه، وأنشد شعراً:

وأكرم نفسي إنني إن أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقال له: وأي كرامة حصل له منك، وما يكون من الإهانة أكثر من أهنتها، فقال: بلى، والله من الهوان ما هو أعظم مما رأيت، فقال له: ما يكون ذلك؟ قال: الحاجة إليك أو إلى مثلك، فاستحى منه و انصرف.

وقال البوصيري شعراً:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع، وإن تفظمه ينظم

ثم قال^(١):

١٠ - وَإِنِّي كَفَّانِي فَقَدْ مَن لَّيْسَ جَازِيَا بُنْعَمَى وَلَا فِي قُرْبِهِ مُتَعَلِّلُ

اللغة:

فقدته يفقده فقدأ وفقداناً وفقدوداً: عدمه، فهو فقيد ومفقود، وأفقدته الله إياه، والفاقد التي مات زوجها أو ولدها أو المزوجة بعد موت زوجها، وبقرة أخذ سبع ولدها، وافقدته وفقدته: طلبه عند غيبته، ومات غير فقيد ولا حميد، ومات غير مفقود: غير مكترث لفقدانه، ونفاقدوا: فقد بعضهم بعضاً.

جازياً: وصف من الجزاء، وهو المكافأة على الشيء خيراً كان أو شراً، كقول الشاعر: [البسيط]

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبرٍ وحسن فعل كما جوزي سنمار

وسنمار: اسم لرجل عمل قصراً للمنذر، فعند تمامه أتى به ورماء من أعلاه، حتى أنه لا يعمل لأحد من الملوك مثله.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": كَفَّانِي كَذَا: أَي أَحَسَّبَنِي ووجدت فيه الكفاية. والحُسْنَى: ضدُّ السَّوْأَى، والمُتَعَلِّلُ: موضعُ التَّعَلُّلِ، أَي: التَّلَهِّي والتَّجَرِّي. يقول: لا أبالي بفقد الشخص الذي ليس مُكافئاً على الفِعلَةِ الحسنى وليس في قُرْبِهِ - أَي: القُرْبِ منه - ما يَتَعَلَّلُ بِهِ مَنْ قُرْبَ منه، أَي: لا خيرَ فيه فتتلَّهَى به نفسٌ مَنْ قُرْبِ، وتتكلفُ الاجترارَ بِهِ لِقَلْبِهِ، فقد كفاني فقد هذا المذكور، أَي: خوفُ فقده.

النعمى: بنون مضمومة، فعين مهملة ساكنة، آخر الحروف ألف مقصورة، وإن فتحت النون مددت وقلت: النعماء، وهي النعمة والصنيعة، والمنة، وما أنعم عليك. والتقريب: ضرب من العدو أو أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً، أو أن تقول: حياك الله وقرب دارك.

المتعلل: بميم مضمومة، فمشناة فوقية، فعين مهملة، فلام مفتوحات، آخر الحروف لام: اسم مفعول من تعلل به، أي تلهى أو مصدر منه.

الإعراب:

الواو: للإستئناف، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، أي: لا تأكل السمك، ولك شرب اللبن.

وإني: إن من الحروف المشبهة بالفعل وضعاً، لكون وضع الفعل على ثلاثة حروف: حرف يبتدأ، وحرف يوقف عليه، والثالث واسطة، وهذا لا ينافي قولهم: الأصل في كل كلمة أن تكون على ثلاثة أحرف فتدبر، تنصب الاسم وترفع الخبر، الياء اسمها. كفاني: فعل ماضٍ، ويجوز دخول الباء على فاعلها، كقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، والنون للوقاية، لأنها تقي الفعل عن الكسر، إذ الياء تستدعي انكسار ما قبلها، والكسر لا يدخل الأفعال كما ذكر في موضعه مفصلاً، والياء محله النصب على أنه مفعول أول.

فقد: مفعول ثانٍ مضاف إلى من، وهو بمعنى الذي اسم موصول.

وليس: من الأفعال الناقصة وتسميتها ناقصة لسلب دلالتها على الحدث كذا قيل. والصحيح أن نقصانها لعدم اكتفائها بالمرفوع، وإلا فأفعال هذا الباب كلها دالة عليه إلا ليس، بل وليس أيضاً كما نص عليه الرضي، فإنها دالة على الحدث، الذي هو الإنتفاء، واسمها ضمير عائد على من، وقد يقدم خبرها على اسمها، كقول السموأل بن عدياء اليهودي: [الطويل]

تعرينا أنا قليل عديدنا	فقلت لها: إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم	فليس سواء عالم وجهول

جازياً: خبرها، والجملة لا محل لها من الإعراب.

بنعمى: متعلق بجازٍ.

ولا: الواو حرف عطف، ولا: نافية.

في قربه: خبر مقدم متعلق بمحذوف مضاف إلى ضمير، وضمير الغائب.

متعلل: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على: ليس جازياً، فمحلها محلها.

المعنى:

لقد كفاني فقد من ليس يجازي بالإحسان، وعدم موافقة من أن فارقتك لست منه في أمان، وليس في القرب منه ما يتهنى به ويحمد، ولا يطلب منه الوفاء ويقصد، ولعمري أن الشُّنْفَرَى معذور في البعد عن من بهذا النعت اشتهر، وليس بغباء به وأصله إن غاب أو حضر، كيف ومن كان في دنياه الصفات، لا يخلو عن فلتات وهفوات. وقد قال بعض ذوي العلم والحكمة: (لسانك حصانك، إن هنته هانك، وإن صنته صانك)، وقالت العرب^(١): (المرء بأصغريه: قلبه ولسانه)، والله در جميل إذ يقول: [الطويل]

لحى الله من لا ينفع الود عنده ومن حبله لمن مد غير متين
ومن هو إن تحدث له العين نظرة تفيض لها اشئان كل قرين
ومن هو ذو لونين ليس بدائم على خلق خوان كل أمين

فللائق للعاقل الطالب المحاورات، أن يتجنب قرباً عن مثل هذا في المسامرات، كيف والإنسان يحتاج إلى من يفشي سره إليه، ولو بشكاية إلى بعض الإخوان، يدفع بها غمه، ويخفف كربه وهمه، كما قيل: [الطويل]

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ومثل هذا أقل الأصدقاء، وأدنى الأوداء، ولم يحصل الشُّنْفَرَى على مثله في العشرة والأصهار، إذ شرط من يتلهم في قربه كتم الأسرار، ومثل هذا الخائن الغدار لا نفع في مصاحبته، ولو تطاولت بمرافقه الأعمار، لا لشكاية، ولا ضجر، ولا لجلب خير

(١) انظر: غريب الحديث لابن الجوزي ٥٩١/١.

ودفع شر، فما أحقه بقول الشاعر: [الطويل]

إذا كنت لا علم لديك تفيدنا ولا أنت ذو دين فنجوك للدين
ولا أنت ممن يرتجى لكريهة عملنا مثلاً مثل شخصك من طين

ولا لوم على الصلاح الصفدي حيث بخل بالطين، ولم يضيعه في تمثال هذا، وغير
قوافي البيتين، فقال: [الطويل]

إذا كنت لا علم لديك تفيدنا ولا أنت ذو جود فنجوك للقرا
ولا أنت ممن يرتجى لكريهة عملنا مثلاً مثل شخصك من خرا

تكملة:

إذا كان الصديق الوفي معدوماً، والخليل الشفيق لا وجود له، وكان الشَّنْفَرَى على
هذه الهمة والنجدة والصولة، وكان مجفواً في عشيرته، وأحد يشتكي إليه، ولا خل وفي
يجنح إليه، فمرافقته للوحوش أسلم وأغنم، وفيه راحة للقلب والبدن، واستراحة عن
الأكدار والحزن، لا يوالف أحداً، ولا يعتمد على مخلوق، كقول الطغرائي: [البسيط]

وإنما رجل الدُّنيا وواحدها من لا يعول في الدُّنيا على رجل

وقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: "الوفاء شعبة من شعب الإيمان" وقال: "من
لا وفاء له لا إيمان له"، واختلف في حال الصداقة، فبعضهم ذهب إلى أنه لا وجود
للخل الوفي، لقول الشاعر: [الرجز]

الغول والخل والعنقاء ثلاثة ثلاثة أشياء لم توجد ولم تكن

ثلاثة ليس لها وجود: الغول والعنقاء والخل الوفي.

وبعضهم أثبتته، فقال: [من الطويل]

ثلاثة أحسنها العتيق الخل والحمام والصديق

وقال الشاعر: [الطويل]

صديق صديقي داخل في صداقتي صديق عدوي ليس لي بصديق

ومما يقرب من الشَّنْفَرَى في علو الهمة ابن مُقَرَّب، حيث يقول: [الوافر]

فمثلي من يقيم صفا الأعادي
وإذا يومي أظل فما أبالي
فلا يتوهم السفهاء أنني
وقال أيضاً: [الطويل]

ومن لم يفارق منزل الضيم لم يزل
ومن يثو في دار الهوان يعش بها
غرمت يميني أن أقمت على القلا
ثم قال^(١):

١١ - ثَلَاثَةُ أَصْحَابٍ: فُوَادٌ مُشِيعٌ وَأَبْيَضُ إِضْلِيْتُ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

اللغة:

الفؤاد: القلب، مذكر، أو هو ما يتعلق بالمريء من كبد ورئة، وجمعه أفئدة، والفؤاد بالفتح والواو غريب، وفئد: كعني شكاه أو وجع فؤاده، والفئيد: النار، والمشوي، والجبان، كالمفؤد فيهما، وافتادوا: أوقدوا ناراً، والتفؤد: التحرق والتوقد.

مشيع: على صيغة اسم المفعول، كمعظم: الشجاع، كأنه شيع بغيره أو بقوة قلبه، والعجول، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المشيعة في الأضاحي، بالفتح أي: التي تحتاج إلى من يشيعها أي يتليها الغنم أي لضعفها، وبالكسر: وهي التي تشيع الغنم أي: تتليها لعجفها، وشايعة: والاه، ويأبله صاح ودعاها، وفلاناً تابعه على أمر، والمشايح: الملاحق، وتشيع: ادعى دعوة الشيعة، وهما متشايعان في دار ومتشاعان: شريكان، وهو شيع نساء بالكسر أي: يشتهيهن ويخالطهن.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": وَمَنْ لَا يُحَافُ فَقْدَهُ لِأَجْلِ وجود هذه الثلاثة، يكون وجوده مساوياً لعدمه، من أجل عدم الانتفاع به. والفؤاد المُشِيعُ، بضم الميم وفتح الشين المعجمة والياء المُشدَّدة: الشجاعُ الجريءُ، كأنه شُيعَ بغيره، أو بِقُوَّةِ أودعها الله فيه. والأبيضُ الإِضْلِيْتُ بكسر الهمزة: السيفُ الصَّقِيلُ الماضي، وفي معناه: الصَّلْتُ والمُنْصَلْتُ. والصفراءُ العَيْطَلُ، بالعين المهملة: القوسُ الطويلةُ.

ف(فؤادٌ) وما عُطِفَ عليه تفصيلاً لإجمال (ثلاثة أصحاب): فؤادٌ قويٌّ، وسيفٌ صَقِيلٌ ماضٍ، وقوسٌ صفراءٌ طويلةٌ، ولعلها أجودُ القِسيِّ عُوداً وأبعدها مَرْمًى.

الأبيض: ضد الأسود، جمعه بيض، أصله بيض بالضم بالضم أبدلوه بالكسر لتصحيح الياء، وعلة ذلك تقدمت عليك فيما سبق، والسيف، والفضة، وكوكب في حاشية المجرة، والرجل النقي العرض، وجبل بمكة، وقصر للأكاسرة كان من العجائب إلى أن نقضه المكتفي، وبنى بشرفاته أساس التاج، وبأساسه شرفاته، فتعجب من هذا الانتقال، والأبيضان: اللبن والماء، والموت الأبيض: الفجأة.

إصليت: الإصليت بهمزة مكسورة، فصاد مهملة ساكنة، فلام مكسورة، فمشاة تحتية ساكنة، آخر الحروف فمشاة فوقية: هو السيف الصقيل الماضي، ويجوز أن يكون بمعنى مصلت، وأصلت السيف إذا جرده من غمده فهو: مصلت.

الصفراء: بالصاد المهملة والفاء، هي القوس من نبع.

العيطل: بعين مهملة مفتوحة، فمشاة تحتية ساكنة، فطاء مفتوحة، آخر الحروف لام: هي الطويلة العنق في حسن جسم، أو كل ما طال عنقه، فهو: عيطل.

الإعراب:

ثلاثة: فاعل كفى في البيت الأول، وألحق التاء في ثلاثة مع أنه مضاف إلى مذكر، لأن العدد حكمه من الثلاثة اللعشرة، يذكر مع المؤنث، ويؤنث مع المذكر، كقولك: رأيت أربع نساء، وأربعة رجال، كما هو مذكور في موضعه، مضاف إلى أصحاب. فؤاد: بدل من ثلاثة، بدل مفصل من مجمل، ويجوز كونه خبر مبتدأ محذوف.

مشيع: نعته، وتنكير فؤاد للتعظيم.

وأبيض: معطوف على فؤاد.

إصليت: نعته.

وصفراء: معطوف.

وعيطل: نعته.

المعنى:

قد تعوضت على مؤالفة القصي والقريب، والخل والحبيب، بثلاثة فيها يحصل العز والشرف، واغتنى عن التحف والظرف، فؤاد قوي متين، وجنة في النابات حصين، لا

تربيته الصائب، ولا تميته النوائب، وسيف فاتك بتار، أسرع من أخ شقيق نصار، وقوس سريع في إيصال السهم منها، قد حاز في فنونه أقصاها ومنتهاها.

أما إثبات القلب في مواطن الحروب، فممدوح في الجد، وعدمه مذموم بلا حد، قال بعض الشعراء يهجو الحجاج الثقفي، وهو عمران بن حطان مفتي الخوارج: [الكامل]

أسد علي وفي الحروب نعامه فتخاء تنفر من صفير الصافر
لم لا برزت إلى غزالة في الوغى إذ كان قلبك في جناحي طائر

وغزالة هذه امرأة شيبوب، كانت من الخوارج، قيل: إنها دخلت إلى مسجد الكوفة، وكان معها سبعون فارساً، وقرأت سورة البقرة في صلاة الصبح في أول ركعة، وآل عمران في الركعة الثانية، والحجاج هرب من البلد مع جنوده وعساكره، وكان عدد جنوده ثلاثين ألف فارس، فلم يطق أن يبقى معها خوفاً منها.

ونقل بعض أصحاب التواريخ: إن رجلاً من أشراف العرب افتقر، وكانت عنده جارية حسناء، فأتى من الحجاز إلى العراق ليبيعهها، فأخذها منه الحجاج بثمن كثير، فبقيت عنده مدة، فتمرض يوماً، ودخل عليه من أقربائه شاب حسن المنظر، وهي عنده، فتأمل، فإذا الشاب والجارية يتسارقان النظر بعضهم بعضاً، فعند ذلك أوهب الغلام الجارية، وأخذ بيدها، وخرج فبقيت عنده ثلاثة أيام، وانهزمت في الليلة الثالثة، فأخبر الحجاج، وأرسل من يأتيه بها، فوجدها بعض غلمانه وأتى بها، واستنطقها عن حالها، وما السبب في انهزامها، فقالت: أنا قي الأصل أمة فلان من العرب، فاحتاج إلى بيعي، فأتى بي من الحجاز، وإذا في الطريق أسد، وهو في حالة رؤيته الأسد، كان جالساً مني مجلس الرجل من المرأة، فقام عني، فوثب على الأسد، وقتله، وعاد ليس مرعوباً، وقضى حاجته، وأنت أوهبتني لابن عمك، فبينما هو في حالة الجماع، إذ سقطت من السقف فأرة، فأغمي عليه، فأتيت بالماء ورشيت على وجهه، فلم يستفق، فقلت في نفسي: لو مات، لقال الحجاج: قتله الجارية، فهربت خوفاً منك، فاستحى الحجاج من ذلك، وأرجعها إلى مولاهما، والتمس منها أن لا تذكر هذا الخبر لأحد.

تكملة:

عبر عن هذه الثلاثة بالأصحاب، لشدة الملازمة، إذ لا تنفك عنه في حالة، بخلاف الأهل فإنهم أهل وإن بعدوا أو فارقوا.

قال عبد الله باشا بن الكوبرلي: [الطويل]

يعانق مفتوق الغرارين مصلتاً ويأبى عناق البيض، وهو يرام

وقال أبو الطيب شعراً: [البيط]

الخيال والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقد أشار بكفاية هذه الثلاثة إلى أنه غير مفتقر إلى الوحوش اللاتي اتخذها أهلاً، وربما يذب عنها ريب ما يريها، وغير محتاج إلى نصرتها، ودفع الأذى عنه، وإنما اختارهم على قومه، بل على أبناء جنسه لانسيتهم، ودفع الوحشة الناشئة عن الانفراد، وقدم الفؤاد، لأنه الركن الأعظم في ذلك.

وفي البيت الأول التضمين، لأن الثلاثة فاعل كفى، وهو عيب من عيوب الشعر، كالإقواء والإيطاء، وذكر بعضهم أنه ليس بعيب، لأنه ورد كثيراً في أشعار العرب الفصحاء، وأقبحها الإقواء.

استطراد:

لابن مُقَرَّب: [من البيط]

أميم لا تنكري حلي ومرتحلي إن الفتى من لم يزل كلاً على إبل
وسائلي وارد الركبان عن خبري ينبئك أني عين الماجد البطل
أشرب الماء ما لم يصف مورده ولا أقول لمعوج الوصال صل
كلفيني مقاماً بين أظهركم وليس يبدو فرند السيف في الخل
أدامت البيض في الأجفان مغمدة فما يبين لها في الهام من عمل
أويتكم جاهداً لو أن دائكم مما يداوى بغير البيض والأسل

وقال الآخر: [الكامل]

لسنا إذا كرممت أوائلنا يوماً على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا
وقال الآخر: [البسيط]

حسبي من الدهر أن الدهر ينتج لي بكر الخطوب وأني عاقر الأمل
دعني أمادي زماني في قلبه فهل سمعت بطل غير منتقل
وكلما راح جهماً رحت مبتسماً والبدر يزداد إشراقاً مع الطفل
فلا يرو عنك إطراقي لحادثة فالليث مكنه في الغيل للغيل
فما تأطر عطف الرمح من خور فيه، ولا احمر صفح السيف من خجل
لا غرو إن عطلت من خيلها همي فهل يعير جيد الظبي بالعطل
ويلاه، هل أنال السيف باريها وقلد الغضب جيد الفارس البطل

ولما أراد المعتصم فتح عمورية، أشار عليه أهل التنجيم، أن تأن هذه السنة، فلن
تفتح فيها عمورية على يديك، فخالفهم، وركب إليها وفتحها، فمدحه بعض شعرائه
بقوله: [البسيط]

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
والسعد في شهب الارماح لامعة بين الخميسين لا بالسبعة الشهب
وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً، وكان مكتوباً على أحد صفحتيه
شعراً: [البسيط]

في الجبن عارٌ وفي الإقبال مكرمة والمرء بالجبن لا ينجو من القدر
وقال^(١): " مَنْ يَأْخُذْ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ؟ " فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، من
جملتهم: علي رضي الله عنه، قام ليأخذه، فقال: اجلس، وعمر رضي الله تعالى عنه،
فأعرض عنه، والزبير رضي الله عنه، وطلبه ثلاث مرات، كل ذلك ورسول الله صلى الله
عليه وسلم يعرض عنه، حتى قام إليه أبو دجانة رضي الله عنه، وقال: ما حقه يا رسول
الله؟

(١) أخرجه أحمد (١٢٣/٣، رقم ١٢٢٥٧)، وعبد بن حميد (ص ٣٩٤، رقم ١٣٢٧) والحاكم
(٢٥٥/٣، رقم ٥٠١٨).

قال: "أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني"، قال: أنا أخذه بحقه، فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب أي: يمشي مشية المتكبر، وحين رآه صلى الله عليه وسلم يتبختر بين الصفين، قال: "إِنَّهَا لَمْشِيَّةٌ يُبَغِضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمُؤْطِنِ"^(١)، أي: لأن فيها دليلاً على عدم الاكتراث بالعدو.

وعند اصطفاف القوم نادى أبو سفيان بن حرب: يا معشر الأنصار خلوا بيننا وبين بني عمنا، ونصرف عنكم، فشتموه أقبح شتم، ولعنوه أشد اللعن.

وفي رواية: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقي العدو قال: "اللهم بك أضاول وبك أحاول"^(٢) أي: أطلب.

وقاتل أبو دجانة حتى أمعن، فعن الزبير قال: وجدت - أي: غضبت في نفسي -، حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف - أي: الذي قال فيه: من يأخذه بحقه ثلاث مرات -، وأنا ابن عمته فمنعني، وأعطاه أبا دجانة، فقلت: والله لأنظرون ما يصنع، فاتبعته، فأخذ عصاة حمراء أخرجها من ساق حقه، وكان مكتوباً على أحد طرفيها: ﴿نُضِرُّ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وفي طرفها الآخر: (الجبانة في الحرب عار، ومن فر لم ينج من النار)، فعصب بها رأسه، وقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصاة الموت، أي: لأنهم كانوا يقولون ذلك إذا تعصب بها، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتلته، أي: وكان إذا كَلَّ ذلك السيف يشحذه، أي: يحده بالحجارة، ولم يزل يضرب به العدو حتى انحنى وصار كأنه منجل، وكان رجل من المشركين لا يدع لنا جريحاً إلا ذفف عليه أي: أسرع قتله، فدعوت الله أن يجمع بينه وبين أبي دجانة، فالتقيا فاختلعا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة، فاتقى بدرقته، فعضت الدرقة على السيف، وضربه أبا دجانة فقتله، ثم رأيته حمل بالسيف على رأس هند - أي: بنت عتبة زوج أبي سفيان - وقيل: غيرها، ثم رد السيف عنها، قال أبو دجانة: رأيته إنساناً يحمس الناس حمساً شديداً - أي: يشجعهم، وبالشين المعجمة: يوقد الحرب ويشيرها -، فعمدت إليه، فلما حملت عليه السيف ولول أي: دعا بالويل - أي: قال: يا ويلاه -، فعلمت أنه امرأة،

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (ج ٣: ص ٢٣٣).

(٢) انظر: النهاية في غريب الأثر ١/ ١٠٨٨.

فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن أضرب به امرأة.

وقد قال أبو إسحاق بن خفاجة في حق السيف: [البسيط]

همم ترائت لو أن الموت صافحها	لذل أو ذل منها وهو ظمآن
فكأن يخلق مهرأً والدماء بها	فلا تقل هي أنصاب وأوثان
موتى فإن خلقت أكفانها علمت	أن الدروع على الأبطال أكفان
نفسى فداؤك لا كفؤ ولا ثمن	ولو غدا المشتري منها وكيوان
والتبر قد وزنوه بالحديد فما	ساوى، ولكن مقادير وأوزان

ثم قال^(١):

١٢ - إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ أَنْتَ كَأَنَّهَا مُرَزَّاةٌ تَكْلَى تَرْنُ وَتُغُولُ

اللغة:

زَلَّ: خَرَجَ بسرعة، وَقَوُسَ زَلَاءً يزل السهم عنها لسرعة خروجه، وزل عمره: ذهب، وفلان زليلاً وزلولاً: مَرَّ سريعاً، والدراهم زلولاً: أنصبت أو نقصت وزناً، يقال: درهم

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": ثُمَّ وَصَفَ الْقَوْسَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى جَوْدَتِهَا فَقَالَ:

١٢ - هَتُوفٌ مِنَ الْمُلْسِ الْمُتُونِ يَزِينُهَا رَ صَائِعٌ قَدْ نَيْطَتْ عَلَيْهَا وَمَحْمَلٌ

١٣ - إِذَا زَالَ عَنْهَا السَّهْمُ حَنْتَ كَأَنَّهَا مُرَزَّاةٌ عَجَلَى تَرْنُ وَتُغُولُ

الهتوف من القسي: المصوتة بكثرة، ومثلها الهتافة والهتفى كالجَمْزَى في التحريك. والمتون: الظهور، واحدها متن. والرصائع جمع رصيعة، وهي: كل حلقة مستديرة، فلعل القسي العريضة كانت تزين بالحلقات المستديرة.

ومن الناس من فسّر الرصائع هنا بشيور مضمورة، وليس ذلك في القاموس، ولا خير فيما لا يوجد فيه إن شاء الله. والمحمل: العلاقة.

وحين القوس: تصويتها. والمرزاة: الكثيرة الرزايا، أي: المصائب، والرني: التصويت، رنت القوس ترن. وعجلى صفة مرزاة، فهي بمعنى عجول بفتح العين، وهي: الواله من النساء لفقد ولدها، والإعوال رفع الصوت بالبكاء، وجملة ترن في موضع نصب على الحال من (مرزاة).

والمعنى: أشبهت القوس بتصويتها عند مفارقة السهم لها امرأة كثرت أرزاؤها، وإلها، في حال كونها ترن وترفع صوتها بالبكاء.

زال، وأزال إليه من حقه شيئاً: أعطاه، وأزال إليه نعمة: أسداها، والزلة: الصنعة ويضم، والعرس، والخطيئة، والسقطة، واسم لما تحمل من مائدة صديقك أو رفيقك، وهو المراد هنا.

السهم: واحد السهام، والحظ، جمع: سهمان، وسهمة بضمهما، والقدح يقارع به، جمع: سهام، وجائز البيت، ومقدار ستة أذرع في معاملات الناس ومساحاتهم، وحجر على باب بيته، شيء ليصاد به الأسد، فإذا دخله وقع فسدته، وقبيلة في قريش وفي باهلة.

أنت: بفتح الهمزة، والنون المشددة، من الأنين، وهو التأوُّه.

المرزئة: بضم الميم، وفتح الراء والزاء، بعدها همزة مفتوحة، آخر الحروف هاء تأنيث، اسم مفعول مأخوذ من الرُّزء، وهو المصيبة.

ثكلى: بمثلثة مفتوحة، فكاف ساكنة مقصوراً: الفاقدة ولدها، وكذلك الثكل بالتحريك.

تُرُنُّ: أي تُصَوِّتُ.

تعول: بضم تاء المضارعة، وسكون العين المهملة، وكسر الواو: من الإعوال، والعَوْلُ والعَوْلَةُ: رَفْعُ الصَّوْتِ بالبكاء، وكذلك العويلُ، تقول منه: أَعْوَلَ، وفي الحديث: "المُعْوَلُ عليه يُعَذَّبُ"^(١)، وأعولت القوُسُ: صَوَّتَتْ، وهو المراد هنا، قال الشاعر: [الطويل]

فَيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى عَلَيْهِمْ؟ وَهَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمُعْوَلُ

وهذا من شواهد النحو في باب الاستثناء فليراجع.

الإعراب:

إذا: ظرف لما يستقبل من الزمان، وهي ملازمة للإضافة إلى جمل الأفعال، لقول ابن مالك: [الرجز]

(١) أخرجه مسلم (٦٤٠/٢)، رقم (٩٢٧). وأخرجه أيضاً: أحمد (٣٩/١)، رقم (٢٦٨)، والبخاري (٣٣٨/١)، رقم (٢١٩)، وأبو يعلى (٢٠١/١)، رقم (٢٣٣)، وابن حبان (٤٠٢/٧)، رقم (٣١٣٢)، والبيهقي (٧٢/٤)، رقم (٦٩٦٠).

وَالزُّمُوا إِذَا إِصَافَةً إِلَى جُمَلِ الْأَفْعَالِ كَهُنْ إِذَا اعْتَلَى

وبعضهم ادعى إضافتها إلى جمل الأسماء أيضاً، وأستدل بقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، على أَنَّ السماء مبتدأ، وجملة انشقت هو الخبر، وَرَدَّ بِأَنَّ السماء فاعل بفعل محذوف فسرّه المذكور، والتقدير: إذا انشقت السماء انشقت.

زَلَّ: فعل ماضٍ.

عنها: متعلق به.

السهم: فاعل.

أَنْتَ: أَنْ فعل ماضٍ، والتاء علامة التانيث، جواب إذا، وفاعله ضمير يعود على القوس.

كأنها: كَأَنَّ من الحروف المشبهة بالفعل، الهاء اسمها، مرزئة خبرها، ويجوز تخفيفُ كَأَنَّ فيبقى عملها استصحاباً للأصل، قال ابن مالك: [الرجز]

وَحُفِّفَتْ كَأَنَّ أَيْضاً فُتُوِي مَنْصُوبُهَا وَثَابِتاً أَيْضاً رُوي

وقال الشاعر: [الطويل]

ويوماً تُوافينا بوجهٍ مُقَسَّمٍ كَأَنَّ ظبيةً تعطو إلى وارق السَّلَمِ

يُروى: برفع ظبية على أنها خبر كَأَنَّ واسمها مستتر، والتقدير: كأنها ظبية، ويروى: بالنَّصْب على أنه اسمها والخبر محذوف، والتقدير: كَأَنَّ مكانها ظبية، ويروى: بجرٍ ظبية على أَنَّ الأصل كظبية، وزيدت إن بين الكاف ومجرورة، وعليهن: فجملة تعطو صفة لظبية لأنها نكرة، والموفاة: الإتيان، والمُقَسَّم: المحسن من القسامة، يقال: قسيم الوجه، ومقسم الوجه أي: حسنه، وتعطو: تناول، وعداه بإلى لتضمنه معنى تميل، والوارق: اسم فاعل من أورد الشجر، ويروى: ناظر السَّلَم، والسَّلَم بفتحيتين شجر له شوك.

وتفارق إنَّ في أَنَّها حالة كونها مخففة من الثقيلة محذوفة الاسم، وإذا كان الخبر جملة اسمية لا يحتاج إلى فاصل، كقول الشاعر: [الهمز]

وَوَجْهٍ مُشْرِقُ اللَّوْنِ كَأَنَّ ثُذْيَاهُ حُقَّان

فثدياه: مبتدأ، وحقان هو الخبر، والجملة خبر كأن، واسمها محذوف ضمير الشأن أي: كأنه، وهذا البيت رواه سيويوه هكذا ورواه غيره: وَصَدْرٌ مُشْرِقٌ النَّحْرِ، والمعنى على الأول: رُبَّ وجه يلوح لونه وثديا صاحبه كحقين من الاستدارة.

ثكلي: خبر ثان.

ترن: فعل مضارع، فاعله يعود إلى ثكلي.

وتعول: فعل مضارع معطوف على ترن، وعود ضمير الفعلين إلى الثكلي أولى من عوده إلى القوس، وإن صحَّ وصفها بالزَّيْنِ والإعوال لئلا يلزم التكرار في قوله: هتوف، فيما يأتي كذا قيل.

والصواب: عوده إلى القوس، فيكون ارتباط هذا البيت بالبيت الثاني أتم، ولا تكرار كما توهم، بل في الأول انتشار تنبو عنه سليقة الناظم الأزدي، على أن الأنسب أن يكون وصفاً للقوس كما لا يخفى.

المعنى:

لَمَّا عَدَّ الْقَوْسَ مِنْ جَمَلَةِ أَصْحَابِهِ، وَرَغِبَ فِيهَا عَنْ رَفَقَةِ أَحِبَّابِهِ، تَعَرَّضَ لَوْصَفِهَا الذَّاتِي وَالْعَرْضِي فَقَالَ، وَإِبْدَاءَ مَا احتوته من محاسن الخصال، أن هذه القوس إذا جاوزها السهم كأنها امرأة مصابة نائحة فاقدة ولدها باكية صائحة.

استطراد:

دخل بعض الشعراء على الفضل بن يحيى البرمكي، وامتدحه بيت من الشعر:

لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ شَدَّوْا رِحَالَهُمْ إِلَى بِحْرِكَ الطَّامِي أَتَيْتُ بِجَرْتِي

وبيده جرة، فأمر بإملائها من النقادين، فقال بعض أهل مجلسه: لو اختبرت هذا الشاعر بشيء من الشعر، لأنه ربما كان سارقاً هذا البيت من قول بعض الشعراء، فأمر بإحضاره، وأخذ بيده قوساً وسهماً، وقال: قل في حقهما شيئاً وإلا ضربتك، فأنشأ ارتجالاً: [الطويل]

وقوسك قوس الجود والوتر والندى وسهمك سهم اليسر أضرب بها عسري

أيا لومة لاموك يا فضل بالعطا فمن ذا الذي ينهى السحاب عن القطر؟!

سُئِلَ بعضُ الكاملين في ذلك الزَّمان عن سبب قتل البرامكة، فأجاب بهذين البيتين:
[الطويل]

ألا إنَّ سيفاً برمكياً مُهَنَّداً أصيبَ بسيفِ هاشميٍّ مُهَنَّدِ
فَقُلْ للمطايا بعد فضلٍ تعطلي وقل للرزايا يا كل يوم تجدي
استطراد:

مما اشتهر في أحياء العرب بنو ثعل برمى السهم، وهم الذين عناهم امرؤ القيس
بقوله: [المديد]

رب رامٍ من بني ثعل مخرج كفيه من ستره
وقال الطغرائي:

إني أريد طروق الحي من إضم وقد حماه رماة من بني ثعل
وقد أكثر الشعراء من نسب حسن الرمي إليهم، قال ابن قلاقس: [الوافر]
وحي من كنانة قد رموني بما حوت الكنانة من سهام
إذا انتقلوا وما ثعل أبوهم رموك بكل رامية ورامي

ومن هذه القبيلة عمرو بن المسيح الثعلبي، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم، في وفد العرب، فأسلم وهو ابن مئة وخمسين، وكان أرمى العرب بالسهم. وأمرؤ القيس قد عني بالبيت المتقدم هذا الصحابي رضي الله عنه، وهذا من جملة ما استشهد به ابن قتيبة في كتاب "الشعر والشعراء" على قرب زمن النبي صلى الله عليه وسلم، من زمن امرئ القيس، وأنه كان قبله بأربعين سنة، وقد قال صلى الله عليه وسلم، يوم غزوة حنين لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه^(١): "أزِمَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي"، ولم يرد أنه قالها لغيره قبل هذا اليوم.

(١) أخرجه البخارى (١٤٨٩/٤، رقم ٣٨٢٩)، ومسلم (١٨٧٦/٤، رقم ٢٤١٢)، والترمذى (١٣٠/٥)، بعد رقم ٢٨٢٩)، والشاشى (١٥٦/١، رقم ٩٢)، والطبرانى فى الأوسط (٧٣/٦، رقم ٥٨٣١)، والبيهقى (١٦٢/٩، رقم ١٨٢٩٣).

ومما ذكر في بعض التواريخ أن بعض الملوك أراد السفر، فذكر له المنجمون أن القمر في العقرب، فبينما هم يتحدثون بذلك إذ دخل على الملك غلام له، حسن المنظر، لين الأعطاف، متقلداً قوساً، فقال وزيره - وهو جالس مع الملك -: تهيأ للركوب، فإن القمر في هذه الساعة خرج من العقرب، ودخل القوس، متفائلاً برؤية الغلام على تلك الحالة، فركبوا وظفروا بالعدو، ونهبوا غنائم لا تعد ولا تحصى.

ثم قال^(١):

(١) قال الزمخشري في "أعجب العجب": الَهْتَفُ الصوت، يقال: هَتَفَتِ الحمامة، أي صَوَّتَتْ وصاحت. وقَوْسٌ هَتَافَةٌ وهَتَفَى، أي ذات صوت، والمَلَأَسَةُ ضِدُّ الحُشُونَةِ، أي هذه القَوْسُ مَلَأَسٌ لا عُقْدَ فيها ولا حُشُونَةَ، وتَمْتِئُ القَوْسُ ضَلَابَتِهَا، وَمَتْنُ الشَّيْءِ صَلْبٌ، والمَتُونُ الصَّلْبَةُ وَنِطْتُ غُلَقْتُ، والمَحْمَلُ مِثَالُ المَرْجَلِ: علاقة السيف، وهو السيز الذي يُقْلَدُهُ المَتَقَلِّدُ، وقد سَمِيَ عِزُّ الشَّجَرِ بذلك، والرصاصُ ما يُرْصَعُ به من جَوْهَرٍ وغيره. يقال: تاجٌ مَرَصَّعٌ، وسيفٌ مَرَصَّعٌ، أي مُحْلَى بالرصاص، وهي حَلَقٌ يُحْلَى بها. الواحدة رَصِيعَةٌ. وقيل المراد بالرصاص هنا الشُّيُورُ التي يُزَيَّنُ بها القَوْسُ. هَتُوفٌ يَجُورُ أَنْ يَكُونَ خَبِراً لِمُبْتَدَأٍ محذوف، أي هي هَتُوفٌ، وَيَجُورُ أَنْ يَكُونَ نَعْتاً لصفراء، ومن المَلْسِ: "مِنْ" يَقَعُ في الكلام على أَوَّلِهِ: ابتداء الغاية، كقولك: سِرْتُ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى مَكَّةَ، والتبعضُ كقولك: شَرِبْتُ مِنَ المَاءِ، وتكونُ لِلْبَدَلِ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ أي بَدَلًا مِنْكُمْ. وكذلك قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ وكقول الشاعر:

فَلَيْتَ لَنَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً بَاتَتْ عَلَى طَهْيَانِ

وتزاد في النفي، كقولك: ما جاءني من أحدٍ، وتُكْسَرُ نُونُ مِنْ فِي كُلِّ مُوَضِعٍ لِقِيهَا ساكنٌ، إلا مع لام التعريف أين وَجَدْتُ كهذا البيت، ومنه قوله عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَمِنْ النَّاسِ﴾ و﴿وَمِنْ اللَّيْلِ﴾ و﴿وَمِنْ الْإِبِلِ﴾ إلى غير ذلك، والغرضُ مِنْ ذَلِكَ تحريك الساكن تَوْضِلاً إِلَى النطقِ بالسَّاكِنِ الْآخِرِ، والقياسُ يَقْتَضِي التحريكَ بِأَيِّ حَرَكَةٍ كَانَتْ، وإنما فُتِحَتْ هنا فِرَاراً مِنْ تَوَالِي كَسْرَتَيْنِ فِيمَا يَكْثُرُ اسْتِعْمَالُهُ كَيَاءَيْنِ، والياءُ إِذَا تَوَالَتْ ثَقُلْبَانِ، ولهذا لم تَقَعَا أَوَّلَ كَلِمَةٍ أَضْلَيْتَيْنِ فَاءً وَعَيْنًا، إِلَّا شَاذًا لَا يُعْتَدُّ بِهِ، مِثْلُ يَسْرُ وَالْمَاضِي يَسْرُ، وإحداهما زائدةٌ لِلْمُضَارَعَةِ، والغرضُ يَحْضُلُ بِالْفَتْحِ مع خَفَّتِهِ، فَحَرَّكَهُ بِالْفَتْحِ لِيَكْثُرَ فِي كَلَامِهِمْ مَا كَانَ خَفِيفاً، وَيَقُلُّ مَا كَانَ ثَقِيلاً، وَلَمْ يُجِزُوا فِي نُونٍ "مِنْ" مَعَ الْأَلِفِ وَاللَّامِ إِلَّا الْفَتْحَ، إِلَّا شَاذًا، فَإِنْ دَخَلَتْ عَلَى مَا أَوَّلُهُ هَمْزَةٌ وَضَلَّ، وَلَيْسَ فِي الْمَصَاحِبَةِ لَامُ التَّعْرِيفِ كُسِرَتْ فَتَقُولُ: مِنْ إِيْنِكَ بِكُسْرِ النُّونِ، وفي الحديث: "وَشَقَّقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي" بِكُسْرِ نُونٍ مِنْ، وهذه الرواية هي المحفوظة، وهي التي ينبغي ألا يُغْدَلَ عنها.

وَكُسِرَتْ نُونُ عَنْ مَعَ الْأَلِفِ وَاللَّامِ، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ و﴿عَنِ الْيَتَامَى﴾ و﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ إلى نظائره لأنه لم يتوال كسرتان، ولم يُحْفَظْ فَتْحُ نُونٍ مِنْ مَعَ غَيْرِ الْأَلِفِ إِلَّا نَادِراً، كما جاء كُسْرُ نُونٍ مِنْ مَعَ الْأَلِفِ وَاللَّامِ نَادِراً.

١٣- هَتُوفٌ مِنَ الْمُلْسِ الْمُتُونِ يَزِينُهَا رَصَائِعُ قَدْ نِطِطُ إِلَيْهَا وَمَحْمَلٌ

اللغة:

الهتوف: بهاء مفتوحة، فمشناة فوقية مضمومة، فواو ساكنة، آخر الحروف فاء: صيغة مبالغة من الهتف، وهو التصوت، يقال: هتفت الحمامة تهتف هتفاً، وهتف به هتافاً أي: صاح، وقوس هتافة وهتفى ذات صوت.

الملس: بضم الميم وسكون اللام، آخر الحروف سين مهملة: جمع أملس من الملاسة، وهي الملوسة ضد الخسونة.

المتون: بميم، فمشناة فوقية مضمومتين جمع المتن، وهو من الأرض ما صلب وارتفع، ومتن الظهر: مكتنف الصلب عن يمين وشمال عصب ولحم، ومتن السهم: ما دون الريش منه إلى وسطه.

وفي نسخة: عطوف من الملس الجياد، العطوف: صيغة مبالغة من العطف، وهو: الميل، والمُعْطُوفَةُ: قَوْسٌ عَرَبِيَّةٌ تُعْطَفُ سَيْتُهَا عَلَيْهَا عَطْفًا شَدِيدًا.

والسية: جانب القوس، فالعطوف أما لعطف جانبها، أو كأنها ناقة عطوف تعطف على ولدها، ولا ريب أن القوس تعطف على النبال.

الجياد: بكسر الجيم جمع جيد، وهو ضد الرديء.

يزينها: بفتح المشناة التحتية من الزين ضد الشين.

والرصائع: براء، فصاد مفتوحتين، فألف، فهزمة مكسورة، آخر الحروف عين مهملة: جمع رصيعة، وهي حلي يحلى بها.

وَمَوْضِعٌ مِنَ الْمُلْسِ رَفَعَتْ لِهَتُوفٍ، أَي هَتُوفٌ مَلْسَاءُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضْمِيرِ فِي هَتُوفٍ، وَالْمَتُونِ جَزْءٌ بِالْإِضَافَةِ وَالْإِضَافَةُ لِقَطِئَةٍ، أَي مِنَ الْمُلْسِ مُتُونُهَا، إِنْ لَمْ يُرَدِّ بِالْمَتُونِ الْقَوَّةُ، وَيَزِينُهَا رَصَائِعُ جُمْلَةً نَعَتْ لَصَفَرَاءَ، وَيَجُوزُ جَعْلُهَا حَالًا مِنَ الضْمِيرِ فِي الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضْمِيرِ فِي الْمُتُونِ، وَرَصَائِعُ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ؛ لِأَنَّهُ جَمْعٌ، وَالْجَمْعُ مِنْ حَيْثُ هُوَ جَمْعٌ عَلَّةٌ، وَكَوْنُهُ لَا تَنْظِيرَ لَهُ فِي الْإِحَادِ عَلَّةٌ أُخْرَى فَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ مَعْنَى الْجَمْعِ فِيهِ، فَقَامَ مَقَامَ عَلَّةٍ ثَانِيَةٍ، وَقَدْ نِطِطُ فِي مَوْضِعٍ رَفَعِ، صِفَةً لِرَصَائِعِ، أَي مَعْلَقَةً عَلَيْهَا، وَمَحْمَلٌ مَعْطُوفٌ عَلَى رَصَائِعِ.

نيطت: بنون مكسورة، فمثلة تحتية ساكنة، فطاء مهملة، أي: علقت.

المحمل: بميم مكسورة، فحاء مهملة ساكنة، فميم ثانية مفتوحة: علاقة السيف.

الإعراب:

هتوف: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي هتوف، كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْمَ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١]، كما وضح في موضعه.

من الملس: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ثان، ويصح أن يكون حالاً من ضمير هتوف، مضاف إلى متون، وصح إضافة ما فيه (ال)، لأنها غير محضة، وهي هنا أما من إضافة الوصف إلى فاعله، أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأول أظهر. يزينها: فعل مضارع، ومفعول رصائع هذا هو الفاعل.

قد: حرف تحقيق.

ونيطت: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، ونائب الفاعل ضمير يعود إلى رصائع، وإعلال نيط كقيل في اللغات الثلاث.

إليها: جار ومجرور متعلق بنيطت على تضمينه معنى الضم.

ومحمل: معطوف على رصائع.

المعنى:

كثيرة التصويت في حال نفاذ السهم منها، وجوانبها مما يلي ظهرها المرتفعة عنها خشنة غير ناعمة، حائزة في حد ذاتها الأوصاف المستحسنة، وهذا مما يزيد القوس حسناً، لأن تصويتها ناشئ عن لينها، وهو وصف حسن، كما أن ملوسة ظهرها وارتفاعها أمر مستحسن، لأن الرامي لا يتألم، ويقوى إمساكه لها مما نالته من ارتفاع ظهرها، ولها محاسن جمّة منها: الحلق، والعلاقة التي تعلق بها في الأمور المهمة.

تكملة:

إقتصر على السيف والقوس من آلات السلاح دون غيرهما، أما لبيان الواقع، أو أنه إذ ذاك راجل، لأن الغالب عليه المشي على قدميه لأنه كما ذكرنا من العدائين، وكان حمل هذه عليه أسهل من غيرها كالرمح، وأطنب في وصف القوس دون السيف، لأنه

الأنفع له إذ يمكنه المدافعة بها وهو يمشي، بل وهو يعدو، أو لأنه يدفع العدو ويقاقله على بعد بخلاف السيف.

استطراد:

من كلام البديع الهمداني: "حكمت علماء الأمة، واتفق قول الأئمة على أن سيوف الحق أربعة، وسائرهما للناس: سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم في المشركين، وسيف أبي بكر رضي الله عنه في المرتدين، وسيف علي رضي الله عنه في الباغين، وسيف القصاص في المسلمين"

"وأما قولهم: سيف الله خالد بن الوليد، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه به لحسن آثاره في الإسلام، وشجاعته، وكان صلى الله عليه وسلم - إذا نظر إليه وإلى عكرمة بن أبي جهل، قرأ قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]، لأنهما من خيار المسلمين وأبواهما أعدى عدو لله ورسوله، ولما أتهم خالد بن الوليد بقتل مالك بن نويرة - على إسلامه - دعاه أبو بكر رضي الله عنه فقال له: إنما قتلتك لتتزوج حليلتك، لكونه تزوج امرأته بعده، فقال له: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمانى بسيف الله؟ فقال: اللهم نعم. فقال: أيقول سيف الله المسلم؟!، فقال: لا، وصرفه إلى حيث جاء " وقال ابن نباتة في حق أولاد ممدوحه، وكان أحدهما اسمه خالد... شعراً: [الكامل]

أولاد مولانا بهم
مثل السيوف مهيبة
تزهو المحافل والمشاهد
لكن سيف الله خالد

وقال الطغرائي: [الطويل]

وما السيف لولا الرمح إلا حديدة
وما الرمح إلا خوطة تتأود
وقال أيضاً: [الكامل]

والحر مفتقر إلى عز القنا
فقر الحسام إلى يمين الفارس
وقال أيضاً: [البسيط]

فما احتمى جانب لم يحمه ملك
ولا مضى صارم لم يمضه بطل

ثم قال^(١):

١٤- وَلَسْتُ بِمُهَيَّافٍ يُعَشِّي سَوَامَهُ مُجْدَعَةٌ سُقْبَانُهَا وَهِيَ بُهْلٌ

اللغة:

المهياف: بكسر الميم، وسكون الهاء: هو سريع العطش، ورجل هيفان أي: عطشان، والمهياف أيضاً الناقة التي تعطش سريعاً.

يعشي: أي يرهاها ليلاً، والعواشي الإبل والغنم التي ترعى ليلاً.

والسوام: بفتح السين المهملة، الإبل الراعية، ومثله السائمة، واسامها رعاها، وهي التي تجب فيها الزكاة، وحكمها في الإبل في كل خمسة شاة إلى أن تبلغ خمساً وعشرين، فإذا بلغت ذلك أعطي زكاتها بنت لبون، وبقية النصب مبسوطة في كتب الفقه.

مجدعة: بصيغة اسم المفعول المضاعف أي: المقطوعة الأذنين، ومن جدعته أمه إذا أساءت غذائه، أو من الجدع، وهو: الحبس والسجن لكنه ضعف للمبالغة.

السقبان: بضم السين المهملة، وسكون القاف جمع سقب بالفتح، وهو: ولد الناقة.

البهل: بضم الموحدة، وفتح الهاء المشددة جمع باهل، وهي الناقة التي لا صرار عليها أو عرانة أو سمة.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": المِهْيَافُ: الشديدُ العطشُ. والسَّوَامُ: النَّعْمُ الرَّاعِي كَالسَّائِمَةِ. أَسَامَ الْإِبِلَ: رَعَاهَا. وَعَشَّاهَا بِالتَّشْدِيدِ: رَعَاهَا لَيْلاً، فَهِيَ عَاشِيَّةٌ، وَفِي الْمَثَلِ: الْعَاشِيَّةُ تَهْيِجُ الْآبِيَةَ، أَيِ: الرَّاعِيَةَ تَبْعُثُ الَّتِي امْتَنَعَتْ مِنَ الرَّغْيِ عَلَيْهِ، وَالسُّقْبَانُ - بِالضَّمِّ -: أَوْلَادُ الْإِبِلِ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ خَصَّ بِهِ الذِّكُورَ.

ومنه من قال: إِنَّمَا يُسَمَّى السَّقْبُ سَاعَةَ الْوِلَادَةِ، وَتَجْدِيعُ السُّقْبَانِ: إِسَاءَةُ غَذَائِهَا كِإِجْدَاعِهَا، وَابْهَلُ جَمْعُ بَاهِلٍ: وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي لَا صِرَارَ عَلَيْهَا. وَالصِّرَارُ، بِالصَّادِ الْمُهْمَلَةِ بَزَنَةٌ كِتَابٌ: مَا يُشَدُّ بِهِ ضَوْعُ النَّاقَةِ، يُقَالُ: أَبْهَلَهَا إِذَا أَهْمَلَهَا مِنْ ذَلِكَ وَتَرَكَ وَلَدَهَا يَرْضَعُهَا.

يقول: لَسْتُ رَاعِياً شَدِيدَ الْعَطَشِ أَوْ سَرِيعَهُ فِي حَالِ كَوْنِهِ يَرْعَى إِبِلَهُ لَيْلاً حَالَةَ كَوْنِ الْإِبِلِ جَائِعَةً الْأَوْلَادَ لِقَلَّةِ اللَّبَنِ، وَفِي حَالِ كَوْنِهَا غَيْرَ مُشْدُودَةِ الضَّرْعِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، إِذْ لَا فَائِدَةَ فِي شَدِّهَا حِينَ لَا لَبَنَ، فَأَوْلَادُهَا تُرَضَّعُهَا لَوْ كَانَ الرِّضَاعُ يُغْنِيهَا مِنْ جُوعٍ أَوْ يُسَمِّنُهَا، وَهَذِهِ حَالَةٌ شَدِيدَةٌ، نَفَى عَنْ نَفْسِهِ أَنَّ يَكُونَ مَنْ ذَكَرَ مُؤَكِّدًا لِلنَّفْيِ بِزِيَادَةِ الْبَاءِ فِي الْخَبَرِ؛ لِأَنَّ الْكُونَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ تَسْوَأُ مَعَهُ الْأَخْلَاقُ وَتُخْرِجُ بِهِ الصَّدُورَ.

الإعراب:

الواو: للاستئناف.

ولست: ليس واسمها.

بمهياف: خبر ليس، والباء زائدة.

يعشي: فعل مضارع من التعشية، وفاعله يعود إلى المهياف.

سوامه: منصوب على أنه مفعول به، مضاف الضمير الغائب.

مجدعة: حال من سوامه، وهي صفة جرت على غير من هي له.

سقبانها: مرفوع على أنه نائب فاعل.

مجدعة: مضاف إلى ضمير المؤنثة الغائبة.

وهي: الواو للحال، وهي: مبتدأ.

بهل: خبر، والجملة محلها النصب على أنها حال.

المعنى:

بعد ما فرغ من وصف القوس بما يليق، والسيف بما هو حقيق، أخذ في وصف نفسه بالمروءة والشجاعة في التلاق، وعلو الهمة ومكارم الأخلاق، فقال: إني لست بسريع العطش، إذ هي كناية الجبان، لأنه لذعره وقلقه تعروه حرارة فيكون من شدة الظمأ حيران أي: إني لست بجبان يرعى إبله بليل من خوفه، وأولادها مقطوعة الأذنين رغمًا عن أنفه وإن الناس لا تهابه فتجدع أولاد إبله تكسبه عارها، إذابله لا صرار على أخلافها، وكل من رآها يحل صرارها فيحلبها، وهو بلا صرار دائماً، ولا لصاحبها نصير، وأنها لا عران لها وهو إمارة على أنه ذليل حقير، صعلوك يرتاح للنوائب ولو عظم المصائب.

بخلاف ذات العران، إذ اشتهر كون ربهها عظيم النجدة، مهاب، وتخشى الناس صولته، ولا علامة على إبله تنظر، خوفاً من عرفان وسمه فتؤخذ إبله لعدم حذر الناس منه والمبالاة به إن غاب أو حضر، فهو يدعها بلا سمة لتذهب نفس رائيتها إلى أنه ليس فيها مثال، لأنها إبل بعض الشجعان واو بالإحتمال، وفي هذا البيت احتمالات كثيرة لم تذكر، وما أبدينا هو الأولى فتدبر.

مما يناسب هذا المقام قول قريظ من بلعنبر، يعير قومه بتخاذلهم عن نصره، وقد أغارت عليه بني شيبان، واستاقت إبله، بقوله: [البسيط]

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن لدى الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذ الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

وقال الوزير الفتح بن محمد بن عبيدالله القيسي: [الطويل]

ذروني أجب شرق البلاد وغربها لأشفي نفسي أو أموت بداء
فلست ككلب السوء يرضيه مريض وعظم ولكنني عقاب سماء
تحوم لكيما تدرك الخصب حومها أمام أمامي أو وراء ورائي
وكنت إذا ما بلدة لي تنكرت شددت إلى أخرى مطي إبائي
وسرت ولا ألوي على متعذر وصممت لا أصغي إلى النصحاء
كشمس تبدت للعيون بمشرق صباحاً، وفي غرب أصيل مساء

وما أحسن قول ابن مُقَرَّب مفتخراً: [الطويل]

قليل الكرى ماض على الهول مقدم على الليل والبيداء والحر والبرد
عدمت فؤداً لا يبيت وهمه كرم المساعي وارتقاء إلى المجد
لعمرك ما دعد بهمي وإن دنت ولا لي بهند من غرام ولا وجد
ولكن وجدي للعلا وصابتي بعارفة أسدي ومكرمة أجدي
أبى الله لي أن أحل بمنزل بأرض بها تعدو الكلاب على الأسد
ألم تعلمي أن العتو نباهة وأن الرضى بالذل من شيمة الوغد
أأرضى بم يرضي الدُّنيء وصارمي حسام وعزمي عزم ذو لبدة ورد
لأمضي على الأيام عزم ابن حرة يفدى بآباء الرجال ولا يفدي
فإن أدرك الأمر الذي أنا طالب فيا جد مستجد ويا سعد مستعدي

وإن أخترم من دون ما أنا آمل فيا خيبة الراجي ويا ضيعة الوفد
وإني من قوم يبين لطفهم لدى الحدس عنوان السيادة في المجد
استطراد:

لما قتل كلياً جساس بقي أخوه مهلهل ينوح عليه ويرثيه، ويتوعدهم بأشعاره حتى
أيس منه قومه، وقالوا إنه زير النساء، وسخرت منه بكر، وقالوا: إنما مهلهل نائحة ما
عنده خير ولا شر، وهمت آل مرة بالرجوع إلى الحمى، واستحقروه، وبلغ ذلك كلياً،
فانتبه للحرب، وشمر ذراعيه، وتوسط نادي قومه، وآلى على نفسه أن لا يقرب النساء،
ولا يشم الطيب، ولا يشرب الخمر، ولا يلهو حتى يقتل بكل عضو من كليب رجلاً من
بني بكر بن وائل، ويقتل بشسع نعله، ما دام له قوة ينكأ بها عدواً، فقال له أكابر قومه
على جهة الاستخبار: إنا نرى أن لا تعجل بالحرب، وأرسل إلى إخواننا، فبالله ما تجدع
بحرب قومك إلا أنفك، ولا تقطع إلا كفك! قال مهلهل: قطعها الله كفاً، وجدعه الله
أنفاً، لا تحدث نساء وائل أني أكلت لكليب ثمناً، ولا أخذت له دية.

وكليب هذا اسمه: وائل بن ربيعة، وسمي بذلك بعد عقد لواء نزار وربيعه عليه،
لأنه عظم في نفسه، واشتهر في العرب، وقبض على نواصيها، وأخذ بثأر أبيه من قحطان
في خزازي وغيرها، ولم تهزم له راية في الجاهلية، فلما استحكم رأيه، بلغ منه أنه صار
يجير على الدهر فلا تخفر له ذمة، ولا يتحدث أحد - وهو جالس - إلا أن يتحدث،
وكان يجير الجراد، ويقول: صيد كذا وكذا في جوارى فلا يصاد ذلك الصيد، وكان قد
اتخذ جرو كلب، وكان يكتفه ثم يقذفه في الحمى، وفي الروضة المخصصة التي تعجبه،
فيحميها ولا تقرب، ويجعله إلى جانب البئر، فلا يشرب ذلك الماء، وبه سمي كلياً،
فإنما كان الناس يسمون الحمى المرعي والماء هذا لكليب، فيقال: نعم، هذا حمى
كليب، فبقي على ذلك الشرف والسؤدد حتى قتله جساس بسب شارف من الإبل،
وقصتها طويلة تركناها خشية الإطباب المخل.

قال الشاعر: [الطويل]

وجارة جساس ابناً بنابها كلياً غلت ناب كليب بواؤها

ثم قال^(١):

١٥ - وَلَا جُبًّا أَكْهَى مُرَبِّ بَعْرَسِهِ يُطَالِعُهَا فِي شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ

اللغة:

الجبأ: بضم الجيم، وتشديد الباء الموحدة المفتوحة، آخر الحروف همزة: الجبان، قال الشاعر: [من الطويل]

فما أنا من ريب الزمان بجباً ولا أنا من سيب الإله بيأس
ونوع من السهام، وبالمد امرأة لا يروعك منظرها كالجبأة، وكورة بخوزستان، وبالنهر وان، وبهيت، وبيعقوبا.

الأكهى: بفتح، وسكون الكاف مقصوراً، الأكلف الوجه، والأبخر، والجبان.
المرب: بالفتح، يقال: فلان مرب أي مجمع يرب الناس ويجمعهم، ومكان مرب أي مجمع.

العرس: بكسر العين، وسكون الراء المهملة، هي امرأة الرجل.
يطالعه: أي يظهرها ويطلعها على أمره.
في شأنه: أي أمره كما في نسخة.

الإعراب:

الواو عاطفة، ولا نافية.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الجُبُّ، بوزن سَكَرٍ: الجبان. والأَكْهَى بالهاء: الجبان الضعيف. فهو تأكيد للجبان؛ أي: نعت له مفيد للتأكيد بما فيه من الزيادة على معنى الأول، يُقَالُ منه: كَهَي كَرْضِي، والإِزْبَابُ بالعُزْس - أي: الزوجة - ملازمُها. ومُطَالَعُها في الشأن: مُؤَامَرُها فيه.

يقول: ولست أيضاً بجبان ضعيف ملازم لزوجته، يُؤَامِرُها في شؤنها، كَيْفَ يفعل فيها، فَقَوْلُهُ: كَيْفَ يفعل تفسيراً لـ (يُطَالِعُها)؛ أي: يسألها كَيْفَ يفعل فيما عنَّ له من شأنه، وناهيك بضعف مَنْ يسأل النساء، ويرجع إلى إشارتهن في الأمور، ومشورتهن في الشؤون؛ فإنهن ناقصات عقل ودين، والمحتاج إليهن في ذلك أنقص عقلاً، وأضعف رأياً.

وجباً: يجوز فيه: النصب، والرفع، والجر، الأول على محل ما قبله في البيت، والجر على اللفظ، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

أكهى: نعت له.

ومرب: نعت ثان.

بعرسه: جار ومجرور متعلق به، مضاف إلى ضمير الغائب.

يطالعه: فعل مضارع، والفاعل مستتر راجع العرسه، والهاء مفعول به راجع إلى عرسه، والجملة نعت ثالث أو حال.

في شأنه: جار ومجرور مضاف إلى الضمير المتعلق بيطالع.

كيف: مفعول مقدم وجوباً لاستحقاق الاستفهام الصدارة، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، كذا قيل، والصواب أنه حال، وكذا كل كيف وقعت قبل فعل وفاعل، كقولك: كيف تفعل، كيف تقول.

يفعل: فعل مضارع، فاعله مستتر فيه تقديره هو.

المعنى:

يقول: لست بخائف زعر شديد الخوف، يتغير وجهه ويصير به كلف، ويفزع، ويجمع الناس بزوجته، ولا يغار عليها، وإذا أراد أمر أطلعها عليه، وشاورها كيف يصنع، وهذه الصفات متقاربة في المعنى إذ عدم الغيرة، ومشاورة الرجل زوجته في كل أموره مادة الجبن أو علامته، وشقاء العمر وندامته.

أراد أنني شجاع جسور لا يتغير وجهي في الحروب، واشتباك القنا، ومقارعة السيوف، وتمادي الكروب، بل يتهلل وجهي فرحاً وسروراً، ومسرة وحبوراً، ولا أجمع الناس على زوجتي، وعليها أغار، ولا أشاورها في أمري كيف أفعل، إذ ذاك ليس من فعل الأخيار، ولعمري ما ذكره الشنفرى من الأوصاف الكاملة المحموده في الأفعال، لأن الجبن مذموم، وعدم الغيرة نوع من الديانة، وناهيك فيهما من الانفعال، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تبارك وتعالى خلق الفردوس وغرسها بيده وقال: وعزتي وجلالي لا يدخلها الديوث ولا مدمن الخمر".

وحده بعضهم: "من رأى محرماً مع أقاربه أو زوجته، وأقرها عليه، ولم يغضب"،
والنفوس الأبية تأبى ذلك، ما ذلك؟! وما هو أدنى من ذلك؟! حتى أن بعض الأجلة
كان يغار من السواك، قال شعراً: [الكامل]

منيت يا عود الأراك بثغرها	ما تخشى يا عود الأراك أراكا
لو كان غيرك يا أراك قتلته	ما دار في ثغر الحبيب سواكا

بل أن بعضهم كان يغار من نفسه، وقال ابن الخياط يصف نفسه بالغيرة: [الطويل]

أغار إذا آنت في الحي أنه	حذاراً عليه أن تكون لجه
--------------------------	-------------------------

وقال الآخر: [الطويل]

وسرب ظباء مشرقات شموسه	على حلة عد النجوم بدورها
تمانع عما في الكناس أسودها	وتحرس ما يأوي القصور صقورها
تغار من الطيف الملم حماتها	وبغضب من كر النسيم غيورها
إذا ما رأى في النوم طيفاً يزورها	توهمه في النوم ضيفاً يزورها

وقال ابن نفاذة: [السريع]

قد حجباوا البيض ببيض الكفاح	ومنعوا السممر بسممر الرماح
وأطنبوا أصاف أسجافهم فما	يرى شمس الصباح الصباح
غاروا من النكباء تسري بهم	لو قدروا سدوا مهب الرياح

وقد غار بعضهم على محبوبه مع قطع النظر عمن يكسبه عاراً، قال مجنون ليلي:
[الطويل]

أغار على ليلي لأنني أحبها	أغار على شيء يعز على قلبي
---------------------------	---------------------------

وقال الآخر: [الطويل]

أغار على أعطافها من ثيابها	إذا لبستها فوق جسم منعم
أحسد أقداحاً يقبلن ثغرها	إذا وضعتها موضع اللثم بالفم

وقال الآخر: [الرملي]

خلق السيف لرأس خلت النخوة منه إن زيدا لغيورٌ والنبي أغير منه
وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: " لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعه كتم شيء مما أنزل عليه، لكتم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وكانت تفخر زينب زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أزواجه، تقول لهن: أيكن زوجها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم.

وأما مشاورة النساء فقد نهى عنها ذوو العقول الصحيحة، والألباب الرجيحة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " شاوروهن وخالفوهن "، وقال الشاعر: [الطويل]
إذا كان أمر الناس عند عجوزهم فلا بد أن يلقون كل ثبور
وقد قال بعض من يقتدى به: " من أطاع عرسه، فقد أضاع نفسه ".
وقال ابن مُقَرَّب: [الكامل]

أدنى الفوارس من يغير المغنم	فاجعل مغارك للمكارم تكرم
وتوق أمر الغانيات فإنه	أمر إذا خالفته لم تندم
واستزر بالبيض الحسان فلا	يكن لك غير همة صارم أو لهزم

وقال الآخر: [الكامل]

دع ذكرهن فما لهن وفاء	ريح الصبا وعهودهن سواء
وما أحسن قول ابن مُقَرَّب: [الطويل]	
صداق المعالي مشرقى وذابل	وسانية ترعف وأجرد صاهل
ونص القلاص القود تحذى كأنها	نعام بأعلى قلة الدو جافل
فيا خاطب العلياء لا تحسبها	حديث العذارى أنشأتها المغازل

وتوليتهن الأمور أقبح من ذلك، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لن يفلح قوم وَلُوا أَمْرَهُمْ إِمْرَأَةً " ^(١)، فإن قلت: إذا كانت مشورة النساء ليست من دأب الكاملين، فما قولك في مشورة رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة رضي الله عنها في بدء الوحي، حين ذهبت إلى ورقة بن نوفل، وهو أكمل الكاملين؟

قلت: أولاً: لا نسلم مشورته لها، بل الثابت أن ذلك إخبار منه صلى الله عليه وسلم حين أبصرته مصفار اللون، فسألته عن حاله، ولئن سلمنا ذلك، فربما يكون لعدم وجود من يستشير به صلى الله عليه وسلم سوى خديجة، وبحسب البشرية لا بد للإنسان من مشورة غيره.

ثم قال^(١):

١٦ - وَلَا خَرِقَ هَيْتِي كَأَنَّ فُؤَادَهُ يَظْلُ بِهِ الْمُكَاءُ يَغْلُو وَيَسْفُلُ

اللغة:

الخرق: بفتح الخاء المعجمة، وكسر الراء المهملة، وصف من الخرق بفتحتين، وهو الدهش من الخوف، أو أن يبهت فاتحاً عينيه ينظر، والخرق أيضاً الأحق، ومن لا يحسن الصنعة، أو أن يفرق الغزال فيعجز عن النهوض، أو الطائر فلا يقدر على الطيران، وخرقاء امرأة سوداء كانت تقم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وامرأة من بني البكاء شبيب بها ذو الرمة، ومن الغنم التي في أذننها خرق، ومن النوق التي لا تتعاهد مواضع قوائمها، والتخريق التمزيق، وكثرة الكذب، والتخرق: خلق الكذب. هيق: بفتح الهاء، وسكون المثناة التحتية، هو الظليم، والأهيق: الطويل العنق.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الْخَرَقُ - بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ الْمَفْتُوحَةِ بوزن كَتِف - الَّذِي خَرَقَ كَفْرَح، أَي: دَهَشَ مِنْ خَوْفٍ أَوْ حَيَاءٍ، أَوْ بَهَتْ فَاتِحاً عَيْنَيْهِ يَنْظُرُ. وَخَرَقَ الطَّائِرُ: لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الطَّيْرَانِ. وَالْهَيْتُ: الدَّقِيقُ الطَّوِيلُ. وَالْمُكَاءُ، بضم الميم وفتح الكاف المُشَدَّدَةِ: طَائِرٌ جَمْعُهُ مَكَائِي. وَأَمَّا الْمُكَاءُ بِالتَّخْفِيفِ: فَالتَّصْفِيرُ بِالْفَمِّ، أَوْ النَفْخُ فِي الْأَصَابِعِ مُشَبَّكَةً. وَالْمُكَاءُ بِالتَّشْدِيدِ: ذُو مُكَاءٍ بِالتَّخْفِيفِ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّى الصَّافِرُ، وَهُوَ طَائِرٌ جَبَانٌ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فَيَقَالُ: أَجْبُنُ مِنْ صَافِرٍ؛ وَلِذَلِكَ مَا خَصَّهُ الشَّنْفَرَى بِظَنِّهِ فِي فُؤَادِ الْهَيْتِ. وَالْفُؤَادُ: مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَرِيِّ مِنْ كَبِدٍ وَرِثَةٍ وَقَلْبٍ.

والمعنى على تشبيه القلب في الاضطراب من الدهش والخوف بالمكاء. وهو تشبيه مكنتى عنه لا مُصرِّح به، وبيان الكناية أنه يلزم من ظن المكاء في الفؤاد ظن القلب بمكاء؛ لأن الذي في الفؤاد - على التحقيق - القلب، والظن المذكور اشتفاء من خبر (كأن)، فإنه إذا كان فعلاً كما هنا، أو ظرفاً، أو مُشْتَقّاً، أُشْرِبَتْ (كأن) معنى الظن.

وتقدير البيت: ولست أيضاً بذئ دهب طويل في نحافة؛ فإن ذلك من أمارات الحمق غالباً، مظنوناً فؤاد ذلك الخرق يُقيم به المكاء حالة كونه عالياً وسافلاً، أي: يرتفع وينخفض من شدة الدهش.

المكاء: بضم الميم، وتشديد الكاف ممدوداً: طائر يصفر ويصوت كثيراً، وجمعه المكاكي ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

الإعراب:

ولا: الواو عاطفة، ولا: نافية.

حرق: معطوف على ما قبله، فيجوز فيه الوجه الذي جاز في جأ.

هيق: نعت له.

كأن: حرف تشبيه من أخوات إن.

فؤاده: اسمها مضاف إلى الضمير.

يظل: بفتح المثناة التحتية، والطاء المشالة، مضارع ظل من أخوات كان، وهي ثلاثة عشر، وحكمهن في التصرف وعدمه، ثلاثة أقسام: ما يتصرف تصرفاً تاماً، وما لا يتصرف بحال، وما يتصرف تصرفاً ناقصاً، الثالث: زال أخواتها الثلاثة: برح، وفتى، وانفك، فإنها لا يستعمل منها أمر، فشرط عملها النفي، وهو لا يدخل على الأمر، ولا مصدر، لعدم دلالتها على الحدث، خلافاً للكوفيين، ودام عند المتقدمين فإنهم اشترطوا لها مضارعاً وهو يدوم، والثاني: هو ليس بالإتفاق، لأنها وضعت وضع الحروف في عدم فهم معناها من غير ذكر متعلقها، وذهب المتأخرون إلى جعل دام مثلها، وعللوا ذلك في وقوعها صلة لما الظرفية، وكل فعل وقع كذلك التزم مضيه، قال أبو حيان: "أما يدوم، ودام، ودائم، ودوام، فمن تصرفات التامة" والأصح ما تقدم فيها، والأول: وهو ما بقي من هذه الأفعال بناءً على أن لها مصادر، فلتراجع في كتب النحو.

به: جار ومجرور متعلق بيعلو أو يسفل على التنازع، وحده أن يتقدم عاملان أو أكثر، ويتأخر معمول أو أكثر، ويكون كل من ذلك العوامل صالحاً للعمل في ذلك المعمول فتأمل.

المكاء: اسم يظل، وجملة يعلو محلها نصب على أنها خبرها.

ويسفل: مضارع سفل، معطوف على يعلو فمحله محله.

المعنى:

ولست بدهش ذي حيرة، ولا ذاهب عقلي من الخوف والذهل، كالظليم كبير الصورة، قليل الجدة، هباب الأجل، إذ الشاهين أصغر منه جثة، وأعظم منه همة، أو أن المعنى: لست بدقيق طويل، إذ الغالب على من بهذه الحلية إن يكون حقيراً ذليلاً، ويعتريه من كثرة الخوف الذعر، عن مصافحة البيض والسمر، بحيث يسمع لفؤاده تصويت لما يلحقه من الخوف والحذر، حتى كأن به مكاء يعلو أو يسفل، وعندها يئأس من المفر.

وقد ادعى التحرير السُّويدي في شرحه لهذا البيت، أنه على المعنى الأول فيه تشبيه بليغ، وفيه نظر إذ المشبه والمشبه به موجود اللهم إلا أن يقال إنه من سهو القلم، وإلا فهو مع جلالة قدره يعبد عن مظان السهو في هذا الفن.

ولعمري لقد صدق الشُّنْفَرَى، فإن الخائف المذعور يسمع لقلبه أزيز وتصويت كتصويت المكاء، وهذا من لا يسوى تأسفا عليه ولا بكاء.

قال ابن مُقَرَّب:

أنا أقدم الخلان فارض نصيحتي إن الفضيلة للحسام الأقدم

ما أحسن ما يقول ابن إسحاق في حق المستعين بالله بن هود: [الطويل]

بوجه ابن هود كلما أعرض الورى	صحيفة إقبال لها البشر عنوان
فتى المجد في برديه بدر وضيغم	وبحر وقوس ذو الهضاب وئهلان
من نفر الشم الذين أكفهم	غيوث ولكن الخواطر ميزان
ليث شرا ما زال منهم لدى الوغى	هزبر يميناه من السمر ثعبان
وهل فوق ما قد شاد مقتدر لهم	ومؤمن بالله لقياه إيمان

ومن الدلالة على أن ثبات القلب، وعدم الذهول عما في الضمير من إمارات الشجاعة، قول عنترة العبيسي: [الكامل]

ولقد ذكرتكَ والرماح نواهل	مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها	لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وما أحسن قول ابن الساعاتي: [الكامل]

يهوى قوام الرمح وهو مهفهف والسيف في وجناته توريد
فكأنما سمر الرماح معاطف والهام فوق صدورهن نهود

وقال أبو عبد الله بن عثمان الأندلسي: [الكامل]

أنى أراع لهم وبين جوانحي شوق يهون خطبهم فيهون
أو هل يهاب ضرابهم وطعانهم صب بألحاظ اليون ضعين
فكأنما بيض الصفاح جداول وكأنما سمر الرماح غصون

استطراد:

"عن عبد الله بن الزبير - رضي الله تعالى عنه - قال: كنت يوم الأحزاب أنا وعمرو بن أبي سلمة مع النساء في أطم حسان بن ثابت رضي الله عنه أي وكان حسان مع النساء ومن جملتهن صفية بنت عبد المطلب، واتفق أن يهودياً جعل يطوف بذلك الحصن، فقالت صفية لحسان: ما آمن هذا اليهودي يدلهم علينا فيأتون إلينا، فانزل واقتله، فقال حسان: يا ابنة عبد المطلب قد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت فلما أيسر منه أخذت عموداً، ونزلت، وفتحت باب الحصن، وأتيته من خلفه، فضربتة بالعمود حتى قتلتها، وصعدت إلى الحصن، فقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني سلبه إلا أنه رجل، فقال: يا ابنة عبد المطلب ما لي بسلبه حاجة".

وهذا يدل على ما قيل: إن حسان بن ثابت كان من أجبن الناس كما تقدم، هكذا ذكر في "سيرة الحلبي"، والصواب عدم اعتقاد ذلك، إذ الثابت أن حسان كان مريضاً إذ ذاك، فالظاهر أنها دسيسة من بعض الفرق، لأن الجبن بالنسبة إلى الشيمة العربية لا أشنع منه شيء، مع أنه كان يهجو قريشاً، وغيرهم من العرب، ولم يسمع أن أحداً هجاه في كونه جباناً، والذي يحقق ما ذكرناه أن حسان رثى عثمان بن عفان رضي الله عنه في قصائد متعددة، منها قوله: [الكامل]

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً
لتسمعن وشيكاً في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثماننا

وادعى بأنه أخوه حيث حاوى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فليتأمل.

ومنها قوله: [الكامل]

أتركتم غزو الدروب وجئتم لقتال قوم عند قبر محمد
فلبئس هدي الصالحين هديتم ولبئس فعل الجاهل المتعمد
إن تقبلوا نجعل قرى سرواتكم ولمثل أمر إمامكم لم يهتد
وكان أصحاب النبي عشية بدن تتحر عند باب المسجد
فابك أبا عمرو لحسن بلائه أمسى مقيماً في بقيع الغرقد

ثم قال^(١):

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الخالف: الذي خَلَفَ، بمعنى فسد أو حُمِقَ، ويُسمَّى بهذا المعنى الثاني خَالِفَةً أيضاً، أو الذي خَلَفَ عَنْ أَصْحَابِهِ، بمعنى تخلف عنهم، أو الذي خَلَفَ غَيْرَهُ: أي صارَ خليفته في أهله. والدَّارِيَّةُ: مَنْ لَا يَفَارُقُ الْبُيُوتَ. وقيل: الذي يُكْثِرُ الْإِدْرَاءَ لغيره، أي: الخُتْلُ. فتأوّه -عليهما- للمبالغة كعَلَامَةٍ ونَسَابَةٍ. والمُتَعَزِّلُ: الذي يتكَلَّفُ الْعَزْلَ، بالتحريك: وهو محادثة النساء، ومُراودتهنَّ، غَازَلَهُنَّ وَغَازَلَتْهُ.

يقول: ولست بالفاسد الذي يُخْلَفُ عَنْ أَصْحَابِهِ: أي: يتخلف عنهم، أو يخلفهم في أهاليهم بالرَّيَّةِ، لَا يَفَارُقُ الْبُيُوتَ لذلك، يُغَازِلُ النِّسَاءَ وَيُغَازِلَتْهُ، رَائِحٌ غَادٍ مُتَطَيِّباً مُتَكَيِّلاً، يستميل بذلك النساء. والمقصود نفي كونه خالفاً، لَا خَالِفاً موصوفاً بالأوصاف المذكورة حتَّى يقال: لَا يَلْزَمُ مَنْ نَفَى الْخَالِفَ الموصوف بها نفي الخالف غير الموصوف بها، على أَنَّهُ - والله العالم سبحانه - لَا وَجُودَ لِلْخَالِفِ بدون تلك الأوصاف، فهي مُفَسِّرَةٌ لَهُ، كاشفة عن معناه، تُشْعِرُ بِذِمِّهِ، ومع ذلك فإنَّ نفوسَ ذَوِي الْهَمَمِ من العرب كانت تأنف من ذلك في جاهليَّتها، وتذمُّ فاعله غاية الذمِّ، ويتمدحون بغضِّ البصر عن الجارات، قال عنترة: [الكامل]

وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَاوَاهَا
وَقَالَ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ الْمُرِّي: [الكامل]

وَلَشِئْتُ بِسَائِلِ جَارَاتِ بَيْتِيَّ غِيَّابَ رَجَالِكِ أَمْ شَهْوَودُ
وَلَا مُلْقٍ لِي الْوَدَعَاتِ سَوْطِيَّ لِاعْبُوهُ وَرَبَّيَّهُ أُرِيدُ
وَلَشِئْتُ بِصَادِرٍ عَنْ بَيْتِ جَارٍ يَصُدُّورَ الْغَيْرِ غَمْرَهُ الْوُرُودُ

انتهى.

١٧ - وَلَا خَالِفٍ دَارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ يَرْوَحُ وَيَغْدُو دَاهِنًا يَتَكَحَّلُ

اللغة:

الخالف: بالخاء المعجمة، الغير نجيب الذي لا خير فيه، يقال: فلان خالف أهل بيته إذا كان كذلك، والخالف أيضاً الأحمق كالخالفة فيهما، وما أدري أي خالفة هو مصروفة وممنوعة، وأي الخوالف هو، وأي خالفة أي: الناس، والخوالف: النساء، قال تعالى: ﴿مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]، والخالفة الأمة الباقية بعد الأمة السالفة، والذي يقعد بعدك، قال الله تعالى: ﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

الدارية: بالdal المهملة، وكسر الراء، وتشديد المثناة التحتية هي: العطار منسوب إلى دارين بلد بالبحرين بها سوق يحمل المسك من الهند إليه، والدارية أيضاً الملازمة بيتها.

المتغزل: اسم فاعل من تغزل إذا تكلف الغزل، والغزل اسم من المغازلة، وهي محادثة النساء ومراودتهن.

يروح: من الرواح نقيض الصباح، وهو اسم للوقت من زوال الشمس إلى الليل، كقوله صلى الله عليه وسلم: "لو اتكلتم على الله حق الاتكال، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً".

يغدو: من الغدو نقيض الرواح.

الدهان: وصف من دهن رأسه إذا طلاه بالدهن.

الإعراب:

ولا: الواو عاطفة، ولا نافية.

خالف: معطوف على ما قبله، ويجوز فيه الوجوه المتقدمة.

ودارية ومتغزل: نعت بعد نعت.

يروح: فعل مضارع، وفاعله مستتر فيه.

ويغدو: مثله معطوف عليه.

داهناً: حال تنازع فيه العاملان المتقدمان، فعند البصريين الأولى إعمال الثاني لقربه، وعند الكوفيين الأول لسبقه كما هو مذكور في موضعه.

يتكحل: فعل مضارع، وفاعله مستتر فيه، والجملة حال مترادفة أو متداخلة.

المعنى:

ولست معدوم النجائب، لا خير فيه وأحمق، ملازماً بيته، مرتاحاً إلى الهوان كأنه عطار لشدة ميله إلى محادثة النساء والتغزل، يمسي ويصبح داهناً رأسه، مكحلاً عينيه، ولعمري أن التجرد عن هذه الأوصاف من دأب العقلاء الكرام، ذوي الهمم العوالي والإحتشام، يأخذون من الطيب والنساء ما لا يشغلهم عن طلب المجد والرفعة، ولا يجعلون ذلك ديدناً يرتاح عليه وصنعة، فلا يرد على هذا ما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم: "حُبِّبَ إِلَيَّ من دنياكم: الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة"^(١)، ورد الإسراف في الطيب، إذ كل شيء يجاوز حده ينقلب إلى ضده، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢): " خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا "، فالمذموم من اتخاذ التدهين والطيب ومجالسة النساء، إنما هو الإنهماك المفرط بحيث يذهل عما عداها.

وقال عقيل بن علفة المري: [الوافر]

ولست بسائل جارات بيتي	أغياب رجالك أم شهود
ولست بصادر عن بيت جاري	صدر العير غيره الورود
ولا ملق لذي الودعات سوطي	ألاعبه وربته أريد

على أن العاقل اللبيب لا يرضى لنفسه بمحادثة النساء في ما لا يتعلق بمصلحة، ولا ياتمنهن على سر، وقد ذمهن الأخطل حيث قال: [الكامل]

ما إن رأيت كمكرهن إذا جرى	فينا ولا كجبالهن جبالا
المُهديات لمن هوين مسبةً	والمجتنات لمن قلين مقالا
يرعين عهدك، ما رأيك شاهداً	وإذا مذلت يصرن عنك مذالا

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٢١/٤)، رقم (٧٩٣٩).

(٢) انظر: غريب الحديث لابن سلام ٣٨٨/٤.

وإذا وعدتك نائلاً، أخلفنه
وإذا دعونك عمهن، فإنه
ومنه قول ابن السراج شعراً: [الكامل]
حلفت لنا إن لا تخون عهدنا
فكأنما حلفت لنا أن لا تفي
وقول الآخر: [الخفيف]

كل أنثى وإن بدا لك منها
آية الحب جبهها خيتعور
بل بعضهن يخلن بالعهد فضلاً عن الوفاء، فيقنع به الصب المولع بالغشاء، ولا
يتفضلن عليه بوعد مقرون بلعل وعسى، فلا يرح يتردد إليهن في كل صباح ومساء،
لكي يحسنوا إليه بوعد عارض عن حلية الوفاء، مستبعد عن مظان الأداء، من ذلك ما
قال سلطان العاشقين ابن الفارض: [الطويل]

إن لم يكن وصل لديك فعد به
ألمي، وماطل إن وعدت ولا تفي
وقال أيضاً: [الطويل]

عديني بوصل وأمطلي بنجازه
فعندي إذا صح الهوى حسن المطل
وقال الشاعر: [الطويل]

دعاني الغواني عمهن وخلتني
لي اسم فلا أدعى به وهو أول
وقال الآخر: [الطويل]

فإن تسألاني عن نساء
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له من حبهن نصيب
خير بأحوال النساء طيب

استطراد:

مما ورد في وفاء النساء، ذكر أصحاب التواريخ أن موسى الهادي كان مغرمًا
بجارية له تسمى غادر، فبينما هو عند ندمائه، وهي عنده بكى بكاءً شديداً، فقيل له: ما
أبكاك يا أمير المؤمنين؟ لا بكت لك عين، قال: وقع في نفسي أني أموت، ويلي أخي
هارون الأمر من بعدي، فيتزوج جارياتي غادر، فقال له ندمائه: يكفيك الله يا أمير

المؤمنين، إصرف هذا عن قلبك، فزاد في بكائه، فقالت له جاريته غادر: سألتك الله يا أمير المؤمنين ألا ما قتلتنني، لتريح نفسك من هذا الخاطر، فدعا بأخيه هارون الرشيد وعرفه ذلك، فجعل يقول له: بل جعلني الله فداك، فحلفه بالطلاق والحج والعق لما يملك، وإستوثق منه بالإيمان منه، ومنها كذلك، أنه لا يتزوجها بعد موته، فلم يأت شهر حتى مات الهادي، وولي هارون الخلافة، فلم يلبث أن دعا غادراً وطلب زواجها، فأجابته لذلك، فبينما هي نائمة يوماً على ركبتيه، إذ رأت مولاها موسى الهادي في النوم، وهو يقول هذه الأبيات: [مجزوء الكامل]

أخلفت عهدي بعدما	جاورت سكان المقابر
ونسيتني وحنثت في	أيمانك الزور الفواجر
ونكحت غادرة أخوي	صدق الذي سماك غادر
لا يهنك الإلف الجديد	ولا تعداك الدوائر
ولحقت بي قبل الصباح	وصرت حيث غدوت صائر

فإنتهت مرعوبةً، وأنشدت الأبيات وقالت: والله يا أمير المؤمنين لكانها مكتوبة بين عيني، وجعل يسكنها، وهي تضطرب في يده حتى ماتت.

وما أحسن قول ابن مُقَرَّب: [الكامل]

يا جفوني طلقي عني الكرى	إنما طيبُ الكرى بعد الشهادِ
ما الذي يقعدني عن همتي	والمنايا رائحات وغوادي
لأقيم لأبناء الوغى	سوق إقدامٍ وطعنٍ وجلادِ
لا يطيب العزُّ ما لم تجنِه	باللدان السمر والبيض الحدادِ
ما اعتذاري والوغى تعرفني	والعوالي والمواضي والهوادي
قد تساوى في مضاءٍ صارمي	وسناني ولساني وفؤادي
فارم بي ما شئت وأعلم أنني	ليثُ غابٍ وشهابٌ ذو انقبادِ
لست بالترعيَّة الغمر ولا	واهن العزم ولا كاب الزنادِ

ثم قال^(١):

١٨ - وَلَسْتُ بِعَلٍّ شَرُّهُ قَبْلَ خَيْرِهِ أَلْفٌ إِذَا مَا زُعْتَهُ اهْتَاجَ أَغْزَلُ

اللغة:

الْعَلُّ: الرجل المسن، والصغير الجثة شبيه بالقراد، والعل أيضاً من يزور النساء كثيراً، وكلا المعنيين جائز هنا.

الألف: بالهمزة واللام المفتوحتين، والفاء المشددة آخر الحروف: الرجل الغبي بطيء الكلام إذا تحدث ملاً لسانه فمه، والثقيل البطيء، وكلاهما جائز هنا.

رعته: من الروع، وهو الفزع.

وفي نسخة: هجته، والمعنى واحد، اهتاج يهيج هيجاً وهيجاناً وهياجاً، واهتاج وتهيج أي: ثار، وهاجه غيره يتعدى ولا يتعدى، وهيجه وهايجه بمعنى.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": العَلُّ، بفتح العين المهملة وتشديد اللام: مَنْ يَزُورُ النِّسَاءَ كَثِيرًا، وَمَنْ تَقَبَّضَ جِلْدُهُ مِنْ مَرَضٍ، وَالْمُسْنُ الصَّغِيرُ الْجُثَّةُ. وهذه المعاني صالحة هنا كلها. أمّا الذي يَكْثُرُ الزَّيَارَةُ للنِّسَاءِ فَإِنَّهُ يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِهِنَّ فَيَكْثُرُ شَرُّهُ، وَيَقِلُّ خَيْرُهُ، كَالَّذِي تَقَبَّضَ جِلْدُهُ مِنَ الْمَرَضِ؛ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ مَزَاجُهُ، وَيَخْرُجُ صَدْرُهُ وَلَا تَسْلُ عَنْ شَرِّهِ وَتُدَوِّرُ خَيْرِهِ. وأمّا الثالثُ فَلأنَّ دِمَامَةَ الْخُلُقِ - بِالْفَتْحِ - يَلَازِمُهَا دِمَامَةُ الْخُلُقِ فِي الْغَالِبِ. وَالْأَلْفُ - بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ - الْعَيْيُّ الْبَطِيءُ الْكَلَامِ، إِذَا تَكَلَّمَ مَلَأَ لِسَانُهُ فَمَهُ، وَهُوَ أَيْضًا الثَّقِيلُ الْبَطِيءُ الْمَقْرُونُ الْحَاجِبِينَ. وكلا المعنيين يُعَابُ بِهِ؛ لكونه يدلُّ على نَقْصِ بَاطِنِي. والاهْتِاجُ: الثَّوْرَانُ، كَالْهِيجِ وَالْهِيجَانِ وَالْهِيجِ بِالْكَسْرِ. وَالرَّوْعُ: الْفَزَعُ. وَالْأَعْزَلُ: الَّذِي لَا سِلَاحَ مَعَهُ.

وجملة شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ عَلَى النَّعْتِ لِ (عَلٍّ). و (أَلْفٌ) و (أَعْزَلُ) نَعْتَانِ لَهُ مَقْطُوعَانِ، أَيْ: هُوَ أَلْفٌ، وَهُوَ أَعْزَلُ. وَالثَّانِي هُوَ الْمَقْطُوعُ، وَالْأَوَّلُ تَابِعٌ لِمَثْبُوعِهِ فِي الْإِعْرَابِ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ النَّعَوَاتِ مُجَرَّدُ الذِّمِّ لِلْمَنْعَوَاتِ عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ، وَهُوَ: شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ، مُبَيِّنٌ لِمُلَازِمِ مَعْنَى الْمَنْعَوَاتِ كَمَا أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ آنِفًا، وَمَعْنَى: شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ: أَيْ: شَرُّهُ أَدْنَى لِلنَّاسِ مِنْ خَيْرِهِ، وَشَرُّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ نَفْعِهِ، فَشَرُّهُ حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَيْرِهِ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ، وَهَذَا بِحَسَبِ الدَّلَالَةِ الْوَضْعِيَّةِ.

أمّا الْمَقْصُودُ: فَنفِي خَيْرِهِ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، لَا نَفْيِ الْوَصُولِ إِلَيْهِ مَعَ وجودِهِ؛ لِأَنَّ وجودَ الْخَيْرِ إِنَّمَا يُدْرَكُ بِتَيْلِهِ وَالْوُقُوفِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُتَنَفٍّ بِكَوْنِ الشَّرِّ دُونَهُ، أَيْ: لَا يُعْلَمُ فِيهِ خَيْرٌ يَشُوبُ شَرُّهُ، وَنَفْعٌ يُخَالِطُ ضَرُّهُ. وَأَفْهَمُ نَفْيِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْمَذْمُومَةِ عَنْهُ ثُبُوتُ أَضْدَادِهَا الْمَحْمُودَةِ لَهُ، فَهُوَ خَيْرُهُ دُونَ شَرِّهِ قَرِيبُ الْبَيَانِ، فَصِيحُ اللِّسَانِ، ثَبَتُ الْجَنَانِ، لَا يَهْتَاجُ لِقَعْقَعَةِ الشَّانِ، مُلَازِمٌ لِلْسَّلَاحِ، مُسْتَعِدٌّ لِلْكَفَاحِ.

والأعزل: الذي لا سلاح معه، وقوم عزل وعزلان وعزل بالتشديد، وسمي أحد السماكين أعزل، كأنه لا سلاح له كما كان مع الرامح، أو لأنه إذا طلع لا يكون في أيامه ريح ولا برد، والأعزل أيضاً الرمل المنفرد المنقطع، وسحاب لا مطر فيه، وجميع المعاني محتملة هنا والفضل للمتقدم.

الإعراب:

ولست: الواو عاطفة، وليس واسمها.

بعل: خبرها، والباء زائدة.

شره: مبتدأ مضاف إلى ضمير الغائب.

قبل: منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف خبر المبتدأ.

ألف: بالفتح أما نيابة عن الكسرة صفة لعل، أو علامة نصب على أنه حال من عل لوصفه بالجملة.

إذا: ظرف لما يستقبل من الزمان.

رعته: فعل ماضٍ، وفاعله ومفعوله.

اهتاج: فعل ماضٍ جواب إذا.

أعزل: فاعله على طريقة التجريد، بأن بالغ في وصفه بقله الحزم حتى جرد منه أعزل، وقيل في إعرابه غير ذلك، وهو ضعيف.

المعنى:

ولست بالرجل المسن القصير الجثة، مذموم الخصال، يشبه القراد، وهذا غير محمود في الرجال، وما ذكره كناية عن بطء الحركة والثوران في الخطوب، وأنه سريع الإقدام في التنادي والحروب، أو أن المعنى: لم أكن ممن يكثر مجالسة النساء، يقصد مغازلتهم مؤملاً الوفاء إذ الغالب على من هذه هجيره قلة الحزم، وهو بمعزل عن الإقدام وشدة العزم، ولم أكن غيباً بطء الكلام، كالشور يملأ لسانه فمه، بل إني فصيح الكلام، عذب المنطق، جيد البديهة، ووافق نطقه فمه، ولقد صدق الشُّنْفَرَى بما ادعاه، ونسج الكلام وأوعاه، لأن من كان نظمه هذه القصيدة فهو بمعزل عن العي والفهاهة،

مستجمع لجميع محاسن أصحاب النباهة، ولست أيضاً بالثقل الذي إذا أفرغه أمر ثار بغير سلاح، وصار من دهشته لا يفرق بين الصباح والمصباح، إذ مثل هذه الحركة تنافي الحزم والهمم، وصاحبها يظلم، فينبغي للعاقل التجرد عنها، وإن آمن من النائبات وتحكم، إذ ربما يدهمه الخطب، فلا يستطيع له تلاق، ويكون في إدراك رده حيراناً دهشاً مما لا يطاق، والله در القائل: [الطويل]

ولكن من لم يلق أمراً ينوبه بعدته ينزل به وهو أعزل
وقال البوصيري في مدح أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا من شدة الحزم لا من شدة الحزم
وقال زهير بن أبي سلمى: [الطويل]

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يتقي الشتم يشتم
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير الناس رجل ماسك بعنان فرسه كلما سمع هَيْعَةً طار إليها"^(١) إلى آخر الحديث.

وما أحسن قول ابن مُقَرَّب: [الطويل]

وإني لأزكى القوم لو تعلمونه نصاباً ولو كانت كريماً نصابها
وأبعدها في غاية المجد غاية وفيئاً إذا ما امتد للمجد قابها
وأفصحها يوم الخطاب مقالة إذا فصحاء القوم أكدى خطابها
وقال أيضاً: [البسيط]

لي النباهة طبعٌ قد عرفت به وكل معنى من الألفاظ مخترع
وقال الآخر: [الطويل]

فإن لساني شهدةٌ يشفى بها وهو على من صبه الله علقم
وقال زهير: [الطويل]

(١) أخرجه مسلم (١٥٠٣/٣)، رقم (١٨٨٩)، وابن ماجه (١٣١٦/٢)، رقم (٣٩٧٧). وأخرجه أيضاً: البيهقي في شعب الإيمان (٤١/٤)، رقم (٤٢٨٨)، والبيهقي (١٥٩/٩)، رقم (١٨٢٧٨).

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

استطراد:

كان في زمن الجاهلية يجعلون كالمنبر في الموسم لقيس بن ساعدة فيخطب لهم، لأنه كان أفصح العرب لساناً وقيل: هو أول من نطق بكلمة بعد في خطبه، والفصاحة معتبرة عندهم. وسحبان يضرب به المثل في الفصاحة مثل حاتم في الكرم، ويكفي العرب بذلك فخراً بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم، ونزول القرآن على ألسنتهم، وقوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الله خلق الخلق فاختر منهم العرب واختار من العرب قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم" ^(١). إلى آخر الحديث.

وزعم الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قدم وفد بني تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفيهم: الزبرقان بن بدر وعطار بن حاجب، وقيس بن عاصم بن الحارث ونعيم بن يزيد وعمرو بن الأهتم وكان فيهم: عيينة بن حصن الفزاري، وكان يكون في كل سورة، فقال قائلهم: جئناك يا محمد بخطيبنا وشاعرنا منا، فأمرنا عطار، فخطب وقال: الحمد لله الذي له الفضل علينا، الذي جعلنا ملوكاً، وأعطانا شرفاً ومالاً، وجعلنا أكثر أهل المشرق أموالاً وسادة، وأكثرهم عدداً، وأيسرهم غدة. من مثلنا أو يلينا؟! رؤساء الناس وأفضلهم، فمكن يفاخرنا، فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو شئنا لأكثرنا، فأتوا بقول أفضل من قولنا، أو أمر أفضل من أمرنا، ثم جلس وقام الزبرقان، وأنشد شعره وقصيدته التي يقول فيها: [البسيط]

نحن الملوك فلا حي يفاخرنا فينا الملوك وفينا السادة الرفع

حتى فرغ منها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس

(١) أخرجه ابن عدى (١٩٩/٦) ترجمة ١٦٧٥ محمد بن ذكوان) وقال: قال البخاري والنسائي: منكر الحديث. وعامة ما يرويه أفراد و غرائب ومع ضعفه يكتب حديثه. والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٩/٢)، رقم (١٣٩٣). وأخرجه أيضاً: الطبراني (٤٥٥/١٢)، رقم (١٣٦٥٠)، وفي الأوسط (١٩٩/٦)، رقم (٦١٨٢) قال الهيثمي (٢١٥/٨): فيه حماد بن واقد وهو ضعيف يعتبر به، وبقيّة رجاله وثقوا. والحاكم (٨٣/٤)، رقم (٦٩٥٣).

الأنصاري: قم فاخطبهم، فقام ثابت وقال: الحمد لله الذي له السموات والأرض خلقة قضى فيها أمره، ووسع كل شيء علمه، فلم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدره أن جعلنا ملوكاً واصطفى لنا من خير خلقه رسولاً، أكرمنا أباً، وأحسننا رأياً، وأصدقنا حديثاً، وأنزل عليه كتابه، واثمنه على خلقه، وكان خيرة الله من عباده، ثم دعانا إلى الإيمان، فآمن به المهاجرون من ذوي رحمه، أصبح الناس وجوهاً، وأفضل الناس فعلاً، فكنا أول من أجاب واستجاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه بالله، وكان قتله علينا يسيراً.

أقول قولي هذا واستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات إن الله كان غفوراً رحيماً، ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى حسان بن ثابت، فقبل: قد جاء وفد بني تميم بخطيب وشاعر، وقد دعاك رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك حتى تجيب شاعرهم، فقال حسان: أقبلت نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا لا أدري ما يقول شاعرهم، وأنا مهيب أبيتاً قبل أن أقبل إليهم ماشياً نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول: [الطويل]

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا على أنف راضٍ من معد وراغم
منعناه لما حل وسط بيوتنا بأسيفنا من كُـلِّ باغٍ وظالم

فلما انتهى قال شاعرهم ما قال، فأجابه حسان بقصيدة يقول: في بعضها في مدح الصحابة رضي الله عنهم: [البسيط]

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الوقاع ولا يوهون ما رقعوا
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطمعون ولا يدينهم الطمع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

فتفرق الناس وهم يقولون: ما بلغنا هذا الرجل، ما خطبنا كخطيبه، ولا شاعرنا كشاعره، فلما أراد القوم الخروج أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم، وقد وكان تخلف عمرو بن الأثم في ركبهم، وكان قيس بن عاصم يبغيه، فقال: قد كان

في ركابنا غلام حدث، فأراد أن يزري به، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطى القوم، فقال عمرو بن الأهتم حين بلغه قول قيس بن عاصم، يهجو: [البيسط]

ظللت مفترشا هلباك تشتمني عند الرسول فلم تصدق ولم تصب
إن تبغضونا فإن العجم أصلكم والعجم لا تملك البغضا على العرب

فائدة:

قد ورد أن بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا خرجت من بيننا، فظهر الأرض خير أم بطنها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كانت أمراؤكم أخياركم وأغنياؤكم أسخياؤكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير من بطنها، وإن كانت أمراؤكم أشراركم وأغنياؤكم بخلائكم وأمركم شورى بين نسائك فبطن الأرض خير من ظهرها".

وقال الناظم^(١):

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": المخيار: الكثير الحيرة. والانتحاء: القصد. اليعمل: العمل. النجيب المطبوع على العمل، والناقعة يعملة، واليعمل واليعملة اسمان لا يوصف بهما كما في القاموس.

واليعمل فاعل انتحى، ويؤوى: هو جل: وهي الناقعة السريعة. وانتحت بناء التأنيث. والهدى، بضم الهاء وفتح الدال: الرشاد والدلالة، والمراد هنا: الطريق والقصد؛ لأنه يهتدي بالطريق ويهتدى له، والهوجل هنا: الدليل. والعيسيف، بكسر العين والسين المشددة المهملتين: الذي يكثر منه قطع المفاوز على غير طريق؛ مبالغة في العاسيف.

و (هدى) منصوب بـ (انتحت) على أنه مفعول به، أو مفعول مطلق مرادف لمصدر الفعل؛ لأنّ المعنى: انتحى انتحاء الهوجل، أو المعنى: اهتدى هداة.

وتقدير البيت: ولست بشخص كثير الحيرة في الظلام، بمعنى: يقع التحير منه كثيراً، أي: تكثر مراءاته، أو يشتد ما يقع منه من ذلك بحيث لا يجد مخرجاً، وقد يقال: لا يحتاج إلى هذا؛ إذ لا يسمى تحيراً إلا ما كان مثل هذا. أما التوقف الذي يغتبه الاهتداء فليس بحيرة، ولا يذم به صاحبه، وقلماً يسلم منه، فلاجل هذا خصّ النفي بما يدل على الكثرة في ذلك، وهو مخيار بزنة (مفعال) الذي هو من أمثلة المبالغة في تكثير المعنى. ونفي ذلك عنه أفاد ثبوت ضده له، وهو أنه كثير الاهتداء إلى قصد السبيل عند اشتباك الظلام، فلا تعمى عليه المسالك، إذا قصد جملاً مطبوعاً على العمل به قصد الدليل الذي يكثر منه عسف اليهماء؛ أي: المفازة التي يهيم فيها السالك.

ف(يهماء) - على ما قررنا - مفعول بالعيسيف، وأسند القصد إلى الجملة؛ لأنه هو الذي يسير، فالراكب

١٩- وَلَسْتُ بِمُخَيَّرِ الظَّلَامِ إِذَا انْتَحْتُ هُدَى الْهَوَجَلِ الْعِصِيفِ يَهْمَاءُ هَوَجَلُ
اللغة:

مخيار: بكسر الميم، وسكون الحاء المهملة مبالغة حائر، كمعطار ومنحار، قال ابن مالك: [الرجز]

فعال أو مفعال أو فعول في كثرة عن فاعل بديل
فالأول كقوله تعالى: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، والثاني كقولهم^(١): (إنه لمنحارٌ بِوَائِكْهَا) والثالث كقول الشاعر:
[الطويل]

ضروب بنصل السيف سوق سمانها إذا عدموا زاداً فإنك عاقر
وتفصيلها مذكور في موضعه من كتب النحو.

انتحت: من الانتحاء، وهو والنحو بمعنى القصد هنا، وانتحيت لفلان عرضت له، وأنحيت على حلقة السكين أي عرضت.

الهدى: بضم الهاء مقصوراً الرشاد والدلالة، وقد يكون بمعنى ارائة الطريق دون الإيصال إلى المطلوب، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

تابع في القصد للمركوب، والمركوب تابع للراكب في الاهتداء والتحير، ولذلك ما نفى التحير عنه دون الجمل. وهذه من لطائف البلاغة وأسرار الفصاحة.

وجعل طريق الدليل هدى؛ لأن من يسلكها يجد عليها هدى، فكان الطريق هدى من الدليل الذي سلكها أولاً لمن يسلكها بعده.

ويجوز أن يُفسر الهدى بالراحة هنا، لاهتداء رايها بها. (فهدى) عليه فاعل (انتحت)، و(يعمل) بدل منه، و(يهماء) بالنصب مفعولة.

والتقدير: إذا قصدت راحلة الهوجل العيصيف وهي يعمل يهماء.

(١) البوائك جمع بائكة، وهي الناقة السمينة، ومنجار: كثير النحر، لهذا النوع من الإبل.

انظر: البصائر والذخائر ٢٥٣/١، وأوضح المسالك ٢٢٢/٣، والصحاح (نحس) ١٩٧/٢.

الهُوَجَل: بفتح الهاء، وسكون الواو: الأحمق، والذليل، والبطيء الثقيل.
العسيف: بكسر العين والسين المهملتين مبالغة عاسف، والعسف: الأخذ على غير الطريق، وكذلك التعسف والإعتساف.

اليهماء: بفتح المثناة التحتية، وسكون الهاء ممدوداً الفلاة التي لا يهتدى فيها الطريق، قال ابن السكيت: الأيهمان عند أهل البادية: السيل والجمل الصَّوُول يتعود منهما، وهما الأعميان، وعند أهل الأمصار: السيل والحريق، قال أبو عبيدة: وإنما سمي أيهم لأنه ليس مما يستطيع دفعه، ولا ينطق فيكلم أو يستعتب، ولهذا قيل للفلاة التي لا يهتدى فيها الطريق هيما، وللبر أيهم.

قال الأعشى: [المتقارب]

وهيماء بالليل غطشى الفلا ة يؤنسني صوت فيادها
والفياد: ذكر البوم.

الهُوَجَل الثاني: الفلاة التي لا أعلام فيها، قال الأصمعي: الهوجل الأرض تأخذ مرة هكذا، ومرة هكذا، وقال جندل: [الرجز]

والأَل في كُلِّ مُرَادٍ هَوَجَلٍ

كَأَنَّهُ بِالصَّخْصَحَانِ الْأَنْجَلِ

قُطْنٌ سَخَامٌ بِأَيِّ عَادِي عَزَلِ

الإعراب:

ولست: الواو عاطفة، ولست: ليس واسمها.
بمحيار: خبر، والباء زائدة مضافة إلى الظلام، من الإضافة إلى الظرف أو السبب.
إذا: ظرف لما يستقبل من الزمان.
انتحت: فعل ماضٍ، والتاء للتأنيث.
هدى: مفعول به مقدم، مضاف إلى الهوجل.

العسيف: نعت له.

هيماء: فاعل انتحت.

وهوجل: نعت.

المعنى:

ولست ممن يتحير، ولم يهد إلى السبيل في الظلام، إذا عرضت الفلاة الطامسة
الأعلام، لعدم رشاد الأهوج الذي يأخذ على غير الطريق، ويجمع أسباب الإضلال:
ظلمة الليل، والفلاة، وعدم اراءة الطريق.

ومراد الناظم: أنني خريت حاذق لا أضل عن الطريق، وأطلب الأخبار وإن كان
مجهول الإعلام، لما عانيت من الأسفار، وتعاطيت جوب الفيافي والقفار. تكملة:

إن قيل: دخول حرف النفي على محيار يفيد نفي المبالغة، ولا يلزم منه نفي أصل
الحيرة، قلت: قد تأتي صيغة المبالغة ولا تراد، ويراد منها اصل الفعل، ويحتمل أن
المبالغة بعد دخول النفي، لا نفي المبالغة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾
[فصلت: ٤٦]، على أحد الوجهين. وثانيهما: أن صيغة فعال تأتي للنسبة بمعنى ذي كذا،
أي: ليس بذئ ظلم، ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

وليس بذئ سيف فتقتلني به وليس بذئ رمح وليس بنبال

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

وقال الطغرائي: [البسيط]

تنام عيني وعين النجم ساهرة وتستحيل وصبغ الليل لم يحل

وقال ابن نباتة: [الطويل]

وخطه ضيم قد أبيت وليلة سريت فكان المجد ما أنا صانع

هتكت دجاها والنجوم كأنها عيون لها ثوب السماء براقع

وقال أبو طالب: [الكامل]

ولقد ذكرتكَ والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق
رجع: وصف نفسه بكونه غير متحير في الظلام، لأن الليل محل الأكدار، وأجمع
للذهن من النهار، لأنه أما أن يكون خائفاً أو طالباً، فإذا كان في النهار، ربما يشتغل ذهنه
في غير ما كان بصدده، والليل مجمع الهموم، مكثرت التوحش، خصوصاً في مثل ما
وصف من الفلاة.

ومما يناسب ما ذكرنا أن سلطان العاشقين ابن الفارض قال: [الكامل]

يا ليل طل يا شوق دم إنني على الحالين صابر
وقول الآخر: [الوافر]

ألا يا ليل طلت علي حتى كأنك قد خلقت بلا صباح
وما أحسن قول شهاب: [الطويل]

وليل نجوم القذف فيها كأنها تصول علينا بالمهندة السمر
ركبت به موج المطايا وخضت في بحار المنايا طالباً درة الخدر
فعانقت منها جوذر القصر آمناً وصافحت منها بالجنة دمية القصر
وبتنا وزند الليث مني مطوق لها ويمين الظبي قد وشحت خصري
وقال مجنون ليلى: [الطويل]

لقد ثبتت في القلب منك محبة كما ثبتت بالراحتين الأصابع
نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل ضمتني إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم والليل جامع

وقالت أم عقيل بن أبي طالب، وهي تلاعب ولدها وترقصه: [الرجز]

أنت تكون ماجد نيل إذا تهب شمال بليـل

وأستشهد بهذا البيت في النحو على زيادة كان في لفظ المضارع، وهو من باب
التفاوت الحسن، كقول بعض نساء العرب أيضاً، تخاطب ولدها: [الرجز]

قم قائماً قم قائماً صادفت عبداً نائماً

وعشراء رائمـا وأمـة مراغمـا

وقول الآخر: [الطويل]

ووادكما الخنساء قفراً قطعته ولكن به عينان تجرى على صخر

استطرداد:

والخنساء هذه صحابية، وهي بنت عمرو بن الشريد بن رباح بن يقظة بن عصية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم، قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها من بني سليم، فأسلمت معهم، فذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستشدها، ويعجبه شعرها، وكانت تشد، وهو يقول: هيه يا خناس، ويومئ بيده صلى الله عليه وسلم، قالوا: وكانت الخنساء تقول في أول أمرها البيتين والثلاثة حتى قُتل أخوها: معاوية بن عمرو، وهو أخوها لأبيها وأمها قتله هاشم وزيد المريان، وصخر أخوها لأبيها، وكان أحبهما إليها، لأنه كان حليماً جواداً محبوباً في العشيرة، وكان غزا بني أسد، فطعنه أبو ثور الأسدي، فمرض قريباً من حول ثم مات فلمّا قتل أخوها، أكثرت من قول الشعر، فمن قولها في صخر أخيها: [المقارب]

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندا

ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا

طويل النجاد عظيم الرماد ساد عشيرته أمردا

ومن قولها أيضاً في صخر أخيها: [البسيط]

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتِمُ الْهَدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها، وقالوا: اسم الخنساء تماضر، ذكر الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن المخزومي عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه عن أبي وجرة عن أبيه، قال: حضرت الخنساء بنت عمرو السلمية حرب القادسية، ومعها بنوها: أربعة رجال، فقالت لهم: يا بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكُم، ولا هجنت نسيكُم، ولقد تعلمون ما

أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا أصبحتم غداً سالمين - إن شاء الله تعالى - فاغدوا على قتال عدوكم مستنصرين فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطربت لظى على سياقها، وجللت ناراً على أوراقها، فتيّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، عند خميسها، تظفروا بالمغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة، فخرج بنوها قابلين لنصحها، عازمين على قولها، فلما أضاء لهم الصبح، حمل أكبرهم، وأنشأ يقول:

[الرجز]

يا إخوتي إنّ العجوز الناصحه	قد نصحت إذ دعتنا البارحة
مقاله ذات بيان واضح	فباكروا الحرب الصّروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحه	من آل ساسان كلاباً نابحه
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه	وأنتم بين حياة صالحه

أو ميته تُورث غنماً رابحه

فتقدم، فقاتل حتى قتل، ثم حمل الثاني، وهو يقول: [الرجز]

إنّ العجوز ذات حزم وجلد	والنظر الأوفق والرأي الأسد
قد أمرتنا بالسداد والرشد	نصيحه منها وبراً بالولد
فباكروا الحرب حماة في العُد	إما لفوز بارد على الكب

فقاتل حتى استشهد، ثم حمل الثالث، وهو يقول: [الرجز]

والله لا نعصي العجوز حرفاً	قد أمرتنا حرباً وعطفاً
نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً	فبادروا الحرب الضروس زحفاً
حتى تلقوا آل كسرى كفاً	أو تكشفوهم عن حماكم كشفاً

فقاتل حتى استشهد، ثم حمل الرابع، وهو يقول: [من الرجز]

لست للخسنا ولا للأخزم ولا لعمر ذي السناء الأقدم

إن لم أرْد في الجيش جيش الأعجم ماضٍ على هول زمان خضرم
إِما لِفوزٍ عاجلٍ ومَغْنَمٍ أو لوفاةٍ في السبيل الأكرم

فقاتل حتى قتل - رحمة الله عليه وعلى إخوته - فبلغها الخبر، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته، وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد مئتي درهم حتى قبض."

وقال الناظم^(١):

٢٠ - إذا الأَمْعُرُ الصَّوَانُ لَأَقَى مَناسِمي تَطَايَرُ مِنْهُ قَادِحٌ وَمُفْلَلٌ

اللُّغَةُ:

الأَمْعُرُ: بالغين المعجمة المفتوحة، والراء: هو ما كان بلون المغرة، وهو طين أحمر، والممغر: بفتح الغين المصبوغ بها، والأَمْعُرُ أيضاً الأحمر الشعر، والجلد على لونها، ومن الخيل نحو من الأشقر، وهو الذي شقرته تعلوها مغرة أي كدرة، والمراد هنا الحجار الأحمر، ويروى: الأَمْعُرُ بالغين المهملة، والزاي، وهو الصخر الصلب، وهو الأنسب بمقام التمدح وإن كان الشويدي (رح) وقع شرحه على الأَمْعُرِ فوافقه أدباً، وإنما كان رواية أمعر بالعين المهملة أنسب، لأن الأَمْعُرَ بالغين المعجمة، والراء المهملة لا قوة فيه غالباً فلم يحصل فيه مزية على غيره، بل ولا نار فيه فلا يتم وصفه بتطايير القادح والمفلل منه، فافهم.

الصوان: بفتح الصاد، وتشديد الواو: ضرب من الحجارة شديد الصَّوَانَةِ، ويجوز هنا ضم الصاد على أنه جمع صوانة بفتحها إلا أنه يحتاج إلى تأويل في إفراد الضمير والصفة.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الأَمْعُرُ: المكان الصُّلْبُ. والصَّوَانُ، جَمْعُ صَوَانَةٍ: صَرَبٌ من الحجارة شديد، فالأَمْعُرُ الصَّوَانُ: صاحب الصَّوَانِ. والمناسِمُ جمعٌ منَسِمٍ: مُقَدَّمُ الحَقْفِ، والقادحُ: الذي يقدح النار. والمُفْلَلُ: المُكْسَرُ. وَصَفَ بَعِيْرَهُ بِصَلَابَةٍ أَخْفَاهُ بَحِيْثٌ تَوَثَّرَ مَناسِمُهَا فِي الْأَمَاكِنِ الصُّلْبَةِ إِذَا لاقَتْهَا، فَتَطْيِرُ مِنْهَا أَحْجَاراً قَادِحَةً لِلنَّارِ، وَأُخْرَى مَكْسُورَةً مِنْ شِدَّةِ الْوُطْءِ، وَصَلَابَةٍ مَا يَبْشُرُ الْأَرْضَ مِنَ الْأَخْفَافِ.

المناسم: بفتح الميم جمع منسم، بفتح الميم، وسكون النون، وكسر السين المهملة: خُفُّ البعير، أو باطن كل قدم، كقوله:

توعدني بالسجن والأداهم رجلي فرجلي شنة المناسم
وعلى الأول فيه استعارة أو مجاز مرسل، كالمشفر، وعلى الثاني حقيقة.
تطايير: أي تفرق.

القادح: الحجر الذي يوري النار.

المفلل: اسم مفعول من فله فانفل أي كسره فتكسر، فهو من باب المطاوعة، وهو قبول الأثر.

الإعراب:

إذا: ظرف لما يستقبل من الزمان.

الأمر: فاعل بفعل محذوف دل عليه المذكور، وجَوَزَ الكوفيون أن يكون مبتدأ، وإختلاف البصريين والكوفيين مذكور في كتب النحو في إعراب قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، فليراجع.

الصوان: نعت له.

لاقي: فعل ماض من الملاقاة، وفاعله يعود إلى الصوان.

مناسمي: مفعول به مضاف إلى ياء المتكلم.

تطايير: فعل ماض جواب إذا.

منه: جار ومجرور متعلق به.

قادح: فاعل.

ومفلل: معطوف عليه.

المعنى:

وصف نفسه بالجلادة على السير، وإدمانه عليه من غير ضر وضير، فقال: إذا لاقى قدمي الحجر الشديد الأحمر تفرق وأورى النار، وتكسر، وما ذلك إلا لشدة وطئه،

وسرعة مشيه، وعدم المبالاة بما لاقى قدمه من وَطء الأحجار، ومعاناة الفياقي والقفار.

تكملة:

لقد بالغ في شدة الوطء في سيره على الأرض، إذ الصوانة شديدة في نفسها، والأمغر أشد، فتطايير الحجر الذي يقدح النار يدل على صلابة المنسم، وشدة الوطء، وكونه أصلب من الصوان قال تعالى: ﴿فَالْمُورِيَّاتِ قَدْخًا﴾ [العاديات: ٢]، فلا يكون لمنسمه هذه القوة إلا إذا كان السير شنشنة له وعادة، ولا ريب أن من يديم المشي حافياً تتصلب قدماه فلا يؤثر فيهما حجر ولا مدر ولا شوك ولا غير ذلك، لكن دون ما وصف قدميه، إذ لم يسمع أن قدماً فلل صخراً بوطئه، قال الشاعر يصف جواباً أخا أسفار بأن قدميه لا يؤثر فيهما لسع الحيات وغيرها: [الرجز]

قد سالم الحيات منه القداما الأفعوان والشجاع الشجعما

والروية المشهورة لهذا البيت بنصب الحيات، فيكون (القداما) فاعلاً مرفوعاً بالألف مثني، قدم حذفت نونه للضرورة، ويكون الأفعوان والشجاع بالنصب بدلاً من الحيات، بدل بعض من كل أو مفصل من مجمل، ورواية سيويه في كتابه رفع الحيات، حيث قال فيه: وروايتنا بالرفع، فيشكل عليها نصب الأفعوان والشجاع، ويزال الإشكال بأن فاعل تأتي للمشاركة فتقتضي معمولين أحدهما فاعل صريحاً مفعول ضمناً كالحيات، وثانيهما بالعكس كالقدم، فأبدل الأفعوان والشجاع من الحيات بإعتبار جهة المفعولية لا الفاعلية، وهذه القاعدة محل يشطها كتب التصريف فلتراجع ثمة.

وللسويدي - رحمه الله - في هذا البيت مع بعض الشيعة قصة عجيبة قد استوعبها في الرحلة المكية فلتراجع، فإني لم أذكرها لطولها.

ولا تستغرب ذلك إذ ثمرة المداومة تجعل للحبل تأثيراً في الحجر الصم، ويروى عن الأزهري خالد أنه قرأ فلم يحصل شيئاً، فرجع من مصر إلى أهله، فمر في طريقه بحجر على شفة بئر قد أثر فيه مرور الحبل، فأنشد: [السريع]

اطلب ولا تضجر من مطلب فآفة الطالب أن يضجرا

أما ترى الحبل بتكراره في الصخرة الصماء قد أثرا

ورجع، ففتح الله عليه، ولعمري أن بيت الشَّنْفَرَى أبلغ من قول بعضهم يصف ناقته

شعراً: [البسيط]

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدراهم تنقاد الصياريف
ومن قول كعب بن زهير: [البسيط]
سُمِرُ العجايات يتركنَ الحصا زيماً لم يقهَنَّ رؤوس الأكم تنعيل
استطراد:

قال العسكري: نيران العرب بضع عشرة ناراً، نار القرى توقد للأضياف ليهتدي الطارقون إلى المنزل، ونار الاستمطار كانوا إذا احتبس المطر جمعوا البقر وعقدوا في أذناها وعراقيها السِّلَع والعُشَر وصعدوا بها الجبال وأوقدوا فيها النار زاعمين أن ذلك من أسباب المطر، ونار التحالف كانوا يعقدون حلفهم عندها ويزعمون أن من نقض العهد منع خيرها، ونار الطرد كانوا يوقدون خلف من يمضي ولا يشتهون رجوعه، ونار الأهبة للحرب كانوا إذا أرادوا حرباً أوقدوا ناراً على جبل ليبلغ الخبر أصحابهم فيأتوهم، ونار الصيد توقد للظباء لتعشى إذا نظرت إليها، ونار الأسد كانوا يوقدونها إذا خافوا الأسد، وهو إذا رأى النار استهالها وفرع منها، ونار السليم توقد للملدوغ والمجروح، ولمن عضه الكلب لئلا يناموا فيشتد الأمر بهم، ونار الفداء كانوا إذا سبوا قبيلة خرجت إليهم السادة للفداء والإستيهاب فكرهوا أن يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن، أو في الظلمة فيخفي قدر ما يحسبون لأنفسهم من الصفايا، ونار الوسم يقال: ما نارك أي ما سمة إبلك، وإنما يسأل عن ذلك لأنهم يعرفون ميسم كل قوم وكلام إبلهم، ونار الحرتين كانت في بلاد عبس تخرج من الأرض فتؤذي من مرَّ بها، والنار التي توقد بمزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة وأول من أوقدها قصي بن كلاب، ونار الجباحب - وهي التي أشار إليها الشُّفَرى -، وكل نارٍ لا أصل لها مثل ما ينقذ بين نعال الدواب، وكالبرق فإنه دخان مشتعل لما فيه من الدهنية، فإن الأبخرة الصاعدة قلما تخلو عن الدهنية، فإذا اشتعل ذلك البخار بالحركة العنيفة المقتضية للحرارة كان برقاً وينطفئ بسرعة، وصاعقة إذا كان غليظاً ولا ينطفئ حتى يصل إلى الأرض، فإذا وصل إليها صار لطيفاً ينفذ في المتخلل ولا يحرقه، ويذيب الأجسام المندمجة فيذيب الذهب والفضة المصرة مثلاً ولا يحرقها إلا ما احترق من الذوب، وربما كان

كثيفاً غليظاً جداً فيحرق كل شيء أصابه، وكثيراً ما يقع على الجبل فيدكه دكاً، والنار المستعملة عندنا فهي جوهر لطيف مضيء حار محرق، والنور ضوءها، واشتقاقها من نار ينور إذا نفر، لأن فيها حركة واضطراباً، وليست هذه أحد العناصر الأربعة كما قد يتوهم، بل هي مركبة منها، وأما النار الطبيعية فهي أحد البسائط العنصرية، وهي حارة يابسة، والعنصر في اللغة العربية الأصل كالأسطقس في اللغة اليونانية، والعناصر طبقات سبع على الأصح من الأقوال أعلاها الطبقة النارية الصرفة فمحدثها مماس لمحدث فلك القمر، ومركز العناصر الأربعة مختلفة، فمركز النار والهواء العلو، فالنار والهواء يطلبان العلو، ومركز الأرض والماء السفلى، فهما يطلبان السفلى، لأنك إذا نكست الشعلة إلى أسفل انقلب إلى فوق، وإذا ملئت الزق هواءً وقسرتة على المكث في الماء، ورفعت القاسر طلب جهة الفوق، وعلى الماء، وإذا تحيلت على صعود الماء إلى فوق بالفوارات والزرافات بلغ غاية الرفع ثم أخذ بالهبوط، وإذا حذفت الحجر إلى فوق بلغ غايته ثم تصوب منحدرأً، وهذا الترتيب الذي ذكرناه هو الصحيح، وقد ورد أقوال كثيرة غير ذلك مبسوبة في موضعها من علم الطبيعي، والكلام فيه يطول، وهو مستقصى في أماكنه من كتب الحكمة.

استطراد:

مما يشبه خوارق العادة من تكسر الصوان عند ملاقة منسمه، ما ذكره أصحاب التواريخ أن زرقاء اليمامة، وهي امرأة من جديس يضرب بها المثل في حدة النظر، قيل إنها: كانت ترى من مسيرة ثلاثة أيام، روي أنها أبصرت حماماً طائراً في جو السماء، فقالت: [مجزوء الرجز]

ليت الحمام ليِّه أو نصفَه قَدِيه
إلى حمامتيه ثمَّ الحَمَامُ مِيه

فاتفق أن الحمام وقع في مضيق جبل، فعد فإذا هو ست وستون كما قالت، وأشار إلى هذه القضية بعض من غبر حيث قال: [البسيط]

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الشمد
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

فحسبوه فالأفوه كما نطقت تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يزد

ولي على هذا البيت الأخير كلام، ليس هذا محل بسطه يدرك بالتأمل الصادق إن شاء الله تعالى، ومما يحكى أيضاً أن بعض الأكابر لما أراد غزو قومها من حيث لم تشعر به، حمل مع كل فارس أمامه شجرة من شجر البادية تستر الفرس والفارس، وابتدأ بهذا العمل من مسيرة ثلاثة أيام حيث علم أنها تبصر من تلك المسافة، فأخبرت قومها أنها ترى شجراً يسير على وجه الأرض قادماً عليهم، فلم يصدقوها حتى دهمتهم الغارة، فسكتت الزرقاء، وجيء بها إلى أمير تلك السرية، فأمر بقلع عينيها، فلما قلعت أخرج من تحتها جراب كحل بخلق الله جلّت قدرته.

واليمامة هذه محل مشهور في الجاهلية في قرب صنعاء اليمن، وقد ذكرها مجنون ليلى في شعره فقال: [الطويل]

ولو أن واثٍ باليمامة داره وداري بأعلى حضر موت اهتدا ليا

قال الناظم^(١):

٢١- أُدِيمُ مَطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمِيَّةٍ وَأَضْرِبُ عَنْهُ الدِّكْرَ صَفْحًا فَأُذْهِلُ

اللغة:

المطال: بكسر الميم المطل، وهو التسويف بالمدة والدين، كالإمطال والمماطلة، وهو مطول ومطال، ومد الحبل والحديد، وسبكه وطبعه وصوغه بيضة.

وأضرب عنه الذكر صفحاً: أي أصرف نفسي عنه، قال تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الدِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف: ٥]، وحقيقته في الراكب إذا أراد أن يصرف دابته ضربها ليعديلها، فاستعمل الضرب موضع الصرف فتأمل.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": المَطَالُ، كالمَطَلِ: تأخير الحق. يقال: مَطَلَهُ وَمَاطَلَهُ بِحَقِّهِ: لَوَاهُ؛ أي: أَخْرَهُ. وَالصَّفْحُ: مَضْدَرُ صَفَحَ يَصْفَحُ، بفتح الفاء فيهما: أَعْرَضَ وَأُذْهِلَ - بِالْفَتْحِ - مُضَارِعُ ذَهَلْتُ عَنِ الشَّيْءِ بِالْفَتْحِ ذَهَلًا، أَوْ ذَهَلْتُ عَنْهُ بِالْكَسْرِ ذَهُولًا: نَسِيْتُهُ، وَالدِّكْرُ: التَّنَكُّرُ، وَضَرْبُهُ عَنِ الْجُوعِ صَفْحًا: الْإِعْرَاضُ عَمَّا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْأَكْلِ إِعْرَاضًا، وَهَذَا عَيْنُ مَطَالِهِ الَّذِي يُدِيمُهُ حَتَّى يُمِيتَ الْجُوعُ؛ أي: يَكْسِرُ سَوْرَتَهُ وَيَقْتُلُ كَلْبَهُ بِدَوَامِ مُضَابَرَتِهِ بِأَنْ يَرْتَاضَ بِهِ فَلَا يَتَأَثَّرُ بِهِ بَعْدُ، وَغَايَةُ ذَلِكَ أَنْ يَذْهَلَ عَنْ وَجُودِهِ، وَالْأَيُّحَسُّ بِحَرِّ وَقُودِهِ.

والصفح: الإعراض هاهنا.

الذهل: مضارع ذهل كمنع ذهلاً وذهولاً تركه على عهد أو نسيه لشغل، أو هو السلو وطيب النفس عن الإلف.

الذهلول: بالضم الفرس الجواد، وبلا واو ذهل بن شيان قبيلة منها يحيى الحافظ والإمام أحمد على الصحيح، وفيه لغة أخرى بالكسر.

الإعراب:

أديم: فعل مضارع، وفاعله مستتر فيه وجوباً.

مطال: مفعول به مضاف إلى الجوع.

حتى: بمعنى إلى أو كي.

أميته: منصوب بأن مضمرة بعد حتى عند البصريين، وبحتى عند الكوفيين، وتأتي حتى عاطفة، وحرف ابتداء، كما هو مذكور في موضعه من كتب النحو، فتجوز الثلاثة في نحو قوله شعراً: [الكامل]

ألقي الصحيفة كي يخفف رحله والزيد حتى نعله ألقاها

والهاء: مفعول به، والفاعل ضمير المتكلم.

وأضرب: فعل مضارع معطوف على أديم، وفاعله أيضاً مستتر كما تقدم.

عنه: جار ومجرور متعلق بأضرب، ويجوز غير ذلك.

الذكر: مفعول به.

صفحاً: أما مفعول مطلق أي: أصفح صفحاً، أو لأجل الصفح، أو حال، وجوز البيضاوي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف: ٥]، ما تقدم من الإحتمالات، ويمكن جعله ظرفاً، تأمل.

فأذهل: الفاء عاطفة، وجملة أذهل مثل أضرب.

المعنى:

أديم مماطلة الجوع من غير ذلة خضوع، وأواعد نفسي بسوف أبلغك الأمل

واتصبر، ولم يزل حالي بها كذلك حتى أميت الجوع وأعدمه ولا أتضجر، واترك ذكره إعراضاً فأنساه وأعفل عنه ولا أجد له ألماً ويمسني ضرر منه، وهذا ما ذكره التحرير السُّويدي في شرحه، والذي يظهر لنا أنه لما كان الأكل لا يزال ينفك عنه لمقتضى البشرية، وأنه لو تركه دفعة ربما لا يطيق على ذلك، فيكون مماطلته لنفسه حتى أمات الجوع عما هو معتاده، وأنه ترك منه شيئاً فشيئاً خشية الحاجة إلى غير همته، وأن يكون مدامناً عليه، ولعمري لقد بالغ في صبره على الجوع بحيث أن ما ادعاه خارجاً عن مقدرة البشر، لكن لا يخفى أن للبلغاء مقامات خطابية وقضايا شعرية يسكنونها في قالب الإمكان، فيتلقاها كل من نظر إليها بالقبول والعرفان، ومما يناسب ما ادعاه قول الشاعر: [الوافر]

أبَت لي عفتي أبى بلائي	أخذي الحمد بالثمن الريح
وإمساكي عن المكروه نفسي	وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مكارم صالحات	وأحمي بعد عن عرض صحيح

وقوله صلى الله عليه وسلم: "تموت الحرة ولا تأكل بثدييها"^(١)، فإن قلت: إذا كان من العدائين، ويسبق القطا إلى الورد، ومقدام شجاع، فما الذي يحوجه إلى بقائه جائعاً، قلت: من شدة توحشه عن أبناء جنسه، وموالفته للفيافي والقفار قد ترمي به الأقطار في صحراء لا أحد فيها، وتعظم نفسه أنه لأجل أكله خوفاً من جوع يقصد مسافة بعيدة حتى يأخذ ما يقيته، أو أنه يأتي به الطريق إلى بعض أحياء العرب فيراهم كراماً تأبى نفس الكريم تصديقهم، أو أنه قد يتفق إثثار الذئب على نفسه فيما يوجد عنده المأكول عفة منه، أو أنه يمكنه التسلية لنفسه بخلافها لأنها ليست ذات عقل.

استطراد:

قال البوصيري في مدحه صلى الله عليه وسلم: [البسيط]

ومن شدَّ من سغب أحشائه وطوى تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم

(١) انظر: المستقصى في أمثال العرب ٢/٢٠، وزهر الأكم ١/١٦٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٦١، ومجمع الأمثال ١/١٢٢.

ورأودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم
وما أحسن قول أبي فراس: [مجزوء الكامل]
ونهيـت نفسي فانتـهت وزجـرت قلبي فـانزجر

فائدة:

لو لم يكن الشَّنْفَرَى في ذاته متمكن من السُّودد، وفرعه زاكي الأصل لما أمكنه
مماثلة الجوع، وإدراك الملكة بحيث يقدر على إماتته، لأن ما كل من طلب شيئاً ناله،
والذي يؤيد هذا ما ورد من وصية قصي بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهو أبو خزاعة،
حيث قال: يا بني إن الرائد لا يكذب أهله، والعالم لا يستحسن جهله، وإن الحكم زرع
في القلوب، ومثله كمثل الحب والأرض، مهما زرع في أرض سبخاء أضنت بنابته، ولم
يرج حصاده، هذا ولتعلموا أن الطيب لا يقتله إلا الطيب. ووصيته طويلة اقتصرنا على
ما يناسب ما أردناه، فالواجب على من كان من ذوي الهمم العلية، السعي والجهد في
طلب ما يزيد في شرفه، ويبعد عنه داعي الاحتياج إلى الغير، إن وصل منه، أو لم يصل،
قال الشاعر - وقيل القائل أبو بكر الصديق رضي الله عنه: [البسيط]

العـجـزُ عـن درك الإدراك إدراكُ والبحث عن كنه ذات الله إشراكُ

وقال الآخر: [الكامل]

وعـلـيَّ أن أسـعـى وليمـس عـلـيَّ إدراك النـجـاح

قال الشَّنْفَرَى^(١):

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": استفاف التُّرْبَ كَسَفِهِ،
والسُّوَيْقُ: أَخْذُهُ غَيْرَ مَلُوثٍ. الطُّوْلُ، بفتح الطاء المَهْمَلَةِ: الفضل. (مَنْ) زائِدَةٌ للتوكيد، والمُتَطَوِّلُ:
الْمُتَفَضِّلُ.

يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا دَارَ أَمْرُهُ بَيْنَ أَنْ يَسْتَفَّ التُّرَابَ، أَوْ أَنْ يَتَحَمَّلَ مَنَّةً مِنْ ذِي مَنٍّ، فَإِنَّهُ يَخْتَارُ اسْتِفَافَ
التُّرَابِ.

وتقدير البيت: وأسْتَفَّ تراب الأرض لأجل ألا يرى بسبب ذلك عليّ امرؤ مُتَفَضِّلٌ فَضْلاً. بمعنى أن
هذه عَادَتِي، فسَفَّ التراب عند خوف المَنَّةِ مُتَحَقِّقٌ في حَقِّهِ ماضٍ بالنسبة لزمان تَكَلُّمِهِ، فالتعبير

٢٢- وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلًا يَرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطُّوْلِ أَمْرٌ مُتَطَوِّلٌ

اللغة:

استف: مضارع من الإستفاف، يقال: سفت الدابة بالكسر ومثله استفتفته إذا أخذته غير ملتوت وكذلك السويق، وكل دواء يؤخذ غير معجون فهو سفوف بفتح السين كصبور، والسفساف: الرديء من كل شيء، والأمر الحقيق، ومن الدقيق ما يرتفع من غباره عند النخل، ومن الشعر رديئه، وما دق من التراب، والمسفسفة الريح التي تثيره وتجريه فوق الأرض، وأسف تتبع مذاق الأمور.

الترب: والتربة والترباء والترباء والتُّرباء والتيرب والتيراب والتورب والتريب والتريب بمعنى التراب ويجمع على أتربة وتربان، ولم يسمع لسائرهما بجمع، والترباء الأرض، وترب كفرح كثر ترابه وصار في يده التراب، وأُترب قل ماله وكثر ضد، وفي المثل: "تربت يدك".

الطول: بفتح الطاء المهملة، وسكون الواو: المن، وتطول عليهم: امتن، وما هو بطائل للدون الخسيس، المتطول: اسم فاعل من تطول إذا من [زائدة للتوكيد].

الإعراب:

واستف: الواو عاطفة، واستف فعل مضارع معطوف على أديم، وفاعله ضمير المتكلم المستتر.

ترب: مفعول به.

كيلا: كي حرف نصب مصدر، ولا نافية.

ويرى: فعل مضارع منصوب بكي.

بالمضارع لحكاية حالة سَفِّ التراب الماضية، فهو يستحضر به صورة السَفِّ لفظاً. أو يُقال: إنَّ المعتادَ مستقبلُ العودة كما هو ماضي البدء، فالتعبيرُ بالمضارع عمَّا يعودُ منه حقيقةً، وعمَّا مضى منه مجازاً.

استطراد:

المضارع له بعد كي ثلاث حالات من حيث النصب، إن ذكرت اللام في اللفظ فهو منصوب بها، وإن نويت أيضاً كذلك، وإن لم تذكر ولا تنوى فكي: حرف جر وتعليل والمضارع منصوب بأن مضمرة بعدها كما هو مسطور في كتب النحو.

له: جار ومجرور متعلق بيري، وكذا من الطول. ومن فيه للتبعيض، ويجوز تعلقه بمتطول الذي هو صفة فاعل يرى الذي هو امرؤ، والمعنى: متطول ببعض الطول.

المعنى:

هذا البيت فيه جواب عن سؤالٍ مقدّر كأنه قال: كيف تديم مطال الجوع مع أنك بشر، والبشر لا بد له مما يقوته؟! فقال: آكل التراب غير ملتوت بالماء وغيره، وأتجنب الأوطان لكي لا يرى علي إنسان متفضل بعض الإحسان، والله در الزمخشري حيث يقول:

" طَغَمُ الْآلَاءِ أَخْلَى مِنَ الْمَنْ وَهِيَ أَمَرٌ مِنَ الْآلَاءِ عِنْدَ الْمَنْ "

تكملة:

هذا منه مبالغة أخرى فإن الاعتياض بالتراب من الطعام مخالفٌ للعادة، وخارقٌ لها، نعم، وَقَعَ مثل ذلك كثيراً لبعض الأولياء العارفين على سبيل الكرامة بأن يجعل الله فيه اقتياتاً وطعاماً كالأقوات المألوفة، كما وقع لسيدنا موسى بن جعفر الصادق - رضي الله تعالى عنهما - وذلك حين ذهب إلى الحج في بعض السنين، حدث بذلك عنه شقيق البلخي قال: خرجتُ مع قافلة الحاج إلى مكة، وفي القافلة غلامٌ يمشي متجنباً عن الطريق، فلما نزل الحجاج للإستراحة قريب الغروب أبصر ذلك الغلام قد جلس منفرداً على كتيب من كُثبان تلك الأرض، فقلت في نفسي: أذهب إلى هذا وأعنفه على فعله حيث غر بنفسه، والطريق بعيد، وأقوم بحوائجه، فلما قدمت عليه أبصري في يده إداوةً، وهو يأخذ من ذلك الرمل ويضع فيها فلما فرغ من ذلك شرب منها، فقلت في نفسي: لعل هذا مجنون، لكن قلت أولاً أطلب منه أولاً أن يسقيني مما في هذه الإداوة فإن كان فيها رمل ممزوج بمائها، فهو كما ظننت، فقلت: اسقني مما في يدك فناولني الإداوة، فشربت ما فيها أجمع، فإذا فيها سويق ملتوت، فعرفتُ أن الغلام من الكاملين،

فقمتم مفارقاً له، ولم أفه له بشيء، فلما أصبحنا وسارت القافلة سار ذلك الغلام على عادته، وبقيت متندماً على ظني فيه ما لا ينبغي حتى حملني الندم على أن نزلت من راحلتي للإعتذار منه فأدركته على شفير بئر قد صعد إليه ماؤها حتى ملأ أداوته ونزل الماء إلى مستقره، فلما أبصرني قبل أن أفوه بشيء تلا قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢]، فقبلت يده، واستعفيته فقال: قد عفونا عنك يا شقيق، فلما قربنا من المدينة رأيت أهلها قد خرجوا لاستقباله وهم بين باكٍ، ومقبل قدميه، فسألت عته حينئذٍ رفقاءنا فقالوا: هذا الإمام موسى الكاظم، وهذه العبيد والخيام والمحامل التي تسير معنا هي ملكه، لكنه أحب الحج ماشياً، فجئت إليه، وقبلت يديه، وقد تبسم في وجهي والله الحمد.

وقال الشعراني: كنت إذا لم أجد قوتاً حلالاً، استف التراب فأجد له دسومة كاللحم، ويمكن أنه كان ذلك الإدعاء منه على طريق فرض الاحتياج، وأنه لو احتاج إلى الأكل وما أمكنه إماتة الجوع يستقيت بالتراب خشية الحاجة إلى أحد، ولذا قال بعض الكاملين: (السؤال ذل، ولو أين الطريق)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى" ^(١)، وأنه لما كان التراب ليس يقتات به عادةً كان كأنه لم يأكل شيئاً.

استطراد:

قال أبو فراس مفتخراً شعراً: [الكامل]

وأخو ملومات يسدد فعله	همم مثقفة وعزم محصد
خرق إذا اقتحم الغبار رأيت	كالسيف إلا أنه لا يغمد
وأنا الذي علم الأنعام بأنه	لم ينمه إلا كريم سيد
والفخر يقسم أننا أربابه	دون البرية والمكارم تشهد
والمجد يوجد عندنا بإقامة	والعار والفحشاء ما لا يوجد

وقال ابن مُقَرَّب: [من البسيط]

(١) أخرجه البخاري (٥١٨/٢، رقم ١٣٦١). ومسلم (٧١٧/٢، رقم ١٠٣٣)، وابن حبان (١٤٨/٨)، رقم ٣٣٦١. والطبراني (١٩٢/٣، رقم ٣٠٩٢).

إذا نطقـت فلا لغو ولا هذر وإن سكت فلا عي ولا حصر
فمن يقوم مقامي يوم معضلة لاسمع ييقى لرائيها ولا بصر
ومن يسد مكاني يوم ملحمة إذا الغزاة وارى نورها القتر
إني امرئ إن كشرت الناب عن غضب لا الخط تمنع من بأسى ولا هجر

قيل: كان في أيام سليمان بن عبد الملك رجلٌ يُقال له خزيمة بن بشر، من بني أسد مشهور بالمروءة والكرم، وكانت نعمته وافرة، فلم يزل على تلك الحال حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يتفضل عليهم فواسوه حياءً، ثم ملوه، فلما لاح له تغييرهم، أتى امرأته وكانت ابنة عمه، وقال لها: يا ابنة العم قد رأيت من إخواني تغيراً، وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت، ثم أغلق بابه عليه، وأقام يتقوت بما عنده من القوت حتى نفذ ما عنده، وبقي حائراً في حاله، وكان في تلك الأيام عكرمة الفياض والياً على الجزيرة - فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد جرى ذكر خزيمة بن بشر، فقال عكرمة: ما حاله؟ قالوا: صار في أسوأ الأحوال، وقد أغلق بابه، ولزم بيته، فقال عكرمة الفياض - وسبب تسميته بالفياض أنه كان مفراطاً في الكرم - : فما وجد مساوياً ولا كافياً؟ قالوا: لا، فأمسك عن ذلك، ولمّا كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار، فجعلها في كيس واحد، ثم أمر بإسراج دابته، وخرج سراً من أهله، فركب ومعه غلام واحد يحمل المال، ثم سار حتى وقف بباب خزيمة، فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه، وتقدم إلى الباب فطرقة بنفسه، فخرج إليه خزيمة، فقال له: أصلح بهذا شأنك وأعطاه الكيس، فتناوله فراّه ثقيلاً، فوضعه، وقبض على لجام الدابة، وقال من أنت؟ فأجابه: إنني ما جئتك في هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفني، فقال خزيمة: ما أقبلك أو تخبرني من أنت، قال: أنا جابر عثرات الكرام، قال: زدني، قال: لا، ثم مضى، ودخل على امرأته بالكيس، فقال لها: أبشري فقد جاء الله بالفرج، فلو كان في هذا الكيس فلوساً لكانت كثيرة، قومي فأسرجي، فقالت: لا سبيل إلى السراج، فبات إلى الصباح، فرجع عكرمة الفياض إلى منزله، فوجد امرأته قد افتقدته، وسئلت عنه، فأخبرت بركوبه منفرداً، فارتابت وشقت جيها ولطمت خدها، فلمّا رآها على تلك الحالة، قال: ما دهاك يا ابنة العم؟! قالت: سوء فعلك بابنة عمك، أمير الجزيرة خرج بعد هدأة من الليل منفرداً عن غلمانه، في سر من أهله، إلّا لزوجة أو سُرّية! قال: لقد علم الله أنه لا لواحد

منها، فقالت: فأخبرني فيم خروجك؟ قال: يا هذه لم أخرج في هذا الوقت وأنا أريد أن يعلم بي إلا الله، قالت: لا بد أن تعلمني، قال: فأكتميه إذاً، قالت أفعل، فأخبرها بالقصة من أولها إلى آخرها، قم قال لها: أتحبين أن أحلف لك؟ قالت: لا، قد سكن قلبي، ثم أصبح خزيمة فأصلح شأنه، فتجهز للرواح إلى سليمان بن عبد الملك بفلسطين، فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره مكانه، وكان مشهوراً بالمروءة، وكان الخليفة به عارفاً، فأذن له، فلما دخل وسلم عليه بالخلافة، قال له: ما الذي أبطأك عنا؟ قال: سوء الحال يا أمير المؤمنين، قال: فما منعك من النهضة؟ قال: الضعف، قال له: من أنهضك؟ قال: لم أشعر بعد هدأة من الليل إلا ورجل يطرق بابي، وكان معه كيت وكيت، قال: هل عرفته؟ قال: لا والله، وما كان لي من أخباره لي إلا أنه قال: أنا جابر عثرات الكرام، فتلهف سليمان على معرفته، وقال: لو عرفناه لأعناه على مروءته، ثم قال: علي بدواة وقرطاس، فأتي به، فعقد لخزيمة لواء الجزيرة وعزل عكرمة، وأمره بالتوجه إلى الجزيرة، فخرج متوجهاً إليه من فلما قرب، خرج عكرمة وأهل البلد للقاءه، فسلموا عليه، وسار حتى دخلا البلد، فنزل خزيمة في دار الأمانة، فأمر بحساب عكرمة ففضل عليه مال كثير، فطالبه بالمال، فقال: ما لي إلى شيء منه سبيل، فأمر بحبسه، فبعث يطالبه مرة ثانية، فأجابه: إني لست ممن يصون ماله بعرضه، فاصنع ما شئت، فأمر به، فكبل بالحديد، وأضر به ذلك، فبلغ ذلك ابنة عمه فجزعت عليه ثم دعت مولاة لها ذات عقل، فقالت: امضي الساعة إلى باب الأمير، قولي: عندي نصيحة، فإذا دخلت عليه قولي له: ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد، ففعلت ذلك، فلما سمع قولها، قال: واسوءتاه، أجابر عثرات الكرام غريمي؟ قالت: نعم، فأمر من وقته بدابة فأسرجت وركب إلى وجوه أهل البلد، فجمعهم، وسار بهم إلى باب السجن، ففتحه، ودخل ورأى عكرمة في قاع الحبس متغيراً قد أضناه الضرر، فلما نظر إلى خزيمة والناس، أحشمه ذلك، فنكص رأسه، فأقبل خزيمة حتى أكب على رأسه فقبله، فرفع رأسه إليه، فقال: ما أعقب هذا منك؟ قال: كريم فعلك، وسوء مكافأتي، قال: يغفر الله لنا ذلك، ثم أمر بفك القيود، وأن توضع في رجله، فقال له عكرمة: ماذا تريد؟ قال: أن ينالني من الضرر ما نالك، قال: أقسمت عليك بالله أنك لم تفعل، فخرجا جميعاً حتى وصلا دار خزيمة، فودعه عكرمة، وأراد الإنصراف فلم يمكنه ذلك، قال: ما تريد؟ قال أغير حالك، وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك، فأمر بالحمام

فأخلت، ودخلا جميعاً، فخلع عليه، وحمل معه مالا كثيراً، وسار معه إلى داره، واستأذنه بالاعتذار إليه، وتقدم على ما كان من حبسه له، فسأله أن يسير معه إلى أمير المؤمنين، وهو يومئذٍ مقيم بالرملة، فأنعم له بذلك فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبد الملك، فدخل الحاجب فأخبره بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك وقال: والي الجزيرة قدم علينا بغير إذنا مع قرب العهد به ما هذا إلا لحادث ضيم، فلما دخل عليه، قال ما وراءك يا خزيمة - قبل أن يسلم عليه - قال: خيراً يا أمير المؤمنين، قال: فما أقدمك؟ قال: ظفرت بجابر عثرات الكرام، فأحببت أن أسرك به لَمَّا رأيت من شوقك إلى رؤيته، قال: ومن هو؟ قال: عكرمة الفياض، فأذن له بالدخول، فدخل وسلم عليه بالخلافة، ورحب به وأدناه من مجلسه، وقال: يا عكرمة، كان خير لك وبالأعلى عليه، ثم قال له: أكتب حوائجك وما تختاره في رقعة، فكتبها، فقضيت على الفور، ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف إليها من التحف والظرف، ودعا بدواة وقرطاس، وعقد له على الجزيرة أرمينية أذربيجان، وقال له: أمر خزيمة إليك: أن شئت أبقيته، وإن شئت عزلته، قال: بل اردده إلى عمله يا أمير المؤمنين، ثم انصرفا جميعاً، فلم ير إلا طاعتهما لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته.

قال الشنفرى^(١):

٢٣- وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الدَّأَمِ لَمْ يُلَفَّ مَشْرَبٌ يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
اللُّغَةُ:

الاجتناب: مصدر اجتنب الشيء، أي تجنب وابتعدت عنه.

الدَّأَم: بهمزة وبدونها هو والدَّيْم: العيب، وفي المثل^(٢): (لا تَعْدُمُ الحَسَنَاءُ دَامًا)

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": يعني: أن اجتنابه الدَّمُ الْمُحَقَّقُ بِحَسَبِ دَعْوَاهُ بِشَهَادَةِ (لَوْلَا)؛ فَإِنَّهَا تَقْتَضِي وَجُودَ شَرْطِهَا، وَامْتِنَاعَ جَوَابِهَا لَوْجُودِهِ. وَالشَّرْطُ هُنَا اجْتِنَابُ الدَّمِ، فَهُوَ الَّذِي أَرْقَى هِمَّتَهُ، وَقَمَعَ نَهْمَتَهُ، وَمَنَعَ مِنْ وَجْدَانِ الْمَشَارِبِ وَالْمَأْكَلِ الَّتِي يُعَاشُ بِهَا عِنْدَهُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ - أَيُّ: لَوْ قُدِّرَ عَدَمُ اجْتِنَابِ الدَّمِ بَعْدَ الْمَبَالَاةِ بِهِ - لَمْ يَوْجَدْ شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرَ إِلَّا عِنْدَهُ.

(٢) أول من تكلم بهذا المثل - فيما زعم أهل الأخبار - حُبَى بن مالك بن عمرو العدوانية وكانت من أجمل النساء فسمع بجمالها مَلِكٌ عَسَّان فخطبها إلى أبيها وحكّمه في مهرها وسأله تعجيلها فلما

تقول منه: ذِمَّتُهُ أَذِيْمُهُ ذَيْمًا وَذَامًا وَذَامَتُهُ وَذَمَّتُهُ كُلُّهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ عَنِ الْأَخْفَشِ، فَهُوَ مَذِيْمٌ عَلَى النِّقْصِ وَمَذْيُومٌ عَلَى التَّمَامِ، وَمَذْءُومٌ إِذَا هَمَزَتْ، وَمَذْمُومٌ مِنَ الْمُضَاعَفِ.

يلف: بِضَمِّ الْمُثَنَاءِ التَّحْتِيَّةِ، وَسُكُونِ اللَّامِ، آخِرُ الْحُرُوفِ فَاءٌ مَفْتُوحَةٌ مِنَ الْإِلْفِ، تقول: أَلْفَيْتُ الشَّيْءَ بِمَعْنَى وَجَدْتَهُ.

المَشْرَبُ: بَفَتْحِ الْمِيمِ، وَسُكُونِ الشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ، وَفَتْحِ الرَّاءِ الْمَهْمَلَةِ: هُوَ هَاهُنَا: الْمَاءُ وَالْمَشْرَبُ أَيْضًا: الْوَجْهُ الَّذِي يُشْرَبُ مِنْهُ، وَيَكُونُ مَوْضِعًا، وَيَكُونُ مُصَدَّرًا.

يُعَاشُ: بِضَمِّ حَرْفِ الْمُضَارَعَةِ مِنَ الْعَيْشِ وَهُوَ الْحَيَاةُ.

المَأْكُلُ: مُصَدَّرٌ مِمِّي بِمَعْنَى الْأَكْلِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرَادَ بِهِ آسَمُ الْمَفْعُولِ بِمَعْنَى الْمَأْكُولِ.

الإعرابُ:

ولولا: الواو عاطفة، ولولا: حرف امتناع لوجود، أربع حالات: أحدهما أن تدخل على جملتين اسمية وفعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولى، نحو: لولا زَيْدٌ لَأَكْرَمْتُكَ أَي: لولا زيد موجودٌ لَأَكْرَمْتُكَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لولا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَالِكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، فَالتَّقْدِيرُ: لولا مخافةُ أَنْ أَشَقَّ لَأَمَرْتُهِمْ أَمْرًا إيجابًا، وإِلَّا لَانْعَكَسَ معناه، إِذْ الْمَمْتَنَعُ الْمَشَقَّةُ، وَالْمَوْجُودُ الْأَمْرُ.

وهل المرفوع بعد لولا فاعلٌ بفعلٍ محذوفٍ، أو بها لنيابتها عنه، أو بها أصالة، أو مرفوع على أَنَّهُ مبتدأ لا خبر، ما عليه المحققون من البصريين، خلافًا لزاعمي غيره، وأختلف في كون الخبر كوناً مقيداً أو مطلقاً، وفي وجوب حذفه، وَلَحْنٌ جماعةٌ ممن أطلق وجوب الحذف المعري في وصف سيفٍ: [الوافر]

يُذِيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ فَلَوْلَا الْغَمْدُ يُمَسِّكُهُ لَسَالَا

عَزَمَ الْأَمْرَ قَالَتْ أُمُّهَا لُبَّاعُهَا: إِنْ لَنَا عِنْدَ الْمَلَامَسَةِ رَشْحَةٌ فِيهَا هَنَةٌ فَإِذَا أَرْدُتُنَّ إِدْخَالَهَا عَلَى زَوْجِهَا فَطَيَّبْنَاهَا بِمَا فِي أَصْدَافِهَا فَلَمَّا كَانَ الْوَقْتُ اعْجَلْنَهُنَّ زَوْجَهَا فَأَغْفَلْنَ تَطْيِيبَهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ لَهُ: كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ طَرَوْتَكَ الْبَارِحَةَ؟ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ قَطُّ لَوْلَا رُوَيْحَةُ أَنْكَرْتَهَا؟ فَقَالَتْ هِيَ مِنْ خَلْفِ السِّتْرِ: لَا تَعْدَمُ الْحَسَنَاءُ ذَامًا فَأَرْسَلْتُهَا مَثَلًا [مجمع الأمثال: ٢١٣/٢]

وليس بجيد لاحتمال كون جملة يمسكه خبراً فتأمل.

الثاني: أن تكون للتَّحْضِيضِ والعَرَضِ فتختص بالمضارع، أو ما هو في تأويله كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ [النمل: ٤٦]، ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] والفرق بينهما أن الأول طلب بإزعاج وحث، والثاني بلين ورفق.

الثالث: أن تكون للتَّوْبِيخِ والتَّنْذِيرِ فتختص بالماضي، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣]، ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

الرابع: الإستفهام، نحو: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، قاله الهروي: وأكثرهم لا يذكره، والظاهر أن الأولى للعَرَضِ، والثانية مثل: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣] إلى أن قال قد تكون نافية بمنزلة لم وجعل منه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ [يونس: ٩٨] إلى آخر الآية.

قال ابن هشام: الظاهر أنها بمعنى التَّوْبِيخِ، أي: فهلا كانت قرية واحدة من القرى المهلكة تابت عن الكفر قبل مجيء العذاب فنفعها ذلك، وهو تفسير الأخفش والكسائي، ويؤيده قراءة أبي وعبد الله: (فهلا) ويلزم من هذا النفي، لأن التَّوْبِيخَ في معناه، ويقضي عدم الوقوع. وبحث لولا يطول قد يفضي إلى الملل إلا أننا ذكرنا أشياء منه لاشتتار الخلاف فيها، وتفصيل ذلك مبسوط في موضعه من كتب النحو.

الإعراب:

اجتناب: مبتدأ، خبره محذوف وجوباً، مضاف إلى الذأم.

لم يلف: لم: حرف نفي وجزم، ولف: فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف الألف.

مشرّب: نائب فاعل، وهو المفعول الأول.

يُعاش: فعل مضارع مبني للمجهول.

به: جار ومجرور، ونائب الفاعل والجملة محلّها النصب على أنها مفعول ثانٍ ليلف.

إلا: أداة استثناء، والمستثنى أعمّ الأمكنة.

لدي: ظرف مكان مضاف الى ياء المتكلم، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً ليلف،
وجملة يُعَاشُ به صفة لمشرب.

ومأكل: معطوف على مشرب.

المعنى:

ولولا إبعاد نفسي، وتجنبها عن العيوب والفسل، لمّا وجد مشرب يُعَاشُ به إلاّ
لدي ومأكل، لأنني قادر على جمعه وعرفانه، وتنقيح خرائد حسانه، ومنع النَّاس منه بلا
ضجر، والتَّمَتُّع به من غير ضرر، والإِفاقة مما تعين على ذلك وبه تشعر، وعلوّ الهمة
توضحه وعنه تخبر.

قَالَ امرؤ القيس بن حجر الكندي: [الطويل]

ولو أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَذْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
ولكنّما أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثِّلٍ وَقَلَّ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثِّلَ أَثْمَالِي

ويروى: وقد، وفي البَيْتِ الْأَوَّلِ كلامٌ من حيث الإعرابُ مذكورٌ في بَابِ الاشتغالِ
في كُتُبِ النُّحُوِّ فليراجع.

وهذا من دأب الكاملين الذين يجودون بأرواحهم خشية إن لا يذكر عنهم دناءة
ومذلة، وقد شاهدتُ مما يناسب المقام من رفعة اللّثام، وانحطاط الكرام، وظهور الجور
بدولته، واختفاء العدل بذلته، ما اتفق في بغداد عام السّادس والسّبعين، وهو أن الوزير
الكبير والدستور المشير سليمان باشا رحمه الله لمّا اشتاق الى لقائه وقربه، طَمَعَ في
بغداد كُلَّ وَضِيعٍ، وَرَغِبَ فِيهَا كُلَّ ذِي عَيْبٍ فَضِيعٍ، فمما اتفق أن رجلاً من خُدّام مولانا
المرحوم، من أقبح النَّاس اعتقاداً، وأكثرهم ركوناً إلى الرّذائل واستناداً، يقال له: علي
أغا، وكان أعجمياً فارسياً وكان المرحوم جاعله عاملاً على الحسكة، يجبي خراجها،
ويعمّر فجاجها، فلمّا توفي المرحوم المبرور ضوعفت له الأجور، أرسل نجاباً إلى
حلب، واستنجد ببعض أكابرها، فأرسل كتبه إلى الدّولة العليّة - لا زالت على ممّر
الأيّام محروسة محميّة - تتضمّن كتبه وصفه بالعدل والشجاعة الكاملة، والرأي والتدبير
الصائب، حتّى أن المرحوم كان يستنير برأيه، ويستشير في كل المهمّات، لحسن سيره
في الكمال، وجريه - ومع هذا أقرّ للرجال بأموال عظيمة، ووعدهم بمواعيد جسيمة،

ووعد بل أعطى مَنْ شهد له ثمة على صدق المقال، وانه لا يعرف الزور والمحال، ولم يدر إن شرّه كل يوم يزداد، وان عُتوّه وجوره قد جاوز الحد في الفساد، شعر: [الخفيف]

فهو كالصلّ من بنات الأفاعي كلما طال عمره زاد شرّاً

فولّوه بغداد، وقدمت عليه الرُّسل من الدولة يسرعون، وجاءه أهل البشائر من العشائر من كل حذب ينسلون، فاستعظم ذلك أهل بغداد، وأكثروا على المرحوم البكاء والتَّعداد؛ لعلمهم بأفعاله القبيحة الفضيعة، ومكائده جوره الشنيعة، فعزموا على عدم إدخاله بغداد، وأنهم يبقوه في الحسكة يقاسي الانكاد، ويرسلون إلى الدَّولة العليّة يخبرونهم بأمره، ويغرونهم على من حسن عندهم سيرته بغدره ومكره، وانه عجمي لا يصلح للوزارة، ودنّي لا تناسبه هذه الإمارة، لكنّهم لعظم إطاعتهم للدَّولة، وأنهم يمثلون لمراسيمهم، وان ولّو عليهم خارجاً عن الملة، قالوا: لعله تحسن سيرته كما حسنت سيرة الخصيب حين ولّاه الرّشيد مصر، وكان دنيء الأصل، وضعي القدر، فحسنت صفاته، وكرمت سماته، وقصده الشعراء من الأماكن القاصية، ووفد عليه الوفود من الأقطار النائية، حتى قصده أبو نواس مع من قصده من الشعراء، ومدحه وبالغ في الإطراء بقصيدة مطلعها: [الكامل]

أنت الخصيب، وهذه مصر، فتشاكلا فكلاكمما بخُر

فقال أهل بغداد لعل هذه الرّفعة تهذب أخلاقه، وتحسن خلافه ووفاقه، فخرج إليه عساكر المرحوم المبرور، وقابلوه بالتّرحاب، وفتحوا بوجهه من بغداد الأبواب، فعاملوه معاملة مع المرحوم، وجروا معه على القواعد والمرسوم، وبقي أياماً قلائل على حالة حسنة، وسيرة مستحسنة، ثم بدت لهم جنادعُ وظهرت لديهم مكائده ومخادعه، فصبّروا وقالوا: لعله يرتدع، ويزجره عقله؛ فيسير بسيرة من قبله، ولم يتدع، لكن النيكجيرية لم يصبروا على جوره؛ حيث اطلعوا على غدره ومكره، فقاموا عليه بأجمعهم، وحاصوا، ويحر الدّلاص المسرّد غاصوا، وأخرجوه من بغداد: مذموماً، مدحوراً مغلوباً، مقهوراً.

وعبر الى الجانب الغربي من بغداد؛ فأواه وجوه أهل ذلك الجانب، وجبروا كسره جبر الأقارب للأقارب، وأنزلوه في بستان الباشا؛ معزراً مكزماً، مَبْجلاً محترماً، راجين

أنَّه يحفظ هذه الضَّيعة ولا يضيِّعها، وانه يحمد هذه الخلَّة ولا يهملها ويدعمها، وكذلك فعلت معه جنود المرحوم، فخرج معه من كان معه في البلد، ولم يتخلف عن تبيّعه بعد إخراجهم منهم أحد، وسعى الجميع في الصّلاح بينه وبين النكجريّة، فأعيد إلى البلد، وزال عنه النكد، ثمَّ أن طبيعته طالبت بالانتقام، فبطش بعد دخوله في النكجريّة بطشة جبار، وسامهم سوم العبيد - وهم أحرار، وخنق أكثر رؤوسهم، وهرب الباقون، والناس في أفعاله ساهون، واستمال قلوب جنود المرحوم بمكره فأقطعهم القرى والضّياع، ولم يكن معه منهم إلا القليل من الأتباع، ولمّا خلى جوّه، قوي عزمه، وتصلّب حزمه، ظلّم على أهل بغداد ظلماً لم يُسمَع بمثله في البلاد، فنَهَب أموال الثّجار من الحجرات وضَبَّ عليهم أنواع البليات، حتّى منعهم الأُرغاس وأوقعهم في الإفلاس، وأكثر فيهم الوسواس ثمَّ كَرَّ على طُلّاب العلم بالانتقام، فسَلَطَ عليهم أوباش النَّاس، فولّاهم المدارس والجوامع، وجَعَلَ بيدهم الأوقاف، فمنعوا الطلبة الذين لهم حق في مدرسة أو جامع أو وقف، وكثُر ظلمه، وتزايد ازداد جورُه وتصاعده، وأرسل أعداء الدّين المارقين من الإسلام - الطائفة الخبيثة الخسيّة الملعونة الأعجام فراسل زند كريم خان وإسماعيل خان وسارت بينه وبينهم الرُّسل حتّى اشتهرت خيانتُه، وظهرت جنانيته، فقَام عليه جَمْع من أهل بغداد، من علماء، وسادات، وينكجريّة، ووجوه عساكر المرحوم سليمان باشا، وضبطوا عليه القلعة وضاربوه بالاطواب، ولم يبقَ منهم إلا خُدّامه، فمن كان من أهل الشُّنّة والجماعة من أولئك الخُدّام، هَرَب من الصّراي، وجاء إلى جَمْع الإسلام، ولم يبقَ معه إلا القليل من أولاد الأعاجم، ونسل الطُّغاة الطُّغام، فلَمّا أحس بالبورار، وتيقن بالنحوسة والإدبار، خَرَجَ قبل الفَجْرِ من تلك الليلة من مكانه في زِيّ قبيح، وعقل طائش غير رجيح، واختفى في بعض بيوت الرافضة فدخل المسلمون دار الحكومة يقدمهم العمران: كتخدا المرحوم عبد الله أغا، وكتخدا المرحوم أيضاً عمر أغا، فَضَبَطَ مكانه، ومُسِكَ أعوان ذلك اللّئيم وأخذانه، وجُعِلَ عمر أغا قائم مقام باتفاق الخاصّ والعام، وزَالَ الكدُّ من البين، واستجيبَت دعوتُه صلى الله عليه وسلم: "اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين"^(١).

(١) أخرجه أحمد (٩٥/٢)، رقم (٥٦٩٦)، وعبد بن حميد (ص ٢٤٥، رقم ٧٥٩)، والترمذى (٦١٧/٥) رقم (٣٦٨١) وقال: حسن صحيح غريب. وابن سعد (٢٦٧/٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣٦١/٥).

وَضَبَطَ اللَّيْثُ الْجَسُورَ عَبْدَ اللَّهِ أَغَا مَكَانَ كَتَخْدَا هَذَا الرَّجْسِ، وَزَالَ بِمَقَامِهِ كُلِّ
التَّحْسِ ثُمَّ ثَانِي لَيْلَةٍ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ، ظَفَرُوا بِهِ مُسْتَتَرًّا فِي زَيْيِ امْرَأَةٍ، فَقَبَضُوا عَلَيْهِ، وَذَهَبُوا
لِيَحْبِسُوهُ فِي الْقَلْعَةِ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الدَّوْلَةِ الْعَلِيَّةِ فِيهِ، وَقَدْ انْخَلَعَ قَلْبُهُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ،
فَلَمَّا دَخَلُوا بِهِ الْقَلْعَةَ وَقَعَ مَيِّتًا، وَكَفَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُ، فَعَرَضَ أَخْبَارَ هَذِهِ الْوَقْعَةِ
رُؤَسَاءُ بَغْدَادَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعَلِيَّةِ يَرْجُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّيْثَ الْمَقْدَامَ وَالشُّجَاعَ الْهَمَامَ
عَمْرًا وَآلِيًّا عَلَى بَغْدَادَ وَالْبَصْرَةَ، حَتَّى تَرْجِعَ الدُّنْيَا إِلَى أَيَّامِ الْمَرْحُومِ الْمَبْرُورِ سُلَيْمَانَ
بَاشَا، وَلَمْ يَجْعَلِ الْخَبْرُ إِلَى الْآنَ، فَاللَّهُ اسْأَلْ إِنْ يَحْقُقَ هَذَا الرَّجَا، وَيَرِيحُنَا مِنْ صَوْلَةِ
الْأَوْبَاشِ أَوْلَادَ الزَّيْنِ، وَمِمَّا قُلْتُ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ شِعْرًا: [البسيط]

عَمَّرَتْ فِي نَصْرِ دِينَ الْحَقِّ يَا عَمْرُ	وَفَارَ فِيكَ التَّقَى وَالْعَفْوُ وَالظَّفَرُ
أَوْرَثَتْ فِي دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ مَفْتَخَرًا	وَزِلْتُ كَرْبًا بِهِ الْأَرْجَاسُ تُنْتَصِرُ
وَنَلْتُ بِالْأَبْيَضِ الْهِنْدِي مَنْزِلَةً	خُفْتُ بِمَجْدٍ بِهِ الزُّورَاءُ تَفْتَخِرُ
أَمْسَيْتُ كَاللَّيْثِ وَالْأَشْبَالِ ضَارِيَةً	حَوْلَ الْكِنَاسِ لِرُؤْمِ الْعِزِّ تَبْتَكِرُ
أَلْبَسْتُ خَضْمَكَ حُلِيِّ الْغَايَاتِ وَمَا	أَنْجَاهُ مِنْكَ عُلُومُ الرَّمْلِ وَالزَّبْرِ
ظَنَّ النَّجَاهَ بَغَيْرِ الْبَيْضِ مَكْمَنَهَا	وَمَا دَرَى سَلَفًا مَا الصَّارِمُ الذَّكْرُ
وَحَالَ أَنَّ الرَّدَى بِالذُّلِّ مُنْدَفِعٌ	وَأَنَّ ذَا الْمَكْرِ لَا يَضْطَدُّهُ الْقَدْرُ
كَأَنَّهُ عَمَرُو لَمَّا رَامَ يَدْفَعُهَا	وَأَنَّهُ بِرِدَاءِ السَّوْءِ مُتَزَرُّ
لَا دَرَّ دَرُّكَ كَيْفَ الْجُبْنِ تُخْسِنُهُ	وَهَلْ لَغَيْرِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ يَشْتَهَرُ
يَا لَيْتَ مَوْتِكَ قَبْلَ الْأَرْبَعَاءِ أَتَى	وَأَنْتَ لِلْعِزِّ وَالْإِقْبَالِ مُنْتَظَرُ
أَلِقِ السِّلَاحَ فَلَا بَيْضَ وَلَا سُمُرُ	لَدَيْكَ، فَأَعْطِفْ إِلَى مَا كُنْتَ تَفْتَكِرُ
وَالدَّهْرُ قَدْ فَاقَ مِنْ صَدْعٍ وَمِنْ سُكْرِ	وَصَارَ عَنْ ذِي الْعُلَى وَالْمَجْدِ يَخْتَبِرُ
الطَّاعِينَ بِسُمْرِ الْخَطِّ أَفِيدَةً	الْأَبْطَالِ يَوْمَ الْوَعَى وَالْحَرْبِ تُسْتَعِرُ
دَانَتْ لَدَيْهِمْ مُلُوكُ جَلِّ نَائِلُهُمْ	لَمْ يَبْقَ مِنْ بَعْدِهِمْ لِلرُّؤْمِ مُفْتَخِرُ
فَهُمْ أَسْوَدُ الشَّرَى سَلَّ مَنْ يُحَارِبُهُمْ	عَنْ مَوْطِنٍ فِيهِ لِلْفُرْسَانِ مُصْطَبِرُ
يُنْبِئُكَ أَنَّ لِيُوْثَ الْغَابِ تَرْهَبُهُمْ	فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ إِذْ قَلَّ مُنْتَصِرُ
لَا سِيْمَا الْبَطْلَ الْفَارِقَ حِينَ غَدَا	بِالنَّصْرِ يُزْهَبُ لَا يُبْقَى وَلَا يَذُرُ

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا نُضْرَةٌ حُمِدَتْ لَهَا، عَذَا فَوْقَ كِيَوَانِ السَّمَاءِ أَثُرُ
عَنَاصِرُ الدُّنْيَا وَافْتَتَا مُورَخَةً وَقُمْتَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ يَا عَمْرُ
قال الشنفرى^(١):

٢٤ - وَلَكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تَقِيمُ بِي عَلَى الضَّمِيمِ إِلَّا رَيْثِمًا أَتَحَوَّلُ

اللغة:

النَّفْسُ: الرُّوحُ، ومنه: خَرَجَتْ نَفْسُهُ، وَالذَّمُّ مَا لَا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ لَا يُنْجِسُ الْمَاءَ،
وَالْجَسَدُ، وَالْعَيْنُ، يُقَالُ: نَفْسَتُهُ بِنَفْسٍ أَيْ: أَصْبَتُهُ بَعَيْنٍ، وَنَافِسٌ عَايِنٌ، وَبِمَعْنَى عُنْدَ، قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أَيْ: مَا عِنْدِي

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": النفس الحُرَّةُ: هي الكريمة
التي تَأْتِي مِنَ الدُّنْيَا، وَتُسْتَسْهَلُ فِي جَنْبِهَا الْمَنَایَا. وَالرَّيْثُ هُنَا: الْقَدْرُ، وَلَكِنْ هُنَا لِلْإِسْتِدْرَاكِ الْمُحَقِّقِ
لِوُجُودِ اجْتِنَابِ الذَّمِّ الْمَانِعِ مِنْ ارْتِكَابِ مَا تَضُمُّهُ الْجَوَابُ الَّذِي امْتَنَعَ لُجُودِهِ، فَيَحَقِّقُ امْتِنَاعَ مَضْمُونِ
الْجَوَابِ، وَذَلِكَ مَفْهُومٌ مِنْ (لَوْلَا) فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ فَيَكُونُ هَذَا تَأْكِيداً لِّلذَلِكَ.

وبالجملة: إِنَّ هَذَا مِنَ الْإِسْتِدْرَاكِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْإِثْبَاتِ لِذِي لَمْ يَتَوَهَّمْ نَفْيُهُ لِمَجُودِ التَّأْكِيدِ. وَقَدْ
يَكُونُ بِالنَّفْيِ لِمَا لَمْ يَتَوَهَّمْ ثُبُوتُهُ كَذَلِكَ، وَمِنْ قَوْلِ أَبِي بِنِ سُلَيْمٍ بِنِ رِبِيعَةَ: [المتقارب]

فَلَوْ طَارَ ذُو حَافِرٍ قَبْلَهَا لَطَارَتْ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطْرُ

فَإِنَّ (لَوْ) أَفَادَتْ امْتِنَاعَ طَيَارِ ذِي الْحَافِرِ، فَارْتَفَعَ تَوَهُّمُهُ، فَاسْتَدْرَاكُهُ بَعْدَ يَكُونُ لِّلتَّأْكِيدِ.

وتقدير البيت: وَلَكِنْ نَفْسًا كَرِيمَةً لَا تَسْتَمِرُّ بِي عَلَى مَا أَدُمُّ بِهِ إِلَّا مَقْدَارًا مَا أَتَقَلُّ عَنْهُ.

والمعنى: أَنَّهُ لَا يَقِيمُ لِحِطَّةً، فَاسْتِثْنَاءَ مَقْدَارِ التَّحَوُّلِ مِنْ مَقْدَارِ الْإِقَامَةِ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ غَيْرِ الْجَنَسِ، أَفَادَ
ذَلِكَ مَبَالِغَةً فِي عَدَمِ الْإِقَامَةِ عَلَى الذَّمِّ، فَالْإِقَامَةُ وَالتَّحَوُّلُ - أَيْ: قَدْرُهُ - مُتَعَايِرَانِ، وَقَدْ حَضَرَ مَا أُثْبِتَهُ مِنْ
الْإِقَامَةِ فِي التَّحَوُّلِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا بِلَا تَأْوِيلٍ، وَذَلِكَ مُحَالٌ لَا يَخْطُرُ بِيَالٍ، فَتَكُونُ الْإِقَامَةُ عَلَى الذَّمِّ مِنَ
الْمُحَالِ، وَهَذَا هُوَ الْمُسَمَّى فِي عِلْمِ الْبَدِيعِ بِتَأْكِيدِ الْمَدْحِ بِمَا يُشَبِّهُ الذَّمَّ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ النَّابِغَةِ:
[الطويل]

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

فَاسْتِثْنَاءَ فُلُولِ السَّيْفِ مِنَ الْعَيْبِ، كَاسْتِثْنَاءِ التَّحَوُّلِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي بَيْتِ الشَّنْفَرِيِّ، فَفُلُولُ السَّيْفِ مَدْحٌ
أُفْرِغَ فِي قَالِبِ الذَّمِّ، أَكَّدَ الْمَدْحَ بِنَفْيِ الْعَيْبِ لِتَحْقِيقِهِ أَنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ مِنْ إِفْرَادِ الْعَيْبِ شَيْءٌ، وَكَذَلِكَ
التَّحَوُّلُ عَنِ الذَّمِّ مَدْحٌ عَظِيمٌ مُفْرَغٌ فِي قَالِبِ الذَّمِّ حَيْثُ اسْتِثْنِي مِنْ نَفْيِ الْإِقَامَةِ عَلَى الذَّمِّ. وَالاسْتِثْنَاءُ
مِنَ النَّفْيِ إِثْبَاتٌ، فَيَقْتَضِي إِثْبَاتَ الْإِقَامَةِ عَلَى الذَّمِّ، وَكَوْنُهَا تَحَوُّلاً عَنْهُ مُؤَكَّدٌ لِنَفْيِهَا وَبِرَهَانٍ عَلَى
اسْتِغْرَاقِ النَّفْيِ بِجَمِيعِ إِفْرَادِ الْإِقَامَةِ عَلَى الذَّمِّ.

وما عندك ما أو ما حَقِيقَتِي وَحَقِيقَتَكَ، وَالْعِزَّةُ وَالْهَيْمَةُ وَالْأَلْفَةُ وَالْإِرَادَةُ وَالْعُقُوبَةُ، قِيلَ وَمِنْهُ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وَبِالتَّحْرِيكِ وَاحِدُ الْأَنْفَاسِ، وَالسَّعَةُ وَالْفُسْحَةُ فِي الْأَمْرِ، وَالْجَزَعَةُ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَلَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ نَفْسِ الرَّحْمَنِ وَأَجْدُ نَفْسِ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ الْيَمَنِ"^(١)، وَبِالتَّحْرِيكِ وَاحِدُ الْأَنْفَاسِ، اسْمٌ وَضِعَ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ الْحَقِيقِيِّ مِنْ نَفْسٍ تَنْفِيساً وَنَفْساً أَيْ: فَرَجٌ تَفْرِيجاً، وَالْمَعْنَى: أَنَّهَا تُفَرِّجُ الْكَزْبَ وَتَنْشُرُ الْغَيْثَ، وَتُذْهِبُ الْجَذْبَ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مِنْ قَبْلِ الْيَمَنِ" الْمُرَادُ: مَا تَيَسَّرَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَهُمْ يَمَانُونَ مِنَ النَّصْرَةِ وَالْإِيوَاءِ"^(٢).

خُرَّةٌ: بضم الحاء المهملة وتشديد الراء هي الكريمة، يُقَالُ: ناقة خُرَّةٌ، وسحابة خُرَّةٌ إذا كانت كثيرة المطر.

الرَّيْثُ: الْإِنْطَاءُ كَالرَّيْثِ، وَالْمِقْدَارُ، وَمَا أَرَأَيْتَ مَا أَبْطَأَكَ وَالتَّزْيِثُ: التَّلْيِينُ وَالْإِعْيَاءُ، وَهُوَ رَيْثٌ كَكَيْسٍ: بَطِيءٌ، وَمُرَيْثُ الْعَيْنَيْنِ بَطِيءُ النَّظَرِ، وَاسْتَرَاثَ اسْتَبْطَأَ، وَالرَّيْثُ بْنُ غَطَفَانَ أَبُو حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ. أَتَحَوَّلَ مَشَتْقٌ مِنَ التَّحَوُّلِ، وَهُوَ التَّنْقُلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى غَيْرِهِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: [الْمَدِيد]

حَوْلُوا عَنَّا كَنِيسَتَكُمْ يَا بَنِي حَمَالَةَ الْحَطَبِ

لطيفة:

دَخَلَ بَعْضُ نَسَاءِ الْأَعْرَابِ الْحَاضِرَةَ، وَهِيَ مِنْ أَهْلِ لُغَةٍ مَنْ يَكْسِرُ أَحْرَفَ الْمُضَارَعَةِ

(١) هذا موقوف على أبي بن كعب رضي الله عنه. وإنما أراد والله أعلم: الريح من روح الله، وهو كما روي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الريح من روح الله تعالى، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها». وقرأت في كتاب «الغريبين»: قال أبو منصور الأزهري: «النفس في هذين الحديثين اسم وضع موضع المصدر الحقيقي، من نفس ينفس تنفيساً ونفساً، كما يقال فرج يفرج تفرجاً وفرجاً، كأنه قال: أجد تنفيس ربكم من قبل اليمن، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «الريح من نفس الرحمن». أي: من تنفيس الله تعالى بها عن المكروبين.

أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١/٣)، رقم (٩١٧).

(٢) انظر: الفائق في غريب الحديث والأثر ١٠/٤.

فسألها بَعْضُ أهل الأدب بقوله: أَتَكْتَنُونَ؟ - أي: لكم كنية تعرفون بها -، قالت: بلى، نَكْتَنِي، فكسرت النون، فقال: لو كان كما زعمت لاغتسلتُ أنا، فعرفت أَنَّهُ أراد بسوءٍ له مكيدتها، فقالت له: أَتُحَسِّنُ العروض؟ فقال: بلى، فقالت له: كيف تقطيع: حَوَّلُوا عَنَّا كُنَيْسَتَكُمْ الْبَيْتَ.

فقال: حَوَّلُوا عَن فاعلاتن ناكني فاعلن، فقالت له: مَنْ ذَا مِنْ ذَا، فأخجلته.
قال بَعْضُ أهل الأدب: هذه القصة مصنوعة إذ لا خبرة للعرب بالعروض انتهى.
وهو الظاهرُ.

الإعراب:

الواو: للإبتداء، ولكن: حرف استدراك تنصب الأول وترفع الخبر، مَنْ أَخَوَاتِ إِنَّ.
نفساً: اسمها وعلامة نصبها فتح اخرها.
خُرَّةً: صفة لنفس.
لا: نافية.

تقيم: فعل مضارع ضم فيه تاء المضارعة من أقام، وفاعله ضمير عائد على اسم لكن، والجملة محلها رفع على أنها خبرها.

بي: جار وجرور متعلّق بتقيم، وكذا على الذام، وفي نسخة على الضم.
إِلَّا: أداة حصر، والمستثنى أعمّ الأوقات، وحروف الإستثناء عشرة: إلّا، وغير، وسوى مع لغاتها المتقدمة، وخلا، وعدا، وحاشا، وليس، ولا يكون، وتفصيلها مذكور في موضعه من كتب النحو فليراجع.

وريث: أمّا مفعول مطلق بأن يراد بلا تقييم: لا تبطيء، أو مفعول فيه.
وما: مصدرية ظرفية.

وأتحول: فعل مضارع، وفاعله ضمير عائد إلى المتكلم، وما بعدها في تأويل مصدر مجرور بالضاف، فإن قلت: إن المصدرية تعمل في لفظ المضارع وتنصبه وما ليس كذلك مع أن كلاهما حرف مصدرى، وفي التأويل به على السواء، قلت: لَمَّا أَنَّ (إن) أثرت في قلب زمانه إلى الاستقبال، ولم تبقه محتملاً له، ولا للحال كما هو شأن المضارع، عملت في لفظه، و (ما) ليس كذلك فلم تعمل فيه شيئاً.

المعنى:

ولكن نفسي تصونني عن الإقامة في دار ينالني فيها ضيم إلا مقدار ما أتحوّل عنها، وما أحسن الشنفرى في ما ادّعاه، وأتقنه وأوعاه، لأنّ الكريم لا يرضى التّوطن بدار الدّلّ، والإقامة في مكانٍ يُعابُ عليه فيه ويُمَلُّ، والله دُرّ ابن مقرب حيث يقول: [الطويل]

دَع الدَّارَ بالبحرين تعفى رسومها	وشقها وإن لم يبق إلا نسوؤها
وخلّ أحاديث المطامع والمنى	ألا إنّما أشقى الرّجال طموعها
ولا تحسدا فيها رجالاً بشبعها	فخيرٌ لهم من ذلك الشبع جوعها
ولابدّ للمنحني على الرّاد وحده	إذا ما امتلأ من هوعة سيهوعها
فبع بالعلّا دار المهانّة والأذى	فما الربح المغبوط إلاّ بيوعها
ولا تتكل فخراً ولوماً وذلة	على قولهم نعي الرّجال صروعها

وقال أيضاً: [الطويل]

فلا تشكّ أحداث الليلى إلي امرئ	فذا النَّاسُ إمّا حاسدٌ أو مُعانِدُ
وعدّ عن الماء الذي ليس ورده	بصافٍ فما تُعمى عليك المواردُ
فإن وُطنُ ساءتك أخلاق أهله	فدعه فما يفضي على الضّيم ماجدُ
وبتّ جبال الوُضَلِ ممّن توّده	إذا لم يرد كلّ الذي أنت وارِدُ
ولا ترهب الخطب الجليل بهوله	فطعمُ المنايا كيف ما ذقن واحدُ
وقُلّ لليالي كيف ما شئت فاصنعي	فإن على الأقدار تأتي المكائدُ
وقد ربما يُجزى على الصّد والقلّا	أبّ وأخ والمرء ممّن يُساعدُ

وقال عبد بن قيس بن خفاف: [الكامل]

وَأَثْرُكَ مَحَلَّ السُّوءِ لَا تَنْزِلُ بِهِ	وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنَزِلٌ فَتَحَوَّلْ
---	---

وقال سعد بن ناشب من بني مازن: [الطويل]

سَأَغْسِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِباً	عَلَيَّ قَضَاءُ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِباً
---	--

استطراد:

ذُكِرَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُعْتَبَرَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ، وَالْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ، فَأَيْنَمَا وَجَدْتَ الْخَيْرَ فَأَقِمَّ وَاتَّقِ اللَّهَ"^(١).

البحثري:

مَا أَنْصَفَتْ بَغْدَادُ حِينَ تَوَحَّشَتْ لِنَزِيلِهَا، وَهِيَ الْمَحَلُّ الْآنَسُ
الشریف الرضی فی بغداد:

مَالِي لَا أَرْغَبُ فِي بَلَدَةٍ يُكْثِرُ فِيهَا الدَّهْرُ حُسَادِي
مَا الرِّزْقُ فِي الْكَرْخِ مَقِيمًا وَلَا طَوُوقُ الْعُلَى فِي جِيدِ بَغْدَادِ
وله:

أَبْغَادُ مَالِي فِيكَ نَهْلَةٌ شَارِب مِنْ الْعَيْشِ إِلَّا وَالْخَطُوبُ مَزَاجُهَا
القاضي عبد الوهاب المالكي: [البسيط]

بَغْدَادُ دَارٌ لِأَهْلِ الْمَالِ طَيِّبَةٌ وَلِلْمَفَالِيسِ دَارُ الْعَكْسِ وَالضِّيَقِ
أَقَمْتُ فِيهَا مُضَاعًا بَيْنَ سَاكِنِهَا كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زُنْدِيقِ
الغزي: [البسيط]

مَالِي وَلِلْمَكْتِ فِي الزُّورَاءِ تَجَحَّفُ بِي مِنْ أَلْفَحِ الْعَجْزِ لَمْ يَفْرَحْ بِمَا نَتَجَا
التَّهَامِي: [البسيط]

كَيْفَ الْمَقَامُ بِأَرْضٍ لَا يُخَافُ بِهَا وَلَا يُرْجَى شَبَابُ رُمَحِي وَلَا قَلَمِي
ابن شرف القيرواني: [البسيط]

وَصَيَّرَ الْأَرْضَ دَارًا وَالْوَرَى رَجُلًا حَتَّى تَرَى مَقْبَلًا فِي النَّاسِ مَقْبُولًا
غيره: [البسيط]

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٢٠٣ رقم ١٤٤٠)، والبيهقي (١٤٢/٦ رقم ١١٥٦٠). وأخرجه أيضًا: الدارقطني (٢١٧/٤).

فَالْأَرْضُ مِنْ تُزْبَةِ النَّاسِ مِنْ رَجُلٍ	شَرِّقُ وَغَرِبُ تَجْدُ مِنْ غَادِرٍ بَدَلًا
وَكُلُّ قَوْمٍ غَدَا فِيهِمْ عَشَائِرُهُ	أَبُو فِرَاسِ الْحَمْدَانِي: [البسيط]
إِلَّا تَضَعُضَعُ بَادِيَهُ وَحَاضِرُهُ	مَنْ كَانَ مِثْلِي فَالدُّنْيَا لَهُ وَطَنٌ
لَمْ تُعِينِي فِي فِرَاقِهِ الْحَيْلُ	وَمَا تُمَدُّ لَهُ الْأَطْنَابُ فِي بَلَدٍ
وَلَا نَادِي الْأَذَى مِنِّي بِنَادِي	أَبُو الطَّيِّبِ: [المنسرح]
فِيهَا مَقَامِي وَاضِحُ النَّهْجِ	إِذَا صَدِيقٌ نَكَرْتُ جَانِبَهُ
وَأَهْلُهَا تَبْصُقُ بِالثَّلْجِ	أَبُو تَمَامٍ: [الوافر]
إِلَى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إِيَابُ	وَمَا رُبُّهُ الْقَطِيعَةُ لِي بِرُبِّعٍ
نَوَى تَقَطُّعُ الْبَيْدَاءِ أَوْ أَقْطَعُ الْعُمَرَا	الصَّفْدِي: [السريع]
وَحَيْلٌ طَوَّلَ الْأَرْضَ فِي عَيْنِهِ شَبْرَا	تَبَّأَ لَهَا مِنْ بَلَدَةٍ لَا أَرَى
لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ مِنَ الْقَلْقِ	لَأَنْتَ فِي وَجْهِ سُكَّانِهَا
قَصُورُ مَالِي وَطَوَّلُ آمَالِي	أَبُو الطَّيِّبِ: [الطويل]
أُخْرَى فَمَا تَسْتَقِرُّ أَجْمَالِي	غَنِيٌّ عَنِ الْأَوْطَانِ لَا يَسْتَفْرِئُنِي
تَبْقَى مَدَى سَاعَةٍ عَلَى حَالٍ	أَبُو الطَّيِّبِ: [الطويل]
	أَخُوهُمْ رَحَالَةً لَا تَزَالُ فِي
	وَمَنْ كَانَ عَزْمِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ حَتُّهُ
	أُخْرَى فِي كَثْرَةِ الْأَسْفَارِ: [البسيط]
	كَرِيشَةٍ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٍ
	القَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ: [المنسرح]
	أَطَالَ بَيْنَ الدِّيَارِ تَرْحَالِي
	إِنْ بَتُّ فِي بَلَدَةٍ مَشَيْتُ إِلَى
	كَأَنِّي فِكْرَةَ الْمَوْسُوسِ مَا

[الكرامل]

وأخو اللّليالي ما يزال مُراوِحا ما بين أدهم خيلها والأشهب
فالأرض لي كُرة أوصل ضربها وصو لحي أيدي المطايا اللُّعب

رَجَع:

النَّفْس عند أهل التَّصوِّف: القَلْبُ يصير بحسبِ أطواره وأحواله أنفَساً، فباعتبارِ ميله إلى الشهواتِ وأرادته لها يُقالُ لَهُ: النَّفْسُ الأَمَّارة، وباعتبارِ ندامته على صدورِ ما لا يرضى يُقالُ لَهُ: النَّفْسُ المَطمَئِنَّة، ولَمَّا ثَبَّتْ عندهم أَنَّ حالاتِ القلبِ سَبْعُ جعلوا الأنفَسَ كذلك، هذا هو المشهورُ فيما بينهم، وأنهاها بَعْضُ الأكابرِ إلى إحدى عشرة نفساً، وبناها على حديثِ أم زرعِ المشهورِ فيما بينهم، وقد أستوعبها السيوطي في كتابه "المحاضرات" فلتراجع.

وعند الحكماء تنقسم إلى: نباتية، وحيوانية، وإنسانية، أما النباتية فهي قوةٌ عديمة الشعور عند الأكثر، يُصدرُ عنها حركاتِ النباتِ في الأقطارِ المُسمَّاة نموّاً، وأفعالٌ مختلفةٌ بآلاتٍ مختلفةٍ ضرورةً أَنَّ الواحدَ لا يصدرُ عنه أفعالٌ مُختلفةٌ، وهي كمالٌ أوَّلُ لجسمٍ طبيعي آلي من جهةٍ ما يتولدُ ويزيدُ ويتغذى فقط، ولها قوةٌ غاذيةٌ، وهي التي تُحيلُ جسماً آخر إلى مُشاكلةِ الجسمِ الذي هي، فتلصقُ بدل ما يتحللُ عنه بالحرارة، وهي التي تُزيدُ في الجسمِ الذي فيه زيادةً، وفي أَفطاره طولاً وعرضاً وعمقاً إلى أن يبلغَ كمالَ النشوءِ على تناسبٍ طبيعي، وقوةٌ مولدةٌ وهي التي تأخذُ من الجسمِ الذي هي فيه، وتجعله مادةً ومبدأً لمثله، وتقفُ النَّاميةُ عن الفعلِ حينَ كانَ كمالُ النشوءِ، وتبقى الغاذيةُ إلى أن تعجزَ، فيعرضُ الموتُ.

وللغاذية خوادمٌ أربع، وهي: الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة للثقل.

وأما الحيوانية: فهي كمالٌ أوَّلُ لجسمٍ طبيعي آلي من جهةٍ ما يدركِ الجزئياتِ الجسمانية، ويتحركُ بالأداة، ولها أيضاً باعتبارِ ما يخصُّها من الآثارِ: قوةٌ مدركةٌ، وقوةٌ محرّكةٌ، أما المدركةُ فهي: أمذضا في الظاهرِ، وأما في الباطنِ، أما التي في الظاهرِ فخمسٌ: السَّمْعُ، والبصرُ، والشَّمُّ، والذوقُ، واللمسُ.

وأما التي في الباطنِ فخمسٌ أيضاً: الحِسُّ المُشتركُ، والخيالُ، والوهمُ، والحافظةُ، والمتصرفةُ.

وَأَمَّا الْمُحَرِّكَةُ فَنَتَقَسَّمُ إِلَى: بَاعِثَةٍ وَفَاعِلَةٍ، أَمَّا الْبَاعِثَةُ: فَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي إِذَا ارْتَسَمَ فِي الْخِيَالِ صُورَةٌ مَطْلُوبَةٌ أَوْ مَهْرُوبَةٌ عَنْهَا حَمَلَتْ الْقُوَّةَ.

أَمَّا الْفَعْلَةُ عَلَى التَّحْرِيكِ فَإِنْ حَمَلَتْهَا عَلَى تَحْرِيكِ يُطْلَبُ بِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُتَحَيَّلَةُ لِحَصُولِ اللَّذَّةِ يُسَمَّى قُوَّةً شَهْوَانِيَّةً، وَإِنْ حُمِلَتْ عَلَى تَحْرِيكِ بِدْفَعِ الشَّيْءِ الْمُتَحَيَّلِ طَلَباً لِلْغَلَبَةِ يُسَمَّى قُوَّةً غَضَبِيَّةً، وَأَمَّا الْفَاعِلَةُ: فَهِيَ الَّتِي تَعُدُّ الْعَضَلَاتُ بِقَبْضِهَا وَبَسْطِهَا وَتَشْنِجِهَا وَإِرْخَاقِهَا عَلَى التَّحْرِكِ، وَأَمَّا الْإِنْسَانِيَّةُ فَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالنَّفْسِ النَّاظِقَةِ، وَهِيَ كَمَالُ أَوَّلُ لَجْسِمٍ طَبِيعِي آلِي مِنْ جِهَةٍ مَا يَدْرِكُ الْأُمُورَ الْكَلِيَّةَ وَالْجَزِئِيَّةَ الْمُجَرَّدَةَ، وَيَفْعَلُ الْأَفْعَالَ الْفِكْرِيَّةَ وَالْحَدْسِيَّةَ. وَلَهَا أَيْضاً بِإِعْتِبَارِ مَا يَخْضَعُهَا مِنَ الْآثَارِ قُوَّةٌ عَاقِلَةٌ يَدْرِكُ بِهَا التَّصَوُّرَاتِ وَالتَّصْدِيقَاتِ، وَتُسَمَّى الْعَقْلُ النَّظَرِيَّ وَالْقُوَّةُ النَّظَرِيَّةُ، وَقُوَّةٌ عَامِلَةٌ تَحْرِكُ بَدَنَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْأَفْعَالِ الْجَزِئِيَّةِ بِالْفِكْرِ وَالرُّؤْيَا أَوْ بِالْحَدْسِ عَلَى مَقْتَضَى أَدَاءِ وَاعْتِقَادَاتِ تَخْصُّهَا، وَتُسَمَّى الْعَقْلُ الْعَمَلِيَّ وَالْقُوَّةُ الْعَمَلِيَّةُ، وَالصَّحِيحُ عَنْهُمْ أَنَّ النَّفْسَ النَّاظِقَةَ حَادِثَةٌ مَعَ حَدُوثِ الْأَبْدَانِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ آرِسْطُو، وَمَشَى عَلَيْهِ الشَّيْخُ الرَّئِيسُ، وَعَلَى هَذَا أَيْضاً أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ أَرَادَ تِمَامَ الْإِطْلَاعِ فَعَلَيْهِ بِمِرَاجَعَةِ الْمَطُولَاتِ.

قال الشنفرى^(١):

٢٥- وَأَطْوِي عَلَى الْخَمْصِ الْحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ خُيُوطُهُ مَارِي تَغَارُ وَتُقْتَلُ
اللُّغَةُ:

أَطْوِي مِنَ الطِّيِّ ضِدَّ النَّشْرِ، أَوْ مِنْ طَوَاهٍ إِذَا أَخْفَاهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ الْمَرَادُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ.
الْخَمْصُ: الْجَوْعُ، وَالْخَمْصَةُ: الْجَوْعَةُ، وَبَطْنٌ مِنَ الْأَرْضِ صَغِيرٌ لَيْتِنُ الْمَوْطِيِّ،

(١) قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ ابْنُ زَاكُورٍ الْفَاسِي فِي "تَفْرِيجِ الْكَرْبِ": الْحَوَايَا: الْأَمْعَاءُ الَّتِي تَحَوَّتْ، أَي: اسْتَدَارَتْ، وَاحِدُهَا حَوِيَّةٌ - بَوْرَنٌ غَنِيَّةٌ - وَحَاوِيَةٌ وَحَاوِيَاءٌ. وَالْخَمْصُ مَضْدَرٌ خَمْصَةُ الْجَوْعِ: أَضْمَرَهُ. وَخَمْصُ الْبَطْنِ، مُثَلَّثُ الْمِيمِ: أَيُّ خَلَا. وَالْخُيُوطَةُ - بِالتَّاءِ - كَالْخِيُوطِ وَالْأَخْيَاطِ: جَمْعُ خَيْطٍ، وَالْمَارِي: كَسَاءٌ صَغِيرٌ لَهُ خُطُوطٌ مُزْسَلَةٌ، وَإِذَا زَارَ السَّاقِي مِنَ الصَّوْفِ الْمُخَطَّطِ، وَتَغَارَ: يُحْكَمُ قَتْلُهَا. فَدَ (الْحَوَايَا) مَفْعُولٌ (أَطْوِي)؛ أَي: أَشَدُّ الْأَمْعَاءِ عَلَى جَوْعِهَا فَتَنْطَوِي كَمَا انْطَوَتْ خِيُوطُ الْكَسَاءِ، وَالْإِزَارُ الْمَارِي فِي حَالِ كَوْنِهَا تُقْتَلُ وَيُحْكَمُ قَتْلُهَا، وَانْطَوَاءُ الْخِيُوطِ فِي حَالَةِ الْغَزْلِ عَلَى الْمِعْزَلِ فِي غَايَةِ الْانْضِمَامِ وَالتَّدَاخُلِ. فَيُسْتَفَادُ مِنْ تَشْبِيهِ طَيِّ الْأَمْعَاءِ بِهِ شِدَّةُ جَوْعِهَا، وَفَرَطُ خَلَائِهَا مِنَ الْغِذَاءِ وَالرُّطُوبَاتِ، وَاسْتِيلَاءِ الْيَبْسِ عَلَيْهَا فَتَضْمُرُ وَتَنْضَمُّ وَلَا كَانْضِمَامُ الْخِيُوطِ عِنْدَ إِحْكَامِ الْقَتْلِ.

وَالْمَحْمَصَةُ: المجاعة، وَقَدْ خَمَصَهُ الْجُوعُ خَمَصاً وَمَحْمَصَةً وَخَمَصَ الْبَطْنُ مُثْلَثَةً الْمَيْمِ: خلا، وَالْمَحْمِصُ كَمَنْزِلٍ: اسْمُ طَرِيقٍ، وَخَمِصُ الْحَشَى: ضَامِرُ الْبَطْنِ، وَهُمْ خِمَاصٌ: جِيَاعٌ، وَالْحَمِيصَةُ: كِسَاءٌ أَسْوَدُ مُرَبَّعٌ لَهُ عِلْمَانِ، وَالْمَرَادُ بِهِ هَاهُنَا: الْجُوعُ، يُقَالُ: لَيْسَ لِلْبَطْنَةِ خَيْرٌ مِنْ خَمَصَةٍ تَتْبَعُهَا، وَالْمَحْمَصَةُ: الْمَجَاعَةُ، وَهُوَ مُصَدَّرٌ مِثْلُ الْمَغْصَبَةِ وَالْمَعْتَبَةِ.

الحوايا: جَمْعُ حَوِيَّةٍ بَفَتْحِ الْحَاءِ، وَتَشْدِيدِ الْمَثْنَةِ التَّحْتِيَّةِ، وَكَسْرِ الْوَاوِ: الْأَمْعَاءُ الْخُيُوطَةُ: بِالضَّمِّ جَمْعُ خَيْطٍ، وَهُوَ السِّلْكُ.

الماري: بِالرَّاءِ الْمَكْسُورَةِ وَالْمَثْنَةِ التَّحْتِيَّةِ الْمَشْدُودَةِ: كِسَاءٌ صَغِيرٌ لَهُ خِيوطٌ مَرْسَلَةٌ، وَإِزَارُ السَّاقِي مِنَ الصُّوفِ الْمُخَطَّطِ.

تُغَارُ: أَيِ تَفْتَلُ فَتَلًا شَدِيدًا.

الإعراب:

الواو: عاطفة.

وَأَطَوِي: فَعْلٌ مُضَارِعٌ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَفَاعِلُهُ ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ.

عَلَى الْخَمَصِ: جَارٌ وَمَجْرُورٌ مُتَعَلِّقٌ بِهِ.

الحوايا: مَفْعُولُهُ، وَشَرْطُهُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فَعْلُ الْفَاعِلِ عِبَارَةً حَتَّى يَدْخُلَ فِي قَوْلِكَ: مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا، تَأَمَّلْ.

كما: الْكَافُ صِفَةُ مُصَدَّرٍ مَحْذُوفٍ، وَمَا: مُصَدَّرِيَّةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: انْطَوءَ مِثْلُ انْطَوَاءٍ، وَتَكُونُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَحَلِّ: مُوصُولَةٌ، وَنَافِيَةٌ، وَعَامِلَةٌ عَمَلٍ لَيْسَ وَتُسَمَّى حِجَازِيَّةً، وَاسْتِفْهَامِيَّةً، وَنَكْرَةً عَامَةً بِمَعْنَى شَيْءٍ، وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ فَلْيَرَاجِعْ.

نطوت: فَعْلٌ مَاضٍ وَالتَّاءُ عَلَامَةُ التَّأْنِيثِ، وَمَا وَصَلَتْهَا مَحَلُّهَا الْجَرُّ بِالْكَافِ كَمَا أَوْلَنَاهُ فَتَذَكَّرْ.

خيوطه: فَاعِلٌ انْطَوَى مُضَافٌ إِلَى مَارِيٍّ.

وَتُغَارُ: فَعْلٌ مُضَارِعٌ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ، وَفَاعِلُهُ ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى خِيُوطَةٍ.

وتفتل: مَعْطُوفَةٌ عَلَيْهِ، وَحُكْمُهَا حُكْمُهَا أَيِ: تَغَارَ تِلْكَ الْخِيُوطَةُ وَتَفْتَلُ أَيْضًا.

المعنى:

وأطوي أمعائي على الجوع فأخفيه، فتطوى مثل انطواء الخيطة المفتولة من هذا الكساء المعروف، وأفتأت صبراً لم يكن من الناس مَنْ به موصوف.

وفي كلامه مبالغةٌ في دقة أمعائه، وما بذاك بسهل حتّى كأنها خيطة مفتولة أشدّ الفتل، وهو في ذاته دقيق، فإذا كان مفتولاً إزداد خفاؤه ولا يرى له مطيق، وهذه الحالة لا تكون إلّا إذا كانت خالية من الطّعام، موالفة للفيافي والآجام، وفيه مبالغةٌ أخرى في إخفاء الجوع، لأنّ باطن المفتول مخفي فإذا قُتل صار أخفى.

تكميل:

كون الكاف صفة مصدر محذوف، فليس هو مصدر للمذكور، بل لمطاوعة المصدر فكأنّه قال: أطوي أمعائي فتطوي انطواءً كما ذكرنا، والمطاوعة قبول الأثر كقولك: كسرتَه فانكسر أي: قبل الكسر، كما هو مذكور في كتب التصريف.

استطراد:

ومن أعجب أمور الدُّنيا، ومعاملتها لذوي المجد ونفرتها عنهم، حتّى أنّ هذا النجيب يصف أمعائه بأنّها كالخيوط المغارة المفتولة مِنْ شدة الصُّبر على الجوع، ونظير هذا أنّ الطُّغرائيّ كان منشئاً للسلطان محمد، وصاحب ديوان الطُّغرا، وله يد في الكيمياء وحلّ رموزها، ومع هذا يقول: [البسيط]

أريدُ بسطةً كَفَّ أَسْتَعِينُ بها على أداء حقوقٍ للعلَى قبلي

والظاهر على ما نقل أصحاب التواريخ عنه، أنّه كَانَ يعرفها علماً لا عملاً أو علماً أو علماً وعملاً، ولكنّ الأيام ما ساعدته على التمكن من عملها حتّى يبرزها من القوة إلى الفعل، لأنه قال: [الطويل]

ومن أعجب الأشياء أني واقفٌ على الكنز من يظفر به فهو مبخوثٌ
وإنّ كنوز الأرض شرقاً ومغرباً مقاليدها عندي ويعجزني القوتُ
ولولا ملوك الجور أصبحتُ والحصا بكفّي إذا مسته دُرٌّ ويقوتُ

وقال الآخر: [الوافر]

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما هان مختفياً عليه
وتؤمل باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه
وقال امرؤ القيس: [الوافر]

لقد طوّفتُ في الآفاق حتّى رَضِيتُ مِنَ الْعَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
وقال الزمخشري: [الطويل]

شكوتُ إلى الأيامِ سوءَ صنيعها فمن عجبني شاكٍ تُشكّي إلى مشكي
فما زادت الأيامُ إلاّ شكايّةً وما زالت الأيامُ تُشكّي ولا تشكي
وقال أيضاً: [الطويل]

وأخزني دهرِي وَقَدَّمْ معشراً لأنّهم لا يعلمون وأعلم
فمذ أفلح الجُهلُ أعلم أنني أنا الميمُ والأيّامُ أفلح أعلم

وأفلح هنا مشقوق الشفة السفلى، وأعلم مشقوق الشفة العليا، فإذا كانت الأيام كذلك فلا يمكن نطقها به، وهذه كناية عن عدم صفو الأيام مع ذوي العلم. وقد قال زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنهم أجمعين: [الطويل]

عتبتُ على الدنيا فقلتُ إلى متى أكابدُ فقراً بأسه ليس ينجلي
فقالت: نعم يا ابن الحسين رميتكم بسهم عنادٍ حين طَلَّقْتَنِي علي

وفيه إشارةٌ إلى ما ثَبَّتَ أَنَّ علياً رضي الله عنه خاطبها يوماً، هو مخيل أن لها شخصاً، حينَ دَخَلَ على بَيْتِ المالِ، وكان ملائناً: يا دنيا غري غيري أني طَلَّقْتُكَ ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فأنفقَ جميعَ ما في بَيْتِ المالِ على مستحقّيه، وكنسه ونام فيه.

وقيل: إِنَّهَا خُيِّلَتْ لعيسى - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - في صورة كلب وإذا جبهتها، وذنبها مهلوسان، والدّم يقطر منهما، فقال لها: ما هذه الحالة؟ قالت يا رسول الله إذا مررت على مثلك لطمني على جبهتي، ولم يعتن بي، وإذا مررتُ على أحد أبنائي أسرع إلي فأهرب منه، فلم تظفر كَفِّهِ إلا بذنبي، فانزعه من يده بعنف، فصار حالها إلى ما ترى، فإننا بين لاطم وماسك.

ولله در الصفدي حيث يقول: [الطويل]

وقائلة فيما اجتهدك للعلی
فقلت لها والله مالي حاجة
ولكن حقوقاً للعلی قد ترتبت
فلو وُجِدَتْ كَفِّي لبرئة ساحتي
وقد رقدت للحظ منك عيونُ
لتحصيل دنيا فالأمور تهونُ
على ذمتي مفروضة وديونُ
وكنت أريك الجود كيف يكونُ

وقال الفاضل العلامة السويدي (رح) من أبيات مضمناً البيت الأخير: [الطويل]

ولامت سليمي حيث قالت أقاعدا
فقلت لها كَفِّي فما ذي ملامة
وما تنفع الآمال والعلم والحجا
وقد نال سؤلاً شاني وشموت
وحسبي من الدنيا الدنية قوت
وصاحبها عند الكمال يموت

وقال الوزير سهل: [الطويل]

ولكنما أبكي بعين سَخِيئة
وما الفضل إلا أن تجود بنائل
فوا حسرتي حتى متى أنا موجع
فراق خليل لا يقوم به الأسى
على حدث تبكي له أمثالي
وإلا لقاء الخل ذي الخلق العالي
بفقد خليل أو تعذر أفضالي
وخلة حُرٍّ لا يقوم بها مالي

وقال الشنفرى^(١):

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": القوت: ما يُمَسِّك الرمق. والزهيد: القليل والضيق، أو المرغوب عنه، بمعنى المزهود فيه، المُحْتَقَر، فهذا يناسب قوله: وأُسْتُفْتُ ثُوبَ الأرض... البيت.

والأزل: الذئب القليل لحم الأئمة، وخَصْصَهُ؛ لأنَّ ذلك أشدُّ لوثوبه وسُرعة سيره. والأطحل: ذو الطُّحْلَةِ - بالضم - وهي لونٌ بين العُبْرَةِ والبياض. والتَّنَائُفُ: جمع تَنَوُّفَةٍ، وهي المفاضة. وهل وزنُ التَّنَوُّفَةِ فَعُولَةٌ أو تَفْعَلَةٌ خلافُ ذَكَرْنَاهُ في فرائد التبيان في شرح قلائد العقيان، وتهاداه أضله تهاداه بتاءين، مُضَارِعٌ تَهَادَتْهُ؛ أي: أَهْدَاهُ بعضُها إلى البعض، وهو استعارةٌ لخروجه من بعضها إلى ما يليه في سيره لطلب قوته. وهذه الاستعارة تُسَمَّى تبعيةً؛ لأنَّها في الفعل، وسُمِّيَتْ بذلك لكونها بالتَّبَعِ لمصدر الفعل، بمعنى أنَّ المصدرَ محلَّ التشبيه الذي أثبتَّ عليه الاستعارة، فَجَرَى أَوَّلًا ذلك في المصدرِ ثُمَّ تَبِعَهُ في الفعل.

ومعنى البيت: وأسيرُ غُدُوَّةٍ مثلاً إلى محلِّ القوتِ المزهود فيه فزاراً من الدِّمِّ سِيراً حثيثاً شبيهاً بسيرِ

٢٦- وَأَعْدُو عَلَى الْقُوْتِ الزَّهِيْدُ كَمَا عَدَا أَرْزُلُ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ

اللُّغَةُ:

أعدو: بالغين المعجمة ضدَّ الرّواح.

القُوْت: بضم القاف الاسم من قَاتَ أَهْلُهُ يَقُوْتُهُمْ قُوْتًا وَقِيَاتَةً، وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطَّعَام، يُقَالُ: ما عنده قُوْتٌ لَيْلَةٍ، وَقِيْتُ لَيْلَةٍ، فَلَمَّا كُسِرَتِ الْقَافُ صَارَتْ الْوَاوُ يَاءً، وَقُتُّهُ فَاقْتَاتَ، كما تقول: رَزَقْتُهُ فَارْتَزَقَ، وهو في قَائِتٍ من العيش، أي في كفاية، واستَقَاتَهُ: سَأَلَهُ الْقُوْتَ، وَفُلَانٌ يَتَقَوَّتُ بِكَذَا، وَأَقْتَتَ لِنَارِكُ قِيَتَةً أَي: أَطْعَمَهَا الْحَطَبَ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ، شعراً: [الطويل]

فَقُلْتُ لَهُ ارْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَخِيْهَا بروحك واقْتِنُهُ لَهَا قِيَتَةً قَدْرًا

الزَّهِيْدُ بفتح الزاء الْقَلِيلُ، يُقَالُ: رَجُلٌ زَهِيْدٌ الْأَكْلِ، وَوَادٍ زَهِيْدٌ: قَلِيلٌ الْاِخْذِ لِلْمَاءِ، وَيُقَالُ: خَذْ زَهْدًا مَا يَكْفِيكَ، أَي: قَدْرٌ مَا يَكْفِيكَ، وَفُلَانٌ يَزِدُّهُ عَطَاءً فُلَانٌ، أَي: يَعْطِيهِ زَهِيْدًا قَلِيْلًا، وَأَرْضٌ زَهَادٌ أَي: لَا تَسِيلُ عَنْ مَطَرٍ كَثِيرٍ، وَالْمُزْهَدُ: الْقَلِيلُ الْمَالِ، وَفِي الْحَدِيثِ: "أَفْضَلُ النَّاسِ مُؤْمِنٌ مُزْهَدٌ"^(١). وَقَالَ الْأَعَشَى: [المتقارب]

فَلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّهَا لِلْغَنَى وَلَنْ يَتْرُكُوهَا لِإِزْهَادِهَا

الْأَزْلُ: بفتح الهمزة والزاء: الذئب الأرسح، وهو خفيف الوركين وكلُّ ذئب أَرْزَلٌ، فهي صفة لازمة، كما يقال للضبع: عرجاء، وفي المثل^(٢): (هو أسمع من الذئب الأزَل).

الذئب القليل لحم العَجْزِ، الْمُعَبَّرُ اللَّوْنِ إِلَى قُوْتِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي حَالِ كَوْنِهِ تَهَادَاهُ الْمَفَاوِزُ، وَتَدَفَعُهُ أَوْلَاهَا إِلَى مَا يَلِيهِ، وَهَكَذَا.

وَعُدُوْ الذَّئْبِ فِي طَلَبِ قُوْتِهِ بِالْغَايَةِ فِي الْإِبْعَادِ وَالسَّرْعَةِ، لَا سِيَّمًا إِذَا كَانَ أَرْزَلًا، فَتَشْبِيهُ عُدُوْهِ بِغَدُوْ الذَّئْبِ لِبَيَانِ حَالِهِ فِي الْغَدُوْ فِي طَلَبِ الْقُوْتِ الَّذِي يُنْجِيهِ مِنَ الْمَقْتِ الْمُحَقَّقِ لِشِدَّةِ اجْتِنَابِهِ مِنَ الدِّمِّ، فَمُضْمُونُ هَذَا الْبَيْتِ وَالَّذِي قَبْلَهُ الْاِحْتِجَاجُ عَلَى مَا ادَّعَاهُ فِيمَا قَبْلَهُمَا مِنْ اجْتِنَابِ الْمَذْمَاتِ وَأَنْفَتِهِ مِنَ الدَّنِيَّاتِ.

ثُمَّ أَخَذَ يَشْرُحُ أَحْوَالَ الذَّئْبِ فِي سِيرِهِ إِلَى الْقُوْتِ؛ لِتَعْلَمَ مِنْهَا حَالَهُ هُوَ فِي الطَّلَبِ لَكَوْنِهَا مِثْلَهَا.

(١) أخرجه الديلمي (١٢٦/١/١) كما في السلسلة الضعيفة للألباني (٢٨/٦)، رقم (٢٥٢٠).

(٢) انظر: اللسان (زل).

تهاداه: من التَّهادي: وهو أن يهدي بعضهم إلى بعض.

التَّنَائُفُ: بفتح المثناة الفوقية والنون جمع تنوفة، وهي المفاضة، أو الأرض الواسعة البعيدة الأطراف، أو الفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس، وإن كانت معشبة، وكذلك التَّنُوفِيَّةُ، كما قالوا: دَوَّ ودَوِيَّةٌ لأنها أرضٌ مثلها فنسب إليها، قال ابن أحمر: [السريع]

كَمْ دُونَ لَيْلَى مِنْ تَنُوفِيَّةٍ لَمَاعَةٍ تُنْذِرُ فِيهَا النُّذُرُ

الأطحل: بفتح الهمزة، وسكون الطاء المهملة من الطلحة، وهي لونٌ بين الغبرة والبياض، ورمادٌ أطحل، وشرابٌ أطحل، إذا لم يكن صافياً، ودَثِبَ أطْحَلُ وشاةٌ طَحْلَاءٌ، ويُقال: فَرَسٌ أَخْضَرُ أَطْحَلُ، للذي يعلو خضرته قليلٌ ضفيرة.

الإعراب:

وأغدو: الواو عاطفة، وأغدو: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو للإستثقال، وفاعله ضمير المتكلم.

على القوت: جار ومجرور متعلق به.

الزهيد: نعت له.

كما: الكاف صفة مصدر محذوف، وما مصدرية، والتقدير: أغدو غدواً مثل غدو الأزل.

غدا: فعل ماض.

والأزل: فاعل غدا، والجملة مع ما في تأويل مصدر مجرور بالكاف كما في قوله [الخفيف]

جلبوها مثل المها تتهادى بين خمس كواعب أتراب
ثُمَّ قالوا: تُحِبُّهَا قُلْتُ بَهْرًا عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ

تهاداه: فعل ومفعوله، وأصله تتهاداه فخفضت إحدى التائين، ويجوز كونه فعلاً ماضياً وحيثئذٍ لا حذف.

التَّنَائُفُ: فاعله.

وأطحل: صفة لأزَل.

المعنى:

أذهبُ وأغدو على القوت القليل، في حالة طلب الأمر الجليل، ذهاباً مثل ذهاب الذئب الأرسح الذي تتقاذفه الفلوات، وهو يسير، وتترامى به المفاوز البعيدة التي لا ماء فيها ولا أنيس، وذلك عنده يسير.

تكميل:

النكته في اختياره التشبيه بالأزَل دون غيره من الذئاب، لأنه أصبر على الجوع حتى أنه ليقتات بالنسيم، وأما اختيار الغدو على الرواح، فهو لضيق المعاش فيه، لأن الليل يعقبه بخلاف الغدو فإنه يعقبه العشي، وكلاهما من النهار لكونهما طرفاه، والمعاش مُيسر في النهار عادة دون الليل. واختارَ وَصَفَ ما شبه نفسه به من الذئاب الأزَل دون غيرها من أوصاف الذئب للمناسبة بينهما فتأمل. والمراد من تهادي التناثف إيّاه، أن الفلوات لسعتها وعرض أرجائها تأخذ به تارة يميناً، وتارة شمالاً، وتارة خلفاً، وتارة أماماً، فكانها تعطيه هدية بعضها لبعض، ويقرب من هذا المعنى قول شيخنا من أبيات:

[البسيط]

كأنما هو من حَلٍّ ومرتحلٍ أكل السبابس تلقيه وتبلعه

وهذا معنى قولهم: ترامت به الفلوات والأقطار، وتقاذفته المهامة والقفار.

وفي الكلام استعارة تبعية، وهي تجري في المشتقات تبعاً لجريانها في المصادر، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، حيث استعيرت العزة للذلة على طريق الاستهزاء والسخرية، واشتق من الأول العزيز، ومن الثاني الذليل، واستعير الأول للثاني استعارة مصرحة، وسبب جعلها تبعية في المشتقات، لكونها مشتملة على النسبة، وهي غير مستقلة، وما اشتمل على غير المستقل، غير مستقل.

وقال السيد - قدس الله سره -: (فإن قلت: هل تجري في نسب الأفعال تبعاً على قياس الحروف، قلت: لا، لأن مطلق النسبة لم تشتهر بمعنى يصح لأن يجعل وجه الشبه في الاستعارة بخلاف متعلقات الحروف فإن لها أنواع مخصوصة لها أحوال مشهورة، واعلم أن التعبير عن الماضي بالمضارع وعكسه من باب الاستعارة بأن يشبه غير

الحاصل في تحقق الوقوع به، ويشبه الماضي بالحاضر في كونه نصب العين واجب المشاهدة، ثم يستعار لفظ أحدها للآخر، فعلى هذا تكون الاستعارة في الفعل على قسمين: أحدهما أنه يشبه الضرب الشديد مثلاً: بالقتل، ويستعار له اسمه ثم يشتق منه قتل بمعنى ضرب ضرباً شديداً، والثاني أن يشبه في المستقبل بالضرب في الماضي في تحقق الوقوع فيستعمل فيه ضرب، فيكون المعنى المصدري أعني: الضرب موجوداً في كل واحد من المشبه والمشبه به لكنه قيد في كل واحد منها بقيد مغاير قيد الآخر؛ فصَحَّ التشبيه لذلك). انتهى كلامه.

قال الفاضل الزومي: (وفيه بحث، ولم نذكر إيرادَه والجواب عنه خشية الإطناب المخلّ إذ لا طائل تحته، ولعصام أيضاً في ترجيح كلام العضد على أن الاستعارة يجوز جريانها في نسب الأفعال على كلام السيد خرافات لا يقول بها عاقل فضلاً عن فاضل قد بسطها مع ردّها شيخنا في شرح رسالة والده في الاستعارات، واستدل عضد الملة والذين على جريانها بالنسبة: بهزم الأمير الجند، وذلك مردود بأنه إن كان مسوقاً مساق الدليل فعليه منع ظاهر، وما ذكره عصام من تأييد كلام العلامة فلا يلتفت إليه).

تنبيه:

قال الخطيب: أنكر السكاكي التبعية بردها الى المكنية في: نطقت الحال، أن الحال مشبهة بالرجل، وأن إثبات النطق تخييل، وليس كما ادّعاه، إذ السكاكي جَوَزَ ذلك، ولا يلزم من تجويزه الردّ الى المكنية، وقد ردّ السكاكي أيضاً في جواز الرد بما في موضعه فليرجع.

قال الشنفرى^(١):

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريح الكرب": الطّاوي: الذي طَوَى يطوي، أي: لم يأكل شيئاً متعمداً لذلك. والمُعَارَضَةُ المَبَارَاةُ. وَيُخَوْتُ، بالخاء المعجمة: يُسْرَعُ هنا، مَنْ خَوْتُ الْبَازِي وَالْعُقَابِ، أي: انقِضَاضِهِمَا، وهو أَسْرَعُ ما يكون. وَأَذْنَابُ الشُّعَابِ: أَسَافِلُهَا، وَعَسَلَانُ الدُّبِّ، كَعَسَلِهِ: خَبِيْثُهُ فِي مِشِيَّتِهِ.

فَجُمْلَةُ (غَدَا) اسْتِثْنَائِيَّةٌ لَا مَحَلَّ لَهَا. لِأَجْلِ ذَلِكَ. مِنَ الْإِعْرَابِ، وَيَجِبُ فَصْلُهَا عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا الْمُقْتَضِيَّةُ سَوْالاً يُجَابُ عَنْهُ بِالثَّانِيَةِ. وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: كَمَا غَدَا، اقْتَضَى أَنْ يَقَالَ: كَيْفَ غَدَا؟ فَيَقَالَ: غَدَا طَاوِيّاً، وَلَوْ تَحَقَّقَ السَّوَالُ لَوَجَبَ فَصْلُ الْجَوَابِ عَنْهُ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ فَصْلُ الْجَوَابِ عَمَّا يَتَضَمَّنُ ذَلِكَ السَّوَالُ، وَيُسَمَّى الْفَصْلُ اسْتِثْنَائِيّاً كَالْجُمْلَةِ الْمُسْتَأْنَفِ بِهَا.

٢٧- غَدَا طَاوِيَاً يَسْتَعْرِضُ الرِّيحَ هَافِيَاً يَخُوتُ بِأَذْنَابِ الشَّعَابِ وَيَغْسِلُ

اللغة:

طاوياً: اسم فاعل من طوى بالكسر ويطوى طوى فهو طاوٍ وطِيَانٌ، وهو الذي لم يأكل شيئاً، والطوى بالفتح: الجوع.

يستعرض: أي يتصدى لمقابلة الريح، والاستعراض التصدي، كقول لبيد وكيل تبع ربيعة، يرثى كليب بن ربيعة:

إني أرى كليباً يستعرض صفحته الملوك

هافياً: اسم فاعل من الهفا، وهو الجوع، يقال: رجل هاف أي جائع، والهفو أيضاً الإسراع، والثاني أليق بهذا الكلام للزوم الأول التكرار.

يخوت: مضارع خات البازي واختات انْقَضَ على الصَّيد، كأنخات، والرجل ماله تنَقَّصَهُ كَتَخَوْتُهُ، والخائنة: العقاب إذا اتخاتت، والخوات دوي جنح العقاب أو صوت الرَّعْدِ والسَّيْلِ، وبالتشديد الرَّجْلُ الجري، والذي يأكل كُلَّ ساعة ولا يُكثِرُ، وخات الرَّجْلُ نقص عهده وأخلف وعده، واختات الشاة ختلها فسرقها، وقيل: بالحاء المهملة فيكون من حات الطائر يخوت أي: حام حَوْلَ الشيء.

الأذنان: بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة جمع ذنب: مؤخر الشيء، يقال: ذَنَبُ الفرس والبعير، وذُنَابُهُمَا، والمراد هنا: الطَّرْف.

الشعاب: جمع شعب: والتَّفْرِيقُ، والإصلاح، والإفساد، والصَّدْعُ، والتَّعَرُّقُ، والقبيلة العظيمة، والجبل، والبُعْدُ، والبعيد، وبطن من همدان، وبالكسر: الطَّرِيقُ في الجبل، ومسيل الماء في بطن الأرض، أو ما انفرج بين الجبلين، وسمة للإبل، وهو مشعوب. يغسل: بفتح أوله وكسر ثلثه مضارع غسل الذئب عسلاً وعسلاناً إذا أعنق وأسرع.

والمعنى: غدا الذئب لِيَطْلُبَ القوتَ في حال كونه جائعاً، وهذه الحالة لازمة له؛ ولذلك يقولون: رماه الله بداء الذئب، أي: الجوع. وغدا أيضاً حالة كونه يُبَارِي الرِّيحَ في السرعة وفي حال كونه يَنَحْدِرُ في أسفل الشَّعَابِ مُسرِعاً كما يَنْقُضُ البَازِيَّ، وفي حال كونه يَضْطَرِبُ في مَشِيَّتِهِ مِنْ شِدَّةِ السرعة، وواحدُ الشَّعَابِ، شُعْبَةٌ: وهي مَسِيلُ الماءِ إلى الوادي.

الإعراب:

غدا: فعل ماضٍ، وفاعله يعود الى الأزل.

طاوياً: حال من الضمير.

يستعرض: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن النَّاصب والجازم، وعلامة رفعه ضمّ آخره، وفاعله ضمير الأزل.

الريح: مفعول به، والجملة كالمفسّرة، ولا يصح كونها حالاً لوجوب تجريد الجملة الحالية عن علم الاستقبال، ويمكن جعل السن لمجرد التأكيد، خالية عن الاستقبال فيصحّ جعلها حالاً ثانية.

وهافياً: حال ثالث، فتكون مترادفة، ويجوز جعلها حالاً من الضمير الذي في الفعل قبلها فتكون متداخلة.

يخوت: فعل مضارع، وفاعله ضمير الأزل، والجملة حال رابعة على الأول، وثالثة، وثانية، على تخالف الاعتبار المتقدمة، ويجب في مثل هذا الحال ربطها بالضمير دون الواو، وتفصيله مذكور في موضعه من كتب النحو فليراجع.

بأذنان: جار ومجرور متعلق بالفعل الذي قبله مضاف الى الشعاب.

ويعسل: مضارع معطوف على ما قبله وحكمه حكمه.

المعنى:

إنّ وصف هذا الذئب الذي شبه عدوه بعدوه على القوت القليل في حالة صبره على الجوع ومشابهة فعله، فقال: هذا الذئب الأزلّ وقت العدو طاوياً لم يأكل شيئاً يتصدّى حالة جوعه لمعارضة الرّيح، ولم يبق ثاوياً لأنّه كما قيل يقتات بالنسيم، فيجي ويسرع في شعب الجبال طالباً في أكله بلوغ الآمال.

تتمّة:

فيما ذكر إشعار في ترجيح صبره على الجوع، على صبر هذا الذئب، لأنّه قد يقتات ويتسلّى عن الأكل بالنسيم، وأنّه لا يقتات سوى إماتة الجوع، ومع أنّ الذئب لا يكفيه ذلك الاقتيات، بل يسرع في أطراف الشعاب طالباً الشيء يأكله والشنفرى لخلافه في

ذلك إذ لا تسلية له عن الجوع إلا المماطلة للإماتة كما تقدّم، ومع ذلك لا يتقبل الإسراع في السير في طرق الجبال لأجل الأكل.

استطرد:

يُسَمَّى الخاطفُ، والسَّيِّدُ، وذُوَالَة، والسَّرحان، والعمَلَس، والسلق والأُنثى سلقة،
والسمام، وكنيته: أبو مذقة، لأنَّ لونه كذلك، قال الشاعر: [الرجز]

حَتَّى إِذَا جَنَّ الظَّلامَ واختلط جاءوا بمذقٍ هل رأيت الذِّئْبَ قطَّ

ومن كناه الشهيرة: أبو جَعْدَة، قال عبيد بن الأبرص للمنذر بن ماء السماء ملك
الحيرة حيث أراد قتله: [المتقارب]

وقالوا هي الخمرُ تُكْنَى الطَّلَا كما الذِّئْبُ يُكْنَى أبا جعدة

ضربه مثلاً: أي تظهرُ لي الإكرام وأنت تريدُ قتلي، كما أنَّ الذِّئْبَ، وإن كانت كنيته
حسنة فإن فعله قبيح، وكذلك الخمر وإن سميت طلاء وحسن اسمها فإن عملها وفعلها
قبيح، والجعدة في اللغة: الشاة، وقيل نبتة طيبة الرائحة تنبت في الربيع، وتجف سريعاً،
وسئل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما عن المتعة فقال: الذئب يكنى أبا جعدة فتأمل.

ومن أسمائه الشهيرة: أوبس مصفراً ككमित، قال الهذلي: [الرجز]

يا ليت شعري ما الذي عنك عمم ما فعل اليوم أويُس في الغنم

ومن أوصافه: الغبش، وهو لون كلون الرماد، يقال: ذئب أغبش وذئبة غبشاء.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو يعلى الموصلي وعبد الباقي بن قانع:

أن الأعشى الشاعر المازني الحرمازي، واسمه عبد الله بن الأعور كانت عنده امرأة
يُقال لها: معاذة، فخرج في شهر رجب يميز أهله من هجر فهربت امرأته ناشزاً عليه
فعادت برجلٍ منهم يُقال له: مطرف بن نهصل بن كعب بن قميح بن دلف بن أهصم بن
عبد الله بن الحرماز، فجعلها خلف ظهره، فلما قدم لم يجدها في بيته، وأخبر بخبرها،
فطلبها منه، فلم يدفعها إليه، وكان مطرف أعزَّ منه في قومه، فأتى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وسلم فعاذ به وأنشأ يقول: [الرجز]

يا سَيِّدَ النَّاسِ وديَّان العرب أشكو إليك ذربة من الذِّئْبِ

كالذئبة الغشاء في ظل السرب خرجت أبغيها الطعام في رحب
فخلفتني نزاع وهرب وقذفتني بين عيص مؤتشب
أخلفت العهد ولطن بالذنب وهن شرُّ غالبٍ لمن غلب

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " وَهِنَّ شَرُّ غَالِبٍ لِمَنْ غَلَبَ " ^(١)، وكنى عن فسادها وخيانتها بالذئبة، وأصله من ذرب المعدة، وهو فسادها وقيل: أراد سلاطة لسانها، وفساد منطقها، يقال: ذرب لسانه إذا كان حادَّ اللسان، أي: لا يبالي بما يقول.

وكان الأعشى المذكور شكاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم امرأته وما صنعت وأنها عند رجلٍ منهم يقال له: مطرف، فكتب إليه صلى الله عليه وسلم:

بأن انظر امرأة هذا معاذة، فأدفعها إليه، فأتاه بكتابه صلى الله عليه وسلم فقرأه عليه، فقال لها: يا معاذة؛ هذا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك، وأنا دافعك إليه، فقالت: خذ لي العهد والميثاق وذمة النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يعاقبني فيما صنعت، فأخذ لها ذلك، ودفعها مطرف إليه، فأنشأ يقول: [الطويل]

فوالله ما حُبِّي معاذة بالذي يغيره الواشي ولا قدم العهد
ولا سوء ما جاءت به إذ أزلهما غواة رجالٍ إذ يُناجونها بعدي

وقال الزمخشري في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ كُفْرٍ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] استعظم كيد النساء، لأنه وإن كان في الرجال إلا أن النساء أطف كيداً، وأنفذ حيلة، ولهن في ذلك رفق، وبذلك يغلبن الرجال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] وعن بعض العلماء أنه قال: (أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال في النساء ﴿إِنَّ كَيْدَ كُفْرٍ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وفيه تأمل لاحتمال إن يكون ضعف كيد الشيطان لكونه ليس من الجنس بخلافهن، ولذلك اتخذهن حبائل كما قيل، ولكون كيده خاصاً بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] بخلاف كيدهن فإنه عظيم.

قال الشنفرى^(١):

٢٨- فَلَمَّا لَوَاهُ الْقُوْتُ مِنْ حَيْثُ أُمُّهُ دَعَا فَأَجَابَتْهُ نَظَائِرُ نُحْلُ

اللُّغَةُ:

لواه: من اللَّيِّ أي: قتله وثنائه، ولوى الرَّجُلُ رأسه، وألوى برأسه أماله وأعرض.
أُمُّهُ: قَصْدُهُ كَأْتَمُّهُ وَأَمَّمَهُ، وَالتَّيَّمُّمُ التَّوَضُّعُ بِالتُّرَابِ أَبْدَلَتْ هَمْزَتَهُ مِيمًا، وَأَصْلُهُ التَّأَمُّمُ، وَالمِثْمُ: بِكسر الميم الدليل والهادي، والجملُ يقدم الجمال.
دعا: أي نادى.

فأجابه: أي ساعفته على ندائه.

نظائر: جمع نظير، وهو المثل، والنظرة: العيب، والهيئة، وسوء الهيئة، وشحوب في الوجه، والطائف من الجن.

نُحْلُ: بضم النون، وفتح الحاء المهملة المشددة جمع ناحل، كزُكع جمع راکع، من النُحول.

الإعراب:

فلما: الفاء تفرعية، لما حرف بمعنى حين، وليس باسم، بل هو مفيد معنى حين على ما صححه ابن هشام في شرحه للقطر.

لواه: فعل ماضٍ، ومفعول به.

القوت: فاعل.

من حيث: جار ومجرور متعلق بلوى، ويجوز فيها تسع لغات: بتثليث الثاء مع الياء، والواو والألف، بل عشرة لغات إن ثبتت: حاثت، ولم يرد إضافتها إلى مفرد إلا شاذًا، كقول الشاعر: [الرجز]

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": لَوَيْتُ فُلَانًا: مَطَّلْتُهُ بِحَقِّهِ، وَهُوَ هُنَا اسْتِعَارَةٌ لِعَدَمِ وَجْدَانِ الذَّنْبِ الْقُوْتُ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي أُمُّهُ؛ أَيُّ: قَصْدُهُ. وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ عَوَى مِنْ خِيَّتِهِ فِي مَطْلَبِهِ فَأَجَابَتْهُ نَظَائِرُ: أَيُّ: أَشْبَاهَ لَهُ فِي حَالِهِ مِنَ الْجَوْعِ وَمِنْ طَلَبِ الْقُوْتِ عَلَى الْحَالِ الَّذِي وَصَفَ، نَاحِلَةً مَهْزُولَةً مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ.

أما ترى حيثُ سُهيلٌ طالعا نجماً يُضئُ كالهِلالِ لامعاً
أُمَّةٌ: فعل ماضٍ، وفاعله الضمير المستتر.

دعا: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر تقديره: هو.

فأجابته: الفاء عاطفة وأجاب فعل ماضٍ، والتاء الساكنة علامة التأنيث، والضمير البارز مفعوله.

ونظائر: فاعله.

وُنُحِّلُ: صفة الفاعل.

المعنى:

لَمَّا أَعْرَضَ عَنْهُ الْقَوْتُ مِنَ الْجَهَةِ الَّتِي قَصَدَهُ فِيهَا، وَأَعْيَاهُ التَّوَصُّلُ نَادَاهَا، وَمَا ذَكَرَهُ كُنَايَةً عَنْ عَدَمِ الْوَصُولِ إِلَيْهِ، وَاسْتَشْعَارِ بَعْدِ الْحَصُولِ لَدَيْهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَوَى دَاعِياً الذَّنَابَ لِيَسَاعِدُوهُ، وَهَذِهِ عَادَةُ الذَّنَابِ إِذَا عَوَى وَاحِدٌ مِنْ كَدِّ الْجُوعِ لَهُ، يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرُوهُ، فَيَقِفُ بَعْضُهُمْ عِنْدَ بَعْضٍ، وَيَسْتَدِيرُونَ كَالْحَلَقَةِ، فَمِنْ وَلَّى مِنْهُمْ حَالَةَ اسْتِدَارَتِهِمْ، وَثَبَّ الْجَمِيعُ عَلَيْهِ، فَيَأْكُلُوهُ.

تنبيه:

مَا ذَكَرَهُ يَفِيدُ حَسْنَ صَبْرِهِ، وَأَنَّهُ أَقْدَرَ عَلَى الْجُوعِ مِنَ الذَّنْبِ، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْقَوْتَ عِيلَ صَبْرِهِ، وَاسْتِغَاثَ بِأَمْثَالِهِ بِطَلْبِ الْمُسَاعَدَةِ عَلَى عَجْزِهِ عَنْ إِدْرَاكِ مَا يَقْتَاتُ بِهِ، وَلَوْ بِالشَّكَايَةِ وَالتَّأْسِي.

استطراد:

مِنْ غَرِيبِ أَمْرِ الذَّنْبِ أَنَّهُ مَتَى وَطِئَ وَرَقَ الْعَنْصَلِ، مَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ، وَمِنْ عَظِيمِ عِدَاوَتِهِ لِلْغَنَمِ مَا ذَكَرَ أَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ جِلْدُ شَاةٍ مَعَ جِلْدِ ذَنْبٍ تَمَعَطَ جِلْدُ الشَّاةِ، وَإِذَا عَرَضَ لِلْإِنْسَانِ، وَخَافَ الْعَجْزَ عَنْهُ عَوَى مِثْلَ عَوَائِهِ لَطَلْبِ الْمُسَاعَدَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ، فَتَسْمَعُهُ الذَّنَابُ، فَتَقْبَلُ إِلَى الْإِنْسَانِ إِقْبَالاً وَاحِداً، وَهُمْ سَوَاءٌ فِي الْحِرْصِ عَلَى أَكْلِهِ، فَانْ أَدْمَى الْإِنْسَانُ وَاحِداً مِنْهُمْ، وَثَبَّ الْبَاقُونَ عَلَى الْمَدْمِيِّ فَمَزَقُوهُ وَتَرَكُوا الْإِنْسَانَ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ يُعَاتِبُ صَدِيقاً لَهُ، وَكَانَ قَدْ أَعَانَ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ نَزَلَ بِهِ: [الطويل]

وكنْتُ كَذْنَبَ السَّوِّءِ لَمَّا رَأَى دَمًا بصاحبه يوماً أحوال على الدَّم

ومما ذكره ابن خلكان في تاريخه في باب عمر بن أبي ربيعة المخزومي، أنه بينما هو يطوف بالبيت، إذ رأى امرأة تطوف أيضاً، فأعجبته وكان مغرمًا في حُبِّ النساء، فسأل عنها، فقيل له: من أهل البصرة، فكلّمها مراراً، فلم تلتفت إليه، وقالت: إليك عني، فإنك في حرم الله تعالى، وفي موضع عظيم الحرمة، فلَمَّا أَلَحَّ عليها، ومنعها من الطَّواف، أتت محرماً لها، وقالت له: تعال معي أرني المناسك، فحضر معها، فلَمَّا رآه عمر عدل عنها، فتمثلت بشعر الزبرقان بن بدر السَّعْدِي: [البسيط]

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مريض المستأسد الضاري

فبلغ خبرها المنصور، فقال: (وددت أنه لم تبق فتاة في خدرها إلا سمعته)، وكانت ولادة عمر بن أبي ربيعة في الليلة التي قتل فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان الحسن البصري يقول - إذا جرى ذكر ولادته -: (أي حقّ رفع وأي باطل وضع) وغزا في البحر فأحرقت السفينة التي فيها، فاحترق.

وخبر أشعاره، وحسن معاشرته للنساء كثيرة، وأردنا أن نذكر طرفاً من شعره، فمنه

هذه القصيدة التي يقول فيها: [الكامل]

ليت الغرابُ بينها لم يزعج	نعق الغرابُ بين ذات الدُّمْلَج
وذرت به الريح بحر السَّمْهَج	نعق الغراب ودقَّ عظم جناحه
حتى دخلتُ على ربيبة هودج	ما زلت اتبعهم لا سمع حدوهم
عمداً وردّت عنك دعوة عوهج	نظرت إليّ بعين ريم أكحل
وبدت عليّ كما الغزال الأدعج	فنظرت منها حسن صورة وجهها
وبريمها وسوارها والدُّمْلَج	فسمعت رنه حجلها ووشاحها
من حرّ نارٍ بالحشا مُتَوَهِّج	فظلت في أمر الهوى تحيزاً

وله في رملة أخت عبد الملك بن مروان: [الطويل]

بعيدة مهوى القُرط إما لنوفل أبوها، وأما عبدُ شمسٍ وهاشم

وله أيضاً فيها: [الطويل]

ولولا مخاف الناس والعار والحياء لعانقتها بين الحطيم وزمزم

فائدة:

الأسد والذئب يختلفان في الجوع والصبر عليه، وإن كان صبرهما لا يوجد في غيرهما من الحيوانات، فالأسد شديد النهم حريص - ومع ذلك يحتمل إن يبقى أياماً لا يأكل شيئاً -، والذئب وإن كان أقفر منزلاً، وأقل خصباً وأكثر كدّاً، وقد يكتفي بالنسيم إذا لم يجد ما يقتات به، إلا أنه لا يصبر ذلك الصبر - كما تقدم ذكره -، ولا يعود إلى فريسة شبع منها مرة بخلاف الذئب.

ومن عجيب أمور الذئب إذا نام غمض إحدى عينيه حتى تقضي وطرها من النوم، فيغمض الأخرى، ويفتح الأولى، قال حميد شعراً: [الطويل]

ونمت كنوم الذئب عن ذي حفيظة أكلت عظاماً دونه وهو جائع
ينام بإحدى مقتلتيه ويَتَّقِي بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وهو أكثر الحيوان عواءً إذا كان مرسلًا، فإذا أخذ وضرب بالعصي والسيوف حتى يتقطع، ولم يسمع له صوت إلى إن يموت، وفيه من قوة حاسة الشم، قيل: إنه يدرك المشموم من مقدار فرسخ، وأكثر ما يتعرض للغنم في الصباح، فيتوقع فترة الكلب ونومه وكلاله، لأنه يظل طول ليلة حارساً لا ينام.

قال الشنفرى^(١):

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": المَهْلَلَةُ: التي تُشَبِّه الهلال. وهذا استعمال غريبٌ مُخِلٌّ بفصاحة الكلمة؛ إذ لم يُعْهَدْ استعمالُ فَعَلٍ بالتشديد في التشبيه، ونظيرُ مَهْلَلَةٍ هنا مُسَرَّجٌ في قول العجاج: [الرجز]

وَفَاحِمًا وَمَرْسِنًا مُسَرَّجًا

أي: كالسيف السَّرِيجِي في الدقة والاستواء، أو كالسراج في البريق واللمعان. والشَّيْبُ: جمعُ أَشْيَبٍ، وهو ها هنا المُتَعَيِّرُ لَوْنِ الوَجْهِ على سبيل الاستعارة والقِدَاحُ: جمعُ قِدَحٍ بالكسر، وهو السهم قبل أن يُرَاشَ. وتَقَلُّقُ القِدَاحِ: تحريكها واضطرابها، ومن لازم ذلك تصويتها. واليَاسِرُ: الذي يُجِيلُهَا ويُفَرِّقُهَا، فَعَلُهُ يَسِرُ بالفتح، يَسِرُ بالكسر.

والمعنى على تشبيه الذئب العاوية الضامرة من الجوع بقِدَاحِ الميسرِ المُصَوِّتَةِ عند اضطرابها في كَيْفِ المُفِيسِ: وهو الياسر، فقولُه: تَقَلُّقُ لا يَتِمُّ المعنى بدونه. ومَهْلَلَةُ بالرفع من صفات النظائر.

٢٩ - مُهَلَّلَةٌ شَيْبُ الْوُجُوهِ كَأَنَّهَا قِدَاحٌ بِكَفِّي يَاسِرٍ تَتَقَلَّقُلُ اللُّغَةُ:

مُهَلَّلَةٌ: أي: دقيقة الخلق كأنها أهلت في الدقة، ومثل ذلك يُعَدُّ من الغريب، كما في بيت العجاج: [الرجز]

أزمان أبدت واضحاً مُفَلَّجاً أغرَّ بَرَّاقاً وطرفاً أبرجاً
ومقلّة وحاجباً مُزَحَّجاً وفاحماً ومرسناً ومُسَرَّجاً

الوحشي الغير المأنوس الاستعمال وذلك أن التفعيل يجيء بمعنى النسبة الى أصله ك(المتمم) و(المنزّر) أي: المنسوب الى تميم، والى نزار، فالمُهَلَّلَة بمعنى المنسوب الى الهلال بالمشابهة، وهو اسم مفعول من هَلَّلْتَه بمعنى نسبته الى الهلال، كالمتمم والمنزّر من تَمَّمْتَه ونزَّرْتَه، بمعنى النسبة هذا توجيه التخري، وأما توجيه البعد عن الاستعمال فلأنّه لا يتبادر من نسبته الى الهلال بالمشابهة، وهو اسم مفعول من هَلَّلْتَه بمعنى نسبته الى الهلال، كالمتمم والمنزّر من تَمَّمْتَه ونزَّرْتَه، بمعنى النسبة هذا توجيه التخريج، وإما توجيه البعد عن الاستعمال فلأنّه لا يتبادر من نسبته الى الهلال معنى مشابهته له، وأيضا الغالب الشائع أن يكون المنسوب إليه مصدراً ثلاثياً لهذا الفصل، ككفّرتَه وفسّقتَه، أي: نسبته الى الفسق والكفر، وهنا ليس كذلك.

وقيل في بيت العجاج: أن (مسرّجاً) ليست نسبةً الى السيف السريحي، بل هو اسم مفعول من سَرَّجَ الله وجهه، أي: حسنه وبهجه، وفيه كلام طويل محلّه المطولات.

شيب: بالكسر سيز السَّوْط، جبلٌ وحكايةُ أصواتٍ مشافرٍ الإبل، والشيبُ أيضاً جمعُ أشيبٍ وهو المبيض الرأس، وظاهر أن المراد المعنى الأخير ها هنا.

القдах: جمعُ قَدَحٍ بكسر فسكون، السهمُ أن يُراشَ ويُنصَلَ ويُجمَعُ على أَقْدَحٍ وأقاديح، والقَدَحُ بفتح القاف والبدال آتيةٌ تُزوي الرّجلين.

ياسر: وهو اللاعب بقдах الميسر، وقد تياسروا وأيسروا.

تَتَقَلَّقُلُ: بتائين مفتوحتين وقافين كذلك، أي: تتحرك وتضطرب، وفي نسخة مُهَلَّلَة شيب كأن وجوها قдах، والأول أولى كما يظهر بالتأمل

الإعراب:

مهللة: بالرفع أمّا نعت ثان أو خبر مبتدأ محذوف، وبالنصب على الحال من النكرة لوصفها، فجواز الوصفية والحال، نظير جملة (يَحْمِلُ أَشْفَارًا) من قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَشْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

بكفّي: جار ومجرور وعلامة جره الياء، والنون محذوفة للإضافة إلى ياسر.

يتقلقل: فعل مضارع مرفوع، والجملة محلها الرفع على أنها صفة.

المعنى:

إنّ هذه الذئاب كالأهله في التحول والضمور، قاصرة على إدراك الصوت بالسعي والنشور، ووصفها ببياض الوجوه: إمّا على المجاز عن التلألؤ من الفرح والسرور لظنها أن الذئب إنما دعاهنّ لفريسة يحصل بصيدها لهن الجبور، فتأتي متحركة مضطربة مسرعة كأنها في يد لاعب ينازعها، وذلك السرور والحبور لمّا في البيت السابق استطرناه في المنشور، ويحتمل تشبيهها بالقداح لنحولهن ودقتهنّ من المجاع، فيكون تأكيداً لمّا قبله، وليس فيه نزاع، فتأمل كلا الاحتمالين لثلا تقع منه في حين ومين.

استطرد:

روى البيهقي في شعبه عن الأصمعي، قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وجرو ذئب مقع، فنظرت إليها، فقالت: أتدري ما هذا؟ قلت: لا قالت: هذا جرو ذئب أخذناه، وأدخلنا بيتنا، فلما كبر قتل شاتنا، فقد قلت في ذلك شعراً، قلت لها: ما هو؟ فأنشدته: [الوافر]

بقرت شويهتي وفجعت قوماً	وأنت لشاتنا ولدٌ ريب
غذيت بدرها وريبت فينا	فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء	فليس بنافع فيها الأديب

وهو إذا طمع الإنسان فيه خافه، وإذا خافه الإنسان طمع فيه، ويقطع العظم بلسانه ويريه، ويُقال: عوى الذئب، كما يقال: عوى الكلب.

وقال الشاعر: [الطويل]

عوى الذئب فستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيُر
وقال الآخر: [الخفيف]

ليت شعري كيف الخلاص من النَّاسِ وقد أصبحوا ذئاب اعتداء
قلتُ لهم لَمَّا بلاهم صدق خُبْري رضي الله عن أبي الدرداء
أشار الى قول أبي الدرداء رضي الله عنه: (ياكم ومعاشرة الناس؛ فإنهم ما ركبوا
قلب امرئٍ إلا غيَّروه، ولا جواداً إلا عقروه، ولا بعيراً إلا أدبروه).

فائدة:

روى السهيلي عن عروة في حديث مسند أنه لَمَّا ولد عبد الله بن الزبير رضي الله
عنه نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "هو هو" فلَمَّا سمعت بذلك أمه
أسماء رضي الله عنها أمسكت عن رضاعته، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"أرضعيه ولو بماء عينيك، كبش بين ذئاب، وذئاب عليها ثياب، ليمنعنَّ البيت، أو ليقتلنَّ
دونه".

وروى ابن ماجه والترمذي، وقال: (حسن صحيح) عن كعب بن مالك رضي الله
عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم
فأفسد لها من حرص الرجل على المال والشرف لدينه"^(١). وقد نصَّ الله تعالى على ذمِّ
ذلك الحرص بقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]،
وروى ابن عدي عن عمرو بن خليف عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إن النبي
صلى الله عليه وسلم قال: "دخلتُ الجنة فرأيتُ فيها ذئباً، فقلت: أذئب في الجنة، قال:
أكلت ابن شرطي"^(٢). قال ابن عباس رضي الله عنه: هذا وإنما أكل ابن شرطي، فلو أكله
رفع في عليين. ثم رأيتُه كذلك في "تاريخ نيسابور" للحاكم في ترجمة شيخه علي بن
محمد بن إسماعيل الطوسي، وهو حديث ضعيف.

اعلم أنه قد جاء حديث قِصَّة الذَّئْبِ فِي عِدَّةِ طَرِيقٍ: من حديث أبي هريرة، وأنس،

(١) أخرجه أحمد (٤٥٦/٣، رقم ١٥٨٢٢)، والترمذي (٥٨٨/٤، رقم ٢٣٧٦) وقال: حسن صحيح.
والدارمي (٣٩٤/٢، رقم ٢٧٣٠)، والطبراني (٩٦/١٩، رقم ١٨٩).
(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (٢١٦/٢، رقم ٣٠٥٤).

وابن عمرو، وأبي سعيد الخدري، فأما حديث أبي سعيد فرواه الإمام أحمد بإسنادٍ جيدٍ، ولفظه: قال: "عدا الذئب على شاةٍ فأخذها، فطلبه الراعي فانترعها منه، فأقصى الذئب على ذنبه، وقال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ، فقال الراعي: يا عجباً ذئب مقع على ذنبه يكلمني بكلام الإنس، فقال: ألا أخبرك بأعجب من ذلك، محمد يثرب يخبر الناس بأنباء ما سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للأعرابي: أخبرهم فأخبرهم" (١).

وأما حديث ابن عمرو فأخرجه ابن سعد، والبيهقي، وأما حديث انس فأخرجه أبو نعيم في الدلائل، وأما حديث أبي هريرة فرواه سعيد بن منصور في سننه، قال: جاء الذئب فأقعى بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يبصبص بذنبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا وفد الذئب جاء يسألكم أن تجعلوا له من أموالكم شيئاً، قالوا: والله لا نفعل، وأخذ رجل من القوم حجراً رماه به، فأدبر الذئب وله عواء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الذئب وما الذئب" (٢).

قال الشنفرى (٣):

(١) أخرجه أحمد (٨٣/٣، رقم ١١٨٠٩)، وعبد بن حميد (ص ٢٧٧، رقم ٨٧٧)، والترمذي (٤٧٦/٤، رقم ٢١٨١) وقال: حسن غريب. وابن حبان (٤١٨/١٤، رقم ٦٤٩٤)، والحاكم (٥١٤/٤، رقم ٨٤٤٢) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضاً: الديلمي (٣٧٠/٤، رقم ٧٠٧٢).
(٢) أخرجه ابن راهويه في مسنده (٢٦٩/١، رقم ٢٣٩).

(٣) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الحُشْرُم، بالخاء والشين المعجمتين: النحل والزنابير، وأجدثه بهاء. والمبعوث: الذي هُيِّجَ مِنْ مَحَلِّهِ. والدَّبْرُ بالفتح: جماعة النحل والزنابير، وبكسر الدال أيضاً فيهما.
والأَثِقُ بالنظر إلى الدَّبْرِ أَنْ يَفْسَرَ الحُشْرُمُ بمأوى النحل هنا، أو بأميرها، وهما مِنْ معاني الخشرم أيضاً.

وحُشْحَنَةُ الدبر: تحريكه بالمحايض، بالضاد المعجمة جمع مَحْبُضٍ بَزَنَةٍ مُتَبَرٍّ، وهو عمودٌ يُشَارُ بِهِ العسل ويُطْرَدُ بِهِ الدبر. وإزساء المحايض: إثباتها. والسامي المَعْسَلُ المُزْتَقِي لطلب العسل كالْمُسْتَعْسِلِ. فَ (الخشرم) معطوف على قدام.

والمعنى على تشبيه الذئب النحل في حالة غَوَائِثِهَا بأمير النحل الذي حَرَّكَ دَبْرَهُ بالأعواد المُسَمَّاةَ بالمَحَايِضِ مُرِيدٌ عَسَلَهَا، وَصَوْتُ النحلِ إِذْ ذَاكَ مُتَوَفِّرٌ مُتَوَاتِرٌ، وَتَشْبِيْهُهَا بالنحلِ المبعوثِ أدُلُّ على شِدَّةِ صَوْتِهَا مِنْ تَشْبِيْهِهَا بِالْقِدَاحِ الْمُضْطَرِبَةِ فِي كَفِّي الياسرِ.

٣٠- أَوِ الْحَشْرُمُ الْمَبْعُوثُ حَثَّ دَبْرُهُ مَحَابِيضُ أَرْسَاهُنَّ سَامٌ مُعَسِّلُ اللُّغَةِ:

الحَشْرُمُ: بفتح الحاء، وسكون الشين المعجمة: أَمِيرُ النَّحْلِ، وهو المراد هنا،
وَالْحَشْرُمُ الدَّبْرُ وَالزَّنَابِيرُ، قال الأصمعي: لا واحد له من لفظه، وربما سُمِّي الزَّنَابِيرُ
خَشْرَمًا، قال: [الكامل]

كسوام دَبْرُ الْحَشْرُمِ الْمُتَشَوِّرُ

المبعوث: اسم مفعول من الإبعاث، وهو الإرسال أي: مرسل.
حَثَّ: بحائين مهملتين ومثلثتين أي: حَضَّ، يقال: حَثَّه عَلَى الشَّيْءِ وَاسْتَحَثَّهُ
عَلَيْهِ، فَاحَثَّ، وَحَثَّه تَحْثِيًا وَحَثَّه بِمَعْنَى.
الدَّبْرُ: بفتح الدال المهملة، وسكون الموحدة التحتية: جماعة النَّحْلِ ويجمع على
دُبُورٍ.

محايض: بفتح الميم، والحاء المهملة، فألف موحدة مكسورة، فمشناه تحتية، آخر
الحروف ضاد معجمة، جَمْعُ مَحْبُضٍ بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الباء، وهو عُودٌ
يُشْتَارُ بِهِ الْعَسَلُ وَتَطْرُدُ بِهِ الدَّبْرُ، والقياس جمعه على محابض كمساجد، لكنها أُشْبِعَتْ
الكسرة فنشأت الياء، أو أنه جمع محابض، فإن صحَّ فهو لغة في محبض، كدرهم لغة
في كدرهام، كقوله: [البسيط]

تَنْفِي يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْي الدَّرَاهِمِ تَنْقَاذِ الصَّيَارِفِ

أَرْسَاهُنَّ: فعل ماضٍ من أَرَسَيْتَ الشَّيْءَ إِذَا ثَبَّتَهُ، ويجوز جعله أَسَمَ تَفْضِيلَ وَالْأَوَّلِ
أُولَى، تَأْمَلُ.

سام: الوصف من سما يسمو، إذا ارتفع، فهو منقوص كفتى، كما نقل من رآه
مضبوطاً في عدة نسخ بكسرتين تحت الميم، ويوافقه كون أَرْسَاهُنَّ فعل ماضٍ، ويجوز
أن كونه تاماً بمعنى الخيزران، والأول للأول، والثاني للثاني، وعدم الجدوى في كون
أحد أعواد المشتار خيزراناً يؤيد الأولوية المتقدمة.

مُعَسِّل: بضم الميم، وفتح العين المهملة، وكسر السين المهملة المشددة: اسم فاعل من عَسَلَ الطَّعَامَ بتشديد السين إذا خلطه بالعسل، والمراد هنا العاسلُ، وهو الذي يأخذ العسل من خلية النحل، ومن إطلاق المُقَيَّد على المطلق كالمشفر لشفة الإنسان.

الإعراب:

أو الخشرم: أو حرف عطف تأتي للتخيير، والإباحة، كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، وكقولك: تزوج هنداً أو أختها، وتأتي للشك والتشكيك، وغيرها، كما هو مسطور في موضعه من كتب النحو.

والخشرم: معطوف على القداح، وهو مرفوع بالضمّة.

المبعوث: نعتة.

حُثِّث: فعل ماضٍ.

دبره: مفعول به، مضاف إلى الهاء.

محاييض: فاعل، والجملةُ حال بتقدير قد، وذلك لتقرب الجملة الماضية من زمن الحال، وفي هذا كلامٌ مستوعب في مطوّلات على النحو ولشيخ شيخنا السويدي رحمه الله تحقيقٌ في معنى هذا التقريب، وتركته خشية الإطّباب والإسهاب.

أرسأهنّ: فعل ماضٍ ومفعول على المعنى الأول، أو مبتدأ، أو مضاف إليه على الثاني.

سام: فاعل مرفوع بضمّة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، أو خبر مرفوع بضمّة ظاهرة فتذكر.

معسل: نعت لسام، والجملة على كلا التقديرين محلها الرّفْع صفة لمحاييض.

المعنى:

إنّ هذه الذّئاب في سرعتها، وانضمام بعضها الى بعض في المسعى كأنها أمير النحل الذي أرسل، وأفلت من الخلية إلى المرعى والحال أن النحل التي هي جماعته وأتباعه، حركتهنّ أعواد يشار بها العسل، أثبتهن لذلك مشتار مرتفع يخشى منع قطع الأمل، كما هو الحال من يأخذ العسل من الخلايا فإنه يرتفع لإخراجه من داخل الزّوايا، ويحرك بها النحل لتخرج الى مرعاها، ولتظفر بذلك في مناهها.

تكميل:

وجه وصف الذئاب بالخشرم مع أنها جمع وهو مفرد، عدم إرادة خروجه وحده الى المرعى، إذ من عادة ملوك النحل أنها لا تخرج الا مع جميع النحل كما قال الديميري، فيكون المراد هو وجنوده، ولا يجوز جعل الخشرم بمعنى جماعة النحل كما هو أحد معانيه، لأن قوله حثحث دبره يأبى ذلك، خشية لزوم إضافة الشيء الى نفسه، يعرف بالتأمل، فإن قلت: هل لهذا التردد من فائدة؟ قلت: نعم، لاختلاف وجه الشبه بين المشبه بهما، فوجه الشبه بالقдах، هو التحول والضمور، وبالخشرم هو السرعة والتضام.

فائدة:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، الإيحاء الى النحل إلهامها، والقذف في روعها، وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد على الوقوف عليه، إذ في إجادتها في صفتها وبناء بيوتها بالأشكال المسدسة التي يعجز عنها الماهر بالهندسة في صنعتها، ولطفها في تدبر أمرها وإصابتها فيما يصلحها، دلائل بينة شاهدة على أن الله تعالى أودعها علماً بذلك، وفطنها، كما أولى أهل العقول عقولهم، وقد قرأ يحيى بن وثاب: ﴿إِلَى النَّحْلِ﴾ بفتحيتين، وهو مذكر كالنحل، وتأنيته على المعنى، و ﴿أَنِ اتَّخِذِي﴾ أن هنا المفسرة، لأن الإيحاء فيه معنى القول، ﴿بُيُوتًا﴾ بضم الباء جمع بيت بفتحها، وقرأ بكسر الباء و﴿يَعْرِشُونَ﴾ بكسر الراء وضمها في كل شجر، وكل ما يعرش، ولا في كل مكان، ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]، ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل، وتعتاد أكلها، أي: ابني البيوت ثم كلي من كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل، أو فأسلكي ما أكلت في سبل ربك، أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المر عسلاً من أجوافك، ومنافذ مآكلك، أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك، فأسلكي الى بيوتك راجعة سبل ربك، ولا تتوعر عليك،

ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجذب عليها ما حولها، فتسافر الى البلد البعيد في طلب النجعة أو أراد بقوله ﴿ثُمَّ كُلِّي﴾ ثم اقصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك ﴿ذُلًّا﴾ جمع ذلول، وهي حال من السبل، لأن الله ذللها ووطأها وسهّلها، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ [الملك: ١٥] أو من الضمير في ﴿فَاسْئَلِي﴾ أي: وأنت منقادة لما أمر تابعة غير ممتنعة، ﴿شَرَابٌ﴾ يريد العسل، لأنه مما يشرب، ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ منه أبيض، وأصفر، وأحمر، وأسود، ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ لأنه من جملة الاشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك، وتنكيره: إمّا لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء، وكلاهما متحمل.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً جاء إليه، فقال: إن أخي يشكي بطنه، فقال: أسقه العسل، فذهب، ثم رجع، فقال: قد سقيته فما نفع، فقال: اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله، وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه الله، فبرئ كأنما نشط من عقال بعير.

ويروى أنه اشتكى عدم استقرار الطعام في بطن أخيه، والسبب في ذلك أن البلغم ملأ شراسيف معدته، فلذلك لا يستقر فيها طعام، فلما شرب العسل، قلع البلغم لأنه حرّيف، فاستقر الطعام بعد ذلك.

وعن عبد الله بن مسعود: (العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور فعليكم بالشفائين: القرآن والعسل) ومن بدع تأويلات الرافضة أن المراد بالنحل: علي رضي الله عنه وقومه.

ولنا أن نقول: المراد بالنحل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم.

وعن بعضهم، أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم، يخرج من بطونهم العلم، فقال رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم، فضحك المهدي، وحدث به المنصور، فاتخذوه أضحوكة من أصحابيهم.

قال الشنفرى^(١):

٣١ - مُهْرَتَةٌ فَوْهٌ كَأَنَّ شُدُوقَهَا شُقُوقَ عِصِيٍّ كَالِحَاتٍ وَيُسَلُّ

اللُّغَةَ:

مُهْرَتَةٌ: بميم مضمومة، فهاء مفتوحة، فراء مهملة مشددة مفتوحة: واسعة الأشداق. والهرت: الواسع الشدقين، وأسدُّ أهرتُ بين الهرت، وهو مهرت الفم، وكلاب مُهْرَتَةٌ الأشداق، وربما قالوا للمرأة المُقضاة: هريت.

فَوْهٌ: بغاء مضمومة، فواو ساكنة، آخر الحروف هاء، جمع أفواه من الفَوْهَ بالتحريك. سعة الفم، ورجل أفواه، وامرأة فَوْهَاءُ، بينا الفوه، ويقال: الفوه خروجُ الشايب العليا وطولها.

والثاني أولى للزوم التكرار على الأول إلا أن يحمل على التأكيد.

الشدوق: بشين معجمة، فดาล مهملة مضمومتين، جمع شِدْقٍ بالكسر، ويفتح، وهو جانب الفم، والشدق بالتحريك: سعة الشدق، يقال: خطيبٌ أشدقُ بينَ الشدق، والمتشدق الذي يكون شدقه للتفضح.

عِصِيٍّ: بعين، فصاد مهملتين مكسورتين جمع عصا.

كالحات: من الكُلُوح، وهو تكشُرٌ في عُبُوسٍ.

يُسَلُّ: بموحدة مضمومة، فسين مهملة مفتوحة مشددة جمع باسلٍ، وصف من بسلُّ بسولاً إذا عبس غضباً.

الإعراب:

مهترت فوه: صفتان للذئاب، فحكمها حكم الأوصاف السابقة.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": المُهْرَتَةُ: الواسعة الأشداق. والفَوْه: جمعُ أَفْوَهٍ وفَوْهَاءٍ، للواسع الفم، ومن تخرج أسنانه من شَفَتَيْهِ من طولها. وصفة ذلك: الفَوْه بالتحريك. والكالحات: المتكشرات في عُبُوسٍ، والبسلُّ جمع باسلٍ: وهو الكرية المنظر هنا. وصف الذئاب بسعة الأشداق، وبروز أنيابها لطولها من شفَتَيْهَا، وبالعُبُوس وكرهة المنظر من أجل سعة أفمائها حتى أشبهت أشداقها شُقُوقَ العِصِيٍّ في الطول مع التزاق أحد الشقين بالآخر.

كأن: حرف تشبيه من أخوات إن: تنصب الاسم، وترفع الخبر.
شدوقها: اسمها منصوب وعلامة نصبه فتح آخره، وهو مضاف الى الهاء، والهاء محلله الجر بإضافته إليه.

شقوق: مرفوع على أنه خبرها، وعلامة رفعه الضمة، مضاف إلى عصي.
كالحات وبُسل: صفتان للذئاب أيضاً، فحكمها حكم من تقدم.

المعنى:

إن هذه الذئاب واسعة الأشدق، كريهة التلاق والأفواه، تكشف عن أسنانها معبسة مغضبة، كأن شدوقها لسعتها وطولها شقوق العصي، وعلى الجثث مواضبة.

تكميل:

قوله: فوه، من قبيل التأكيد لمهترئة على المعنى الأول كما قدّمنا، من قبيل التأسيس على المعنى الثاني، وهو الأولى، وعطف البُسل على كالحات من عطف المتغايرين، لأن الأول تكشر مع عبوس، والثاني عبوس مع غضب.

فائدة:

قال ابن عبد البر وغيره: كلم الذئب ثلاثة من الصحابة رضي الله عنهم: رافع ابن عميرة، وسلمة بن الأكوع، وأهبان بن أوس الأسلمي قال: ولذلك تقول العرب: (هو كذئب أهبان) يتعجبون منه، وذلك أنه كان في غنم له، فشدّ الذئب على شاة منها، فصاح به أهبان، فأقعى الذئب قال: أتزع مني رزقاً رزقنيه الله تعالى، وقال أهبان: ما سمعت ولا رأيت أعجب من هذا ذئب يتكلم، فقال الذئب: أتعجب من هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذه النخلات، وأومن بذنبه الى المدينة يحدث ما كان وما يكون، ويدعو الى الله تعالى وعبادته، ولا تجيبونه، وقال أهبان: فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرته بالقصة، وأسلمت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حدث به الناس".

قال عبد الله بن داود السجستاني الحافظ: فيقال لأهبان: مكلم الذئب، ولأولاده: أولاد مكلم الذئب، ومحمد بن الأشعث الخزاعي من أولاده، واتفق مثل ذلك لرافع بن عميرة، وسلمة بن الأكوع.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كانت امرأتان معهما ابنهما؛ إذ جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك أنت، قالت الأخرى: إنما ذهب بابنك أنت، فتحاكما إلى نبي الله داود عليه الصلاة والسلام، ففضى به للكبرى، فخرجتا إلى سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرته بذلك، فقال: اتئوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك الله، لا، هو ابنها. ففضى به للصغرى" (١).

قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما سمعت السكين قط إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المُدِّيَّة.

واستدل بهذا الحديث أن المرأة تستلحق اللقيط، وأنه يلحقها لأنها أحد الأبوين، ونقله صاحب التقريب عن ابن سريج، والأصح أنه لا يلحقها إذا استلحقته لا مكان إقامة البينة على الولادة بطريق المشاهدة، بخلاف الرجل، وفي وجه ثالث تلحق الخلية دون المزوجة لتعذر الإلحاق لها دونه، وإذا قلنا يلحقها بالإلحاق، وكان لها زوج لم تلحقه في الأصح، وليس المراد بالزوج من هي في عصمته بل كونها فراشاً لشخص، لو ثبت نسبة اللقط بالبينة لحق صاحب الفراش سواء كانت في العصمة، في العدة على أن أخذ هذا الحكم من هذه القصة مبني على أن شرع من قبلنا شرع لنا، وفيه تفصيل محله الكتب الأصولية.

وروى أحمد والطبراني بإسناد جيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية، إياكم والشعاب، وعليكم بالعامّة والجماعة والمساجد" (٢).

وفي تاريخ ابن النجار عن وهب قال: (بينما امرأة من بني إسرائيل على ساحل البحر تغسل ثيابها، وصبي لها يدب بين يديها؛ إذ جاء سائل فأعطته لقمة من رغيف كان

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٤/٣)، رقم (١٧٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٢/٥)، رقم (٢٢٠٨٢). وأخرجه أيضاً: الطبراني (١٦٤/٢٠)، رقم (٣٤٤). قال الهيثمي (٢٣/٢): رواه أحمد، والعلاء بن زياد لم يسمع من معاذ. وقال في (٢١٩/٥): رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد قيل إنه لم يسمع من معاذ. وقال المناوي (٣٥٠/٢) قال الحافظ العراقي: رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعاً.

معها، فما كان بأسرع من أن جاء ذئب فالتقم الصبي، فجعلت تعدو خلفه، وهي تقول: يا ذئب ابني، يا ذئب ابني، فبعث الله تعالى ملكاً انتزع الصبي من فم الذئب، ورمى به إليها، وقال: لقمة بلقمة، وهو في الحلية عن مالك بن دينار، قال: (أخذ السبع صبياً لامرأة، فتصدقت بلقمة، فألقاه السبع، فنوديت لقمة بلقمة).

وقال الشنفرى^(١):

٣٢ - فَضَجَّ وَضَجَّتْ بِالْبَرَّاحِ كَأَنَّهُ وَإِيَّاهُ نَوْحٌ فَوْقَ عَلِيَاءِ تُكَلُّ

اللُّغَةُ:

ضَجَّ: بفتح الضاد المعجمة، والجيم المشددة من الضجيج، قال أبو عبيد: أضجَّ القوم إضجاجاً.

البرَّاح: بفتح الموحدة: المتسع من الأرض، لا زرع فيه ولا شجر.

نوح: بنون مفتوحة، فواو ساكنة، آخر الحروف حاء مهملة: نوائح، يُقال: ناحَتْ المرأة تنوح نوحاً ونياحاً، والاسم: النياحة، ونساء نوح وأنواح ونَوْح ونوائِح ونائحات، والتناوح: التقابل، ويقال: الجبلان يتناوحيان، ومنه سميت النوائح، لأنَّ بعضهنَّ يقابل بعضاً.

العلياء: بعين مهملة مفتوحة، فلام ساكنة رأس الجبل، والمكان العالي، وكُلُّ ما علا من كَلِّ شيء.

الثُّكُلُ: بضم المثناة، وتشديد الكاف المفتوحة جمع ثاكل، وقد تقدّم معناه فتذكر.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الضَّجِيجُ: صياح الجازع والمغلوب، والبرَّاح: الفضاء. والنَّوْحُ: جمع نائحة. والعلياء: المكان العالي. والثُّكُلُ: جمع ثاكل، وهي الفاقِدُ لولدها.

يقول: فَصَاحَ الذئبُ صياحَ مَحْزُونٍ، وصاحَتْ معه النظائرُ الثُّكُلُ في الفضاء في حال كونها وإيَّاهُ تُشَبِّهُ نساءً فاقداً لأولادهنَّ نائحاتٍ عليها فوق مكانٍ مُشْرِفٍ. وهذا الضجيجُ غيرُ دُعائه وإجابتها؛ لأنَّ ذلك إجابةٌ للصوتِ من بعيدٍ. وهذا بعدَ الاجتماعِ، ولذلك رَبَّيْتُ على ما تقدّم بالفاء التي تقتضي التَّسْيِيبَ.

الإعراب:

فضح: الفاء عاطفة، وضح: فعل ماضٍ معطوف على أجابته، والفاعل ضمير يعود إلى الأزل.

وضجت: الواو عاطفة، وضجَّ فعل ماضٍ، والتاء الساكنة علامة التأنيث، فاعله ضمير يعود إلى نظائره.

بالبراح: جار ومجرور، وتنازع فيه الفعلان، فأعمل الثاني على رأي البصريين، والكوفيون يعملون الأول، قال ابن مالك: [الرجز]

إِنْ عَامِلَانِ اقْتَضَيَا فِي اسْمٍ عَمَلٌ قَبْلُ فَلِلَّوَاحِدِ مِنْهُمَا الْعَمَلُ
وَالثَّانِ أَوْلَى عِنْدَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَاخْتَارَ عَكْسًا غَيْرُهُمْ ذَا أَسْرَ

فأعمل البصريون للقرب، والكوفيون للسبق، فلكل وجهة.

والباء مستعارٌ لفظها لفي تبعاً لمتعلقها، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣]

كأنها: كأن واسمها.

وإياه: ضمير نصب معطوف على اسمها.

نوح: بالرفع خبرها.

فوق: ظرف منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف وجوباً على أنه صفة نوح، مضاف إلى علياء.

وعلياء: مجرور بالفتحة، لمنعه من الصرف، وعلة ذلك ألف التأنيث الممدودة، وهي نائبة مناب العلتين، لأنَّ التأنيث علة، ولزومه نزل علة أخرى، وهذه عبارة شيخنا في مؤلفاته النحوية، وهي أصحُّ من قول غيره: فنزل لزومه منزلة تأنيث آخر فتدبر.

تُكَلِّ: صفة ثانية له.

المعنى:

يقول: لمَّا أجابت الأزل نظائره بالضجر ضج وصاح في ذلك المتسع الاقفر،

وضجت هي أيضا، فكأن الجميع نوائح، فوق مكان عالٍ، مهزيات في أولادهن صوائح.
وفي هذا البيت إشعار بأنه أصبر منهم على الجوع والمسير، لأنهن لعدم الصبر
أخذن في العواء الكثير حتى كأنهن نساء تُكَلُّ ينحن على أولادهن، وهن نُحَل.

تنبيه:

عَبَّرَ بَضَجٌ دُونَ أَضَجٍّ لَأَنَّهُ هُوَ الْمُنَاسِبُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، إِذِ الضَّجِيجُ لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا
جَزَعَ مِنْ شَيْءٍ وَغَلَبَ، بِخِلَافِ الْاضْجَاجِ، كَمَا مَرَّ فَتَذَكَّرَ.

استطراد:

قِيلَ لَمَّا جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ بِالْقَمِيصِ وَعَلِيهِ دَمٌ، قَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَتُونِي
بِالذِّئْبِ الَّذِي أَكَلَ وَلَدِي يُوسُفَ، قَالُوا: نَعَمْ نَأْتِيكَ بِهِ، فَذَهَبُوا مِنْ عِنْدِ أَبِيهِمْ، فَصُطَادُوا
ذُبَابًا، وَكَسَرُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَجَزَّوهُ بِحَبْلِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالدِّهَمِ، فَلَمَّا مَثَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ: بئس ما فعلت أيها الذئب أكلت حبيبي ومؤنسي وما رحمت صغر سنّه،
وَلَا التَفَتُّ إِلَيَّ عَلَى كِبَرِ سَنَيَّ، فَانْطَقَ اللَّهُ الذِّئْبُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ لَحُومَ
الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْنَا حَرَامٌ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا قَدْ قَالُوا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ نَكَسُوا رُؤُوسَهُمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ
الصَّلَاةِ وَالسَّلَامُ: أَيُّهَا الذِّئْبُ، مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا غَرِيبٌ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَجِئْتُ فِي
طَلَبِ أَخٍ لِي فَارْقَنِي، فَدَخَلْتُ دِيَارَ الشَّامِ، فَوَجَدْتُ الذِّئَابَ فَأَخْبَرُونِي أَنَّهُ اصْطَادَهُ مَلِكٌ
عَلَى أَنْ يَذْبَحَهُ غَدًا، وَلِي سَبْعَةُ عَشَرَ يَوْمًا مَا ذَقْتُ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ حَزَنًا عَلَيْهِ، وَهَذِهِ
الْقِصَّةُ مَا رَأَيْتُهَا فِي الْكُتُبِ الْمَعْتَبَرَةِ، وَإِنَّمَا نَقَلْتُهَا مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْمَقْرِي،
وَاعْتَرَفَ بِعَدَمِ الْمَعْرِفَةِ بِنَاقِلِهَا، وَقَدْ وَرَدَ مَا يَقْرِبُهَا مِنَ الصَّحَّةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: "حَدَّثُوا عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ، وَعَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ"^(١). وَرَبَّمَا يَعِينُ عَلَى
صِحَّةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى
مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

(١) أخرجه البخارى (١٢٧٥/٣)، رقم (٣٢٧٤)، والترمذى (٤٠/٥)، رقم (٢٦٦٩) وقال: حسن صحيح.
وابن حبان (١٤٩/١٤)، رقم (٦٢٥٦). وأخرجه أيضًا: الدارمى (١٤٥/١)، رقم (٥٤٢)، والقضاعي
(٣٨٧/١)، رقم (٦٦٢)، والديلمى (٩/٢)، رقم (٢٠٨١).

قال الشنفرى^(١):

٣٣- وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ وَأَتْسَى وَأَتَسَتْ بِهِ مَرَامِيلُ عَزَاهَا وَعَزَّتْهُ مُزْمِلُ

اللغة:

أغضى من الإغضاء وهو إدناء الجفون، وعلى الشيء سكت، والليل أظلم، أو ألبس في كل شيء كغضا يغضو فيهما، وعنه طرفه سدّه أو صدّه، والغضيانة الجماعة من الإبل الكرام، وشيء غاض حسن الغضو جامّ حافرٌ ورجلٌ غاضٍ، وقد غضا والمراد الأول. وأتسى: بتشديد المثناة المفتوحة أي اتخذها إسوة وقدوة.

مراميل: جمع مرمل على غير قياس وقياسه أرامل وأراملة، يقال: أرملوا القوم تعذر زادهم، وأرملوا الحب طولوه، والسهم تلتخ بالدم، والمرأة صارت أرملة كرمّلت، ورجلٌ أرمِلُ وامرأةٌ أرملة محتاجةٌ أو مسكينة.

عزّاهَا: بعين مهملة، وزاء مشددة من التعزية وهي التسلية.

الإعراب:

وأغضى: الواو عاطفة، وأغضى فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يرجع إلى الأزل.

وأغضت: الواو حرف عطف، وأغضى فعل ماضٍ، والتاء علامة التانيث، وفاعله ضمير يعود إلى نظائر.

وأتسى: الواو عاطفة، وأتسى فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود إلى الأزل.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": أَعْضَى، بالغين والضادِ الْمُعْجَمَتَيْنِ: أَذْنَى الْجَفْنِ مِنَ الْجَفْنِ، وَأَعْضَى الشَّيْءُ: سَكَتَ عَنْهُ. وَابْتَسَى، بِالْمُوَحَّدَةِ التَّحِيَّةِ قَبْلَ الْمُثَنَّةِ الْفَوْقِيَّةِ: أَيْسَ، كَبَسًا بِزَنَةِ: جَعَلَ وَفَرِحَ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَهْمُوزٌ، فَسَهَّلَ الْهَمْزَةَ أَلْفًا هُنَا ضُرُورَةً. وَالْمَرَامِيلُ: الَّتِي نَفَذَ زَادَهَا، وَاجِدَهَا مُزْمِلٌ، فَ(مَرَامِلٌ) فاعِلٌ (ابْتَسَمْتُ)، وَ(مُزْمِلٌ) فاعِلٌ (عَزَاهَا). يَقُولُ: فَأَعْضَى الذَّنْبُ، وَأَعْضَتْ الذَّنَابُ مَعَهُ: أَيْ: سَكَتَتْ بَعْدَ صِيَاغِ مُذْنِيَّةٍ لُجْفُونِهَا، وَأَيْسَ هُوَ بِهَا وَأَنْسَتْ بِهِ مُقْفَرَاتٍ مِنَ الطَّعَامِ، صَبَّرَهَا مُقْفَرٌ مِثْلُهَا وَصَبَّرَتْهُ هِيَ. وَيَصُحُّ أَنْ يَكُونَ (مَرَامِلٌ) خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مُحذوفٍ؛ أَيْ: هِيَ مَرَامِلٌ، وَهُوَ أَوْلَى لِسَلَامَتِهِ مِنْ وَضْعِ الظَّاهِرِ مُوَضِّعِ الْمُضَمِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ سُبْحَانَهُ.

وأولى من التقديرين أن يكون منصوباً على الحال من فاعل (ابْتَسَتْ)، وهو ضميرُ الذَّنَابِ.

وأُتست: فعل ماضٍ، والتاء علامة التأنيث، والفاعل ضمير يعود الى نظائر.

وبه: جار ومجرور متعلق بما قبله، ومتعلق الأول محذوف على رأي البصريين، كقولك: ضربني وضربت زيدا، واحتج الكوفيون بأنه يلزم عليهم الإضمار قبل الذكر، وابن مالك أشار بترجيح مذهبهم في البيت المتقدم فتدبر.

مراميل: خبر مبتدأ محذوف.

عزّاه: فعل ماضٍ، والهاء محله النصب على أنه مفعول، والفاعل الضمير المستتر عائد الى المراميل قبله.

مرمل: فاعل (عزّاه) وقد تنازع فيه الفعلان، فالأوّل يطلبه على أن يكون فاعلاً والثاني يطلبه على أن يكون مفعولاً، فاعمل الأول على اختيار الكوفيين، واضمر في الثاني مفعوله على حدّ قولنا: (ضربني وضربته زيد)، وفي نسخة (مرسل) ولا معنى له، والأوّل هو الصّواب.

تنبيه:

قال السويدي: إنّ الأزل ونظائره أغضوا جفونهم مطرقين، وحقّ معنى البيت ما ذكرناه، إذ فيه تنبيه على أن الإغضاء صدر أولاً من الأزل لا من النظائر، ولا من الكلّ دفعة واحدة، فالترتيب مُستفاد من معونة المقام، وكون الواو لمطلق الجمع لا ينافيه، فإن الشافعي رضي الله عنه أخذ الترتيب من آية الوضوء، مع وقوع العطف فيها بالواو، لأنّ الله تعالى لمّا وسّط الممسوح بين المغسولات علّم أنّ الترتيب مقصود، لأنّ العرب لا تفصل بين المتجانسين الا لغرض، وتوهّم بعض أهل العلم من هذا أن الشافعي يقول بان الواو للترتيب، فإن قلت: من أين يعلم أن الإغضاء مرتب؟ قلت: لأنه لمّا دعاهنّ وأسرعن، واجابته جئن ناظرين إليه، كما هو عادة من يجيب أحداً يأتي إليه، وهو ينظر إلى وجهه يتطلع إلى سبب ندائه، فلمّا أقبلت عليه، وأغضى هو، أغضين معه، واتّسى بهنّ في الصّبر على الجوع، واتّسين به أيضاً.

المعنى:

إن الأزل ترك الصياح، وأعياء القوت، وليس له فلاح، واقتدى بهم، واقتدوا به، متعكرين لفناء الرّاد، وهم غرثى جياع، ولا ينفع فيها الضّجيج والنّزاع، فسلامهم وسلوه بذلك، ولم يختاروا الا التّأسي هنالك.

وفي هذا البيت إشعار بأنّه لا يحتاج الى من يأتسي به، ويسليه عن الجوع، لأنّه أماته، فتساوى عنده اليقظة والهجوم.

فائدة:

وقد وصفته العرب بأوصافٍ مختلفة فقالوا: أغدُر من ذئب، واختل، وأخبث، وأخون، وأحول، وأعتى، وأعوى، وأظلم، وأجرى، وأكسب، وأجوع، وأنشط، وأوقح، وأجسر، وايقظ، وأعق، وألأم، وقالوا: أخوك أم الذئب، وقالوا: أخف رأساً من الذئب، لنومه بإحدى مقلتيه كما ذكرته فتذكر.

ويقال في: الدعاء على العدو: رماه الله بداء الذئب -أي الجوع- وقالوا أيضاً: من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم، وهذا الظلم محتمل للغنم، ومحتمل للذئب، على معنى أنه كلفه ما ليس من طبعه، والأول أوجه، وقيل: أوّل من قال ذلك: أكثم بن صيفي، والصّحيح أن قائله عمر رضي الله عنه في قصة سارية بن حصن في غزوته الى نهاوند، وكان عمر رضي الله عنه يخطب بالمدينة يوم الجمعة، وسارية في نهاوند، فقال في خطبته: يا سارية الجبل الجبل من استرعى الذئب فقد ظلم، فالتفت النّاس بعضهم إلى بعض، فلم يفهموا مراده، فلمّا قضى صلاته، قال له علي كرم الله وجهه: ما هذا الذي قلته؟! قال: أو سمعت؟ قال: نعم، أنا وكلّ أهل المسجد، قال رضي الله عنه: وقّع في خلدي أنّ المشركين هزموا إخواننا، وركبوا أكثافهم، ويمرون بجبل فإنّ عدلوا إليه، قاتلوا من وجه واحد وظفروا، وإن جاوزوه هلكوا، فخرج مني هذا الكلام، فبعد شهر جاء البشير فذكر أنّهم سمعوا ذلك اليوم، وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتاً يشبه صوت عمر رضي الله عنه يقول: يا سارية الجبل الجبل، فعدلوا إليه، ففتح الله تعالى عليهم.

ذكر في تهذيب الأسماء واللّغات، وطبقات ابن سعد، وأسد الغابة، وتجريد الصحابة، أنه: سارية بن زعيم بن عمرو بن عبدالله بن جابر.

وأنشد بعض الشعراء في معنى هذا المثل: [الوافر]

وراعي الشّاء يحمي الذّئب عنها فكيف إذا الرعاء لها ذئاب

فائدة أخرى:

قيل: كان يحيى بن معاذ الرازي، يقول لعلماء زمانه: يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأبوابكم طالوتية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، وموائدكم جاهلية، ومذاهبكم سلطانية، فأين المحمدية؟!، فإذا كان في ذلك الزمان مع قرب العهد، وغلبة الحرص على العلم قيل في حق العلماء -وهم الأخيار- فما ظنك في أهل زماننا، وربما صدق على الكثير منهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، قلت: هذا من باب تنزيل الشيء منزلة عدمه، ونظيره قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] خلافاً لمن اعتبر التباين بين العلمين والزمنين، كما ذكر مُفَصِّلاً في المطول، وللفاضل الرومي في تأويله كلام لطيف تلتقاه الطباع السليمة بالقبول، فليراجع.

قال الشنفرى^(١):

٣٤- شَكَا وَشَكَتْ ثُمَّ اَزْعَوَى بَعْدَ وَاَزْعَوَتْ وَلِلصَّبْرِ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشُّكُوْ أَجْمَلُ

اللغة:

شكا: من شكا أمره إلى الله شكوى ويؤن وشكاوة وشكئة وشكاية - بالكسر -،

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الازعواء: التزوع عن الجهل، وحسن الرجوع عنه.

يقول: شكا الذئب للذئب عند اجتماعهم ما يجده من الجوع والخيبة في الطلب، وشكت هي له ذلك. ثم نزع عن ذلك بعد، وكف وكفت هي أيضاً عن الشكوى، صابرة على تلك البلوى، ولصبر أكثر جمالاً من الشكوى إن لم يكن لها نفع. والمشاركة بين الصبر والشكوى في الجمال بحسب اعتقاد الشاكي على ما يقتضيه الطبع، وإلا فلا جمال للجزع والشكوى بالنسبة للصبر، حتى يكون الصبر زائداً عليه بعد المشاركة. نعم قد يكون الجزع في بعض المواطن هو الجميل دون الصبر كقصيد الدين ومن جاء بالدين خاتم النبيين، وإمام المرسلين صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، فإنه كما قال شاعرنا حسناً بن ثابت رضي الله عنه: [الكامل]

وَالصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ

وَتَشَكَّى وَاشْتَكَى وَتَشَاكَوَا: شَكََا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَالشَّكْوُ وَالشَّكَاةُ وَالشَّكَاءُ: الْمَرَضُ، وَالشَّكْيُ كَفَنِي: الْمَشْكُوعُ وَالْمُوجَعُ، وَمَنْ يَمْرُضُ أَقْلَ مَرَضٍ، وَفَلَانًا زَادَهُ أَذًى وَشِكَايَةً، وَأَزَالَ شِكَايَتَهُ ضِدًّا، وَهُوَ يُشَكِّي بِكَذَا يُتَّهَمُ بِهِ، وَالشَّكْوَةُ وَعَاءٌ مِنْ أَدَمٍ لِلْمَاءِ وَاللَّبَنِ، وَالْمَرَادُ هُنَا الْأَوَّلُ ارْعَوَى: الرَّعْوُ وَالرَّعْوَةُ، وَيَتْلَثَانِ، وَالرَّعْوَى وَيُضَمُّ، وَالْإِرْعَوَاءُ، وَالرُّعْيَا بِالضَّمِّ: التَّزَوُّعُ عَنِ الْجَهْلِ، وَحُسْنُ الرَّجُوعِ عَنْهُ، الرَّعْيُ - بِالْكَسْرِ - الْكَلَاءُ جَمْعُ أَرْعَاءٍ، وَبِالْفَتْحِ الْمَضْدَرُّ، وَالْمَرْعَى: الرَّعْيُ، وَالْمَضْدَرُّ وَالْمَوْضِعُ كَالْمَرْعَاةِ، وَالرَّاعِي: كُلُّ مَنْ وَلِي أَمْرَ قَوْمٍ جَمْعُ رُعَاةٍ، وَرُعْيَانٍ، وَرُعَاءٍ، وَيُكْسَرُ وَالرَّاعِي كُلُّ مَنْ وَلِي الْأَمْرَ وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١): "كُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" الصَّبْرُ: مَنْ صَبَرَهُ يَصْبِرُهُ: حَبَسَهُ، وَصَبْرُ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ عَلَى الْقَتْلِ أَنْ يُحْبَسَ وَيُرْمَى حَتَّى يَمُوتَ، وَقَدْ قَتَلَهُ صَبْرًا، وَصَبْرَهُ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ صَبُورٌ وَمَضْبُورٌ لِلْقَتْلِ، وَيَمِينُ الصَّبْرِ: الَّتِي يُمَسِّكُ الْحَكْمَ عَلَيْهَا حَتَّى تَخْلِفَ، أَوْ الَّتِي تَلْزُمُ وَيَجْبُرُ عَلَيْهَا حَالِفُهَا، وَصَبْرُ الرَّجُلِ: لَزْمُهُ، وَالْمَصْبُورَةُ: الْيَمِينُ، وَالصَّبْرُ: نَقِيضُ الْجَزَعِ - وَهُوَ الْمَرَادُ هُنَا - صَبْرٌ يَصْبِرُ فَهُوَ صَابِرٌ وَصَبِيرٌ وَصَبُورٌ، وَتَصَبَّرَ، وَاضْطَبَرَ، وَاضْبَرَ، وَأَصْبَرَهُ أَمْرُهُ بِالصَّبْرِ، كَصَبْرِهِ، وَجَعَلَ لَهُ صَبْرًا، وَصَبَرَ بِهِ كَنَصَرَ صَبْرًا وَصَبَارَةً.

أَجْمَلُ: اسْمُ تَفْضِيلٍ مِنَ الْجَمَالِ، وَهُوَ الْحُسْنُ فِي الْخُلُقِ وَالْخَلْقِ مِنْ جَمَلِ كَرَمٍ، فَهُوَ جَمِيلٌ كَأَمِيرٍ، وَالْجَمْلَاءُ: الْجَمِيلَةُ، وَالتَّامَّةُ الْجِسْمُ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ، وَجَمَالُكَ أَنْ لَا تَفْعَلَ كَذَا إِغْرَاءً، أَيِ: الزَّمِ الْأَجْمَلَ وَلَا تَفْعَلْ ذَلِكَ.

الإعراب:

شكا: فعل ماضٍ، وفاعله يرجع إلى الأزل.

وشكت: معطوف عليه، والتاء الساكنة علامة التأنيث، وفاعله يعود إلى نظائر.

ثم: حرف عطف، ومعناها الترتيب والتراخي.

ارعوى: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير الغائب المستتر.

وارعوت: معطوف على ارعوى، وفاعله مستتر أيضاً.

(١) أخرجه البخاري (٨٤٨/٢)، رقم (٢٢٧٨)، ومسلم (١٤٥٩/٣)، رقم (١٨٢٩)، وأبو داود (١٣٠/٣)،

رقم (٢٩٢٨)، والترمذي (٢٠٨/٤)، رقم (١٧٠٥)، وقال: حسن صحيح.

وللصَّبْرُ: مبتدأ.

أن: حرف شرط.

لم: حرف نفي وجزم.

ينفع: فعل الشرط كقوله تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]، بتأويل: أن تركتم الفعل فإن جازمة محلّ الجملة على معنى أن عدم النفع.

الشكوى: فاعل ينفع.

أجمل: خبر المبتدأ.

المعنى:

شكى الأزل للذئاب، وشكت هي له عظيم المصاب، وذلك بإظهار كلما عنده من سوء الحال، إمّا بما أنبأ حالهم عنها، أو عواء مخصوص يدلّ على الشكوى، ويشعر بالمال، ثم رجع عن الشكوى، وهم أيضاً رجعوا، واستهانوا مضيض السخب والطوى، وتصبّروا، لأنّ إذا لم تنفع الشكوى أجمل، ولإدراك ما يحاولوه أحسن و أكمل.

تكميل:

التعبيرُ بأفعل التفضيل إشارة الى أن الشكاية قد تكون نافعة لأنها تقلّل الغم، وتخفف الهمّ، وإن لم تكن عن الصبر مانعة، قال البحرى: [الخفيف]

قِفْ مشوقاً أو مُسَعِّداً أو حزيناً أو مُعِيناً أو عاذراً أو عذولاً

وقال ابن شرف القيرواني: [الطويل]

أَعْنِي بِأطماع كذوب على النَّوى إذا لم تُقاتل يا جبانُ فشَجَّع

وعلى كل حال ترك الشكاية بالخَرِّ هو المختار، ومعاناة الصبر لانتظار الفرج من سجايا الأحرار.

قال إبراهيم بن كنيف النبهاني: [الطويل]

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحَرِّ أَجْمَلُ وليس على ريب الزَّمانُ مُعَوَّلُ

فلو كان يُغْنِي أَنْ يُرَى المرءُ جازعاً لحادثة أو كان يغني التَّذلُّ

لَكَانَ التَّعْزِي عِنْدَ كُلِّ مُصِيبَةٍ وَنَائِبَةٍ بِالْحُرِّ أَوْلَى وَأَجْمَلُ
إِلَى أَنْ قَالَ:

وَقَيْنَا بِحُسْنِ الصَّبْرِ مَنْ نَفُوسَنَا فَصَحَّتْ لَنَا الْأَعْرَاضُ وَالنَّاسُ هُزُلُ

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "انتظار الفرج بالصبر عبادة"^(١)، وروي عنه أيضاً: "إِنَّ الصَّبْرَ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ"^(٢)، وقال علي كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: (القِنَاعَةُ سَيْفٌ لَا يَنْبُو، وَالصَّبْرُ مِطْيَةٌ لَا تَكْبُو، وَأَفْضَلُ الْعِدَّةِ الصَّبْرُ عَلَى الشَّدَةِ). وَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَيُّ شَيْءٍ أَقْرَبُ إِلَى الْكُفْرِ؟ قَالَ: (ذُو فَاقَةٍ لَا صَبْرَ لَهُ)، وَقَالَ شِعْرًا فِي التَّلْوِيحِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى: [الطَوِيلُ]

فَلَمْ أَرْ بَعْدَ الدِّينِ خَيْرًا مِنَ الْغِنَى وَلَمْ أَرْ بَعْدَ الْكُفْرِ شَرًّا مِنَ الْفَقْرِ

وقال الحارث بن أسد المحاسبي: (لكل شيء جوهر، وجوهر العقل الصبر). وفي المشتهر من كلامهم: (الصَّبْرُ مُرٌّ لَا يَتَجَرَّعُهُ إِلَّا الْحَزَنُ).

استطرد:

أَوَّلُ مَنْ قُتِلَ صَبْرًا فِي الْإِسْلَامِ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ الْأَنْصَارِيُّ الْأَوْسِيُّ مِنْ بَنِي جَحْجَبِيٍّ
بَنَ كَلْفَةَ ابْنِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ، شَهِدَ بَدْرًا، وَأُسِرَ يَوْمَ الرَّجِيعِ فِي السَّرِيَةِ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا:
مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ، وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْبُكَيرِ، فِي سَبْعَةِ نَفَرٍ، فَقَتَلُوا، وَذَلِكَ فِي
سَنَةِ ثَلَاثٍ، وَأُسِرَ خُبَيْبٌ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّيْنَةِ، فَاَنْطَلَقَ الْمُشْرِكُونَ بِهِمَا إِلَى مَكَّةَ فَبَاعُوهُمَا،
فَاشْتَرَى خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نُوْفَلٍ، وَكَانَ خُبَيْبٌ قَدْ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرِ يَوْمَ
بَدْرٍ، كَذَا قَالَ مَعْمَرُ بْنُ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نُوْفَلٍ ابْتَاعُوا خُبَيْبًا مِنْ

(١) أخرجه القضاعي (١/ ٦٢، رقم ٤٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٤، رقم ٤٨) وقال: قد روى هذا من وجه آخر غير قوى مرفوعاً وروينا عن ابن مسعود من أقواله في هذا المعنى شواهد. والخطيب (١٣/ ٢٢٦). وأخرجه أيضاً: الحاكم (٢/ ٤٨٤، رقم ٣٦٦٦) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني (٩/ ١٠٤، رقم ٨٥٤٤)، قال المنذرى (٤/ ١٤٠): رواه رواة الصحيح، وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم. قال الهيثمي (١/ ٥٧): رجاله رجال الصحيح. والقضاعي (١/ ١٢٦، رقم ١٥٨) والديلمي (٢/ ٤١٥، رقم ٣٨٤١) وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨١٥، رقم ١٣٦٤) وقال: تفرد بروايته محمد بن خالد عن الثوري، ومحمد بن خالد مجروح قال يحيى والنسائي: يعقوب بن حميد ليس بشيء.

حُجَيْر بن أَبِي إِيَّاب التَّمِيمِي حليف لهم، وكان حُجَيْر أَخاً لِلْحَارِث بن العامر لأمه فأبتاعه لعقبة بن الحارث ليقتله بأبيه.

وَقَالَ ابن شهاب: فمكث حُيَيْب عندهم أسيراً حَتَّى إِذَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ اسْتَعَارَ مُوسَى من إحدى بنات الحارث، ليستحذَّ بها، فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي، وَدَرَجَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَاهُ، قالت: فَأَخَذَهُ فَوَضَعَهُ عَلَى فَخْذِهِ، فلما رأيته، فزعت فزعاً عرفه فِي -وَالْمُوسَى فِي يَدِهِ- فقال: أَتَخْشِينَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ ما كنت لأفعل - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - قال: فكانت تقول: ما رأيْتُ أسيراً خَيْرَ من حُيَيْبٍ، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ من حديقة، وأنه لموثق بالحديد، وما كان إِلَّا رزقاً أَتَاهُ اللَّهُ بِهِ.

قال: ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ، فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم قال: لولا أن تروا أنَّ ما بي جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ لَزِدْتُ.

قال: فكان أَوَّلُ من صلى ركعتين عند القتلِ هو، ثُمَّ قال: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدْداً، ثم قال شعراً: [الطويل]

ولستُ أَبالي حين أُقْتَلُ مسلماً على أَيِّ جَنَبٍ كان في الله مَضْرَعِي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصالِ شِلْوٍ ممزَع

قال: ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ عَقْبَةُ بن الحارث، فقتله، هذا كله فيما ذكره ابن شهاب عن عمرو بن أبي سفيان الثقفي عن أبي هريرة.

وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحاق قال: وقال حُيَيْب حين صلبه:

لَقَدْ جَمَعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَالْبُؤُا قبائلهم واستَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعٍ
وقد قَرَّبُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَقُرَّبْتُ مِنْ جَذَعٍ طَوِيلٍ مُمْنَعٍ
إِلَى اللَّهِ أَشْكَو غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتِي وما جمع الأحزابُ لي عند مَضْرَعِي
فَذُو الْعَرْشِ، صَبَّرَنِي عَلَى ما أَصَابَنِي فَقَدْ بَضَعُوا لَحْمِي وَقَدْ ضَلَّ مَطْمَعِي
وقد عَرَضُوا بِالْكَفْرِ وَالْمَوْتِ دُونَهُ وَقَدْ ذَرَفْتُ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَدْمَعٍ
وما بي جَذَارُ الْمَوْتِ، إِنِّي لَمَيِّتٌ وَلَكِنْ جَذَارِي حَرَّ نَارِ تَلْفَعٍ
ولستُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَحْشُوعاً وَلَا جَزَعاً إِنِّي إِلَى اللَّهِ مَرْجَعِي

وَضَلَبَ بِالتَّنْعِيمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى صُلْبَهُ: عَقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ، وَأَبُو هُبَيْرَةَ الْعَبْدَرِيُّ، مَا ذَكَرَ مِنَ الرُّكْعَتَيْنِ نَحْوَ مَا ذَكَرَ ابْنُ شَهَابٍ قَالَ: وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حَزْمٍ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الرُّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ.

وَذَكَرَ الزُّبَيْرِيُّ قَالَ حُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ قَالَ حُ إِسْمَاعِيلُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَقْبَةَ عَنْ عَمِّهِ مُوسَى بْنِ عَقْبَةَ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ: أَنَّ عَقْبَةَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ نُوْفَلٍ اشْتَرَى خُبَيْبًا بْنُ عَدِيٍّ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَكَانَ خُبَيْبٌ قَدْ قُتِلَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ: وَاشْتَرَكْتُ فِي ابْتِيَاعِ خُبَيْبٍ فِيمَا زَعَمُوا: أَبُو إِهَابٍ بْنُ عَزِيزٍ، وَعُكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ، وَعُبَيْدَةُ بْنُ حَكِيمٍ، وَأُمِيَّةُ بْنُ أَبِي عَتَبَةَ، وَبَنُو الْحَضْرَمِيِّ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمِيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، وَهُمْ أَبْنَاءُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَتَطْعَمَهُ، وَقَالَ لَهَا: إِذَا أَرَادُوا قَتْلِي فَأَذْنِيْنِي، فَلَمَّا أَرَادُوا قَتْلَهُ أَذْنَتْهُ، فَقَالَ لَهَا: أَبْغِيْنِي حَدِيْدَةً أَسْتَحِدُّ بِهَا، فَأَعْطَتْهُ مُوسَى، فَقَالَ لَهَا - وَهُوَ يَمْزَحُ -: قَدْ أَمَكَّنَ اللَّهُ مِنْكُمْ، فَقَالَتْ: مَا كَانَ هَذَا ظَنِّي بِكَ، فَطَرَحَ الْمُوسَى، وَقَالَ: إِنَّمَا كُنْتُ مَازِحًا. وَرَوَى عُمَرُ بْنُ أُمِيَّةِ الضَّمْرِيُّ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ، لِأَنْزِلَهُ مِنَ الْخَشْبَةِ، فَصَعِدْتُ خَشْبَتَهُ لَيْلًا فَقَطَعْتُ عَنْهُ، وَأَلْقَيْتُهُ، فَسَمِعْتُ وَجْبَةً خَلْفِي، فَالْتَفَتُ فَلَمْ أَرَ شَيْئًا.

رَوَى سَفِيَّانُ بْنُ عَمِيْنَةَ عَنْ عُمَرُو بْنِ دِينَارٍ عَنْ جَابِرٍ: أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: الَّذِي قُتِلَ خُبَيْبًا: أَبُو سُرُوْعَةَ عَقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نُوْفَلٍ.

وَقَدْ قَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: [الْبَسِيطُ]

يَا عَيْنُ جُودِي بَدَمْعٍ مِنْكَ مُنْسَكِبٍ	وَابْكِي خُبَيْبًا مَعَ الْغَادِيْنَ لَمْ يَوُبْ
صَقْرًا تَوَسَّطَ فِي الْأَنْصَارِ مَنْصِبُهُ	حُلُو السَّجِيَّةِ مَحْضًا غَيْرَ مُؤْتَشَبِ
قَدْ هَاجَ عَيْنِي عَلَى عَلَاتٍ غَبَرَتْهَا	إِذْ قِيلَ نَصْرٌ إِلَى جَذْعٍ مِنَ الْخَشَبِ
يَا أَيُّهَا الرَّائِبُ الْغَادِي لِطَيْبِهِ	أَبْلَغَ لَدَيْكَ وَعَيْدًا لَيْسَ بِالْكَذِبِ
يَا ابْنِي فُكَيْهَةً إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ لَفَحَتْ	يَحْلُو بِهَا الصَّابُ إِذْ عَنَّتْ لِمُحْتَلَبِ
فِيهَا أَسْوَدُ بَنِي النَّجَّارِ يُقَدِّمُهُمْ	شُهْبُ الْأَسِنَّةِ فِي مُعْصُوصِ لَجَبِ

وَأَمَّا حَجْرُ بْنُ عَدِيٍّ، وَيَكْنَى أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْكُوفِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُلٌّ مِنْ فَضْلَاءِ

الصحابه، وكان على كنده يوم صفين، وعلى الميسرة يوم النهروان، ولمّا ولى معاوية رضي الله عنه زياداً العراق وما والاها، وأظهر من الغلظة، وسوء السيرة ما أظهر خلعه حجر، ولم يخلع معاوية، وتابعه جماعة من أصحاب علي رضي الله عنه وخطأه يوماً في تأخير الصلاة هو وأصحابه، فكتب به وأصحابه إلى معاوية، فأمره أن يبعث إليه مع وائل بن حجر الحضرمي في اثني عشر رجلاً -كلهم في الحديد- فقتل معاوية منهم ستة، واستحيا ستة، وكان حجر ممن قُتل، فبلغ ما صنع زياد بهم أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- فبعثت إلى معاوية عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: الله الله في حجر وأصحابه، فوجده قد قُتل هو وخمسة من أصحابه، فقال لمعاوية: أين عزب عنك حلم أبي سفيان في حجر وأصحابه؟! ألا حبستهم بالسجون، وعرضتهم للطّاعون، قال: حين غاب عني مثلك من قومي، قال: والله لأتعد لك العرب بعد ذلك حلماً بعدها أبداً، ولا رأياً، قتلت قوماً بُعث بهم أسارى إليك من المسلمين، وقدم معاوية المدينة، فدخل على عائشة رضي الله عنها فكان أول ما بدأته به قتل حجر في كلام طويل جرى بينهما قال لها: دعيني وحجر، نلتقي غداً عند ربنا.

والموضع الذي قُتل فيه مع أصحابه يُعرف بمرج عذراء ولمّا قدم به إلى معاوية، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: أو أمير المؤمنين أنا؟! اضرَبوا عنقه، فلمّا قُدم لذلك قال: دعوني أصلي ركعتين، فصلاهما خفيفتين، ثم قال: لولا تظنون فيّ الخوف من القتل لأطلتهما، والله لأن كانت صلاتي لم تنفعني فيما مضى، ما هما نافعتان الآن، ثم قال لمن حضّر من أهله: لا تطلقوا عني حديداً، ولا تغسلوا عني دماً، فإني ملاق معاوية على الجادة، وكان مستجاب الدعوة.

ونقل ابن عبد البر حديثاً يروى عن مسروق الأجدع، قال: سمعت عائشة - رضي الله عنها- تقول: أما والله لو علِم معاوية أن عند أهل الكوفة منعة ما اجتري أن يأخذ حجراً وأصحابه من بينهم، حتّى يقتلهم بالشام، ولكن ابن أكلة الأكباد علِم أنه قد ذهب النَّاسُ، والله إن كانوا لجمجمة العرب عزّاً وفقهاً، والله درُّ لبيد حيث يقول [الكامل]

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَ فِي خَلْفِ كَجَلِدِ الْأَجْرَبِ
لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَرْجَى خَيْرُهُمْ وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبْ

فائدة:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] الآية. قال في الكشف: إِنَّمَا تَأَنَّى وَتَثَبَّتْ فِي إجابة الملك، وَقَدَّمَ سَوَالَ النِّسْوَةِ، لتظهر براءة ساحاته عَمَّا قُذِفَ بِهِ، وَسُجِّنَ فِيهِ، لئلا يتسلَّق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده، ويجعلوه سُلْماً إلى حَطِّ منزلته لديه، ولئلا يقولوا ما خَلَّدَ فِي السَّجْنِ سِيعَ سِنِينَ إِلَّا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَجَرَمٍ كَبِيرٍ، حَقٌّ بِهِ أَنْ يَسْجَنَ وَيُعَذَّبَ، وَيُسْتَكْفَى شَرُّهُ، وفيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الاجتهاد في نفي التُّهْمِ واجبٌ وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها، قال عليه الصلاة والسلام: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفَنَّ مواقف التُّهْمِ"^(١). ومنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للممارين به في معتكفه - وعنده بعض نساءه - هي فلانة، اتقاءً للتهمة. وقد وَرَدَ التصريحُ بها في رواية البخاري من أنَّها: صفية بنت حيي.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: "عَجِبْتُ مِنْ يَوْسُفَ وَكِرْمِهِ، وَصَبْرِهِ، وَاللَّهِ يَغْفِرُ لَهُ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْبَقَرَاتِ الْعِجَافِ وَالسَّمَانِ، لَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ مَا أَخْبَرْتَهُمْ حَتَّى اشْتَرَطَ إِنْ يَخْرُجُونِي، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ أَتَاهُ الرَّسُولُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ، وَلَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثْتُ لِأَسْرَعَتْ الْإِجَابَةُ، وَبَادَرْتَهُمُ الْبَابَ، وَلَمَّا ابْتَغَيْتُ لَهُمُ الْعِذْرَ، إِنْ كَانَ لَحْلِيماً ذَا أُنَاةٍ"^(٢). انتهى.

نَقَلَ الطَّبِيبِيُّ عَنْ "شرح السُّنَّةِ": أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفَ يَوْسُفَ بِالْأُنَاةِ وَالصَّبْرِ، حَيْثُ لَمْ يَبَادِرْ إِلَى الْخُرُوجِ حِينَ جَاءَهُ رَسُولُ الْمَلِكِ، فَعَلَ الْمَذْنِبَ، حَتَّى يَعْفَى عَنْهُ - مع طول لبثه في السجن - بل قال: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ [يوسف: ٥٠]، أَرَادَ أَنْ يَقِيمَ الْحُجَّةَ فِي حَبْسِهِ إِيَّاهُ ظُلْماً، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَبِيلِ التَّوَضُّعِ، لَا أَنَّهُ كَانَ مِنْهُ مَبَادِرَةٌ وَعِجْلَةٌ لَوْ كَانَ مَكَانَ يَوْسُفَ، إِذْ التَّوَضُّعُ لَا يَصْغُرُ كَبِيراً، وَلَا يَضَعُ رَفِيعاً، وَلَا يَبْطِلُ لَذِي حَقِّ حَقَّهُ، وَلَكِنَّهُ يَوْجِبُ لِصَاحِبِهِ فَضْلاً، وَيَكْسِبُهُ أَجْلاً وَقَدِراً، انتهى كلامه.

(١) رواه العجلوني في كشف الخفاء ٢٥٤/٢.

(٢) رواه الكلاباذي في معاني الأخبار ١٥٤/١.

ومما سنع على الخاطر أَنَّ الصبر على الكيفية التي أبداه المصطفى أكمل من الصبر على الكيفية التي أبداه الصديق يوسف، إذ الصبر مع التَّشَبُّثِ بأسباب النَّجاة أَتَمُّ كمالاً، فلو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه لطلب الخروج من السجن بالدُّعاء، وذلك منه أعظم سبباً، وليس منافياً للصَّبْرِ بدليل قوله تعالى في حقِّ أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، مع أَنَّهُ عليه السلام قال: ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فإن قيل: مدحه لصبره بقوله صلى الله عليه وسلم: "إِنْ كَانَ لِحَلِيمًا ذَا أَنَاةٍ"، قد ينافي ما ذكر، قلت: لا منافاة إِذْ غاية ذلك أَنَّهُ أثبت الغاية القصوى في الحلم والأناة، وهي صفة مدح لكن لا يلزم من ذلك أَنْ لا يكون غيرها أمدح، إِذْ خير الأمور التوسط بين الإفراط والتفريط، فتدبر.

قال الشنفرى^(١):

٣٥ - وَفَاءٌ وَفَاءَتْ بِإِدْرَاتٍ وَكُلُّهَا عَلَى نَكِصٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مُجْمَلُ

اللغة:

فاء: من الفياء، وهو الرُّجُوعُ، يقال: فاء يفيء فيئاً، إِذَا رَجَعَ.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الفَيْئَةُ: الرجوعُ، والبادِرُ: الذي بَدَرَ غَيْرَهُ إِلَى الأَمْرِ، سَبَقَهُ إِلَيْهِ وَعَاجَلَهُ. وَالنَّكَطُ، بالنون والكافِ والظاءِ الْمُشَالَةُ مُحَرَّكَةٌ: الجَهْدُ وَالْمَشَقَّةُ هُنَا. وَالْمَكَاتِمَةُ: الْكَيْتَمُ وَالْكَيْتَمَانُ؛ أَي: الْإِخْفَاءُ. وَالْإِجْمَالُ: التَّوَدُّعُ وَالْإِعْتِدَالُ فِي الطَّلَبِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ.

و (بَادِرَاتٍ) منصوبٌ على الحالِ مِنْ فاعِلٍ (فَاءَتْ). و(كُلُّهَا) مبتدأٌ خبرُهُ (مُجْمَلُ) بسكونِ الجيم وكسرِ الميم. و(على نَكَطٍ) حالٌ من الضميرِ المُسْتَرِ في الخبرِ، و(على) فيه بمعنى (مع). و(ما) في (مِمَّا يُكَاتِمُ) موصولٌ اسميٌّ، و(يُكَاتِمُ) صِلَتُهُ، والعائدُ محذوفٌ؛ لِأَنَّهُ منصوبٌ بالفعلِ.

وتقديرُ البيتِ: ثُمَّ ارْعَوَى وَارْعَوْتُ وَرَجَعَ عَوْدُهُ عَلَى بَدْئِهِ، وَرَجَعَتْ هِيَ أَيْضاً فِي حَالِ كَوْنِهَا سَابِقَاتٍ إِلَى الْفَيْئَةِ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مُتَّبِدٌ فِي طَلَبِ الْقَوْتِ مَعْتَدِلٌ فِيهِ، لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الْإِفْرَاطِ الْمُؤْذِنِ بِشِدَّةِ الْحَرَصِ مَعَ جَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ كَائِنٍ مِنَ الَّذِي يُخْفِيهِ مِنَ الْجُوعِ الشَّدِيدِ الَّذِي لَا يُشْبِهُ الْجُوعَ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْمَثَلَ الَّذِي يُضْرَبُ فِي جُوعِ الذَّنْبِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: رَمَاهُ اللَّهُ بِدَاءِ الذَّنْبِ، وَيَقُولُونَ أَيْضاً: هُوَ كَالَّذَنْبِ يُعْبِطُ بِذِي بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعٌ، وَإِذَا كَانَ الذَّنْبُ - وَهُوَ حَيَوَانٌ أَعْمَجٌ مِنْ أَحْقَرِ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى مَا يُكَادِبُهُ مِنَ التَّعَبِ الْمُفْرِطِ مِنَ الْجُوعِ وَالْحَاجَةِ الشَّدِيدَةِ - لَيْسَ بِشَدِيدِ الْحَرَصِ عَلَى الْقَوْتِ فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ وَهُوَ فَاهِمٌ عَاقِلٌ أَلَّا يَكُونَ شَرًّا مِنَ الذَّنْبِ فِي ذَلِكَ.

بادرات: من البُدور، وهو الإسراع، يقال: بدرت إلى الشيء أبْدُرُ بُدْرًا وبدورًا، أي أَسْرَعْتُ، وكذلك بادرت إليه، وتبادر القومُ: تسارعوا، وابتدروا السلاح: تسارعوا إلى أخذه، وليلة البدر أربع عشرة، وسمي بدرًا لمُبادرته الشمس بالطلوع، وكأنه يعجلها المغيب. وفي نسخة: باديات، من بدا يبدو بدوًا إذا ظَهَرَ، أو من بدا القوم إذا خرجوا إلى باديتهم، والفضل للمتقدم.

النكص: من نَكَصَ عن الأمرِ نَكْصًا ونكوصًا: تَكَأَّى عنه وَأَحْجَمَ، وعلى عَقْبِيهِ رَجَعَ عَمَّا كان عليه من خَيْرٍ، فهو خَاصٌّ بِالرُّجُوعِ عن الْخَيْرِ، وقد وَهَمَ الْجَوْهَرِيُّ بِإِدْعَاءِ إطلاقه، أو كونه في الشَّرِّ، وذلك بِإِدْعَاءِ النِّدْوَرِ، وَالْمَنْكَصُ: الْمُتَنَحِّي أو الرُّجُوع.

يكاتم: من المكاتمة، وهو أَنْ يسألَ كَتَمَ سرّه، يقال: كاتمي سرّه، إذا سألني أن أكتمه.

مجمل: من أَجْمَلَ في الطَّلَب: اتَّأَدَ واعتدل فلم يُفِرْطْ.

الإعراب:

وفاء: الواو عاطفة، وفاء فعل ماضٍ، والفاعل ضمير راجع إلى الأزل.

وفاءت: معطوف على فاء، والتاء علامة التانيث، والفاعل يعود إلى النَّظَائِرِ.

بادرات: حال من ضمير فاءت منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة على خلاف الأصل كما هو مذكور تفصيله في كتب النحو، والحال الذي من فاعل فاء محذوف، والتقدير: فاء بادر أو فاءت بادرة، ويجوز جعله حالاً من الاثنين، وهو الأظهر.

على نكص: جار ومجرور متعلق بمجمل في آخر البيت.

مما: جار ومجرور، وما موصولة، وجملة يكاتم هي الصلة، وهو فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود إلى كل، والعائد محذوف، إذ التقدير: كاتمته، والجار والمجرور متعلّق بما تحلق به الذي قبله، ومن: للسببية، ويصح جعلها للتبويض، والأول أظهر.

مجمل: خبر، والجملة محلّها النصب على أنها حال من فاعل بادرات، وهي حال متداخلة، ويجوز كونها مترادفة. كما يَبَيَّنُ لك الفرق فيما تقدّم فتذكر.

المعنى:

رَجَعَ الْأَزْلُ مُسْرِعاً مِنْ غَيْرِ تَوَانٍ وَخَشَوْعٍ، ونظائره مسرعات، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَتَانٌ معتدل في الرجوع لئلا يُعْلَمُ كنه حاله، وَيُطْلَعُ عَلَى آمَالِهِ، فالمبادرة إلى السرعة خشية توهم الجزع، وعدم إفراطه في السرعة خوفاً من يُظَنُّ بِهِ طَمَعٌ، ورجوع كُلِّ مِنْهَا مسرعات حذراً من أَنْ يَأْكُلَهُ الْبَاقُونَ، لَمَّا كَانَتْ مِنْ بَعْضِ خِصَالِهَا، وما هم لها مجتمعون، ولا منافاة بين بادرات ومجمل حين إرادة الإسراع الغرير الشديد من الأول، وذلك بالإتحاد أكمل.

تكميل:

جواب التحرير السويدي في شرحه عمّا قيل: ما السبب في تقديم وصف الْأَزْلَ في هذه الأبيات على نظائره بقوله قلت: للإشعار بأنّ الذئب من قِبَلِ المدد المعين، فاللائق بها أَنْ تكون تابعة له في كُلِّ حَكْمٍ وَأَمْرٍ. وَأَقُولُ: هذا يؤيد ما أوردته في شرح قوله: وَأَغْضَى وَأَغْضَى إِلَى آخِرِهِ، فتذكّر.

استطراد:

قال البخاري: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهُ الرَّاعِي فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبْعِ يَوْمَ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي؟ وَبَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلِكِنِّي خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: آمَنْتُ بِذَلِكَ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا"^(١).

وفي هذا الحديث برهان قطعي على تفضيل سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا عمر رضي الله عنهما، إذ تخصيصهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان بما ذَكَرَ - مع عدم وجودهما في المجلس، كما هو ثابت في الصَّحِيح - ومع وجود غيرهما من الصَّحَابَةِ، صريحٌ في ذلك.

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٩/٣)، رقم (٣٤٦٣).

وحين جَرَى ذكر هذين الهمامين ودنا أَنْ نُطَرِّزَ هذا الْمُصَنَّفُ ببيان بعض مناقبهما، وما وَرَدَ فِي حَقِّهِمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إظهاراً لما كَفَّرَ بِهِ غلاة المارقين، واتقاناً لما سمحت به أنظار المتقين.

أما أَبُو بَكْرٍ فَاسمه عبد الله بن أَبِي قُحَافَةَ، الصديق رضي الله عنه كان اسمه في الجاهلية عَبْدُ الْكَعْبَةِ، سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ، هذا قَوْلُ أَهْلِ النَّسَبِ، الزُّبَيْرِيُّ وَغَيْرُهُ، وَأَسْمَ أَبِيهِ أَبِي قُحَافَةَ عَثْمَانُ بْنُ عَامِرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمٍ بْنِ مُرَّةَ، وَأَسْمَ أُمِّهِ سَلْمَى، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ قُلْتُ لَابْنِ دَاؤَبٍ: مَنْ أُمُّ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رضي الله عنه فقال: أُمُّ الْخَيْرِ. قَالَ أَبُو عَمْرِو: لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ مَهَاجِرَتِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَفِيقَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي هِجْرَتِهِ غَيْرُهُ، وَهُوَ كَانَ مُؤَنِّسَهُ فِي الْغَارِ إِلَى أَنْ خَرَجَ مَعَهُ مَهَاجِرًا، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ فِي قَوْلِ طَائِفَةٍ مِنَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْبَيْتِ وَالْخَبَرِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا ذَكَرَ وَأَوْلَتْكَ.

وكان يقال له: عتيق، واختلف العلماء في المعنى الذي قيل له: عتيق، فقال الليث بن سعد وجماعة: وإنما قيل له عتيق لجماله وعتاقته وجهه. وَقَالَ مُصْعَبُ الزُّبَيْرِيُّ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ: إِنَّمَا سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ عَتِيقًا لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا"^(١)؛ فَسُمِّيَ عَتِيقًا بِذَلِكَ.

حدثني خلف قاسم قال: ح أبو الميمون البجلي قال ح أبو زُرْعَةَ الدمشقي وح أبو الوارث بن سفيان، واللفظ له وحديثه أتم، قال: دنا سعيد بن منصور، قال: دنا صالح بن موسى، قال: أخبرنا موسى بن إسحاق، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: إِنِّي لَفِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ بِالْفَنَاءِ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُمُ السُّتْرُ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا". قَالَتْ: وَإِنْ اسْمُهُ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَثْمَانَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَمْرِو.

وحدثني خلف بن قاسم قال دنا أحمد بن محبوب قال دنا محمد بن عبدوس قال

(١) أخرجه ابن سعد (٣/١٧٠)، والحاكم (٣/٦٤)، رقم (٤٤٠٤) وقال: صحيح الإسناد.

دنا أبو بكر بن أبي شيبة قال دنا شيخ لنا قال دنا خالد عن الشعبي قال: سألت ابن عباس أي الناس كان أول إسلاماً، فقال: أمّا سمعت قول حسان بن ثابت: [البسيط]

إِذَا تَذَكَّرْتُ شَجَوًّا مِنْ أَخِي ثِقَةً فَادْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَنْقَاهَا وَأَعْدَلَهَا بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا
وَالثَّانِي التَّالِي الْمَحْمُودَ مَشْهُدُهُ وَأَوَّلُ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرُّسُلَا

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان: "هَلْ قُلْتَ فِي أَبِي بَكْرٍ شَيْئاً؟" قال نعم، وأنشده هذه الأبيات وفيها بيت رابع: [البسيط]

وِثَانِي أَتَيْنِ فِي الْغَارِ الْمَنِيْفِ وَقَدْ طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَدُوا الْجَبَلَا
فَسَّرَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، وقال: "أَحْسَنْتَ يَا حَسَّانُ"^(١). وقد روي فيها بيت خامس، وهو: [البسيط]

وَكَانَ حَبَّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلَا
وروى شعبة عن عمرو بن مرة عن إبراهيم التَّخَعِي قال: أبو بكر أول من أسلم. وأُخْتُلِفَ فِي مَكَثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَارِ، فَقِيلَ: مَكَثَ ثَلَاثًا. يروى ذلك عن مجاهد.

وقد روي في حديث مُرْسَلٍ أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَكَّثْتُ مَعَ صَاحِبِي فِي الْغَارِ بَضْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا ثَمَرُ الْبَرِيرِ"^(٢). يعني: الأراك، وهذا غير صحيح عند أهل العلم بالحديث والأكثر على ما قاله مجاهد، والله أعلم.

وروى الجُرَيْرِيُّ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَا أَسْلَمْتُ قَبْلَكَ - فِي حَدِيثٍ ذَكَرَهُ - فَلَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهِ^(٣).

والصحيح ما ذكرناه في شرح بيت من الأبيات المتقدمة فتذكر.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٨٢/٣)، رقم (٤٤٦١).

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤٢١/٢)، رقم (٥٢٨٦).

(٣) أخرجه ابن عساکر (٦٩/١٦).

وَمِمَّا قِيلَ فِي أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلُ أَبِي هَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ -فِيمَا ذَكَرُوا- شِعْرًا:
[الطويل]

وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَقُومَ بِأَمْرِنَا وَيَحْفَظُهُ الصَّدِيقُ وَالْمَرْءُ مِنْ عَدِي
أَوْلَاكَ خِيَارَ الْحَيِّ فَهَرُبْنِ مَالِكٍ وَأَنْصَارُ هَذَا الدِّينِ مِنْ كُلِّ مُعْتَدِي

وقال فيه أبو محجن الثقفي: [من الطويل]

وَسُمِّيَتْ صَدِيقًا وَكُلُّ مُهَاجِرٍ سِوَاكَ يُسَمَّى بِأَسْمِهِ غَيْرُ مُنْكَرٍ
سَبَقَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ وَكُنْتَ جَلَسًا بِالْعَرِيشِ الْمُشْهَرِّ
وَبِالْعَارِ إِذْ سُمِّيَتْ بِالْعَارِ صَاحِبًا وَكُنْتَ رَفِيقًا لِلنَّبِيِّ الْمُطَهَّرِ

وَسُمِّيَ الصَّدِيقُ لِمَبَادَرَتِهِ إِلَى تَصَدِيقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ، وَقِيلَ: بَلْ قِيلَ لَهُ الصَّدِيقُ لِتَصَدِيقِهِ لَهُ فِي خَبَرِ الْإِسْرَاءِ. وَقَدْ ذَكَرْنَا الْخَبَرَ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَجِيهًا رَئِيسًا مِنْ رُؤَسَاءِ قَرِيشَ، وَإِلَيْهِ كَانَتْ الْأَشْنَاقُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْأَشْنَاقُ الدِّيَاتُ كَانَ إِذَا حَمَلَ شَيْئًا قَالَتْ قَرِيشُ صَدَّقُوهُ وَأَمْضُوا حِمَالَتَهُ وَحِمَالَةً مَنْ قَامَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَإِنْ احْتَمَلَهَا غَيْرُهُ خَذَلُوهُ وَلَمْ يَصَدِّقُوهُ.

وَأَسْلَمَ عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ: الزُّبَيْرُ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ. رَوَى سَفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: (أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ وَلَهُ أَرْبَعُونَ أَلْفَ أَنْفَقِهَا كُلُّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا نَفَعَنِي مَالٌ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ"^(١).

وَأَعْتَقَ أَبُو بَكْرٍ سَبْعَةً كَانُوا يُعَذِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْهُمْ: بِلَالٌ وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ.

وَفِي حَدِيثِ التَّخْيِيرِ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمُنَا بِهِ).

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٦٣٣/٥، رَقْمُ ٣٧١٤) وَقَالَ: غَرِيبٌ. وَابْنُ عَسَاكِرَ (٧١/٣٩)، وَالْحَاكِمُ (٧٦/٣)، رَقْمُ ٤٤٤١) وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ. وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: الْبَزَارُ (٥١/٣، رَقْمُ ٨٠٦)، وَأَبُو يَعْلَى (٤١٨/١، رَقْمُ ٥٥٠).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "دَعُوا لِي صَاحِبِي فَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ: كَذَبْتَ. وَقَالَ لِي: صَدَقْتَ". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تكليم البقرة والدَّيْب، وما بَيْنَاهُ من اختصاص كمال اليقين فقد تقدّم فتذكر.

وَقَالَ عمرو بن العاص: "يا رسول الله مَنْ أَحَبَّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ. قلت: مِنْ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُوها"^(١).

وروى مالك عن سالم بن أبي النضر عن عبيد بن حنين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِنْ أَمَنِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامَ، وَقَالَ: سَدُّوا كُلَّ خَوْخَةٍ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه"^(٢).

روى سفيان بن عيينة عن الوليد عن ابن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنهم قالوا لها: ما أشدَّ ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام فتذاكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يقول في آلهتهم، فينا هم كذلك إذ دَخَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فقاموا إليه، وكان إذا سأله عن شيء صَدَّقَهُمْ، فقالوا: أَلَسْتَ تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ قَالَ بلى، قالت فتشَبَّثُوا به بأجمعهم فَأَتَى الصَّرِيخُ أَبَا بَكْرٍ فَقِيلَ لَهُ: أَدْرَكَ صَاحِبُكَ، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَوَجَدَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والنَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَيْهِ، فقال: ويلكم، أَتَقْتُلُونَ رجلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي الله؟! وقد جاءكم بالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، قال: فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبي بكر رضي الله عنه يضربونه، قالت: فرجع إلينا فَجَعَلَ لَا يَمَسُ شَيْئاً مِنْ غَدَائِرِهِ إِلَّا جَاءَ مَعَهُ، وهو يقول: "تباركت يا ذا الجلال والإكرام".

وروينا من وجوه عن أبي أمامة الباهلي قال: حَدَّثَنِي عمرو بن عَبَسَةَ قال: "أَتَيْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بعُكَاظٍ فَقُلْتُ: يا رسول الله من أَتَّبَعَكَ على هذا الأمر؟ قال: حُرٌّ وَعَبْدٌ: أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ، قال: فأسلمت عند ذلك وذكر الحديث"^(٣).

(١) أخرجه الترمذی (٧٠٧/٥)، رقم (٣٨٩٠).

(٢) أخرجه البخاری (١٧٧/١)، رقم (٤٥٤)، ومسلم (١٨٥٤/٤)، رقم (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه مسلم (٥٧١/١)، رقم (٨٣٢).

أخبرني أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزار قال: حدثنا قاسم بن أصبغ قال: حدثني الحارث بن أبي أسامة ومحمد ابن إسماعيل الترمذي قال: حدثنا عفان قال دنا همام قال دنا ثابت عن أنس أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ: "يَا أَبَا بَكْرٍ؛ مَا ظَنُّكَ بَاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا"^(١).

وروينا أَنَّ رجلاً من أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ: وَاللَّهِ مَا كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا وَعَلِيٌّ مَعَهُ فِيهِ، فَقَالَ الْقَاسِمُ: يَا أَخِي لَا تَحْلِفْ، قَالَ: هَلَمْ، قَالَ: بَلَى، مَا لَا تَرَوْهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثَانِيَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته بعده بما أظهر من الدلائل البينة على صحّة ذلك، وبالتعريض الذي يقوم مقام التصريح، ولم يصرح بذلك، لأنه لم يؤمر فيه بشي، وكان لا يضع شيئاً في دين الله إِلَّا بَوَحْيٍ، والخلافة ركنٌ من أركان الدين.

ومن الدليل الواضح على ما قلنا ما حدثنا سعيد بن نصر وعبد الوارث بن سفيان قالوا دنا قاسم بن أصبغ قال دنا أحمد بن زهير قال دنا منصور بن مسلمة الخزاعي واخبرنا أحمد بن عبد الله قال دنا الميمون بن حمزة الحسيني بمصر دنا الطحاوي عن المزني قال دنا الشافعي

قال: دنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أتت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة تسأله عن شي، فأمرها أن ترجع إليه فقالت: يا رسول الله؛ أرايت إن جئت ولم أجذك -تعني الموت-؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنْ لَمْ تَجِدْنِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ"^(٢).

قال الشافعي: في الحديث دليلٌ على أَنَّ الخليفةَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وروى الزُّهري عن عبد الملك بن أبي بكر بن عبد

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٧/٣)، رقم (٣٤٥٣)، ومسلم (١٨٥٤/٤) رقم (٢٣٨١)، والترمذي (٢٧٨/٥)، رقم (٣٠٩٦) وقال: حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضاً: ابن أبي شيبة (٣٤٨/٦)، رقم (٣١٩٢٩)، وعبد بن حميد (ص ٣٠، رقم ٢)، وأبو يعلى (٦٨/١)، رقم (٦٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٣٩/٦)، رقم (٦٧٩٤)، ومسلم (١٨٥٧/٤)، رقم (٢٣٨٦).

الرَّحْمَنُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلِيلٌ، فَدَعَاهُ بِلَالٌ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ لِتَأْمُرَ مَنْ يَصَلِّي بِالنَّاسِ قَالَ: فَخَرَجْتُ فَإِذَا عَمْرٌ فِي النَّاسِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ غَائِبًا، فَقُلْتُ: قُمْ يَا عَمْرُ فَصَلِّ بِالنَّاسِ، فَقَامَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلَمَّا كَبَّرَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَهُ وَكَانَ مَجْهَرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ؟ يَا أَبَى اللَّهِ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ"^(١). فَبَعَثَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَجَاءَ بَعْدَ أَنْ صَلَّى عَمْرُ تِلْكَ الصَّلَاةِ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ طَوْلَ عِلَّتِهِ حَتَّى مَاتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَذَا أَيْضًا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى ذَلِكَ. حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ نَصْرٍ قَالَ دَنَا قَاسِمُ بْنُ أَصْبَغٍ قَالَ دَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الْقَاضِي قَالَ دَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ قَالَ دَنَا سَفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ عَنْ مَوْلَى لِرَبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ.

حَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي الْعَوَّامِ قَالَ: حَ أَبِي أَحْمَدُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ أَبِي الْعَوَّامِ قَالَ: دَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْوَاسِطِيُّ قَالَ دَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ عَنْ زَرٍّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كَانَ رَجُوعُ الْأَنْصَارِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ بِكَلَامٍ قَالَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (نَشَدْتُمْ اللَّهَ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَصَلِّيَ بِالنَّاسِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: فَأَيْكُمْ تَطِيبُ نَفْسَهُ أَنْ يُزِيلَهُ عَنْ مَقَامِ أَقَامَهُ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: كُلُّنَا لَا تَطِيبُ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ).

وَرَوَى إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: (اجْعَلُوا إِمَامَكُمْ خَيْرَكُمْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ إِمَامًا خَيْرَنَا بَعْدَهُ).

وَرَوَى الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَضَ لِيَالِي وَأَيَّامًا يَنَادِي بِالصَّلَاةِ: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يَصَلِّيَ بِالنَّاسِ"^(٢)، فَلَمَّا قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَتْ فَإِذَا الصَّلَاةُ عِلْمٌ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٢٢/٤)، رَقْمُ (١٨٩٢٦)، وَالْحَاكِمُ (٧٤٣/٣)، رَقْمُ (٦٧٠٣) وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ. وَالضَّيَاءُ (٣٥٧/٩)، رَقْمُ (٣١٤). وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: أَبُو دَاوُدَ (٢١٥/٤)، رَقْمُ (٤٦٦٠)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ (١١/٢)، رَقْمُ (١٠٦٥).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٣٦/١)، رَقْمُ (٦٣٣)، وَمُسْلِمٌ (٣١٣/١)، رَقْمُ (٤١٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٦١٣/٥)، رَقْمُ (٣٦٧٢) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَابْنُ مَاجَهَ (٣٨٩/١)، رَقْمُ (١٢٣٢). وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: أَحْمَدُ (٩٦/٦)، رَقْمُ (٢٤٦٩١).

الإسلام وقوام الدين فرضينا لدينانا من رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فبايعنا أبا بكر.

وقد ذكر هذا الخبر، وكثيراً مثله في معناه عند قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مروا أبا بكر يصلي بالناس" في التمهيد والحمد لله.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: أنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك كان يدعى: يا خليفة رسول الله، وكان يدعي عمر: خليفة أبي بكر صدراً من خلافته حتى تسمى بأمر المؤمنين لقصة سنذكرها في بابه إن شاء الله تعالى.

قرأتُ على أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن حكم أن محمد بن معاوية أخبرهم قال دنا الفضل بن الحباب الجمحي قال دنا أبو الوليد الطيالسي قال دنا نافع بن عمر الجمحي عن أبي مليكة قال: قال رجل لأبي بكر يا خليفة الله، قال: لستُ بخليفة الله، ولكن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا راضٍ بذلك.

حدثنا خلف بن قاسم وعلي بن إبراهيم قال دنا الحسن بن رشيق دنا علي بن سعيد ابن بشير دنا أبو كريب دنا عبيد بن حسين الصّيدلاني دنا مسعر بن كدام عن عبد الملك بن ميسرة عن التّزّال بن سبرة عن عليّ قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر. وروى محمد بن الحنفية وعبد خير وأبو جحيفة عن علي مثله.

وكان عليّ رضي الله عنه يقول: (سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثني أبو بكر، وثالث عمر، ثم خبطتنا فتنة يعفو الله فيها عمن يشاء).

وقال عبد خير سمعتُ علياً يقول: (رحم الله أبا بكر كان أوّل من جمع ما بين اللّوحين).

وروينا عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من وجوه أنّه قال: (ولينا أبا بكر فخير خليفة أرحمه وأحناه علينا).

قال مسروق: حُبُّ أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السُّنة.

وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً نحيفاً خفيف العارضين أجناً لا يستمسك أزرته، تسترخي عند حقويه، معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة عاري الأشاجع، هكذا وصفته ابنته عائشة.

ببيع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سقيفة بني ساعدة، ثم ببيع البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم، وتخلف عن بيعته سعد بن عباد وطائفة من الخزرج وفرقة من قريش، وقيل: أنه تخلف عنه من قريش علي والزبير وطلحة وخالد بن سعيد بن العاص ثم بايعوا بعد.

وقد قيل: إن علياً لم يبايعه إلا بعد موت فاطمة رضي الله عنها ثم لم يزل سامعاً له يشني عليه ويفضله.

حدثنا أحمد بن محمد بن أحمد قال دنا أحمد بن الفضل بن العباس قال دنا محمد بن جرير قال دنا محمد بن أحمد قال دنا سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر أن خالد بن سعيد بن العاص قدم من اليمن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فتربص ببيعته لأبي بكر شهرين وكان يقول: قد امرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعزلني ثم بايع أبا بكر، فلما بعث أبو بكر الجنود إلى الشام كان أول من بعث على ريع منها خالد بن سعيد فلم يزل به حتى عزله، وأمر يزيد بن أبي سفيان، وكان عمر رضي الله عنه قد اضطفن عليه تأخره عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه.

أخبرنا محمد بن عبد الملك قال دنا ابن الأعرابي قال دنا الحسن بن محمد الرّعفراني قال دنا يزيد بن هارون وأبو قطن وأبو عباد ويعقوب الحفري واللفظ ليزيد قالوا دنا محمد بن طلحة عن أبي عبيدة بن الحكم عن الحكم بن حجل قال: قال علي رضي الله عنه: لا يفضلني أحد على أبي بكر إلا جلده حذّ المفتر.

حدثنا خلف بن قاسم حدثنا عبد الله بن عمر، دنا أحمد بن محمد بن الحجاج دنا يحيى بن سليمان دنا إسماعيل بن علية دنا أيوب النحيتاني عن محمد بن سيرين قال: لما ببيع أبو بكر أبطأ علي رضي الله عنه عن بيعته وجلس في بيته، قال: فبعث إليه أبو بكر ما أبطأك؟ أكرهت إمارتي؟ قال: ما كرهت إمارتك ولكني آليت أن لا أرثدي ردائي إلا إلى صلاة حتى أجمع القرآن، قال ابن سيرين: فبلغني أنه كتبه على تنزيله، ولو أصيب ذلك الكتاب لوجد فيه غلم كثير.

وذكر عبد الرزاق عن معمر عن أيوب بن عكرمة قال: لما ببيع لأبي بكر تخلف علي رضي الله عنه عن بيعته، وجلس في بيته، فلقيه عمر فقال: تخلفت عن بيعة أبي

بكر، فقال: إِنِّي آليت بيمين حيث قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ارتدي برداء إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى أجمع القرآن فاني خشيت أن ينفلت، ثم خرج فبايعه.

وقد ذكرنا جمع علي رضي الله عنه للقرآن في بابه أيضاً من غير هذا الوجه،
والحمد لله.

ذكر ابن المبارك عن مالك بن مغول عن ابن ابجر قال: لما بويع لأبي بكر جاء أبو سفيان بن حرب إلى علي رضي الله عنه فقال: غلبكم على هذا الأمر أذل بيت في قريش، أما والله لا ملأناها خيلاً ورجالاً، قال: فقال علي رضي الله عنه مازلت عدواً للإسلام وأهله إنا رأينا أبا بكر لها أهلاً وهذا الخبر مما رواه عبد الرزاق عن ابن مبارك حدثنا محمد بن إبراهيم ثنا محمد بن أحمد ثنا محمد بن أيوب ثنا محمد بن عمرو البزار ثنا أحمد بن يحيى ثنا محمد بن بشير ثنا عبيد الله بن عمر عن زيد بن أسلم عن أبيه: أن علياً والزبير كانا حين بويع لأبي بكر يدخلان على فاطمة رضي الله عنها ويشاورانها، ويتراجعون في أمرهم، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فدخل عليها فقال: يا بنت رسول الله والله ما كان من الخلق أحداً أحب إلينا من أبيك، وما أحد أحب إلينا منك، وقد بلغني أن هؤلاء نفر يدخلون عليك، ولئن بلغني لافعلن ولا فعلن ثم خرج، وجاءوها فقالت لهم: أن عمر قد جاءني وحلف لئن عدتم ليفعلن، وأيم الله ليفين بها، فانظروا أمركم ولا ترجعوا، فانصرفوا فلم يرجعوا حت بايعوا لأبي بكر رضي الله عنه.

وحدثنا أحمد بن محمد بن المفضل ثنا محمد بن جرير ثنا محمد بن حميد ثنا مسلمة عن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر إن خالد بن سعيد لما قدم اليمن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تربص ببيعته شهرين، ولقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما فقال: يا بني عبد مناف أقدم طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم، فأما أبو بكر فلم يحفل بها، وأما عمر فامتعتها عليه، فلما بعث أبو بكر خالد بن سعيد أميراً على ربع من أرباع الشام وكان أول من استعمل عليها، فجعل عمر يقول له: اتؤمزه وقد قال ما قال؟! فلم يزل بأبي بكر حتى عزله، وولّى يزيد بن أبي سفيان وقال ابن أبي عزة القرشي الجمحي: [الكامل]

شُكراً لمن هو بالثناء خليقُ ذهب اللجاجُ وبويع الصديقُ
من بعد ما دحضت بسعد فعلة ورجا رجاءً دونهُ العيوقُ

جاءت به الأنصار عاصب رأسه فأتاهم الصديق والفاروق
وأبو عبيدة والذين إليهم نفس المؤمل للبقاء تتوق
كُنَّا نقول لها عليّ والرضا عمرُ وأولاهم بذاك عتيق
فدعت قريش باسمه فأجابها إنَّ المنوّه باسمه الموثوق

أخبرنا خلف بن قاسم قال: دنا الحسن بن رشيق قال: دنا أبو بشير الدولابي دنا إبراهيم دنا الحُمَيْدي يُقال دنا سفيان الوليد بن كثير من ابن صياد عن سعيد بن المسيب قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو أبي بكر - رضي الله عنه -: أمر جلال! فمن ولي بعده؟ قالوا: ابنك، قال: فهل رضيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم قال: لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منعه الله.

ومكث أبو بكر في خلافته سنتين وثلاثة أشهر واثنى عشر يوماً فقام بقتال أهل الردة، وظهر من فضل رأيه في ذلك وشِدَّتِه مع لينه ما لم يحسب، ف أظهر الله به دينه، وقتل على يديه وبركته كلُّ من ارتدَّ عن دين الله، حتى ظهر أمرُ الله وهم كافرون.

واختلف في السَّبب الذي مرض فيه، فذكر الواقدي: أنه اغتسل في يوم بارد فحُمَّ، ومرض خمسة عشر يوماً.

وقال الزُّبير بكَار: وكان به طرف من السُّلِّ.

وروي عن سلام بن أبي مطيع: أنه سُمَّ، والله اعلم.

واختلف أيضاً في حين وفاته، فقال ابن إسحاق: توفي يوم الجمعة لسبع ليالٍ من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وقال غيره من أهل السير: أنه مات يوم الاثنين، وقيل ليلة الثلاثاء، وقيل عشي الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة هذا قول أكثرهم.

وأوصى أن تغسله أسماء بنت عميس زوجته، فغسلته، وصلى عليه عمر بن الخطاب، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وعبد الله بن أبي بكر، ودفن ليلاً في بيت عائشة مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يختلفون أن سنة انتهت إلى حين وفاته ثلاثاً وستين إلا فيما لا يصحّ، وأنه استوفى بخلافته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم سن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان نقش خاتمه: نعم القادر الله فيما ذكر الزبير بن بكار، وقال غيره كان نقش خاتمه: عبد ذليل لرب جليل.

وروى سفيان بن حسين عن الزهري قال: سألتني عبد الملك بن مروان قال: رأيت هذه الأبيات التي تروى عن أبي بكر، فقلت لم يقلها حدثني عروة عن عائشة أن أبا بكر لم يقل بيت شعري في الإسلام حتى مات، وانه كان قد حرّم الخمر في الجاهلية هو وعثمان رضي الله عنهما.

وأما عمر رضي الله عنه فهو ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ابن رباح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشي العدوي رضي الله عنه أبو حفص، وأُمّه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عمر بن مخزوم.

وقد قالت طائفة في أم عمر: حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، ومن قال ذلك فقد اخطأ، لو كانت كذلك لكانت أخت أبي جهل بن هشام والحاتر بن هشام بن المغيرة، وليس كذلك إنما هي بنت عمهما لأن هشام بن المغيرة وهاشم بن المغيرة أخوان، فهاشم والد حنتمة أم عمر، وهشام والد الحارث وأبي جهل وهاشم بن المغيرة هذا كان جدّ عمر لأُمّه كان يقال له ذو الرّمحين.

ولد عمر رضي الله عنه بعد الفيل بثلاث عشر سنة.

وروى أسامة بن زيد أسلم عن أبيه عن جدّه قال: سمعتُ عمر رضي الله عنه يقول: ولدتُ بعد الفجار الأعظم بأربع سنين.

قال الزبير بن بكار: كان عمر بن الخطاب من أشرف قريش، وإليه كانت السفارة في الجاهلية، وذلك أن قريشاً كانت إذا وقعت بينهم حرب أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيراً.

وإن نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافراً ومفاخراً ورضو به. قال أبو عمر: ثم أسلم بعد رجالٍ سبقوه.

روى ابن معين عن ابن إدريس عن حصين عن هلال بن يساف قال اسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة.

قال أبو عمر: فكان إسلامه عزاً ظهر به الإسلام بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم وهاجر مع المهاجرين الأولين، وشهد بدرًا وبيعة الرضوان وكل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي وهو عنه راضٍ وولي الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنهما ببيع له بها يوم مات أبو بكر باستخلافه سنة ثلاث، فسار بأحسن سيرة، وانزل نفسه من مال الله بمنزلة رجلٍ من الناس، وفتح الله له المدائن والشَّام والعراق ومصر.

ودَّون الدواوين في العطاء، ورتب الناس فيه على سوابقهم.

وكان لا يخاف في الله لومة لائم، وهو الذي نور شهر الصوم بصلاة الاشفاع فيه، وأرَخَّ التاريخ من الهجرة الذي بأيدي الناس الى اليوم.

وهو أوَّل من تسمَّى بأمر المؤمنين لقصة نذكرها هنا -أن شاء الله-.

وهو أوَّل من اتخذ الدِّرة، وكان نقش خاتمه: كفى بالموت واعظاً يا عمر.

وكان آدم شديد الأمة، طوالاً، كَثَّ اللَّحْيَة، أصْلَع، أعسر أيسر، يخضب بالحناء بحتاً. قال أبو عمر: الأكثر أنهما رضي الله عنهما كانا يخضبان.

وقد روي عن مجاهد - إن صحَّ - أن عمر كان لا يغير شبيهه هكذا وصفه زُرَّابن حبش وغيره: أنه كان آدم شديد الأدمة، وهو الأكثر عند أهل العلم بأيام النَّاس وسيرهم وأخبارهم.

ووصفه أبو رجاء العطاردي - وكان مفصلاً - فقال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه طويلاً جسيماً، أصْلَع شديد الصَّلْع، أبيض، شديد حمرة العينين، وفي عارضيه خفة، سلبته كثيرة الشعر في أطرافها ضُهبة.

وقد ذكر الواقدي من حديث عاصم بن عبيد الله بن عمر عن أبيه قال: إنما جاءتنا الأدمة من قبل أخوالي بني مضعون، كان أحداً لا يتزوج لشهوته الا لطلب الولد، وعاصم بن عبيد الله لا يحتجُّ بحديثه ولا بحديث الواقدي وزعم الواقدي: أن سمرة عمر وأدمته من أكل الزَّيت عام الرَّمادة، وهذا منكزٌّ من القول، وأصحُّ ما في هذا الباب -والله أعلم- حديث سفيان الثَّوري عن سَمَّاك عن هلال بن عبد الله: رأيت عمر بن الخطاب رجلاً أدماً كأنه من رجال سدوس في رجله روح.

ومن حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب صدر عمر بن الخطاب -حين أسلم- ثلاث مرات ويقول: "اللهم أخرج ما في صدره من غلٍّ وأبدله إيماناً"^(١) يقوله ثلاث مرات.

ومن حديث ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه"^(٢).

ونزل القرآن بموافقتة في أسرى بدر، وفي الحجاب، وفي تحريم الخمر، وفي مقام إبراهيم.

وروي من حديث عقبة بن عامر وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَوْ كَانَ مِنْ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ"^(٣).

وروى سعد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد كان في الأمم قبلكم محدثون؛ فإن يكن في هذه الأمة أحد فعمر بن الخطاب"^(٤). ورواه أبو داود الطيالسي عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة مثله.

وروى ابن المبارك عن يونس عن ابن شهاب عن سالم وحزمة ابني عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بيننا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت حتى رأيت الري يخرج من أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر، قالوا: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: العلم"^(٥).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٩١/٣، رقم ٤٤٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥٣/٢، رقم ٥١٤٥)، وعبد بن حميد (ص ٢٤٥، رقم ٧٥٨)، والترمذی (٦١٧/٥) رقم ٣٦٨٢. وأخرجه أيضاً: ابن حبان (٣١٨/١٥، رقم ٦٨٩٥)، والطبرانی فی الأوسط (٣٣٨/٣، رقم ٣٣٣٠)، قال الهيثمي (٦٦/٩): رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن صالح كاتب الليث، وقد وثق وفيه ضعف. وتمام (١٩/٢، رقم ١٠١٦)، وابن عساکر (١٠٣/٤٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٤/٤، رقم ١٧٤٤١).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٦٤/٤، رقم ٢٣٩٨)، والترمذی (٦٢٢/٥، رقم ٣٦٩٣)، والنسائي في الكبرى (٣٩/٥، رقم ٨١١٩).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣/١، رقم ٨٢)، ومسلم (١٨٥٩/٤، رقم ٢٣٩١)، والترمذی (٥٣٩/٤، رقم ٢٢٨٤) وقال: حديث صحيح.

ورواه معمر عن الزُّهري عن سالم عن أبيه قال كنا نحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينا أنا نائم أتيت بقدح فشربت فذكر مثله سواء".

وروى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دخلت الجنة فرأيت فيها داراً - أو قال: قصرًا - وسمعت فيها ضوضاء فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لرجل من قريش، فظننت أنني أنا هو، فقلت: من هو؟ فقبل: عمر بن الخطاب، فلولا غيرتك يا أبا حفص لدخلته، فبكى عمر فقال: أعليك يغار، أو قال: أعليك أغار يا رسول الله" ^(١).

وروى الطيالسي أبو داود عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيتني في المنام والناس يعرضون عليّ عليهم قمص منها إلى كذا ومنها إلى كذا، ومَرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجرُ قميصه فقيل: يا رسول الله؛ ما أولت؟ قال: الدِّين". هكذا رواه إبراهيم بن سعد فيما حدث به الطيالسي ^(٢).

وأخبرنا خلف بن القاسم قال حدثنا الحسن بن حجاج الزِّيَّات الطُّبراني قال حدثنا الحسن بن محمد المدني قال حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر قال حدثنا الليث بن سعد قال حدثنا ابن الهادي عن إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل بن أبي بكر عن أبي سعيد الخدري أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "بينا أنا نائم والناس يعرضون عليّ وعليهم قمص فمنها ما يبلغ إلى الثدي ومنها ما دون ذلك وعرض عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره قال: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: الدِّين".

وقال علي: (خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر)، وقال رضي الله عنه: (ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر).

وروى أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن مالك الدَّار قال: (أصاب الناس

(١) أخرجه ابن عساكر (٢٦٦/٣٥). وأخرجه أيضًا: البزار (٢٧٧/٨)، رقم (٣٣٤٣). قال المنذرى

(٦٦/٤): رواه ثقات إلا عمار بن سيف وقد وثق.

(٢) أخرجه الطيالسي (٣٠٩/١)، رقم (٢٣٥٥).

قحط في زمان عمر رضي الله عنه فجاء رجل الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، قال: فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال: ائت عمر فمره يستسقي للناس فإنهم سيسقون، وقل له: عليك الكيس الكيس، فأتى الرجل عمر فأخبره قال: فبكى عمر رضي الله عنه وقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه).

قال ابن مسعود: (ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر).

وقال حذيفة: كان علم الناس كلهم قد دُسّ في حجر مع علم عمر ولقد كانوا يرون أنّه ذهب بتسعة أعشار العلم، ولمجلس كنت أجلسه مع عمر أوثق في نفسي من عمل سنة.

وذكر عبد الرزاق عن معمر قال: لو أن رجلاً قال عمر أفضل من أبي بكر ما عَنَّفْتُهُ، وكذلك لو قال عليّ: عندي أفضل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم أُعَنِّفْهُ، إذا ذكر فضل الشَّيْخَيْنِ وأحبهما وأثنى عليهما بما هما أهله، فذكرت ذلك لوكيع فأعجبه واشتهاه.

قال أبو عمر: يدل على أن أبا بكر أفضل من عمر رضي الله عنهما سبقه إلى الإسلام، وما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي وَزَنْتُ بِأَمْتِي فَرَجَحْتُ، ثُمَّ وَزَنَ أَبُو بَكْرٍ فَرَجَحَ" وفي هذا بيان واضح في فضله^(١).

وقال عمر: (ما سابقت أبا بكر إلى خير قطّ إلاّ سبقني إليه، ولوددت أني شعرة في صدر أبي بكر).

وذكر سيف بن عمرو عن عبيدة بن مغيث عن إبراهيم النخعي قال: أوّل من وليّ أبو بكر شيئاً من أمور المسلمين عمر بن الخطاب، ولآه القضاء، فكان أوّل قاضٍ في الإسلام، فقضى بين الناس بالحق، وولّى عبد الله بن مسعود لعس المدينة.

وأما القصة التي ذكرت في تسمية عمر نفسه بأمر المؤمنين فذكر الزُّبَيْر قال: قال عمر: كان أبو بكر يقال له: خليفة رسول الله فلو قيل له: خليفة خليفة رسول الله، يطول

(١) أخرجه ابن عدى (٣٢٥/٦)، ترجمة ١٨٠٦ معروف بن أبي معروف البلخي).

هذا، فقال له المغيرة بن شعبة: أنت أميرنا ونحن المؤمنون فأنت أمير المؤمنين، فقال: فذاك.

حدثني خلف بن القاسم قال: حدثنا أبو أحمد الحسين بن جعفر بن إبراهيم قال حدثنا زكريا بن يحيى بن أيوب بن باد العلاف قال حدثنا عمرو بن خالد قال حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن موسى بن عقبة عن الزُّهري أن عمر بن عبد العزيز سئل أبا بكر سليمان بن أبي خيثمة لأي شيء كان أبو بكر يكتب من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وكان عمر يكتب من خليفة أبي بكر؟ ومن أول من كتب عبد الله أمير المؤمنين؟

فقال: حدثني الشفاء وكانت من المهاجرات الأول أن عمر بن الخطاب كتب الى عامل العراق أن ابعث إليّ برجلين جلدتين نبيلين أسألهما عن العراق وأهله فبعث إليه عامل العراق لبید بن ربيعة العامري، وعديّ بن حاتم الطائي، فلما قدما المدينة أناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم دخلا المسجد فإذا هما بعمر بن العاص، فقالا له: استأذن لنا على أمير المؤمنين عمر، فقال عمرو: وأنتما والله أصبتهما اسمه نحن المؤمنون وهو أميرنا، فوثب عمرو فدخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ما بدا لك في هذا الاسم؟ أن الله يعلم ليحزنني ما قلت، قال: إن لبید بن ربيعة وعدي بن حاتم قدما فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم دخلا المسجد ثم قالوا: استأذن لنا يا عمرو على أمير المؤمنين، فهما والله أصابا اسمك أنت الأمير ونحن المؤمنون، قال: فجرى الكتاب من يومئذ قال يعقوب: وكانت الشفاء جدة أمير المؤمنين أبي بكر - رضي الله عنه -.

ورويانا من وجوه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يرمي الجمرة فأتاه حجر فوقع على صلعته فأدماه، وثم رجل من بني لهب فقال: أشعر يا أمير المؤمنين، لا يحجّ بعدها، قال ثم جاء الى الجمرة الثانية فصاح رجل فقال: لا يحجّ أمير المؤمنين بعد عامة هذا فقتل عمر رضي الله عنه بعد رجوعه من الحجّ.

قال محمد بن حبيب : لهب مكسور اللام قبيلة من قبائل الازد يعرف فيها القيافة والرّجر.

قال أبو عمر: وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ثلاث وعشرين في ذي الحجة طعنه أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة لثلاث بقين من ذي الحجة هكذا قال الواقدي وغيره.

قال الزبير: لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وروى سعيد عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عم معد بن أبي طلحة اليعمري قال: قتل عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، فكانت خلافته سنين وستة أشهر.

قال أبو نعيم: قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين ونصفاً.

أخبرنا عبد الوارث قال دنا القاسم دنا محمد بن عبد السلام دنا ابن أبي عمر دنا سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: قتل أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وطعن معه اثنا عشر رجلاً فمات منهم ستة رضي الله عنهم فمال عليه رجل من أهل العراق قد لبس بُزْئاً ثم برك عليه، فلما رأى أنه لا يستطيع أن يتحرك جاد بنفسه فقتلها.

ومن أحسن شيء يروى في مقتل عمر رضي الله عنه وأصح ما حدثنا خلف بن قاسم بن سهل قال دنا محمد بن القاسم بن شعبان قال حدثنا أحمد بن شعيب النسائي قال: حدثنا أحمد بن سليمان قال حدثنا عبيد الله بن موسى قال دنا إسرائيل عن ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون قال: شهدت عمر يوم طعن وما منعي أن أكون في الصف المتقدم إلا هيبة، وكان رجلاً مهيباً فكنت في الصف الذي يليه فأقبل عمر فعرض له أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فناجى عمر قبل أن تستوي الصفوف ثم طعنه ثلاث طعنات، فسمعت عمر وهو يقول: دونكم الكلب فانه قد قتلني، وماج الناس، وأسرعوا إليه فجرح ثلاثة عشر رجلاً، فانكفاً عليه رجل من خلفه فاحتضنه وحمل عمر، فماج الناس بعضهم في بعض حتى قال قائل: الصلاة عباد الله، طلعت الشمس، فقدموا عبد الرحمن بن عوف فصلّى بنا بأقصر سورتين في القرآن ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [النصر: ١] و﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. واحتمل عمر ودخل الناس عليه فقال: يا عبد الله بن عباس أخرج فناد في الناس أعن ملاً منكم هذا؟ فخرج ابن عباس وقال: أيها الناس أن أمير المؤمنين يقول: أعن ملاً منكم هذا؟ فقالوا: معاذ الله ما علمنا ولا اطلعنا، فقال:

ادعوا إلي الطبيب، فدعي فقال: أي الشراب أحب إليك؟ قال: النبيذ، فسقي نبذاً فخرج من بعض طعناته، فقال الناس هذا دم، هذا صديد، فقال: اسقوني لبناً فسقي لبناً فخرج من الطعنة، فقال الطبيب: لا أرى أن تمسي فما كنت فاعلاً فافعل وذكر تمام الخبر في الشورى، وتقديمه لصهيب في الصلاة، وقوله في علي: إن ولّوها الاالجح سلك بهم الطريق المستقيم - يعني: علياً - وقوله في عثمان وغيره، فقال له ابن عمر: ما يمنعك أن تُقدّم علياً؟ قال: أكره أن أتحمّلها حيا وميتاً.

وذكر الواقدي قال: أخبرني نافع عن أبي نعيم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: غدوت مع عمر بن الخطاب إلى السوق وهو متكئ على يدي فلقه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فقال: ألا تكلم مولاي يضع عتي من خراجي؟ قال: كم خراجك؟ قال: دينار؛ قال: لا أرى أن أفعل، وانك لعامل محسن، وما هذا بكثير، ثم قال له عمر: لا تعمل لي رحا؟ قال: بلى؛ فلما ولى قال أبو لؤلؤة: لأعملن لك رحي يتحدث الناس بها ما بين المشرق والمغرب، قال: فوقع في نفسي قوله، فلما كان في البداء لصلاة الصبح وخرج عمر إلى الناس يؤذنه للصلاة، قال الزبير: وأنا في مصلاي وقد اضطجع له عدو الله أبو لؤلؤة فضربه بالسكين ست طعنات: إحداهن من تحت سرتة من قبله، فصاح عبد الرحمن بن عوف قتل والله أمير المؤمنين فمن يقوم يصلي بالناس، فتقدم عبد الرحمن فصلّى بالناس وقرأ في الركعتين ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] و﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] واحتملوا عمر فادخلوه بمنزله فقال لابنه عبد الله اخرج فانظر من قتلني، قال: فخرج عبد الله بن عمر فقال: من قتل أمير المؤمنين؟ فقالوا: أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، فرجع فاخبر عمر فقال: الحمد لله الذي لم يجعل قتلي بيد رجل يحاجيني بلا إله إلا الله، ثم قال: انظروا عبد الرحمن بن عوف، فذكر الخبر في الشورى بتمامه.

دنا خلف بن قاسم دنا الحسن بن رشيح دنا الدولابي دنا محمد بن حميد دنا علي عن مجاهد قال: اختلف علينا في شأن أبي لؤلؤة، فقال بعضهم: كان نصرانياً، فحدثنا أبو سنان عن أبي إسحاق الهمداني عن عمرو بن ميمون الاودي قال: كان أبو لؤلؤة ازرق نصرانياً، وقال غيره، كان نصرانياً وجاء بسكين له طرفان، فلما جرح عمر جرح معه ثلاثة عشر رجلاً في المسجد، فلما أخذ قتل نفسه.

وأُخْتَلَفَ فِي سَنِّ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ تُوْفِي رُؤْيِي ذَلِكَ مِنْ وَجْهِهِ: عَنْ مَعَاوِيَةَ، وَمِنْ قَوْلِ الشَّعْبِيِّ، وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْعٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِ قَالَ: قَدْ تُوْفِي عَمْرٌ وَهُوَ ابْنُ بَضْعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ هَشِيمٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ عَمْرَ قُبِضَ وَهُوَ ابْنُ بَضْعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَقَالَ الزَّهْرِيُّ: تُوْفِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَقَالَ قَتَادَةُ: تُوْفِي: وَهُوَ ابْنُ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ سَنَةً وَقِيلَ مَاتَ وَهُوَ ابْنُ سِتِينَ سَنَةً، وَقِيلَ مَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِينَ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارُ دَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ دَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ قَالَ حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَعْفِيُّ عَنْ زَائِدَةَ بِنْتِ قَدَامَةَ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو بَرْدَةَ وَأَخِي عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ: أَنَّ رَأْيَ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ فَوْقَهُمْ ثَلَاثُ أَذْرَعٍ قَالَ: فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: عَمْرٌ، قُلْتُ: لِمَ؟ قَالُوا: لِأَنَّ فِيهِ ثَلَاثَ خِصَالٍ: لِأَنَّهُ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، وَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُسْتَخْلَفٍ، وَشَهِيدٌ مُسْتَشْهَدٌ، قَالَ: فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَضَّهَا عَلَيْهِ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَمْرِ فِدْعَاهُ لِيَشْرَهُ، قَالَ: فَجَاءَ عَمْرٌ، فَقَالَ: أَقْصَصْ رُؤْيَاكَ، قَالَ: فَلَمَّا بَلَغْتَ خَلِيفَةَ مُسْتَخْلَفٍ زَبْرَنِي عَمْرٌ فَانْتَهَرَنِي وَقَالَ: اسْكُتْ، تَقُولُ هَذَا وَأَبُو بَكْرٍ حَيٌّ، قَالَ فَلَمَّا كَانَ بَعْدِي وَُلِّيَ عَمْرٌ مَرَرْتُ بِالشَّامِ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ قَالَ: فِدْعَانِي وَقَالَ: أَقْصَصْ رُؤْيَاكَ فَقَصَصْتُهَا، فَلَمَّا قُلْتُ: أَنَّهُ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، قَالَ: أَنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ كَذَلِكَ، فَلَمَّا قُلْتُ: خَلِيفَةُ مُسْتَخْلَفٍ، قَالَ: قَدْ اسْتَخْلَفَنِي اللَّهُ، فَلَهُ أَنْ يَعِينَنِي عَلَى مَا وَلَّانِي، فَلَمَّا أَنْ ذَكَرْتُ شَهِيدٌ مُسْتَشْهَدٌ، أَنِّي لِي الشَّهَادَةُ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، تَغْزُونَ وَلَا أَغْزُو، ثُمَّ قَالَ: يَأْتِي بِهَا اللَّهُ أَنْ شَاءَ اللَّهُ.

أَخْبَرَنَا سَعِيدُ بْنُ سَعِيدٍ دَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بَنَ عَلِيٍّ دَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ دَنَا أَبُو يَعْقُوبَ الدِّيرِيُّ دَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ بَنَ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّبَيْرِ عَنْ سَالِمٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى عَلَى عَمْرِ قَمِيصاً أبيضَ فَقَالَ: " أَجْدِيدُ قَمِيصِكَ هَذَا، أَمْ غَسِيلٌ؟ قَالَ: بَلْ غَسِيلٌ، فَقَالَ: الْبَسْ جَدِيدًا، وَعَشْ حَمِيدًا، وَمُتْ شَهِيدًا، وَيرزقك الله قرة عين في الدنيا والآخرة، قال: وإياك يا رسول الله" (١).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٣/١٢)، رقم (١٣١٢٧).

وروى معمر عن الزُّهري قال: صَلَّى عمر على أبي بكر حين مات، وصَلَّى ضُهيْب على عمر.

وروي عن عمر أَنَّهُ قال في انصرافه من حِجته التي لم يحج بعدها: الحمد لله ولا إله إلا الله يعطي من يشاء ما يشاء، لقد كنت في هذا الوادي -يعني ضُجنان- أُرعى إبلاً للخطَّاب، وكان فظاً غليظاً يتعَبني إذا عملت، ويضربني إذا قَصَرْتُ، وقد أصبحت وأُمسيت، وليس بيني وبين الله أحد أخشاه ثم تمثل: [البسيط]

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويودي المال والولدُ
لم تغن عن هرمرز يوماً خزائنه	والخلد قد حاولت عاذُ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له	والإنسُ والجنُّ فيما بينها بردُ
أين الملوك التي كانوا لعزَّتْها	من كلِّ أوبٍ إليها وافد يفدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب	لا بُدَّ من وردها يوماً كما وردوا

وروي عن عمر رضي الله عنه أَنَّهُ قال حين احتضر ورأسه في حجر ابنه عبد الله رضي الله عنهما: [الطويل]

ظلوم لنفسِي غير أَنِّي مسلمٌ أَصلي الصَّلَاةَ كُلَّها وأُصومُ

حدثنا عبد الوارث دنا قاسم دنا جعفر بن محمد الصَّائغ دنا سليمان بن داود الهاشمي دنا إبراهيم بن سفيان الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة عن أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه أَن عاتشة حدثتها أَن عمر رضي الله عنه أَذن لا زواج النَّبي صلى الله عليه وسلم أَن يحججن في آخر حِجَّة حَجَّها عمر، قالت: فلما ارتحل من الحصبة، أَقبل رجل متلثم فقال: وأنا اسمع: أين كان منزل أمير المؤمنين؟ فقال قائل وأنا اسمع: هذا كان منزله، فأناخ في منزل عمر ثُمَّ رفع عقيرته يتغنى: [الطويل]

عليك سلام من أمير وباركت	يد الله في ذاك الأديم الممزَّق
فمن يجر أو يركب جناحي نعامه	ليدرك ما قدمت بالأمس يُسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها	بوائج في أكمامها لم تفتَّق

قالت عاتشة: فقلت لبعض أهلي: اعلّموا لي من هذا الرَّجل؟ فذهبوا فلم يجدوا في

مناخه أحداً، قالت عائشة: فو الله أني لأحسبه من الجنّ، فلما قتل عمر رضي الله عنه نحل الناس هذه الأبيات للشماخ بن ضرار ولأخيه مزرد كانوا أخوة ثلاثة كلهم شاعر.

وروى مسعر عن عبد الملك بن عمير عن رجل عن عروة عن عائشة قالت: ناحت الجنّ على عمر رضي الله عنه قبل أن يقتل بثلاث فقالت: [الطويل]

أبعدَ قَتِيلٍ بالمدينةِ اظلمتْ له الأرض تهتزُّ العضاة بأسوق
جزى الله خيراً من إمامٍ وباركتْ يدُ الله في ذاك الأديم الممزق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائق في أكمامها لم تَقُقْ
وما كنت أخشى أن تكون وفاته بكفّي سبتي أزرَق العين مطرُقْ

ويورى: بكفّي سبتي، والسبنت والنمر والجري وقد يمدّ السبتاء، والمطرُق: الحق، قال المتلمس: [الطويل]

فأطرقَ إطراق الشُّجاع ولو يرى مساغاً لناييه الشُّجاع لصمّما

ويروى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

نعت نفسها الدنيا إلينا فأهرعت ونادت ألا جدّ الرّحيل وودعت
على الناس الدنيا إلى برزخ البلا وسأقت بنا سوقاً حثيثاً فاسرعت
على الناس بالتسليم والضّبر والرضا فما ضاقت الأحوال إلا توسعت
وكم من منى للنفس قد ظفرت بها وحنّت إلى ما فوقها وتطلّعت
سلام على أهل القبور أحبتي وإن أخلقت أسبابهم وتقطعت
فما موت الأحياء إلا ليعثوا والّا لتجزى كلّ نفس بما سعت

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن قال دنا أبو بكر محمد بن بكر قال: دنا أبو داود قال دنا محمد بن سلمة المرادي المصري قال دنا ابن وهب قال حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمر وأبي جهل، وهما يتناجيان، فقال: اللهم أعزّ الإسلام بأحبهما إليك، قال عمر بن محمد فحدثني أبي محمد بن زيد قال: فلما كان من الغد تقلّد عمر السيف ثم خرج لطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقى رجلاً من

المسلمين فقال: يا ابن الخطاب أين تريد؟ قال: أريد هذا الذي صبي وخالف دين قومه يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الرجل: بئس المشي مشيت، وأراد أن يصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عمر: لو اعلم أنك صبأت لبدأت بك، قال اتبعد أني وتذهب إلى محمد وقد صبأت أختك، ففزع لذلك فزعا شديداً وذهب الى الدار حتى أتاها، فسمع صوت القرآن يقرؤه خُباب ابن الأرت عند زوجها فستأذن عمر، فاختبأ خُباب، ودخل عمر فقال: ما هذه الهينة؟ فقالوا: لا شيء، فجعل يماريهم ويمارونه حتى غضب فقام الى زوجها ليضربه، فقامت وأخذت بحجرته وقالت: هو الذي تكره أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمد رسول الله، فسقط في يد عمر، فقال: أين الكتاب الذي كنتم تقرأون، وعاهد أن لا يضره حتى يرده، وكان قارئاً، قالت: إنك رجل جنب ولا يمسه الا طاهر فأغتسل، فذهب فأغتسل، فدفع إليه الصّحيفة فيها ﴿طه ١﴾ ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١ - ٢]، ثم قال: أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمد رسول الله، فكبر، وخرج خُباب يكبر، فقال عمر أين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: في دار بني فلان أسفل من الصّفا، فخرج حتى دق الباب، ورسول الله في بيت من دار العباس التي في آخر الصّفا، فجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هلكنّا قال: وما ذاك؟ قال: هذا ابن خطّاب يستأذن، قال حمزة: افتحوا له الباب، فان يكن الله يرد به خيراً فذاك، والا كفيتموه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما أراك متهيئاً يا ابن الخطاب حتى يصنع الله بك ما صنع بالوليد وفلان وفلان فضحك فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال: اللهم أهده، قال عمر: اشهد أن لا إله الا الله واشهد أن محمداً رسول الله، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها من وراء الدار قال عمر: يا رسول الله كنت مظهرًا للشرك واستخفى الإسلام، كلا والذي نفسي بيده، فخرج حتى مرّ برجلين صاحبي أحاديث فقالا: حياك إلهك يا ابن الخطاب، قال عمر: حياني الهي، الهي غير إلهيكما، فطرحا أرديتهما، وخرجا يشندان يقولان: صبا ابن الخطاب، فطفق الناس يضربونه بالحجارة والتراب، وكان رجلاً قوياً فلا يزيد الرجل صكة الا درءه حتى صار في داره فاعز الله الإسلام من حينئذ.

وروي إسلام عمر رضي الله عنه من وجوه قد جمعها أبو داود السجستاني وغيره كلّها متقاربة المعاني، وإن اختلفت ألفاظها.

قال الشنفرى^(١):

٣٦- وَتَشْرَبُ أَشَارِي الْقَطَا الْكَدْرُ بَعْدَمَا سَرَتْ قَرَبًا أَخْنَاؤُهَا تَتَصَلَّصُ

الأسرار: جمع سُور هو البقيّة في الإناء والفضلة يقال: إذا شربت فأسر، أي ابق شيئاً من الشراب في قعر الإناء، والنعت منه سأرّ على غير القياس لأنّ قياسه مسرّ، ونظيره أجبره فهو جبار. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "سور المؤمن شفاء"^(٢).

القطا: طائر معروف.

الكدر: بضم فسكون جمع أكدر، وهو الذي في لونه كدرة، والكدرى ضرب من القطا إذ هو ثلاثة أنواع: كدرى، وجونى وغطاط، فالكدرى: الغبر الألوان، الرقش الظهور والبطون الصفر الحلق.

وهو الطف من الجونى فكأنه نسبه الى معظم القطا هو كدر.

والجونى: سود البطون والأجنحة طوال الأرجل والأعناق، لطاف لا تجتمع أسراباً، أكثر ما تكون ثلاثاً أو اثنتين.

والغطاطا ما عداهما.

القرب: بقاف فراء مهملة مفتوحين الاسم من قربت أقرب قرابةً مثل: كتبتُ أكتبُ كتابة، إذا سرت إلى الماء، وبينك وبينه ليلة، قال الأصمعي: قلت لأعرابي ما القرب؟

(١) قال الزمخشري في "أعجب العجب": الأسار: بقيّة الشراب في قعر الإناء، الواحد سُور. والمعنى: إني أرد الماء إذا سارت القطا في طلبه، فأشبعها إليه لسرعتي، فتردّ بغدي، فتشرب سُوري.

والقرب السير إلى الماء وبينك وبينه ليلة، قال الأصمعي: قلت لأعرابي: ما القرب؟ قال: سير الليل لوزد الغد، وقال الخليل: القارب طالب الماء ليلاً، ولا يقال ذلك لطالب الماء نهاراً. والحنو واحد الأحناء، وهي الجوانب، وتتصلصل تُصوّت.

وتشرب مُستأنف لا محلّ له من الإعراب، و"بعد" ظرف لـ "تشرب"، وما مصدرية، أي: بعد سيرها، وهي بما ضم إليها في موضع جرّ، وقرباً حال من الضمير في "سرت"، و"سرت" العامل في الحال، وأخناؤها مُبتدأ، وتتصلصل خبره، وموضع الجملة حال من الضمير في سرت، ويجوز أن يكون حالاً من القطا، فيكون العامل "تشرب".

(٢) لا أصل له. "الأسرار المرفوعة" (٢١٧). "كشف الخفاء" (١/١٥٠٠). "الضعيفة" (٧٨).

قال: سير ليل لورد الغد، قلت: ما الطلق ؟ قال: سير الليل لورد الغب، يقال: قرب بصباح وذلك أن القوم يسمون الإبل، وهم في ذلك يسيرون نحو الماء، فإذا بقيت بينهم وبين الماء عشية عجلوا نحوه، فتلك الليلة ليلة القرب.

احتاؤها: جمع الحنو، وهو كل ما فيه اعوجاج من البدن، وغيره.

تتصلصل: بتائين مفتوحتين أي تُصَوْن، وهو مضاعف صلّ من الرباعي وهو أن يكون فاؤه من جنس واحد يصلّ صليلاً صوت، كصلصل صلصلة ومصلصلاً، واللحم امتدّ صوته، فإن توهم ترجيع صوت قيل: صلصل وتصلصل، وصلّ البيض يصلّ صليلاً سمع له طنين عند القراع، كقول الشاعر:

وصليلها بالهام نغمة مزمر

وفي المسمار صليلاً: ضرب، فأكره أن يدخل في الشيء، والإبل صليلاً يست أمعاؤها من العطش فسمع لها صوت عند الشرب، والسقاء صليلاً ييس، واللحم صلواً أنتن، ومصلصل، مصوّت، والصلصال الطين الحُرّ خلط بالرمل أو الطين ما لم يجعل خزفاً، وصلصل أوعد وتهدد وقتل سيد العسكر، والرعد صفا صوته، والكلمة أخرجها متخذ لقا، والصلصلة والصلصل بقية الماء في الغدير، ومن الدهن والزيت، وكهدهد ناصية الفرس، ويجوز فتحه، أو بياض في شعر الفرس، والقذح والصفير منه وطائر، والراعي الحائق، وفيما نحن الفضل للسابق.

الإعراب:

وتشرب: الواو عاطفة، وتشرب: فعل مضارع معطوف على أغدو، والأبيات التي بينها اعتراض، وهو قد يكون بأكثر من ذلك، وقد يكون بين مفردين أو بين جملتين أو بين مفرد وجملة كقولك: عليّ وإن لم يحمل السلاح شجاع، والثاني كقول الشاعر: [الطويل]

فإن تزجراني يا ابن عثمان أنزجر وإن تمنعاني أحمر عرضاً ممنعاً

والرواية في الصاحبي:

فإن ترجواني يا ابن عفان أنزجر وإن تدعاني أحمر عرضاً ممنعاً

وفي شعره:

وإن تتركاني أحـم عرضاً ممنعاً

والثالث كقولك: زيد والله يضربك.

أسآري: مفعول به مضاف الى ياء المتكلم.

القطا: فاعل.

الكدر: نعته.

بعد: ظرف زمان منصوب على الظرفية بتسرب.

وما: موصول حرفي.

سرت: فعل ماضٍ، والثاء الساكنة علامة التأنيث، وفاعله ضمير يعود الى القطا، والموصول الحرفي وصلته محلها الجر بإضافة بعد إليه بعد تأويله بالمصدر.

قرباً: قيل حال من فاعل سرت، ولعله بعد التأويل بحذف المضاف أي ذات قرب. وادعى السويدي أولوية المفعول المطلق، وجعله بالتأويل أيضاً نوعاً منه، والأوجه عندي أن يكون مفعولاً لأجله مع خلّوه عن شوب التأويل، فتأمل.

احناؤها: مبتدأ مضاف إلى الضمير.

تنصلصل: فعل وفاعله ضمير يعود الى الاحناء، والجملة الضغرى محلّها رفع على أنها خبر المبتدأ، والكبرى محلّها نصب عل أنها ال من فاعل سرت.

وبهذا البيت استشهد النحاة على مجيء الجملة الاسمية حالاً مع خلّوها عن الواو كما هو مذكور في موضعه من كتب النحو فليرجع.

المعنى:

يقول: إني أسبق القطا إلى الماء فارد قبلها، وأستريح فتأتي فتشرب فضلاتي بعد أن وجدت في السرى في الليل المبيح شديدة الظّما كثيرة الولع جوانبها لجفافها، وعدم رطوبتها تصوت كالصلصال لعظم ما نلها في إدراك الأمل.

تكميل:

قصد الشَّنْفَرى أنه أعدى من القطا حيث إنه يسبقها إلى الماء فتأتي بعده فتشرب فضلته، ومع ذلك أنها عطاشى في غاية الحاجة الى الماء بحيث أنهن سرن من الليل لأجل الورد، ومن الواضح أنه من طبع القطا أنها إذا أرادت الورد ارتفعت من افاحيصها أسرابا لا متفرقة، فتقطع الى حيث طلوع الشمس مسيرة سبع مراحل فحين تقع على الماء، فتشرب نهلاً. قال أبو زياد الكلابي: أن القطا تطلب الماء من مسيرة عشرين ليلة وفوقها ودونها، فادّعاؤه سبقها بالعدو وربما ينكره الطبع كيف؟! وقد عدّوا من الغريب البعيد ما حكاه الواحدي في شرحه لديوان المتنبي في قوله: [الكامل]

وإذا المكارم والصّوارم والقنا وبنات أعوج كل شيء يجمع

أنَّ أعوج فحل كريم كان لبني هلال بن عامر، وانه قيل لصاحبه: ما رأيت من شدة عدوه؟ فقال: ظللت في بادية وأنا راكبه ورأيت سرب قطا يقصد الماء فتبعته وأنا أغصّ من لجامه حتى توافينا الماء دفعة انتهى.

وهذه الخيل من نسله التي يقول فيها الشاعر: [الوافر]

تركنا في الحضيض بنات عوج عواكف قد خضعن الى الثُّسور

ولقد أرى أن ما دعاه الشَّنْفَرى أغرب وأعجب من ذلك؛ إذ الخيل من طبعها العدو والصّبر على الاتّ والتعب، فالمبالغة فيها أهون من المبالغة في الإنسان.

تنبيه:

قال السويدي في شرحه لهذه الأبيات: بعدما وصف نفسه بقوته وجلادته على الصّبر وعلى الجوع، أخذ في وصف نفسه بشدة عدوه، أقول: ليت شعري هذه البعدية من أين أخذها اللّهمّ الا أن يقال أراد البعدية في الذكر فتدبرّ.

وقال أيضا: لا يذهب عليك أن المراد من القطا هنا مطلق القطا لا النوع المخصوص بالكدرى، ووصفها بالكدرى باعتبارها اللون الأغلب.

أقول: كون المراد منه ذلك النوع المخصوص أقرب؛ إذ هو أمدح لأنّ هذا النوع لما فيه من خفه الجناح اشدّ طيراناً من بقية أنواعه فلا يستقيم ما ذكره الا أن يجاب عنه

على بعد بان الرواية إنما جاءت كذلك، فكان اللائق أن يُنبّه على ذلك خشية ظن الظنون.

استطراد:

توصف القطا بالهداية، والعرب تضرب بها المثل وذلك لأنها تبيض في القفر وتسقي أولادها من البعد في الليل والنهار فتجيء في الليلة المظلمة وفي حواصلها الماء فإذا صارت قبالة أولادها صاحت قطا قطا، فلم تستدل بعلم ولا إشارة ولا شجر فسبحان من هداها لذلك! قال الشاعر: [الكامل]

فالنّاس أهدى في القبيح من القطا وأضلّ في الحُسنى من الغربان
وقال عنترة العبسي شعراً: [الطويل]

وأنت التي كلّفتني دلج الشّرى وجون القطا بالجهلتين جُثوم
وقال مزاحم العقيلي في القطا وفرخها شعراً: [الطويل]

فلما دعتّه بالقطاة أجابها بمثل الذي قالت له لم يبدل
وأشدّ ياقوت في معجم البلدان لأبي العنبر شعراً: [الخفيف]

كم مريض قد عاش بعد إياس بعد موت الطّبيب والعوّد
قد يصادُ القطا فتنجو سليماً ويحلّ القضاء بالصّياد

نقل بعض أصحاب التواريخ أنه كان بين أبي الفضل المعروف بابن القطان الشاعر المشهور البغدادي وبين الحيص بيص شيء، فقال الحيص بيص للوزير: يا مولاي هذا الرجل يؤذيني، قال، وكيف؟ قال: يشير إلى قول الشاعر في تميم: [الطويل]

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت
أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى خصال المخازي عن تميم تجلّت
ولو أن برغوثاً على ظهر قملة يكرّ على صفي تميم لوّلت

قال الشنفرى^(١):

٣٧- هَمَمْتُ وَهَمْتُ وَابْتَدَرْنَا وَأَسْدَلْتُ وَشَمَّرَ مِنِّي فَارِطٌ مُتَمَهِّلٌ

اللغة:

هممتُ من الهمّ وهو القصد والإرادة وتهمّ الشيء طلبه.

ابتدرت: بادرت بمبادرة وبدراً، وابتدرة وبتدّر غيره إليه: عاجله، وبدرة الأمر وإليه: عجل إليه، واستبقنا البدرى، أي: مُبادرين، والبادرة ما يبدّر من حدثك في الغضب من قول أو فعل، وشبابة السيف، والبدية، وورق الحوأة وأوّل ما يتفطر من النبات، وأجود الورس وأحدثه، واللحمة بين المنكب والعنق.

وأسدلت: سدل الشعر يسدله ويسدّله، وأسدله: أرخاه و أرسله، وشعر منسدل مسترخي مُسترسِل، والسُدْل: بالضم والكسر: الستّر جمعه: اسدالّ وسدولّ واسدلّ، وبالكسر: السمطُ من الدر يطول إلى الصدر، وبالتحريك: الميل، وذكر أسدل: مائل

(١) قال الزمخشري في "أعجب العجب": يُقال: أسدَل ثوبه. أي: أرخاه، وبهذا المعنى استعمله الشاعر هنا، أي أرخت جناحها فذهب جزئها، بمعنى: خَفَ أي خَفَّ من التَّقَدُّم، والفارط المتقدّم، ومنه قوله عليه السلام: "أَنَا فَرَطُكُمْ" أي: أَنَا مُتَقَدِّمُكُمْ لأُصْلِحَ لَكُمْ والمعنى: إني والقَطَا تسابَقنا إلى الماء، غَيْرَ أَنِّي سَبَقْتُهَا. والمتمهِّل في أمره مَنْ يَأْتِيهِ عَلَى تُوْدَةٍ.

هَمَمْتُ وَهَمْتُ حكاية حالٍ لا مَوْضِعَ لَهُ، والضمير في "هَمْتُ" للقطا، ومِنِّي نعتٌ لـ "فارط"، وهو نكرة، فلمّا تقدّم كان حالاً، والأفعال بعد "هَمْتُ" معطوفة عليه. فوَلَّيْتُ عنها وَهِيَ تَكْبُو لعَفْرِهِ يَبَاشِرُهُ منها دُقُونٌ وَحَوْضٌ تَكْبُو تَسْقُطُ، والعَفْرُ مقامُ السَاقِي مِنَ الْحَوْضِ، يكونُ فيه ما يَتَساقَطُ مِنَ الْماءِ عِنْدَ أَخْذِهِ مِنَ الْحَوْضِ، والذَقْنُ ما تَحْتَ خُلُقُومِهَا وَخُلُوقِهَا.

قوله: وهي. مُبتدأ، وَخَبَرُهُ تَكْبُو، ومَوْضِعُ هذه الجملة حالٌ مِنَ الضميرِ في "عنها"، أي: وَلَّيْتُ عنها مَسَاقِطَةً، وقيل: حالٌ مِنَ التَّاءِ في "وَلَّيْتُ"، وَجَوَزَ ذلك رِبْطُ الجملةِ بالواوِ، ولولا الواوِ لكانت الجملةُ أَجَنَبِيَّةً مِنَ التَّاءِ، لَعَدِمَ ضميرٌ يَعودُ على التَّاءِ مِنَ الجملةِ، وَلَعَفْرُهُ يَتَعَلَّقُ بِـ "تَكْبُو" أي تَسْقُطُ إلى عَفْرِ الْحَوْضِ، وَيَبَاشِرُهُ بِدُقُونِهَا وَحَوَاصِلِهَا لِتَأْخُذَ فَضْلَةً مِنَ ماءِ، والضميرُ في "يَبَاشِرُهُ" عائِدٌ إلى عَفْرِ الْحَوْضِ، وَيَبَاشِرُهُ حالٌ مِنَ الضميرِ في "تَكْبُو"، أي تَكْبُو مُباشِرَةً بِدُقُونِهَا وَحَوَاصِلِهَا، و"منها" صفةٌ دُقُونٍ، قُدِّمَ فَصَارَ حالاً، وَحَوْضٌ معطوفٌ على دُقُونٍ.

جمعه: ككتب، وسدل ثوبه يسدله: شَقَّه، وفي البلاد ذهب، وكأمر شيءٍ يَعْرِضُ في شَقَّةِ الخباء، وستر حجاب المرأة.

شمر: يَشْمُرُ وانشمر وتشمر مَرَجَاداً أو مختالاً، وتشمَّر للأمر تهيئاً وشمَّر كمحدثٍ ماضٍ في الأمور مجربٍ، والشَّمْرُ تقلبُ الشيء كالشَّمِير، وصرامُ النحل، وشَمَّر الثوب تشميراً: رفعه وفي الأمر خَفَّ والسَّفِينَةُ أرسلها، والشَّمْرَةُ بالهاء مشية الرَّجُلِ الفاسد.

فارط: بقاء مفتوحة فراء مهملة مكسورة آخر الحروف طاء مهملة وصف من فرطت القوم أفرطهم فرطاً، أي: سبقهم الى الماء، وأنا فارطٌ والجمع: فَرَّاطٌ وفَرَّاطٌ القطا متقدماتها الى الوادي والماء.

متمهل: بكسر الهاء وصف من تمهل في أمره، اتَّأَد وتَأَنَّى.

الإعراب:

هممت: هم فعل ماضٍ، والتاء ضمير الفاعل، وهَمَّت الواو حرف عطف معطوف على ما قبله والتاء الساكنة علامة التأنيث فعل ماضٍ والتاء ضمير الفاعل.

وأسدلت: أسدل فعل ماضٍ والتاء للتأنيث والفاعل ضمير القطا.

وشمر: الواو حرف عطف وشمَّر فعل ماضٍ.

مني: جار ومجرور متعلِّق به.

متمهل: نعت لفارط.

المعنى:

قصدتُ ورد الماء وأردت وصوله قبل القطا، وهنَّ أيضاً أسرعن بالعدو في طلبه فرطاً وأرخت أجنحتها للطيران في إدراك المنال وشمَّر عن ساقيه وخَفَّ في العدو رجل مني سابق متأنٍّ من غير استعجال.

تنبيه:

في هذا البيت مبالغة في الإغراق والغلو في شدة سرعة عدوه من وجهين: أحدهما: التجريد وهو أنه بالغ في عدوه بحيث كأنه جرد منه مثله كقوله: [الطويل]

وشوواء تعدو بي الى صارخ الوغى بمستلثم مثل البعير المرخل
وثانيهما: سبقه للقطا مع سرعة طيرانها وشدة ظمأها وهو غير مجد في العدو بل
كان متوانياً فيه متمهلاً.

تنبيه آخر:

في تقديم همّه على همّها إشعار بأن القطا قصدت مسابقته الى الورود وقد سبقها
قصدها ذلك ففيه مبالغة في شدة عدوه إذ من قصد المسابقة في شيء بذل جهده فيه
بخلاف من يتفق له من غير قصد، وقد خلا عن هذا المعنى شرح السويدي فخذ وكُن
من الشّاكرين.

فائدة:

نظير ذلك في المبالغة قول الطغرائي يصف خيلاً: [الكامل]

سبقت حوافرها التّواظر فاستوى سبق الى غايتها وظعون
لولا ترامي الغائبين لا قسم الرّا وون أن حراكها تسكين
وتكاد تشبهها البروق لو أنها لم يعتقلها أعين وظنون

والبيت الأول مأخوذ من قول أبي الطّيب المتنبّي: [المنسرح]

يقلبهم وجه كلّ سابحة أربعها قبل طرفها تصل
قيل: إن أبا الحارث الثعلبي قال عند سماع هذا البيت: (كأن عينها في استها).

وللصفي الحلي: [الكامل]

وأغر تبرّي الالهاب مورّد سبط الأديم مُحجّل بياض
أخشى عليه أن يُصاب بأسهمي ممّا يُسابقها إلى الأغراض

وله: [البيسط]

وأدهم يقو التّحجيل ذي مرح يمس من عُجبه كالشارب الثّمل
مضمّر مشرف الأذنين تحسبهُ موكّلا باستراق السّمع عن زحل
ركبتُ منه مطاليل تسير به كواكب تلحقُ المحمول بالحمل

إذا رميت سهامي فوق صهوته مرّت بهاديه وانحطّت عن الكفل
وقال أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي يمدح أبا الفضل سعد الدولة أبا
المعالي بن سيف الدولة فمّنه قوله: [الوافر]

يكاد سباق حجرته ليغني	عف الأقدار صوانا وابتذالا
نشأن مع النعام بكلّ وادٍ	فقد ألّفت نتائجها الرّئالا
ولما لم يُسابقهنّ شيءٌ	من الحيوان سابقت الظّلالا
ترى أعطافها ترمي حميماً	كأجنحة البُزاة رمت نُسالا
وقد ذابت بنار الحقد منها	شكائمه فمازجت الرّؤالا
يُذقن بني العصاة اليتّم صرفاً	ويتركّ الجاذر والسّخالا
فما يرمين بالآجال إجلالاً	ويرمين المقانِب والرّعالا
يغادرن الكواعب حاسرات	تنال من العداة من استنالا
يغالين المدارع والمدارى	ويرخصن المناصل والنّضالا
يُمْلُ بها السّباب والمرامي	فتى لم تحش همّته ملالا

وقال ابن مقرب: [الرمّل]

أين عزمي أنا المانعها	يوم تأتي مشرّبات الهوادي
تعثر العقبان في عثيرها	وتظل الشمس منها في حداد
حاملات للوغى كلّ فتى	محصد النّجدة مسترخي النّجاد

استطراد:

العرب تصفّ القطا بحسن المشي، وتشبّه مشي النساء الخفّرات بمشيها ومن
أحسن ما قيل في ذلك قول هند بنت عتبة رضي الله عنها زوج أبي سفيان رضي الله عنه
في يوم أحد، وهي إذ ذاك قبل إسلامها تحرض المشركين بشعرها: [الرجز]

نحن بنات طارق	نمشي على التّمارق
مشي القطا النواتق	أن تقبلوا نعلانق

أو تدبـروا نفـارق

الى آخر الرجز، وتمامه مذكور في سيرة الحلبي في غزوة أحد.

ونقل عن يحيى بن عبد الملك الهديري قال: صليت ليلة وراء الضحاك بن عثمان الحزامي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا متقنع فذكر الضحاك وأصحابه قول هند ابنة عتبة رضي الله عنها يوم أحد: نحن بنات طارق...، ثم قالوا: ما الطارق؟ فقلت: النجم، فالتفت الضحاك وقال: كيف ذلك؟! قلت: لقوله تعالى: ﴿وَالطَّارِقُ وَالطَّارِقُ﴾ ﴿١﴾ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النجم الثاقب ﴿الطارق: ١ - ٣﴾، فكانها قالت: نحن بنات النجم؛ فقال: أحسنت.

ومرادها بالقطا النواتق: الكثيرة الأولاد، قال الجوهري: (نتقت المرأة إذا كثرت أولادها فهي ناتق وممتاق).

ومن هذا الحديث الذي رواه ابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عَلَيْكُمْ بِالْأَبْكَارِ، فَإِنَّهُمْ أَغْدَبُ أَفْوَاهًا، وَأَنْتَقُ أَرْحَامًا، وَأَرْضَى بِالْيَسِيرِ"^(١).

قال الشنفرى:

٣٨- فَوَلَّيْتُ عَنْهَا وَهِيَ تَكْبُو لِعُقْرِه
يُبَاشِرُهُ مِنْهَا ذُقُونٌ وَخَوْصُلُ

اللغة:

وليت: من التولية، أي: أذبرت وأعرضت.

وتكبو: مضارع كبا كبوا وكُبُوا: انكب على وجهه، والزند لم يور كأبى.

قال ابن مقرب: [البسيط]

إلى متى في طلاب العزّ تنتظر بأيّ عُذرٍ إلى العلياء نعتذر

لا الزند كاب ولا الآباء مُقرفةً ولا بباعي عن باع العلى قصر

(١) أخرجه ابن ماجه (٥٩٨/١، رقم ١٨٦١) قال البوصيرى (٩٨/٢): فيه محمد بن طلحة قال فيه أبو حاتم لا يحتج به. والطبرانى (١٤٠/١٧، رقم ٣٥٠)، والبيهقى (٨١/٧، رقم ١٣٢٥١). وأخرجه أيضًا: الطبرانى فى الأوسط (١٤٤/١، رقم ٤٥٥)، وابن قانع (٢٨٨/٢).

والجَمْرُ: ارتفع، واسمُ الكُلِّ: الكبوة، والكوزَ صَبَّ ما فيه، والتَّبْتُ ذَوَى والغُبَارُ علًا، وككسَاءِ غُوْدُ البخور أو ضربٌ منه، وتكَبَّى على المجرمة: أَكَبَّ عليها بثوبه، كاكْتَبَى، وأَكَبَى وجهه: غَيَّرَهُ، والكَبْوَةُ: العثرة، والوقفَةُ منك لرجلٍ عند الشيء الذي تكرهه، والهيثم بن كابي مُحَدَّثٌ، وهو كابي الرَّمَاد: عظيمُهُ.

العقر: بالضَّمِّ مُؤَخَّرُ الحَوْضِ أو مقامُ الشارب منه، ومعظم النار ومُجْتَمِعُها ووسط الدار وأصلها وتَفْتَحُ والطُعْمَةُ وخيار الكَلَأِ كعقاره، وأحسنُ أبيات القصيدة واستبراء المرأة لتنظر أبكرًا أم غير بكرٍ، وفي النخلة أن يكشط ليفها ويؤخذ جذبها، والسحابُ الأبيض أو غيم ينشأ من قبل العين فيغشى عين الشمس وما حوالها أو ينشأ في عرض السماء فيمُرُّ ولكن تسمع رعدَهُ من بعيد، والبناء المرتفع، وكلُّ أبيض.

يباشره: من المباشرة يقال: باشر الأمر إذا وليه بنفسه، والمرأة جامعها أو صارا في ثوبٍ واحد فباشرت بشرته بشرتها.

الذقون: جمع ذقنٍ وهو مُجْتَمِعُ اللَّحِيين من أسفلهما ويكسر مذكر جمع أذقان مُثَقَّلٌ استعان بذقنه. يضرب مثلاً لمن استعان بأذَلٍّ منه، وأصلُهُ البعير يحمل عليه ثقل فلا يقدر ينهض فيتعمدُ بذقنه على الأرض، والذاقةُ ما تحت الذقن أو رأس الحُلُقُوم.

الحوصل: والحوصلة وتُشَدُّ لأمها من الطَّيْرِ كالمعدة للإنسان، والحوصلة أسفل البطن إلى العانة من كلِّ شيء، ومن الحوض مستقرُّ الماء في أقصاه كالحوصل، والمحوصل: من يخرج أسفلهُ من قبل سُرَّتِهِ كالحُبلى، والحوصل: شاة عَظُم من بطنها ما فوق سُرَّتِها.

الإعراب:

فولَّيت: الفاء عاطفة، وولَّى: فعل ماضٍ والتاء ضمير الفاعل، والجملة معطوفة على جملة محذوفة، والتقدير: شربت فولَّيت.

وهي: الواو للحال، وهي: مبتدأ.

تكبو: فعل مضارع مرفوع، والفاعل ضمير يعود إلى القطا، والجملة الصغرى محلها الرفع على الخبرية للمبتدأ، والكبرى النصب على الحال من ضمير عنها.

لعقره: اللام حرف جرّ، وعقر اسم مجرور باللام مضاف إلى الضمير، والجار

والمجرور متعلق بتكبو، واللام بمعنى في أو على فاختر لنفسك ايهما شئت.

يباشرها: فعل مضارع ومفعول، منها: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال مقدّم.

والذقون: فاعل يباشر، وهو صاحب الحال.

وحوصل: معطوف عليه.

المعنى:

يقول: بعدما شربْتُ ورويتُ طبْتُ نفساً من الماء، وعنه ألويتُ، وتباعدتُ عنها لأنظر ما تصنع من شدة الظمّ، وفرط الجزع، والحال أنها دفعت على وجوها في مؤخر المنهل، وعيل صبرها عن مقدمه الى أن تصل، ولم تكتف بإدخال مناقرها الماء، وتكاد قبله تهلك من الجزع في طلبه، بل أدخلت فكها وحواصلها كما هو شأن الصّادي الذي تناهى ظمؤه وبولغ في وصفه، ولذلك قال: يباشره منها ذقون وحوصل.. واخبر بأنّه أقوى جلدًا في العدو منها وعلى الظمّ أصبر.

تكميل:

قوله: يباشره منها ذقون وحوصل فيه مجاز عقلي من باب الإسناد إلى الآلة والذقون والحواصل آلة المباشرة للمنهل المدلول عليه بذكر تشرب في البيت المتقدم لأ ساري كما قال بعض شارحي هذه القصيدة إذ السّور البقية من كلّ شيء فلا دلالة على خصوص في تشرب فتأمل.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] فإنّ الضمير من توارت يعود الى الشّمس المدلول عليها بذكر العشي السّابق، وفي عود الضمير على المتقدم لفظاً ومعنى وحكماً كلام طويل الذّيل ومديد السّيل محلّه كتب البيان فليراجع.

وفي جمع الذّقون وإفراد الحواصل نكتة وهي أنّ الطّائر إذا شرب عن ظمّا ادخل كلّ ذقنه في الماء وطرف المتقدّم من حوصله فجمع الذّقن باعتبار الأجزاء أي كل جزء منه باشر الماء بخلاف الحوصل.

استطراد:

حكم القطا الحلّ بالإجماع، وعند الرّافعي والأصحاب في كتاب الحج أنهم أوجبوا على المحرم إذا قتل قطاة شاةً، وإن كان لا مثل له من النعم لأنها عدوها من الحمام، وقد عدها الجوهرى أيضاً منه، والمشهور خلافه.

وفي المثل قيل^(١): (أنسب من قطاة)، وهو من النسبة، وذلك أنها إذا صوّت فإنها تتسبب لأنها تصوّت باسم نفسها فتقول: قطا قطا.

وقالوا^(٢): (لو ترك القطا ليلاً لنا)، وذلك أن عمر بن مارية نزل على قوم من مراد فطرقوه ليلة فأشاروا القطا ليلاً من أماكنها فرأت امرأة منهم القطا فأيقظت زوجها وقالت: إنها هذا القطا لو ترك القطا ليلاً لنا، يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته، وقيل: قالته اسمها حذام لما رأت القطا ليلاً فقالت: [الوافر]

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلاً لنا

فلم يلتفتوا الى قولها؛ فصبحتهم الغارة فقام رجل منهم فقال: [الوافر]

إذا قالت حذام فصديقوها فإن القول ما قالت حذام

يضرب هذا البيت لمن هو مجرب بالصدق، وحذام مبني على الكسر مع وقوعه فاعلاً في موضعين كما هو مذكور في موضعه من كتب النحو.

ولهذه الخصوصية في قطع المسافة البعيدة تمتئ بعض الشعراء إعاره جناحه حتى يصل الى محبوبه دون غيره، حيث قال: [الطويل]

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلّي إلى من قد هويت أطيّر

وهذا البيت فيه شاهدان: أحدهما أن (من) الغالب أن يكون لذوي العقول وقد ورد مجيئها لغيرهم كما هنا.

والثاني: تنزيل القطا منزلة من يعقل وندائه، والقريئة فيه كون الإعاره والاستعارة

(١) انظر: مجمع الأمثال ٣٤٧/٢.

(٢) انظر: زهر الأكم ١٣٩/١، وجمهرة الأمثال ١٥٩/٢، والزاهر ٢٢٧/٢.

من وظائف ذوي العقول، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤] وذكر في شرح ذلك صاحب الكشاف: أنه نادى الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات، وهو قوله: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾، ثم يؤمر بما يؤمر به أهل التمييز والعقل في قوله: ﴿ابْلَعِي مَاءَكَ﴾ و ﴿أَقْلِعِي﴾ من الدلالة على الاقتدار العظيم، وإن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غيره ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمتهم وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابون ويفزعون من التوقف دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان مأمور به مفعولاً لأحس وإبطاء، والبلع: عبارة عن النشف، والإقلاع: الإمساك، يقال: اقلع المطر وأقلعت الحمى ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ من غاضه إذا نقصه ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ونجز ما وعد الله به نوحاً من هلاك قومه ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وهو جبل بالموصل ﴿وَقِيلَ بُعْداً﴾ يقال: بعد بُعْداً أو بعداً، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء.

ومجيء أخباره على الفعل المبني للدلالة على الجلال والكبرياء، وإن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكون قاهر، وإن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلي ماءك ويا سماء اقلعي، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين وهما قوله: ﴿ابْلَعِي﴾ و ﴿أَقْلِعِي﴾ وذلك وإن كان لا يخلي الكلام من تحسين، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور.

قال الشنفرى^(١):

(١) قال الزمخشري في "أعجب العجب": وَغَاها أَصْوَاتُها، ومنه قِيلَ للحزب: وَغَى لِمَا فيها من الأصواتِ والجَلْبَةِ، و"حَجَرَتِيَّه" جَوَاتِيَّه، والأضاميمُ جُمُعُ أضمامة، وهم القومُ يَنْضُمُ بعضهم إلى بعض

٣٩ - كَأَنَّ وَغَاها حَجَرَتَيْهِ وَحَوْلَهُ أَضَامِيمٌ مِنْ سَفَرِ الْقَبَائِلِ نُزُلٌ

اللغة:

الوغي: كالفتى وكالرمي الصَّوْتُ والجلبة، ووغيّة من خير نبذة منه، وسميت الحرب بذلك كقوله: [الطويل]

أخا الطعن سل عنه الصَّوارم في الوغا إذا غمرات الموت فيها تجلّت
لما فيها من الصَّوت والجلبة.

الأضاميم: جمع إضمامة وهي الجماعة، يقال للفرس: سَبَّاق الأضاميم.

السفر: جمع لمسافر كصحب وصاحب ويقال: رجلٌ سفرٌ وقومٌ سفرٌ وسافرةٌ
وأسفارٌ وسفَّارٌ ذوو سفر لصدّ الحضر، والسَّافِرُ المسافر لا فعل له، والقليل اللحم من
الخيّل، وبهاء أمّه من الروم كأنّه لبعدهم وتوغلهم في المغرب، ومنه الحديث: "لولا
أصوات السَّافِرَةِ لسمعتُم وَجِبَةَ الشمس" (١). والمسفر الكثير الأسفار، والقويّ على
السفر.

القبائل: جمع قبيلة، وهي الزَّوج والجماعة من الثلاثة فصاعداً من أقوام شتى، قد
يكونون في القاموس من نجرٍ واحدٍ، ورُبُّما كانوا بني أبٍ واحدٍ.

نزل: جمع نازل والنزول الحُلُولُ يقال نزلهم ونزل بهم وعليهم ينزل منزلاً ونُزُلاً

في السفر، و"سَفَرٌ" أي قومٌ سَفَرٌ، مثل صاحبٍ وصُحْبٍ، و"نُزُلٌ" أي إذا نَزَلَ هؤلاء سَمِعَ لهم وقتَ
نُزولهم جَلْبَةً، فكَذلك هذه القَطَا في وقتِ كَبُوها، تَسْمَعُ لها صَوْتاً وَجَلْبَةً.

كَأَنَّ وما عَمِلْتَ فيه مَوْضِعُها حالٌ مِنَ الضمير في تَكْبُو، أي: مُشَبَّهَةٌ، و"حَجَرَتَيْهِ" نَصَبٌ على الظرفيّة
مِنْ "وَغَاها"، أي كَأَنَّ تَصَوُّيْتِها في ذلك المَوْضِعِ، ومَوْضِعُها حالٌ، والعاملُ فيها "كَأَنَّ"؛ لأنَّ "كَأَنَّ" يَعْمَلُ
في الحال. قال الشاعر:

كَأَنَّهُ خَارِجاً مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَقُودٌ شَرِبَ نَسْوُهُ عِنْدَ مُفْتَتِدِ

و"حوْلُهُ" معطوفٌ على حَجَرَتَيْهِ، وهو ظَرْفٌ أيضاً، وأضاميمٌ خبرٌ كَأَنَّ، والمعنى: أضاميمٌ، وهذا
التقدير لا بُدَّ منه من جهة أنَّ الأصوات التي هي وَغَاها، لا تُشَبَّهُ بالأضاميم، وإنما تُشَبَّهُ الأصواتُ
بالأصوات، وَمِنْ سَفَرٍ صِفَةٌ لِأضاميمٍ، و"نُزُلٌ" نَعَتْ أيضاً.

حلّ ونزله نَزْلُهُ في القاموس تنزيلاً وأنزله ومنزلاً كمجمل وتنزل حل في مهلةٍ والنزّل بضمّتين المنزل وما هيّئ للضيف أن ينزل كالنزل.

الإعراب:

كأنّ: حرف من المشبهة بالفعل تنصب الاسم وترفع الخبر، ومعناها التشبيه كما تقدّم حكمها.

وغاها: اسمها مضاف الى الضمير.

حجرتيه: منصوب على الظرفية المكانية.

وحوله: معطوف عليه من قبيل عطف المتقاربين أو المتمثلتين.

اضاميم: مرفوع على أنه خبر كان.

من سفر: جار ومجرور متعلّق بمحذوف صفة لا ضاميم.

نزل: صفة بعد صفة.

المعنى:

كأنّ أصوات القطا وجلبتها حول المنهل، أصوات جماعات القبائل في ناحيته نزل. قال بعضهم: مقتضى التشبيه بالأضاميم القبائل أن المراد من القطا أصناف لا صنف واحد.

أقول: فيه أنّ التشبيه إنما يدل على الكثرة فقط لا على تعدّد الأصناف فلا ينافي ما حققناه سابقاً أن المراد نوع القطا.

وقوله: توافين لا يؤيده أيضاً كما هو ظاهر، فليت شعري ما الذي دعا هذا القائل الى هذا الوجه مع بعد ما قلناه عن مظانّ التّهم، فإن قلت: موافاتهم من شتى الى المنهل، وقوله: (هممت) ينافي المسابقة إذ الهم منها مع همّه ليس من جهة واحدة فقط، والمسابقة لا تتصور مع اختلاف الجهة.

قلت: لا يبعد أن يكون قوله: كأن وغاها.. البيت، لإثبات أنّ هذا المنهل ممّا تعرفه القطا، و يقصدنه كم كلّ جهة، وأنّ القطا الذي سبقهنّ إليه عارفات به، وبجهته،

مهتديات إليه، مع ذلك قد سبقتهن ففيه مبالغة في شدة عدوه؛ إذ السَّير مع معرفة القصد ليس كالسَّير مع عدمها، فخذ هذا وكن من الشاكرين.

تنبيه:

تشبيه أصوات القطا بأصوات القبائل النازلين حول المنهل يقتضي مكت القطا حول الماء بعد وروده؟ وهو كذلك لأنها حيث وقوعها عليه تشرب نهلاً كما تقدّم بيان فتيقن عليه متشاغلة مقدار ساعتين أو أكثر ثم تعود إليها ثانياً، وهو العلل.

استطراد:

قد قال بعض الشعراء يصف عدو جواد، ويبالغ فيه شعراً: [الكامل]
قد كاد يخرج سرعة من ظله لو كان يرغب في فراق حبيبي
وقد استشهد النحويون بهذا البيت على معنى لو وانه ما رغب فلم يخرج.. وقول آخر: [الوافر]

يذيب الرعب منه كل غضب فلولاً الغمد يمسكه لسالا
وتفصيله مذكور في كتب النحو فليراجع.
وهذه مبالغة عظيمة في وصف هذا السيف، مثله في إثبات الفريص للموت في قول الآخر: [الكامل]

أسد دم الأسد الهزير خضابه ليث فريص الموت منه يرعُد
حيث شبّه الموت بالرّجل، وخيّل له بالفريص، ورشحه بإثبات الرّعد.
قال الشنفرى^(١):

(١) قال الزمخشري في "أعجب العجب": "تَوَافَيْنَ تَتَأَمَّنَ، وَشَتَّى مَتَفَرِّقَةً، أَي: مِنْ مَوَاضِعَ مَتَفَرِّقَةً، وَالذُّودُ مِنَ الْإِبِلِ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ، وَلَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَجَمْعُهَا الْكَثِيرُ أَذْوَادٌ، وَالْأَصَارِيمُ جَمْعُ صَرِمَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الْإِبِلِ نَحْوَ الثَّلَاثِينَ، وَالْمَنْهَلُ الْمَوْرِدُ، وَهُوَ عَيْنُ مَاءٍ تَرُدُّهُ الْإِبِلُ فِي الْمَوْعَى، وَالْمَنَازِلُ الَّتِي فِي الْمَفَاوِزِ عَلَى طَرِيقِ الْمَسَافِرِينَ تُسَمَّى مَنَاهِلَ، لِأَنَّ فِيهَا مَاءً.
"تَوَافَيْنَ" كَلَامٌ مُسْتَأَنَفٌ لَا مَوْضِعَ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي "تَكْبُو"، أَيْ مُتَوَافِيَةً، وَ"مِنْ شَيْءٍ" مُتَعَلِّقٌ بـ "تَوَافَيْنَ" وَ"مِنْ" زَائِدَةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: تَوَافَيْنَ مَفْتَرِقَيْنِ، أَوْ مُخْتَلِفَيْنِ، وَالضَّمِيرُ

٤٠ - تَوَافَيْنِ مِنْ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَضَمَّهَا كَمَا ضَمَّ أَذْوَادَ الْأَصَارِيمِ مَنْهَلُ اللُّغَةُ:

توافين: تَتَأَمَّنُ، وتوافى القوم: تتأَمَّوا، والوفاء: الطُّولُ، يقال: مات فلان وأنت بوفاء، أي: بطول عمر، تدعوا له بذلك، والوافي درهم وأربعة دوانيق.

شتى: بشين مفتوحة، وبمثناة فوقية مشددة، آخر الحروف ألف مقصورة: جمع شتيت، كمرضى ومريض، أي متفرق.

ضَمَّهَا: من الضَّمِّ، وهو قبض شيء الى شيء وقد ضَمَّه فانضم إليه وتضام وضامه واضطَمَّ الشَّيْءُ جمعه الى نفسه، وكغراب ماضمٌ به شيء الى شيء، والضَّمُّ والضَّمَامُ بكسرهما الدَّاهية الشديدة، قال صاحب القاموس: وكأنه تصحيُّفٌ والصَّوَابُ بالصاد، والاضمامة بالكسر الجماعة، وكصبور كُلٌّ وادٍ يُسَلِّكُ بين أكمَتين طويلتين، والضَّمْضَمُّ: الغَضْبَانُ والأسد الغَضْبَانُ وضَمْضَمٌ شجع قلبه، وعلى المال أخذه كُلُّهُ، والأسد صَوْتُ، والضَّمَّةُ الحَلْبَةُ في الرَّهَانِ، وفرس سَبَّاقٍ الاضاميم أي جماعات الخيل واضطَمَّ عليه اشتمل.

أذواد: جمع ذود، السَّوْقُ والطَّرْدُ والدَّفْعُ كالذِّيَادِ، وهو ذائد من ذَوْدٍ وذادَةٍ وثلاثَةٌ أبعرة الى العشرة أو خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين أو ما بين الثَّنتين والتسع ولا يكون الا من الإناث، وهو واحد وجمع أو جمع لا واحد له، أو واحد، وقولهم^(١): (الذَّوْدُ إِلَى الذَّوْدِ ابِلٌ)، يدلُّ على أنها في موضع اثنتين، لأنَّ الثَّنتين الى الثَّنتين جمعٌ، كمنبر اللَّسَانِ ومعلف الدَّابَّةِ، ومن الثَّور قرنه، والذَّائد فرسٌ من نسل الحرون، والرَّجُلُ الحامي الحقيقة كالذَّوَادِ، ولقب امرئ القيس لقوله: [المتقارب]

أذود القوافي عَنِّي ذِيَادَا ذِيَادُ غَلَامٍ غَوِي جَرَادَا
والمذاذ المرتفع، وأذودته أعتته على ذِيَادِ أَهْلِهِ.

في "إليه" للحوُض، والكاف في قوله: كما. نَعَتْ لِمَصْدَرٍ محذوفٍ، أي ضَمًّا، وما في "كما" مصدريةٌ أي: كَضَمِّ الْمَنْهَلِ الْأَصَارِيمِ.

(١) انظر: جمهرة الأمثال ١/ ٤٦٢، ومجمع الأمثال ١/ ٢٢٧.

ونقل بعضهم رواية في البيت أنها ازواد بالزاء، والصَّحِيح ما بَيَّنَّاهُ.

الأَصَارِيم: بفتح الهمزة والصاد المهملة جمع صرم بكسر فسكون وهي الجماعة ويجمع على أصرم وأصارم وضُرْمان بالضَّم.

منهل: هو عين ماء تردُّه الإبل في المراعي، وتُسَمَّى المنازل التي في المفاوز على طرق السُّفَّار مناهل؛ لأنَّ فيها ماء، والناهلة المختلفة إلى المنهل، والناهل من الأضداد ويقال على العطشان والرَّيَّان.

الإعراب:

توافين: فعل ماض ونون الإناث ضمير الفاعل.

من شيء: جارّ ومجرور متعلّق به أيضاً.

فضمها: الفاء عاطفة، ضمّ فعل ماض ومفعول الضمير، والفاعل ضمير يعود إلى الماء، ويجوز جعل فاعله آخر البيت كما لا يخفى على من تضرّع علم النحو.

كما: الكاف صفة مصدر محذوف وما مصدرية.

ضمّ: فعل ماض، وفاعله منهل آخر البيت، أو ضمير مستتر عائد إليه، وإن تأخر باللفظ فإنّه متقدّم في الرتبة فتذكر.

والموصول الحرفي وصلته في محل جر بإضافة الكاف إليه.

أزواد: مضاف إلى الأصاريم.

المعنى:

إنّ هذه القطا تنامهن إلى هذا الماء من أماكن متفرقة، وتعدد جهات، فضمها واشتمل عليها، كما ضم المنهل إبل الجماعات

استطراد:

ما أحسن قول كعب بن زهير رضي الله عنه حيث قال في وصف محبوبته شعراً:
[البسيط]

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

وهذا ممّن أهدر دمه صلى الله عليه وسلم في الحلّ والحرام، وهو ابن زهير بن أبي سلمى بضم السين بن رباح بن قرط بن حارثة المزني.

وزهير هذا هو الذي أثنى على هرم بن سنان الذي أشار الابوصيري إليه بقوله شعراً: [البسيط]

ولم أرد زهرة الدنيا التي اقتطفت يدا زهير بما أثنى على هرم
وله الميمية من المعلقات التي أولها: [الطويل]
أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتلّم
وكان كعب وأبوه من فصحاء العرب وبلغائهم.

روي أن كعباً وشقيقه بجير على وزن زهير خرجا الى ابرق العزاف فقال بجير لكعب: اثبت في الغنم حتى أتي هذا الرجل - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - فاسمع كلامه، واعرف ما عنده، فأقام كعب، ومضى بجير فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وسمع كلامه، وآمن به، وذلك أن زهير كان يجالس أهل الكتاب، وسمع منهم أنه قد حان مبعثه صلى الله عليه وسلم ورأى ذات ليلة في المنام أنه قد مُدَّ بسبب من السماء، فأراد أن يتناوله فمد يده فقام، فأوله بالنبي صلى الله عليه وسلم وانه هو الذي يبعث في آخر الزمان، أنه لا يدركه؛ فأخبر بنيه بذلك ووصاهم بالإسلام أن أدركوه، ثم لما بلغ كعباً إسلام أخيه بجير، أغضبه ذلك فقال: [الطويل]

ألا أبلغا عني بجيرا رسالةً فهل لك فيما أنت ويحك هل لكا
سقاك بها المأمون كأساً رويّة فأنهلك المأمون منها وعلكا
ففارقت أسباب الهدى وتبعته الي شيء ويب غيك دلكا
على مذهب لم تلف أمّا ولا أبا عليه ولم تعرف عليه أخاً لكا

فلما أرسل هذه الأبيات المتقدمة إلى أخيه أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سمع سقاك بها المأمون؛ قال^(١): "مأمون والله" ولما سمع قوله: على مذهب لم تلف أما ولا أبا قال: "أجل؛ لم يُلف عليه أباه ولا أمّه" ثم أن رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢١٧/٤)، رقم (٧٨٠٦).

وسلم قال لأصحابه رضي الله عنهم: "مَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ كَعْبَ بن زهير، فَلْيَقْتُلْهُ" فكتب إليه أخوه بجير هذه الأبيات: [الطويل]

فمن مبلغ كعباً فهل لك في اللّني تلوم عليها باطلا وهي أحزم
الى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الله الا طاهر القلب مسلم

وكتب بعد هذه الأبيات: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه، وأنه قد قتل رجلاً بمكة كان يهجو، وأن من بقي من شعراء قريش كابن الزُّبَيري وهيرة بن وهب أي قد هربوا الى كل ناحية، وما أحسبك ناجياً، فإن كان ذلك في نفسك حاجة، فطر إليه، فإنه يقبل من أتاه تائباً ولا يطالبه بما تقدّم الإسلام.

فلما بلغه كتاب أخيه أتى الى قبيلة مزينة لتجيره من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبت ذلك؛ فضاقت عليه الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من هو عدوّه فقال: هو مقتول؛ فنظم هذه القصيدة يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به، خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل من جهينة بينهما تعارف فأتى به المسجد، ثم أشار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفة التي وصفه به الناس، وكان مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه مثل موضع المائدة من القوم، يتحلّقون عليه حلقة ثم حلقة، فيقبل تارة على هؤلاء فيكلمهم، وأخرى على هؤلاء ويحدّثهم، فقام إليه حتى جلس بين يديه، فوضع يده في يده، ثم قال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأ من منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه أن أنا جئت بك به؟ قال: نعم، قال هو يا رسول الله، وأنشد القصيدة، ويروى أنه لما وصل الى البيت، وهو قوله: [البسيط]

إنَّ الرسول لنورٌ يستضاء به مهتدٌ من سيوف الهند مسلولٌ

خلع صلى الله عليه وسلم برده الشريفة عليه؛ فسميت هذه القصيدة: بالبردة وقال له: "قل من سيوف الله مسلول".

استطراد:

لما كان تشبيب القصائد بذكر الأحبة والشكايه منهم وتذكّار المنازل والربوع ونحو

ذلك كالتسنة المؤكدة عند الشعراء ناسب لكعب أن يصدر مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتغزل بذكر بعض وصف معشوقته، وقال النابغة: [الطويل]

كليني لهم يا أئمة ناصبٍ وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وقال امرؤ القيس بن حجر الكندي: [الطويل]

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

كذلك بين الشنفرى كيفية حاله في سيره، وذكر المنازل والمناهل، وما يوافيه في أسفاره.

وقال الشنفرى^(١):

٤١ - فَعَبْتُ غِشَاشاً ثُمَّ مَرَّتْ كَأَنَّهَا مَعَ الصُّبْحِ رَكْبٌ مِنْ أَحَاظَةِ مُجْفَلٍ

(١) قال الزمخشري في "أعجب العجب": العبُّ شُرْبُ الماءِ مِنْ غَيْرِ مَصٍّ، وَغِشَاشٌ أَيْ عَلَى عَجَلَةٍ. وَأَنْشَدْتُ مَحْمُودَةَ الْكِلَابِيَّةَ:

وَمَا أَنْسَى مَقَالَّتَهُ غِشَاشاً لَنَا وَاللَّيْلُ قَدْ طَرَدَ النَّهَارَا

وَصَاتَكَ بِالْعَهْدِ وَقَدْ رَأَيْنَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَوْكَبَ ثُمَّ طَارَا

أَوْكَبَ تَهَيَّأَ لِلطَّيْرَانِ.

وَأَحَاظَةُ قَبِيلَةٍ مِنَ الْيَمَنِ، وَقِيلَ: مِنَ الْأَزْدِ، وَ"مُجْفَلٌ" أَيْ: مُسَرَّعٌ، وَقِيلَ إِنَّهُ الْمُنَزَّعُ. وَفَعَبْتُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَ"غِشَاشاً" حَالٌ مِنَ الضْمِيرِ فِي "عَبْتُ"، وَهِيَ حَالٌ مُقَارِنَةٌ، أَيْ عَبْتُ مُسْتَعْجِلَةً، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولاً لـ "عَبْتُ"، أَيْ شَرِبْتُ قَلِيلاً، وَمَوْضِعُ مَرَّتْ حَالٌ مِنَ الضْمِيرِ فِي "عَبْتُ"، وَهِيَ حَالٌ مُقَارِنَةٌ، أَيْ عَبْتُ مُسْتَعْجِلَةً، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولاً لـ "عَبْتُ"، أَيْ شَرِبْتُ قَلِيلاً، وَمَوْضِعُ مَرَّتْ حَالٌ مِنَ الضْمِيرِ فِي "عَبْتُ"، وَهَذِهِ حَالٌ مَقْدَرَةٌ، أَيْ: آيلاً أَمْرُهَا إِلَى الْمُرُورِ، وَ"كَأَنَّهَا" وَمَا عَمِلَتْ فِيهِ حَالٌ مِنَ الضْمِيرِ فِي "مَرَّتْ"، أَيْ مَرَّتْ مُشَبَّهَةً رَكْباً، وَمَعَ الصُّبْحِ ظَرْفٌ، وَالْعَامِلُ فِيهِ مَرَّتْ، أَوْ مَعْنَى كَأَنَّ، وَيَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ "مُجْفَلٌ" أَيْ رَكْبٌ مُجْفَلٌ مَعَ الصُّبْحِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَجْفَلَ وَقْتُ الصُّبْحِ.

وَرَكْبٌ خَبْرٌ كَأَنَّ، وَمِنْ أَحَاظَةِ نَعَتْ لَهُ، وَ"مُجْفَلٌ" نَعَتْ لَهُ أَيْضاً.

بَتْ، وَهَذِهِ حَالٌ مَقْدَرَةٌ، أَيْ: آيلاً أَمْرُهَا إِلَى الْمُرُورِ، وَ"كَأَنَّهَا" وَمَا عَمِلَتْ فِيهِ حَالٌ مِنَ الضْمِيرِ فِي "مَرَّتْ"، أَيْ مَرَّتْ مُشَبَّهَةً رَكْباً، وَمَعَ الصُّبْحِ ظَرْفٌ، وَالْعَامِلُ فِيهِ مَرَّتْ، أَوْ مَعْنَى كَأَنَّ، وَيَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ "مُجْفَلٌ" أَيْ رَكْبٌ مُجْفَلٌ مَعَ الصُّبْحِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَجْفَلَ وَقْتُ الصُّبْحِ. وَرَكْبٌ خَبْرٌ كَأَنَّ، وَمِنْ أَحَاظَةِ نَعَتْ لَهُ، وَ"مُجْفَلٌ" نَعَتْ لَهُ أَيْضاً.

اللغة:

عَبَّ: من العَبِّ، وهو شَرِبُ الماء أو الجِرْعُ أو تتابعُهُ، والكَرْعُ وفي الحديث: "الْكُبَادُ من العَبِّ"^(١)، والحمام تشرب الماء عبًا كما تعب الدواب، وبالضَمِّ الرُّدْنُ، والعباب كغراب الخُوصَةُ، ومُعْظَمُ السَّيْلِ وارتفاعه وكثرته أو موجهه، وأَوَّلُ الشَّيْءِ، وبنو العَبَّاب ككُتَّان من العرب سُمُّوا بذلك لأنهم خالطوا فارس حتى عَبَّتْ خيلهم في الفرات، واليعبوبُ الفرَسُ السَّريْعُ الطَّوِيلُ والاعْبُ الفقيرُ والغليظُ الأنف، وقولهم: إذا أصابت الظِّباءُ الماء فلا عباب، وإن لم تصبه فلا أباب، أي أن وجدته لم تعب، وإن لم تجده لم تتهيأ لطلبه ولشربه.

غشاشاً: على عجلة، يقال: لقيته غشاشاً بالكسر والفتح على عجلة أو عند مغيربان الشمس، أو ليلاً، وهو بالكسر وحده أَوَّلُ الظُّلْمَةِ و آخرها، وشرب غشاش بالكسر قليل أو عجل أو غير مري، وجاءوا مغاشينَ للضُّبْحِ مُبادرين، واغتشه ضدُّ استنصحه أو ظنَّ به الغش. ومنه الحديث: "من غشنا ليس منا"^(٢).

الركَّب: أصحاب الإبل في السَّفر اسم جمع، وهم العشرة فصاعداً وقد يقال للخليل خلافاً لمن ادعى اختصاصه بالإبل، جمعه أركب و ركوب والأركوب بالضم أكثر من الرِّكَب. قال الشاعر:

أَزَفَ التَّرْحَلُ غَيْرَ أَنْ رَكَابِنَا لَمَّا تَزَلْ بِرَحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِ

أُحَاظَةُ: بضم الهمزة وقد يقال وُحَاظَةُ بالواو وهو أبو قبيلة من حمير وإليه يُنسب مخالفاً أُحَاظَةُ. وكذا ذكره المجد اللغوي.

مجفل: من أجفل الظَّليم إذا أسرع وذهب في الأرض.

(١) أخرجه أبو نعيم في الطب (٢/٩ نسخة السفرجلاني) كما في السلسلة الضعيفة للألباني (٨٣/٦)، رقم (٢٥٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٥/٥)، رقم (٦٠١٢). وأخرجه أيضاً: عبد الرزاق عن معمر في الجامع (٤٢٨/١٠)، رقم (١٩٥٩٤)، والبيهقي (٢٨٤/٧)، رقم (١٤٤٣٦).

(٢) أخرجه الدارمي (٣٢٣/٢)، رقم (٢٥٤١)، والقضاعي في الشهاب (٢٢٨/١)، رقم (٣٥١)، وابن

عدي

(٢٠٧/٧)، وأحمد (٥٠/٢)، رقم (٥١١٣)، والطبراني في الأوسط (٦٣/٣)، رقم (٢٤٩٠)، وقال الهيثمي (٧٨/٤): رواه أحمد والبخاري والطبراني في الأوسط وفيه أبو معشر وهو صدوق وقد ضعفه جماعة.

الإعراب:

فعيت: الفاء عاطفة، وعب فعل ماضٍ، والتاء علامة التانيث، والفاعل مستتر راجع إلى القطا.

غشاشاً: إما نصب على الظرفية، أو على الحالية على اختلاف معانيه. والثاني أحق بالمقام.

ثم: حرف عطف.

مرت: فعل ماضٍ، والتاء للتانيث، والفاعل ضمير يعود إلى القطا أيضاً.

كأنها: كأن حرف من الحروف المشبهة بالفعل، والهاء اسمها.

مع: ظرف منصوب عليها متعلق بمحذوف حال من الركب مقدّم عليه، مضاف إلى الصبح.

وركب: خبر كأن.

من احاطة: جار ومجرور، ممنوع من الصّرف للعلمية والتانيث اللفظي متعلق بمحذوف صفة ركب.

مجفل: صفة بعد صفة.

المعنى:

يقول: بعدما وليت وتركتهما تكبو لعقر المنهل في عجلة تشرب، مرت علي مسرعة إما ليلاً أو في الظلمة مسرعة في الهرب كأنها ركب من احاطة قد أفرعه واجفله أمر عظيم أو خطب لا يرتاح عليه جسيم، فقول بعض الشراح: ثم مرّن متفرقة إلى أماكنها ومفاحصها غير موجّه إذ التفرق لا يفهم من البيت، بل هو مناف للمرور عليه، فإن قيل: توافين من شتى البيت المتقدم يدلّ عليه، لا نسلم ذلك ولان سلّمنا فما يدلّ عليه بعد مرور ولا معه.

قال السويدي في شرحه: فإنه أدمج في هذا البيت ذمّ احاطة حيث عرّض بجنبها تجفل غير مجتمعة بل متفرقة، فبعضها يأخذ يميناً وبعضها شمالاً، ولا يكون ذلك إلاّ لنهاية الخوف. يقال: إما للتعريض بدم احاطة فمسلم، وأما كونها إذا أجفلت الخ، فمن الطراز الأول.

تكميل:

تركب الشعراء الألفاظ مع حسن تأدية هذه التشبيهات تكاد أن تكون سحراً، فله
درّ القائل في وصف الحساد: [البسيط]

بليت منهم بأجلاف سواسية قد سعدوا بزمَامِ اللؤم وانحدروا
خزر العيون إذا أبصارهم نظرت شخصي فلا زال عنهم ذلك الخزر

وقال أيضاً: [البسيط]

ألا فسل أيهم يغني عناي إذا نار العدو تعالي فوقها الشَّرر
ومن يقوم مقامي يوم معضلة لا سمع يبقَى لرائيها ولا بصر
أمضى من السيف عزمًا حين تبصرهم مثل الحداة إذا ما بلّها المطر
تجري الجياد وان رثت أجلتها ولا يغركِ جل تحته دبر
أني امرؤ أن كشرت الناب عن غضب لا الخطّ تمنع من بأسِي ولا هجر
فلا يغرنهم حلم عرفت به قد تخرج النار فيما يقرع الحجر

وقال القيرواني في وصف المحبوب: [الوافر]

أقول وقد حيّا بكأسٍ لها من مسك مقلته ختام
أمن خديك تعصر قال كلاً متى عصرت من الورد المدام

وقال شهاب من قصيدة طويلة أولها: [الطويل]

خفرت بسيف الغنج ذمّة مغفري وفرت برمّح القدّ درع تصبّري
وجلّت لنا من تحت مسكة خالها كافور فجرٍ شقّ ليل العنبر

إلى أن قال: [الطويل]

وتنهدت جزعاً فائزٌ كفها في صدرها فنظرت ما لم أنظر
أقلام مرجان كتبن بعنبر بصحيفة البلور خمسة أسطر

وقال بشّار بن برد: [الطويل]

كأنّ مُثار النّقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

قال الشنفرى^(١):

٤٢- وآلَفَ وَجَهَ الْأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا بِأَهْدَأَ تُنْيِيهِ سَنَاسِنُ فُحْلُ
اللُّغَةُ:

آلف: بهمزتين مفتوحتين فساكنة وقد تخفّف الثانية بقلبها الفاء من الالف.

الافتراش: مصدر افتراش الشيء إذا وطئه وذراعيه بسطهما على الأرض، وفلاناً غلبه وصرعه، وعرضه استباحه بالوقعة فيه، والشيء انبسط، وأثره قفاه، ولسانه تكلم كيف شاء، والمال اغتصبه.

بأهدأ: بهمزة مفتوحة فهاء ساكنة فдал مهملة آخر الحروف همزة من هدى بكسر الدال فهو أهدأ إذا احدودب وهدأه الكبر والأهدأ أيضا المنكب، درم أعلاه، واسترخى حملة، والأهدأ اسم تفضيل من هداً بفتح الدال هداً وهُدُوءاً إذا اسكن، والمعاني كلها محتملة.

تنبيه:

بضمّ المشناة الفوقية وسكون النون وكسر الموحدة من أنييت الشيء عني، أي دفعته عن نفسي.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": آلفه - بالفتح - مضارعُ أَلْفَهُ، كَعَلِمْتُهُ: حَصَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَلْفَةً؛ أي: مُلَاءَمَةً. وافتراش الأرض: اتَّخَذَهَا فِرَاشاً، بَأَنْ يَضْطَجِعَ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ حَائِلٍ بَيْنَهُمَا. والأهدأ - بالهمز - اسمٌ هَدْيٌ كَفَرَحَ؛ أي: انْحَنَى، يُقَالُ: أَهْدَاهُ الْكِبَرُ. وَتُنْيِيهِ مُضَارِعُ أَنَاتُهُ: أَيِ أَبْعَدْتُهُ. وَيُؤْوَى: (تُنْيِيهِ). وَالسَّنَاسِنُ جَمْعُ سَنَسِنٍ وَسَنَسِنَةٍ بِالْكَسْرِ فِيهِمَا: حَرْفُ فَقَارِ الظَّهْرِ هُنَا. وَالْفُحْلُ: جَمْعُ قَاحِلٍ، وَهُوَ الْيَابِسُ.

وصف نفسه بالارتياض بالمقاساة للمشقّات حتّى أَلْفَهَا فلم يجد لها كبيراً ألم بعد، فأخبر عن نفسه أن يفترش الأرض فيضطجع عليها بمنكبٍ مُنْحَنٍ من الكبر أو من مقاساة الأهوال والشدائد، أبعدت ذلك الأهدأ عن الأرض حروف فقار الظهر اليابسة من الكبر، فلا يجد لقساوة الأرض ألماً عندما يفترشها لينس ما يباشرها من أضلاعه وفقاره التي أبعدت عن الأرض ما يحس بها من منكبِهِ. قوله: (عند افتراشها)، فيه إضافة المصدر إلى المفعول به (بأهدأ) مُتَعَلِّقٌ بِ(افتراش)، وَ(تُنْيِيهِ) نَعَتْ لِ(أهدأ).

وتقدير البيت: وآلف وجه الأرض، أي: لا أتألم به عند افتراشي إيّاها، أي: اضطجاعي عليها بمنكبٍ أو جنبٍ مُنْحَنٍ مُبْعَدٍ عن الأرض بأضلاع يابسة. وقوله: (وآلف معطوف على قوله: (وأغدو) كقوله: (وأشرب)).

السَّانَسُ: جمعُ سَنَسٍ وهي حروف فقار الظهر كالسِّنِّ والسِّنْسِنَةِ ورَأْسُ عِظَامِ الصَّدْرِ أو أطراف الصِّلَعِ الَّذِي فِي الصَّدْرِ.

فُحِّلَ: بضم القاف وفتح الحاء المهملة المفتوحة المشددة جمع قاحل الوصف من قَحَلَ الشَّيْءُ بفتح الحاء يَقْحُلُ بضمها فُحُولاً يَبْسُ جِلْدُهُ عَلَى عِظْمِهِ كَتَقَحَّلَ وَأَقْحَلَتْهُ، والمَقْتَحَّلُ الرَّجُلُ الْيَابِسُ الْجِلْدُ السَّيِّئُ الْحَالِ، وَقَحَلَ الشَّيْخُ كَفَرَحَ فَهُوَ قَحْلٌ بِالْفَتْحِ وَكَتَفَ، وَقاحله لازمه، كغرابٍ داءٌ فِي الْغَنَمِ.

الإعراب:

وَأَلَفَ: معطوف إما على اعدو أو على تشرب، وفاعله ضمير المتكلم.

وجه: مفعول به مضاف إلى الأرض.

عند: منصوب على الظرفية مضاف إلى افتراشها، والمصدر مضاف إلى الضمير الَّذِي هو مفعوله وفاعله محذوف أي، عند افتراشي إياها.

بأهدأ: جار ومجرور وهو ممنوع من الصرف متعلق إما بآلف أو بافتراش.

تنبه: فع لمضارع مع مفعوله، والفاعل سنانسٌ.

وَقُحِّلَ: صفة للفاعل.

المعنى:

بعدما فرغ من وصف نفسه بشدة عدوه وكمال عزمه أخذ يصف نفسه بالصبر على المشاق والعيش الخشن، وحسن حزمه، فقال: إني لآلف وجه الأرض عند افتراشي لها، وبذلك ارتاح ولا احتاج إلى الفراش بل إنَّما افتراشها وأطوَّها وأرى ذلك من النجاح بكاهل ورم من كثرة التعب أو بظهر أحذب مقوساً من شدة السغب، تدفعه عن وجه الأرض في المنام رؤوس فقار ظهري التي لا رطوبة من الضَّرام، وهذه مبالغة عظيمة تكاد أن تخرج عن طوق البشر، إلا أن يؤول بما أوَّل في سنِّ التُّراب في البيت المتقدِّم هناك.

ومنشأ صبره على سوء الحال، خشية الاحتياج إلى طلب التَّوَال من الأندال.

استطراد:

ما أحسن قول ابن مقرب فيما يقرب من هذا: [الطويل]

وقائلة والعيس تحدج للنوى
عليك بصبر واحتساب فإنما
ولا ترم بالأهوال نفساً عزيزة
فقلت لها والعين سكرى بزفرة
أبالموت مثلي ترهين وبالنوى
وللموت أحيا من حياة بلدة
وما غربة عن دار ذل بغربة
وله أيضاً: [الطويل]

ورب غريم ناعم وابن بلدة
وإن مقامي يا ابنة العم للقلا
فلا بُد لي من وقفة قبل رحلة
وقال أبو فراس الحمداني: [الطويل]
أراك عصي الدمع شيمتك الصبر
نعم أنا مشتاق وعندى لوعة
إذا الليل وارانى بسطت يد الهوى
وله:

تهون علينا في المعالي نفوسنا
ونحن أناس لا توشط بيننا
ولله درُّ القائل: [السريع]

قد كنت قبل الهم في همّة
دعاني الهم بلا همّة
يأكل من لحمي السقنقور
فالهّم للهمة كافور

قال الشنفرى^(١):

٤٣- وَأَعْدِلْ مَنْحُوضاً كَانَ فَضُوضُهُ كِعَابَ دَحَاهَا لَاعِبٌ فَهِيَ مُثْلُ

اللغة:

المنحوض: بميم مفتوحة فنون ساكنة فحاء مهملة مضمومة آخر الحروف ضاد معجمة هو هنا من نحض المبني للمفعول، أي: لحمه.

الفصوص: بفاء مفتوحة فصادان مهملتان بينهما واو مثلث الفاء، وهو هنا كُلُّ مُلتقى عظيمين.

الكعاب: بكسر الكاف جمع كَعْبٍ، وهو هنا الَّذِي يُلعب به.

دحاهها: بدال فحاء مهملتين مفتوحتين من الدحو وهو البسط، ويقال: اللاعب بالجوز: أبعد المدى وأدحه، أي أرمه.

مُثْلُ: بضم الميم وتشديد الثاء المثلثة المفتوحة جمع ماثل نعت من مثل بين يديه مثولاً، أي انتصب قائماً كقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

الإعراب:

وأعدلْ: الواو عطف، وأعدل معطوف على أهدأ إلا أنه مجرور بالكسرة لإضافته

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": أَعْدِلْ - بالكسرة - مُضَارِعٌ عَدَلْتُهُ بالفتح؛ أي: أَقَمْتُهُ، والمنحوض: المهزول. وموصوفه محذوف؛ أي: ذِرَاعاً مَنْحُوضاً. والفُضُوضُ، جمع فَضٍّ: وهو مُلْتَقَى كُلِّ عَظْمَيْنِ. والكِعَابُ، جمع كَعْبٍ، وهو عَظْمٌ نَاشِزٌ فِي كُلِّ جَانِبِي الْقَدَمِ. وَدَحَوُ الْكِعَابِ: الرمي بها؛ لَأَنَّ فِي ذَلِكَ بَسْطاً لَهَا، الَّذِي هُوَ مَعْنَى الدَّحْوِ. وَالمُثْلُ جمع مَاثِلٍ؛ أي: مُنْتَصِبٍ.

يقول: وَأَنْصَبُ ذِرَاعاً مَهْزُولاً تُشَبِّهُ مَوَاصِلَ عِظَامِهِ كِعَاباً رَمَى بِهَا عَلَى الْأَرْضِ شَخْصٌ لَاعِبٌ بِهَا. فَهِيَ لِأَجْلِ ذَلِكَ مُنْتَصِبَةٌ قَائِمَةٌ.

فالغرض من التشبيه هنا بيان مقدار هُزَالِ الذراع، فَإِنَّهُ أَفَادَ أَنَّ ذَلِكَ فِي الْغَايَةِ، وَإِنَّمَا يَغْدِلُ الْمَنْحُوضُ لِيَتَوَسَّدَهُ.

والمعنى: أَنَّهُ يَفْتَرِشُ الْأَرْضَ، وَيَتَوَسَّدُ ذِرَاعَهُ الْمَهْزُولَ، كَمَا قَالَ غِيْزُهُ: [الكامل]

يَا رَبِّ سَارِ بَاتٍ مَا تَوَسَّدَا إِلَّا ذِرَاعَ الْعِيسِ أَوْ عَظْمَ الْيَدَا

انتهى.

إلى منحوض، قال ابن مالك في الألفية : [الرجز]

وَجُرَّ بِالْفَتْحَةِ مَا لَا يَنْصَرِفُ مَا لَمْ يُضَفَّ أَوْ يَكُ بَعْدَ أَلٍ رَدِفٌ

وإضافته إلى منحوض من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل منحوض اعدل.

كأن: من الحروف المشبهة بالفعل.

فصوص: اسمها مضاف إلى الضمير.

كعاب: خبرها.

دحاها: دحى فعل ماض، والهاء ومحلة النَّصْب على المفعولية.

ولاعب: فاعله، والجملة محلّها الرّفْع على أنّه نعت لكعاب لأنه نكرة فالجملة بعده صفة.

فهى: الفاء للتفريع، والنتيجة وهي مبتدأ.

ومثّل: هو الخبر.

المعنى:

يقول: وافترشها أيضا بمستقيم من اللحم الذاهب الذي كان ملتقاً، عظيمة كعاب لاعب لصلابتها على الرّمي والتناول، قوتها على الدّحي والتناول.

تكميل:

ما أحسن قول أبي فراس في حاله سجنه عند الإفرنج حيث يقول: [الطويل]

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أي جارتني هل بات حالك حالي

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى وما خطرت منك الهموم ببال

لقد كنت أولى منك بالدّمع مقلة ولكنّ دمعني بالحوادث غالي

أيا جارتني ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي

وقد غلّطه النحويّون في كسر لام تعالي، والصواب الفتح، قال تعالى: ﴿قُلْ

لأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهُنَّ فَأَتَايُنَّ أَمْ تَكُنَّ أُسْرًا حَكُنَّ سَرَاحًا

جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وقال بعضهم: إنه مما لا يناسب في حقّه الغلط، وربما يكون من بعض اللغات كسر اللام بل ثبت أنه لغة أهل العالية.

قال الشنفرى^(١):

٤٤ - فَإِنْ تَبْتَسُّ بِالشَّنْفَرَى أُمُّ قَسْطَلٍ لَمَّا اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرَى قَبْلَ أَطُولٍ

اللغة:

تبتس: من البأس، العذاب: والشدة في الحرب، بؤس ككرم بأساً فهو بئس شجاع، وبئس كسمع بؤساً وبؤساً وبؤساً وبؤسى وبئسى: اشتدت حاجته، والبأساء والابؤس الداهية، ومنه^(٢): (عَسَى الْغَوِيرُ أَبُوسًا)، أي داهية، والبيأس كفيعل: الشديد، والأسد، وعذاب بئس وبئس كأمير، وبيأس كجيل: شديد وبئس رجلاً زيد فعل ماضٍ لا يتصرف والفاعل محذوف ورجلاً تمييز وزيد إما خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ والجملة

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": ابتأس: حزن. والشنفرى لقبه، واسمه: عمرو بن مالك الأزدي. وأُمُّ قَسْطَلٍ، بالسین والصاد أيضاً: كُنْيَةُ الدَاهِيَةِ، وأَيُّ دَاهِيَةٍ أَعْظَمُ مِنَ الْحَرْبِ، ومن الحربِ يَتَوَلَّدُ الْغَبَاؤُ: وَهُوَ الْقَسْطَلُ. والاعتباط: السرور. يقول: إِنَّهُ مِسْعَرُ حَرْبٍ، وَمُنْجِدٌ لِلدَّوَاهِي عَلَى قَتْلِ الْأَبْطَالِ، فَإِنْ مَاتَ ابْتَأَسَتْ بِهِ الدَّوَاهِي وَالْحُرُوبُ، وَحَزَنْتْ عَلَيْهِ، كَمَا كَانَتْ تُسَرُّ بِهِ، عَلَى أَنَّ زَمَانَ اغْتِبَاطِهَا بِهِ أَطُولُ. وقوله هذا تعزية لها، والتعزية في الحقيقة لنفسه.

والمعنى: أَنَّهُ إِنْ قُدِّرَ مَوْتُهُ وَابْتَأَسَ مَا ذَكَرَ بِهِ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَمَاتَ كَثِيرًا، وَأَوْقَدَ نِيرَانَ الْحُرُوبِ زَمَانًا طَوِيلًا، وَفِي ذَلِكَ اغْتِبَاطُ الدَّوَاهِي وَسُرُوزِهَا، فَلَمْ يَفُتْهُ شَيْءٌ تُحِبُّ لِأَجْلِ الْحَيَاةِ؛ إِذْ ذَاكَ غَايَةُ مَا كَانُوا يَطْلُبُونَ الْحَيَاةَ لَهُ، كَمَا قَالَ قُطْرُبِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ: [البسيط]

فَإِنْ أَمْتُ حَتْفَ أَنْفِي لَا أَمْتُ كَمَدًا عَلَى الطَّعَانِ وَقَضَرَ الْعَاجِزِ الْكَمِيدِ

وَلَمْ أَقُلْ: لَمْ أَسَاقِ الْمَوْتَ شَارِبُهُ فِي كَأْسِهِ وَالْمَنَائِمَا شُرْعُ وَرُدُّ

انتهى.

(٢) يضرب مثلاً للرجل يخبر بالشر، فيتهم به. والغوير: تصغير غار. وأصله أن جماعة حذروا عدوا لهم، فاستكنوا منه في غار، فقال بعضهم: (عسى الغوير أبوساً) أي لعل البلاء يجيء من قبل الغار، فكان كذلك، احتال العدو حتى دخل عليهم من وحي في قفا الغار، فأسروهم. انظر: الأمثال العربية ١/١٤٦، ومجمع الأمثال ٢/١١٧، وزهر الأكم ١/١٨٨.

خبر والتقدير: بئس الرجل رجلاً هو زيد وبنات بئس الدواهي والمبتئس الكاره الحزين، وهو المراد فيها نحن بصدده والتباؤس التفافر وان يرى تخشع الفقراء إخباتاً.

الشنفرى: بشين معجمة مفتوحة فنون ساكنة ففاء فراء مفتوحتين آخر الحروف ألف مقصورة لقب النّاطم لهذه القصيدة.

وفي شواهد العيني أن اسمه عمرو بن براق، والصحيح أن عمرو بن براق كان هو وتأبط شراً، رفيقين حين غزوا الجبل وسنذكر قصتهم في ما يأتي، وإن اسمه ثابت بن جابر فوافق اسمه اسم تأبط شراً واسم أبيه اسم أبيه.

سنذكر سبب تسميته بتأبط شراً نصّ عليه الجلال السيوطي في شواهد المغني.

وحكى السويدي في تلقيبه بالشنفرى حكاية تدور على اللسنة قيل لا صحة لها، ولا مانع للصحة وما ذكر منع مجرد لا دليل عليه، وما المانع من صحة ذلك؟!

أم قسطل: هي الداهية، والقسطل والقسطال والقسطلان بفتحهن: الغبار والقسطلانية قوس قرح، وحمرة الشفق، وثوب منسوب الى عامل أو والي قسطلة، وقسطلة الجمل هديره.

اغبتطت: بغين معجمة فمشناة فوقية فموحدة تحتية مفتوحتين مطاوع غبطته، والغبطة حسن الحال والمسرة وان تتمنى مثل حال المغبوط من غير أن تريد زوالها عنه. فإذا أردتها كان حسداً أو العياذ بالله من ذلك، ولا مانع من الأول.

أطول: أما بمعنى طويل أو على بابه.

الإعراب:

فإن: الفاء عاطفة، وان شرطية.

تبئس: بالجزم فعل شرط.

بالشنفرى: جار ومجرور متعلق به، أم فاعل الفعل المتقدم مضاف الى قسطل.

لما: اللام لتأكيد، وما موصولة مبتدأ.

واغبتطت: فعل ماض والتاء علامة التأنيث ساكنة، والفاعل ضمير أم قسطل، والجملة صلة الموصول، فلا محل لها من الإعراب وعله ذلك مبين في كتب النحو فليراجع.

بالشنفرى: جار ومجرور متعلق باغبتبط وهو قائم مقام العائد كقوله: [الطويل]

وَأَنْتَ الَّذِي فِي رَحْمَةِ اللَّهِ أَطْمَعُ

قبل: مبني محله النَّصَب على الظرفية، وعلة بنائه قد تقدّم.

أطول: خبر ما الموصولة.

وجواب إن يحتمل أن يكون جملة: لما اغتبطت، على تقدير الفاء مقوله: [البسيط]

من يفعل الحسنات الله يشكرها

ويحتمل أن يكون محذوفاً، والتقدير: فلا ضرر ولا عيب، ويحتمل كون اللام موطئة للقسم محذوف، والجملة جواب القسم، والمجموع جواب إن.

المعنى:

فإن تحزن الداهية وتشكو بسبب رقة الشنفرى رقة عليه من سوء الحال وتواتر المشاق، فالذي كان له من السرور وحسن الحال قبل ذلك أطول وأكثر ممّا رأت من الإشفاق، فطالما أبصرت ما اعتراه من حسن البلاء، وعظم ظفره بالأعداء.

تكميل:

في البيت التفات من المتكلم إلى الغيبة على رأي السكاكي وغيره، وفيه مبالغة عظيمة أيضاً حيث إنه لشدة صبره وقوه جلده وعدم اكترائه بالخطوب يسلى الداهية التي حزنّت لأجله رحمة وشفقة عليه، ويسهل الأمر الصّعب عليها، ويجوز أن يريد بأمّ قسطل الحرب، ويكون حزنّها عليه لما أنها فقدته في الوقائع، وعدمته في اشتباك القتال في المعامع، فأجاب بالذي كانت الحرب تغتبط عليه قبل ذلك أكثر وأطول وذلك لأنه سريع الإقدام لا يعرف الفرّ ولا الإحجام، له حسن جلادة في الحروب لاسيما إذا زاغت الأبصار وبلغت الحناجر القلوب، واتى بالاسم الظاهر وكزّره لأنه كان فتاكاً عداءً واشتهر باللقب، فذكره يفيد ذلك صراحة ويغني السامع عن تعجزّفه.

استطراد:

ممّا يضاهي صبر الشنفرى على الوقائع في الحروب قول عنتره العبسي في المعلّقة

حيث يقول: [الكامل]

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقمها قول الفوارس ويك عنتره أقدم
ولقد ذكرتكَ والسيوف نواهلٌ مِنِّي وبيض الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السُّيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المُتبَّسِّم
وقال أبو فراس: [الطويل]

فقال أصيحابي: الفرار أو الرّدى فقلت: هما أمران، أحلاهما مُرٌ
وقال غيره: [الطويل]

تقول ابتني إنَّ انطلاقتك واحداً إلى الحرب يوماً تاركي لا أباليا
وقال أبو الطَّيِّب: [الوفر]

سلو عن سيرتي فرسي ورمحي وسيفي والهلمقة الدِّهاقا
وقال أبو فراس أيضاً: [الطويل]

منعت حمى قومي وسدتُ عشيرتي وقلّدتُ أهلي عزَّ هذا القلائد
خلائق لا يوجدن في كلّ ماجد، ولكنّها في الأكرمين الأماجد

رجع:

ذكر أن الشَّنْفَرى كان كثير الغارات والسرقة من بعض الأحياء فاتفق أنه قدم على حيٍّ هو ورفيقاه اللّذين تقدّم ذكرهما معه، وهما ليسا مثله في شدة العدو فأحس بهم ذلك الحيّ فقصدوهم، فتحصن الشَّنْفَرى ورفيقاه بجبل بالقرب منهم له طريق واحد، فلا يمكن أولئك الصُّعود عليهم خوفاً من رميهم بالنِّبال، فمسك أهل الفريق عليهم الماء، وقالوا، إذا عب عليهم الظماً نزلوا فاحتال بهم الشَّنْفَرى، وقال لصاحبه أنا انزل لهم متضالعاً موهماً فيهم أن رجلي فيها شيء فيطمعون في القبض عليّ فيطمعون في القبض عليّ فلم أزل أبعدهم حتى يتسع لكم التّزول الى الماء والورد منه، والرجوع الى أمكنتكم وأنا بعدكم أسرع إلى الماء وأرد وأوافيكم في القنّة، فنزل إليهم متضالعاً تضالع الذئب فطمعوا فيه فلم يزالوا ينتقلون في طلبه حتى أبعدهم عن الماء فنزل صاحبه

فوردوا الماء ورجعوا الى القنّة ثم كرّ هو راجعاً فورد أيضاً، وصعد، فایسوا أهل ذلك الحيّ من الشنفرى وصاحبيه وخلّوا سبيلهم.

وأما سبب تسمية رفيقه تأبط شراً قيل: أنه تأبط سيفاً فخرج من بيته فجاء أصحابه فسألوا أمه عنه، فقالت لهم: تأبط شراً وخرج، وقيل: رؤي أخذاً حيّة تحت إبطه فقيل: تأبط شراً واسمه العلم عمرو كما تقدّم، وقيل غير ذلك.

تكميل:

لقد وصف الشنفرى نفسه فيما يدلّ عليه السياق، والسباق صفة عالية دقيقة هي من أعلى ذي المروّات حيث لا تهدم دعائم صبره البأساء ولا تطيش حلمه السّراء، ولقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الصّفة الحظّ الذي لا يجارى والنصيب الذي لا يُمارى، ولقد أحسن البوصيري في مدحه بذلك حيث قال: [الخفيف]

لا تحلّ البأساء منه عرى الضّبر ولا تسـتخف السّـراء

ومما ينتظم في سلك ذلك قول أبي محجن: [البسيط]

قد أركب الهول مسدولاً عساكره وأكتم السّرفيه ضربة العنق
ويعسر المرء حيناً وهو ذو كرم وقد يثوب الغنا للفاجر الحمق
سيكثر المال يوماً بعد قتلته ويكتسي العود بعد اليبس بالورق

فقال هدبة بن خشرم حين أريد قتله: [الطويل]

ولستُ بمفرح إذا الدهر سرّني ولا جازع من صرفه المتقلب

وقال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا حين قتله خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث يقول: [الطويل]

ولستُ إذا ما أحدث الدهر نكبةً ورزء بزوّار القرائب أخضعا
ولا فرحاً إن كنت يوماً بغبطة ولا جزعاً إن ناب دهر فأضلعا

وقال أبو الطيب: [الطويل]

يهون على مثلي إذا رام حاجةً وقوع العوالي دونها والقواضب

وقال أبو العلاء المعري: [الطويل]

وأغردو ولو أن الصَّباح صوارم
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم
يهمُّ الليالي بعض ما انا مضمّر
وإنني إن كنتُ الأخير زمانه
أعندي وقد مارست كلَّ خفيّة
لدى موطنٍ يشताقه كلُّ سيد
ولي منطوق لم يرض لي كُنه منزلي
وطال اغترابي في الزمان وصرفه
ينافس يومي في امسي تشرفاً
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي
إذا وصف الطائي بالبخل مادر
وقال الشها للشمس أنت خفيّة
وطاولت الأرض السماء سفاهة
فيا موت زر إن الحياة ذميمة
وقد اغتدى والليل يكي تأسفا
بريح أعيرت حافرا من زبرجد
وليلان حال بالكواكب جوزه
كان دجاء الهجر والصبح موعد
قطعت به بحرا يعب عبابه
ويؤنسنني في قلب كل مخوفة

وقال أبو طالب المأموني: [الطويل]

تَعَسَّفت لَجْأً من دُجى الليل طاميا
وأضحى قذى في مُقلّة الصُّبح غاديا

إذا طما لج المُنَى بين أضلعي
وأمسى شجاً في ثغرة الليل رائحا

وقد أطنبنا في مضممار هذا البحث، لما قيل: من أحب شيئاً أكثر من ذكره، إذ هو بحث يرتاح لسماعه كل لبيب، وأحب إلى طالبه من تقبيل ثغر الحبيب لاسيما إذا كان من أربابه وطلابه إلا أنه لا يدرك إلا ببذل النفوس والمهج، وليس على من قتل فيما دونه حرج، وقد قال بعضهم: ودون اجتباء النحل ما جنت النحل، وقال آخر: مهر الملاح بذل الأرواح.

قال الشنفرى^(١):

٤٥ - طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ عَقِيرَتُهُ لِأَيِّهَا حُمٌّ أَوَّلُ

اللغة:

الطَّرِيدُ: مِنَ الطَّرْدِ، وَيُحَرَّكُ، وَهُوَ الْإِبْعَادُ، وَالطَّرِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالطَّرِيدَةُ: مَا طَرَدَتْ مِنْ صَيْدٍ وَغَيْرِهِ، وَمَا يُسْرِقُ مِنَ الْإِبِلِ.
جِنَايَاتٍ: كَحِكَايَاتِ جَمْعِ جِنَايَةٍ: الذَّنْبُ، وَمصدر: جَنَى عَلَيْهِ يَجْنِيهِ جِنَايَةً.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الطَّرِيدُ: المَطْرُودُ، أَي: الْمُبْعَدُ. وإضافته للجِنَايَاتِ، جَمْعُ جِنَايَةٍ، مجازٌ، بمعنى أَنَّهَا سَبَبُ طَرْدِهِ، وَالتَّيَاسَرُ: الْمُقَارَعَةُ بِقَدَاحِ الْمَيْسِرِ، وَهُوَ مجازٌ عن الاستحقاق، وإسناده إلى ضمير الجِنَايَاتِ مجازٌ أيضاً، لِأَنَّ التَّيَاسَرَ، أَي: الْمُسْتَحَقَّ، فِي الْحَقِيقَةِ الْمُجْنِي عَلَيْهِم، وَالْجِنَايَاتُ سَبَبُهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ تَمَثِيلٌ لَاسْتِحْقَاقِ الْمُجْنِي عَلَيْهِمْ دَمَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ.

وبيان ذلك أَنَّهُ شَبَّهَ حَالَ نَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَطْلُوبُ الدَّمِ مَطْلُولُهُ [بِحَالِ] الْجَزُورِ الْمُعَيَّنِ لِلنَّحْرِ بِالْمُقَارَعَةِ عَلَيْهِ بِالسَّهَامِ الْمُسَمَّى تَيَاسَرًا.

ثُمَّ اسْتَعَارَ لَفْظَ الْمُسَبَّبِ بِهِ - وَهُوَ مُرْكَبٌ - لِلْمُسَبَّبِ. وَمَا كَانَ مِثْلَهُ مِنَ الْمَجَازِ - أَي: مُرْكَبًا - سَمِّيَ تَمَثِيلًا عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ، إِنْ لَوْحَظَ فِيهِ التَّشْبِيهُ كَمَا هُنَا.

وَالْعَقِيرَةُ، بِمَعْنَى الْمَغْفُورَةِ، وَالْعَقْرُ: الْجَوْحُ، وَيَعْنِي بِهَا ذَاتُهُ، وَحُمٌّ: قُدْرٌ. وَقَوْلُهُ: (طَرِيدُ جِنَايَاتٍ) خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذُوفٌ، أَي: هُوَ مَطْرُودُ جِنَايَاتٍ، أَي: مُبْعَدٌ عَنْ عَشِيرَتِهِ بِسَبَبِ جِنَايَاتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ فِي اسْتِحْقَاقِ الْمُجْنِي عَلَيْهِمْ - وَهُمْ كَثِيرُونَ - دَمَهُ، كَاسْتِحْقَاقِ الْجَزُورِ الْمُتَيَاسِرُونَ عَلَيْهَا. فَذَاتُهُ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَوَّلُ الدَّوَاتِ عَقْرًا لِأَيِّ الْجِنَايَاتِ قُدْرٌ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ بِمَثَابَةِ الصَّيْدِ الَّذِي يَعْقُرُهُ مَنْ أَمَكَّنَهُ عَقْرُهُ مِنَ الطَّالِبِينَ لَهُ. فَالطَّالِبُونَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْجِنَايَاتِ كَالْمُتَصَيِّدِينَ، فَمَنْ ظَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ قَتَلَهُ إِنْ قَدَرَ عَلَيْهِ.

وَجَمَلُهُ (هُوَ طَرِيدُ جِنَايَاتٍ) مُسْتَأْنَفَةٌ لِبَيَانِ حَالِهِ، فَلَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ.

تياسر: أي اقتسم لحمه اقتسام أهل الميسر، وهم الذين يلعبون بالقداح، والميسر أيضاً الجزور التي كانوا يتقانون عليها، كانوا إذا أرادوا أن ييسروا اشتروا جزوراً نسيئةً، ونحزوه قبل أن ييسروا، وقسموا لحمه ثمانيةً وعشرين قسماً أو عشرة أقسام فإذا خرج واحدٌ واحدٌ باسم رجلٍ رجلٍ ظهر فوزٌ من خرج لهم ذوات الأنصباء، وضمن من خرج له الغفل، والميسر أيضاً: التزُد أو كُل قمار.

عقيرته: العقيرة هنا الساق المقطوعة.

حُم: الأمر بالضم حمًا قضي وقدر، والحمام بالكسر: الموت وقضاؤه، وبالفتح مخفف الميم: طائرٌ، ومشدها الديماس يذكر ويؤنث، جمع حمامات، وفي القاموس المحيط: لا يقال طاب حمامك وإنما يقال ك طابت حمامك بالكسر. انتهى. وكتب عليه بعض الأفاضل: من لازم طيب الحمام طيب العرق، فالدعاء به دعاء بذلك، فما وجه المنع؟!

وليت شعري هل كان هذا الفاضل يعلم أن اللغة لأثبت بالعقل ولا بالقياس، أم كان لا يعلمها.

أول: وهو ضد الآخر، وقد يجيء بمعنى غير المسبوق بمثله كما قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] قاله السَّعْدِي وأصله أوَّل أو وَوَّل، فعلى الأوَّل قلبت الهمزة واواً ثم أدغمت، وعلى الثاني قُدِّمَت الهمزة للفاء وأدغمت الواو في الواو على الأقرب، ثم مُنِعَ الصَّرْفُ لِلصِّفَةِ ووزن الفعل، تقول: لَقِيتُهُ عاماً أوَّل من هذا العام.

الإعراب:

طريد: خبر مبتدأ محذوف، أي هو مضاف الى جنایات، وهي مجرورة بالمضاف على الأصح من أقوال ثلاثة محلها كتب النحو.

تياسر: فعل مضارع مبني على السكون لإتصاله بنون النسوة، ونون ضمير فاعل، والجملة صفة للمضاف إليه لوقوعها بعد نكرة مع السلامة من الموانع.

ولحمه: مفعول من المضاف إليه.

عقيرته: مبتدأ ومضاف إليه.

لأَيّما: جار ومجرور متعلّق بمحذوف على أنه الخبر، والجملة مستأنفة.

وأوّل: ظرف مبني على الضّمّ، لحذف المضاف إليه ونية معناه.

المعنى:

إن الشنفري لكثرة عزماته، ووفور وثباته وثباته، صدر منه جنایات في مواطن كثيرة، فهي طالبة له، وهو مبعّد عنها، قد تقاسمن لحمه اقتسام أهل الميسر لحم جزوره، فساقه المقطوعة هو للمقدّر أول منها، وفي تخصيص العقيرة لكونها حصّة أوّل جنایة طلبته فأدرّكته، إشعار بكثرة عدوه، وأنّه لا يُقْتَضُ منه الا بعد إبطال تلك السّرعَة، وأنّها تكون بتلك القطعة.

وفي قوله: عقيرته لا يها الخ مجاز عقلي عند الخطيب بناء على أن المسند هو المتعلّق وهو فعل أو اسم بمعناه، وعند السّكاكيمي مطلقاً بناء على إعطاء الظرف حكم الجملة وحقيقة عقيرته لصاحبها أي المجني عليه، كما أن قوله تياسرن لحمه مجازاً في الإثبات، ويحتمل التشبيه فيهما، والاستعارة غير خافية، وإنما لم يقل حمت بناء على أنّ الفاعل المجازي التّأنيث إذا كان ضميراً مستتراً وجبت تاء التّأنيث لأنّ الفاعل ضمير أي وهو مذكر باعتبار اللفظ.

تكميل:

يحتمل أن يكون قول الشنفري عقيرته الخ من باب التعجيز أي فليأخذ عقيرتي من قدرّ أولاً من جنایاتي أن قدر على ذلك، فتكون الجملة خبرية اللفظ فقط.

ويحتمل أنّه لسعة عقله عالم بأنّه يدرك إذ لا بد لكلّ بداية من نهاية، ولكل دولة من ميلة، وإنّ الإنسان وإن نال بقوته العنان لا بد له أن يضعف فيطمع فيه الضعيف، ويخرف ويعدّ عقله السّخيف، انشد حجر بن عمر بن آكل الممرار لنفسه شعراً^(١): [المنسرح]

من يأمّن اليوم أو يعيش غداً	أم من يُرجى خلوده أبداً
ينفذ ما نحن فيه عن كذب	في من قد مضى ومنّ نفداً
حدّثت عن آكل الممرار أبي	عمرؤ وعمرؤ مضى وما خلداً

بأنه قد رأى ثمانية قد ملكوا الأرض كلها عددا
وشاهدين الخليل يتلو على جدهم وحيا مُنْزَلاً وهُدى
وقد رأى من رأى زهيرا ومن أخبره أنه رأى أَدْدا
والمرء لقمان إن سمعت به شاهده وهو يحمل اللبدا
فهل ترى من أولاك كلهم فيمن عليها مخلدا أحدا

وهي طويلة اقتصرت منها على محلّ الاستشهاد.

وفي كتاب "دمنة وكليلة" ما معناه أنه قيل: كان في أجمة من آجام أرض الهند فيل، وكان في طريقه التي يذهب فيها الى ورده مفحص قنبرة فمَرَّ عليها ذات يوم وقد باضت فيه، فقامت إليه وقالت: أيها الفيل العظيم ارحم ضعفي وصغر جثتي، شكراً لله تعالى على قوتك وكبر ذاتك، وتنح عن بيضي لا تطأه أقدامك الجسام، فتحرمني لذل المنام، فلم يصغ الى قولها، وعن بيضها ما عدل، وجار عليها ظلماً وما عدل، وكسر بيضها تحت أخفافه، لاحتقاره بها وإخفافه، فشرعت القنبرة تدبر في أخذ الثأر من ذلك الجبار فمما ظهر لها في أخذها الثأر أن ذهبت إلى العظيم من الأطيّار، وشكت حالها إليهن والتمست منهنّ أن يذهبن معها الى ذلك الفيل الغشوم، ويقفن على الرأس منه والخرطوم، ويشغلنه بالكثرة فيتركن أعينه بمناقيرها كالحفرة، فذهبن معها، وهي مسرعة أمامهن حتى أتت بهنّ إليه فوقفن منقضات عليه، فلم يتفرقن عنه حتى سال على خديه إنسان عيونه، وسدت دون موقيه طرق شؤونه، وتركته في الفلاة هائماً، متأملاً في هذا القضاء والقدر، فأدركه الظمأ وهام، ومنعه العطش المقام، والقنبرة تراقبه على البعد، وتنظر فعله في الهزل والجّد، متفكرة في إتمام الحيلة، ولم تقنع منه بهذه النكاية الجليلة، بل رامت مع ذلك قطع أنفاسه، وإعدام سائر حواسته وإحساسه، فقرب في بعد في القفار من بئر واسعة الدائرة، بعيدة القرار الضفادع اقه، وعليها من البعوض عمّة، فذهبت مسرعة الى الضفادع فالتمست منهن، وفيها من أن يذهبن الى جانب البئر المقابل لجانب جهة الفيل، ويكثرن فيه النقيق والصياح والعويل، فرحمت الضفادع بكاهها، وأجابتها الى مناها، غير عالمة بمغزاها، وبمن يقدم وراها، فلما سمع الفيل نقيق الضفادع، علم بوجود الماء فقصد الجهة وهو مسارع، حتى قدم البئر ووقع فيه وتردّى، وانتصب خرطومه وامتدا، وشرع يجود بنفسه، ويروم خلاص نفسه، يودّ الخلاص،

ولات حين مناص، فلما ايسست القنبرة من سلامته، نزلت إليه لتميته من ندامته، فوقفت على رأسه وأخبرته بما صار وما كان؛ فزهقت روحه وهو عاض على اللسان.

قال الشنفرى^(١):

٤٦ - تَنَامُ إِذَا مَا نَامَ يَقْطَى عُيُونُهَا سَرَاعاً إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلَّغُلُ

اللغة:

يقطى: من اليَقْطَ مَحْرَكَةً نَقِيضُ النَّوْمِ وقد يَقْطُ ككرم وفَرَحَ يَقَاظَةً وَيَقْطَأُ مَحْرَكَةً وقد اسْتَقْيَظَ، وَرَجُلٌ يَقْطُ كندسٍ وَكَيْفٍ وَيَقْطَانُ كسكرانٍ جَمْعُ أَيْقَازٍ، وهي يَقْطَى كمرضى جمع يقاظى، واستيقظ الحَلْخَالُ والحَلْيُ صَوْتٌ.

التَّغْلُغُلُ: التَّحْرُكُ وَقَلْقَلُ صَوْتٌ وَالشَّيْءُ قَلْقَلَةٌ وَقَلْقَالًا بِالْكَسْرِ وَيُفْتَحُ حَرَكَةً أَوْ بِالْفَتْحِ الْأَسْمَ، وحروف القلقة: قطب جد.

الإعراب:

تنام: فعل مضارع مرفوع بالتجرد وعلامة الرفع الضمة وفاعله ضمير مستتر جوازاً

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": اليَقْطَى: المنتبهة، وهي أُنْثَى الْيَقْطَانِ. وَالْحَثَاثُ: بِالْفَتْحِ وَيُكْسَرُ: الْعَمَضُ، كَالْقَرَارِ. وَحَكَى مَالِكُ بْنُ الْمُرْجَلِ فِي نَظْمِ الْفَصِيحِ خِلَافاً فِي الْأَفْصَحِ مِنَ الْفَتْحِ وَالْكَسْرِ وَنُضْبِهِ:

وَمِثْلُهُ الْحَثَاثُ وَهُوَ يُفْتَحُ

وَقِيلَ: إِنَّ الْكِسْرَ فِيهِ أَفْضَحُ

ومكروهه: ما يكرهه. وَتَغْلَغُلُ: أَسْرَعُ.

قوله: (يَقْطَى عُيُونُهَا)، فاعل (تَنَامُ)، وفاعل (ضَمِيرُ الشَّنْفَرَى، وَحِثَاثًا) منصوب على المفعولية الْمُطْلَقَةِ ل (تَنَامُ) وَ(إِلَى مَكْرُوهِهِ) مُتَعَلِّقٌ بِ (يَتَغْلَغُلُ).

والمعنى: تَنَامُ أَعْيُنُ الْجَنَائِيَاتِ يَقْطَى غَمَاضاً إِذَا مَا نَامَ هُوَ، أَيْ: غَفَلَ عَنْهَا، بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَعْمَلُ عَنْهُ لِحِظَةً، وَمَا يُظَنُّ مِنْ ذَلِكَ غَفْلَةً، فَهُوَ حِيلَةٌ وَمَكْرٌ، كَمَنْ يُعْمَضُ عَيْنَيْهِ يُرِي النَّاسَ أَنَّهُ نَائِمٌ، وَمَا بِهِ مِنْ نَوْمٍ، يُرِيدُ انْتِهَارَ الْفُرْصَةِ إِذَا أُمْكِنَتْهُ. فَهِيَ تُسْرِعُ إِلَى مَا هُوَ مَكْرُوهٌ لَهُ، وَإِنْ رُئِيتُ سَاكِنَةً. وَمِنْ هُنَا قَالُوا: الدُّمُ لَا يَنَامُ.

وقد أفهم قوله: (تَنَامُ يَقْطَى عُيُونُهَا حِثَاثًا): أَنَّهَا طَالِبَةٌ لَهُ، غَيْرُ غَافِلَةٍ عَنْهُ. فَجَاءَ قَوْلُهُ: (إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغْلَغُلُ) مُؤَكِّدًا لذلِكَ، وَيُسَمَّى ذلِكَ تَذْيِيلًا، وَقَدْ شَرَحْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ. فَالْجُمْلَةُ الْمُؤَكِّدَةُ مَضْمُونُهَا مَا قَبْلُهَا. مُنْطَوِّقًا أَوْ مَفْهُومًا. لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ.

عائد الى الجنائيات قبله، والجملة دليل جواب إذا وهي ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه، وماصلة.

ونام: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر جوازاً عائد الى الشنفرى.

ويقطى: صفة مشبهة منصوبة بالفتحة المقدرة على الألف.

عيونها: مرفوع على الفاعلية بالضممة الظاهرة أو مجرور بالإضافة أو منصوب على التشبيه بالمفعول به، والفاعل ضمير مستتر عائد الى الجنائيات.

سراعاً: حال من الضمير في تتقلقل مقدمة عليه لكون العامل فعلاً فتكون متداخلة معه أو من الضمير في يقطى على وجهي الجرّ والنصب فتكون متداخلة معه أو من الضمير في عيونها مطلقاً.

وإلى مكروهه: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بسراعاً أو بتقلقل عليه وتقلقل: فعل مضارع من الرباعي المضاعف مرفوع بالتجرّد، والفاعل ضمير الجنائيات والجملة حال من الضمير في يقطى على الوجهين المذكورين أو من عيونها مطلقاً.

المعنى:

إن الجنائيات إذا نام الطريد تنام هي ولكن عيونها يقطى تتحرك هي مسرعة الى إيقاع المكروه به حيث فرصة منه، وكون عيونها يقطى حالة نومها إنما هو لانتهاز فرصة من هذا الطريد لا للاتقاء من شيء كنوم الذئب في قول الشاعر: [الطويل]

ينام بإحدى مقتلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان هاجع

فإن قيل: هذه الشرطية تنافي كون الجنائيات طالبة له وهو مطلوبها، إذ المطلوب لا ينال وطالبه موجود والطالب كذلك.

قلنا: يحتمل الجواب وجوها منها: إن المراد ينال هذا الطريد في مأمنه بحيث لا يقدر على الوصول إليه في وقت النوم، وهي تنام أيضاً في مواضعها في ذلك الوقت ولكن عيونها لشدة ما فيها من حرارة الطلب التي منعتها عن الهجود فنومها إذا صوري لا حقيقي ومنها أن الجنائيات لما لازمت هذا الطريد طالبة الفرصة منه وهو لا يمكنها من ذلك استرقت طباعه بمقتضى الملازمة فإذا نام نامت وإذا قام قامت ولكن عيونها

في كل حال يقضى وهي متحركة مسرعة الى إيقاع المكروه به، وهذا نظير ما قيل: أن أهل النار تصير لهم طباع نارية بحيث يتلذذون فيها، فإذا أخرجوا منها تألموا فيريدون الرجوع إليها، وقد دس هذا المعنى على الشيخ الأكبر في الفتوحات بعض الملاحدة، مع أن هذا عن الشيخ بمراحل، وكيف وقد أخبر الله عن حالهم حيث قال: ﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، وقد نبه على هذه الدسيسة، وأنها ليست من كلام الشيخ الأكبر سيدنا عبد الوهاب الشَّعراني في كتابه الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر، ومنها أن هذا الكلام مجاز تمثيلي والمقصود الملازمة التامة.

قال الناظم^(١):

٤٧ - وإلْفُ هُمُومٍ ما تزالُ تَعُودُهُ عياداً كَحُمَى الرِّبْعِ بل هي أثْقَلُ

اللغة:

الإلْف: بكسر الهمزة الأليف جمع الآف وجَمْعُ الأليف والألوف الكثير الالفّة جمع أُلْف ككُتُب، والإلف والالفّة بكسرهما المَرْأَة تَأْلَفُها وتَأْلُفُك، والألف بالفتح من العدد مُذَكَّرٌ ولو أُتِيتَ باعتبار الدّراهم لجاز ويجمع على أُلُوفٍ والالف بالمد، وألفه يألفه أعطاه أُلْفًا.

الهُمُومُ: جَمْعُ هَمٍّ وهو الحَزَنُ، والهُمُومُ أيضا الناقّة الحسنّة المشي، والهُمُوم بالضمّ الأسد كالههميم بالكسر والهمهام والهُمُوم أيضا الحمار المُردّد نهيقة في صدره.

تعوده: مضارع عاد من العود، وهو زيارة المريض والرجوع، وهاهنا فائدة غريبة لم

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الحُمَى: فَعِيلٌ بمعنى مفعول، هو الذي أصابته الحُمَى، والرَّيْعُ، بالكسر هنا: الحُمَى التي تخلى عن صاحبها يومين، ثم تعشاه بعدهما، فيكون يومها رابعا ليومها قبله. (والحمى) مجرور بإضافة (عياد) إليه، وهو مصدر عاد المريض يعودُه. والرَّيْعُ بالرفع: فاعل المصدر، ورؤي بنصب الحمى وجرَّ الرِّبْع بإضافة المصدر المفصول من المضاف إليه بالمفعول، فيكون نظير قول الله سبحانه: ﴿قَتَلَ أَوْلَاهُمْ شُرَكَائِهِمْ﴾، بنصب (أَوْلَاهُمْ) بـ (قَتَلَ)، وجرَّ (شُرَكَائِهِمْ) بإضافته.

ومعنى البيت: هو طريق جنابات ومؤلف هموم لا تغيب عنه غيبة انقطاع، فهي تتردد إليه كما تتردد حُمَى الرِّبْع إلى المحموم، بل الهموم أكثر ثقلاً من الحُمَى المذكورة.

أجدها في كلام أحد من النحاة واللغويين قال الشيخ إبراهيم بن علي بن العجّيل رحمه الله في كتابه الموسوم بـ"المذاكرة": اعلم أن لفظ عاد لها ستة أمكنة: تكون اسماً وتكون فعلاً تاماً وتكون فعلاً ناقصاً وتكون بمعنى أن، وتكون بمعنى حرف الاستفهام وتكون جواب الجملة المتضمنة معنى التّفي مبيّنة على الكسر متّصلة بالمضمرات فالأول لتكون اسماً متمكناً جارياً بتصارييف الإعراب كما قال سبحانه ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ﴾ [الفرقان: ٣٨] فنصبه بإضمار اذكر.

الثالث: أن تكون فعلاً ناقصاً مفتقر الى الخبر بمنزلة كان بشرط ن يتقدمها حرف عطف، وعليه قول حسان رضي الله عنه: [الكامل]

ولقد صبوت بها وعاد شبابها غَضًّا وعاد مزارها مستظرفاً
أي: وكان شبابها.

الرابع: أن تكون حرفاً عاملاً نصباً بمنزلة أن مبنياً على أصل الحرفية محرراً لالتقاء الساكنين بالكسر على الأصل بشرط أن يتقدمها جملة فعلية وحرف عطف كقولك: رقدت وعاد أباك ساهراً، أي وإن أباك.

الخامسة: أن تكون حرف استفهام بمنزلة هل مبني على الكسر للعللة المذكورة آنفاً مفتقر الى الجواب كقولك: عاد أبوك مقيم، مثل: هل أبوك مقيم؟

السادس: أن تكون جواباً بمعنى الجملة المتضمنة معنى بلم أو بها فقط مبيّنة على الكسر أيضاً، وهذا إذا اتصلت بالمضمرات يقول المستفهم: هل صليت؟ فتقول: عادي، أي إنني ما صليت، وبعض الحجازيين يحذف نون الوقاية فيقول: عادي، واللغتان فصيحتان إذا كان عاد هنا بمعنى إن إذ لا يمتنع أن تقول إني وإنني هذا إذا اتصلت بعاد يا النفس خاصّة، فإن اتصلت بغيرها من المضمرات كقول المجيب لمن سأل عن شيء: عاد أو عادها، وكذلك في المضمرات فإثبات نون الوقاية ممتنع تشبيهاً بان.

فصل: وربّما فاه بها المستفهم والمجيب، يقول المستفهم: عاد خرج زيد، فيقول المجيب: عاد، أي أنه لم يخرج أو أنه ما خرج. انتهى.

حُمِّي الرُّبْع: بكسر الرَّاء هي أن تأخذ يوماً وتدع يومين ثم تجيء في الرَّابِع، مأخوذة من رُبْع الإبل إذا حُبِسَتْ عن الماء ثلاثة أيَّامٍ أو أربعة أو ثلاث ليالٍ وَوَرَدَتْ في الرَّابِع، يقال: رُبْعٌ زَيْدٌ كَعْنِي وأربع بالضم فهو مَرْبُوعٌ ومُرْبَعٌ.

أثقل: من الثَّقَلِ كعنبٍ ضِدُّ الخفة، يقال ثقل ككرم ثقلاً فهو ثَقِيلٌ وثقالُ الناس وثَقُلُواْهم من تكره صُحْبَتُهُ.

الإعراب:

وإلف: الواو عاطفة وإلف معطوف على طريد، والمعطوف على الخبر خبر فهو مرفوع بالضمة الظاهرة مضاف الى هموم، وهو مجرور بالمضاف وعلامة جره الكسرة الظاهرة في آخره.

لا تزال: لا نافية، تزال فعل مضارع زال الناقصة مرفوع للتجرد وعلامة الرفع الضمة في آخره، واسمها ضمير مستتر جوازاً عائداً الى الهموم.

تعوده: فعل مضارع مرفوع للتجرد بالضمة الظاهرة في آخره، وفاعله ضمير مستتر فيه جوازاً عائداً الى الهموم أيضاً، والهاء ضمير المفعول به محله نصب، والجملة محل نصب خبر تزال أي: عائدة.

عياداً: مفعول مطلق منصوب يتعوده كضربته ضرباً كضرب زيدٍ مبين للنوع أن جعل الجار والمجرور بعده صفة له ومؤكدة إن جعل حالاً من الضمير مستتر في تعوده.

بل: حرف إضراب.

وهي: مبتدأ

وأثقل: خبره.

المعنى:

بعد أن وصف نفسه بأنه طريد الجنايات المذكورة شرع يصف نفسه بأنه موالف هموم لا تزال تعوده لمرضه أو تمارضه من طرد الجنايات إياه أو ترجع إليه غبت مفارقتها إياه كحُمِّي الرُّبْع.

تكميل:

جمع الهموم في مقابلة الجنائيات فيقتضي انقسام الآحاد على الآحاد بأن يكون كل هم في مقابلة جنائية، فإن قيل: من أين يعلم أن الهموم المذكورة غبّ الجنائيات والواو لمطلق الجمع؟! قلت: من استعمال العرب في تعدادهم أشياء يقدمون منها الأول فالأول والأهم فالأهم، وهذا أحد أدلة الترتيب عند الشافعية فهُما " من آية الوضوء، ثانيها: إن العرب إذا غايرت بين المتجانسات أرادت الترتيب فلما توسط الممسوح بين المغسولات فُهِم الترتيب من ذلك لا أن الواو عند الشافعي للترتيب كما توهم بعضهم كابن هشام في مغنيهِ على أنه لو قال بإفادتها إِيَّاهُ لكان قوله حجة رضي الله عنه كما هو من أكابر المجتهدين، من أكابر أهل اللغة المتبحرين، كما هو معلوم لدى الممارسين.

والشافعي هو محمد بن إدريس بن عباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن ثابت بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، والله درّ الشيخ عبد الباسط البلقيني - رحمه الله تعالى - حيث قال: [الوافر]

عليك بنسبة للشافعي	إمام المسلمين الشاف عيني
هو البحر البسيط بكل علم	محمد بن إدريس العلي
فعبّاس بن عثمان المبدي	فشافع سابع شبه النبي
كذلك عبيد يزيد ينمي	لهاشم بن مطلب البهي
فعبد مناف السامي فخارا	بخاتم الأنبياء الهاشمي

وله أيضاً: [الوافر]

عليك بنسبة الحبر الإمام	محمد بن إدريس الهمام
فعبّاس بن عثمان المعلّي	فشافع سائب الزاكي المقام
كذلك عبيد عبد يزيد يسمو	بهاشم بن مطلب الحسام
فعبد مناف السامي فخارا	بخير المرسلين على الأنام

قال الناظم^(١):

٤٨ - إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُهَا ثُمَّ إِنَّهَا تَثُوبُ فَتَأْتِي مِنْ تَحَيْثُ وَمِنْ عَلٍ

اللغة:

وردت: من الورد وهو الأشرف على الماء وغيره، دَخَلَهُ أَوْ لَمْ يَدْخُلْهُ، كَالْتَّوَرُّدِ والاستيراد.

أصدرتها: أي أرجعتها من الصدر بالكسر وهو الرجوع والاسم بالتحريك ومنه طَوَافُ الصَّدْرِ.

تثوب: أي ترجع من ثاب ثُوباً وَثُوباً رَجَعَ كَثُوبٌ تَثُوباً.

تحيت: مصغرٌ تحْتِ نقيض فوق، والتَّخَوُّتُ الارذال السفلة.

ومن عل: أي من فوق.

إذا: ظرف لما يستقبل الى آخر ما تقدم.

ورد: فعل ماض فعل الشرط والتاء علامة التأنيث، والفاعل ضمير مستتر جوازاً يرجع الى العموم.

اصدر: فعل ماض جواب الشرط والتاء ضمير فاعل، والهاء ضمير الفمعلول به.

ثم: حرف عطف.

إن: حرف من الحروف المشبهة بالفعل، الهاء اسمها محله النصب.

تثوب: فعل مضارع مرفوع للتجرد بالضمة الظاهرة، وفاعله ضمير مستتر فيه جوازاً يرجع الى الهموم قبله، والجملة في محل رفع خبر أن، وإنَّ وما بعدها معطوف على جملة إذا وما بعدها نظير ما قاله بعض المحققين في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريح الكرب": الورد: الحضور بعد الغيبة. والإصدار: الرد.

يقول: إِذَا حَضَرْتَنِي الْهُمُومُ رَدَدْتُهَا؛ أَي: فَرَجَّتْهَا عَنْ نَفْسِي، وَهَوَّنَتْ أَمْرَهَا عَلَيَّ، ثُمَّ إِنَّهَا تَثُوبُ، بِالمُثَلَّثَةِ؛ أَي: تَعُودُ وَتَرْجِعُ أَعْظَمَ مِمَّا أَصْدَرْتُهَا، فَتَأْتِيَنِي مِنْ أَسْفَلٍ وَمِنْ فَوْقٍ.

يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤]، من أن يستأخرون عطف على جاء أجلهم، فإن قيل: لا يحسن العطف هنا حسنة في الآية لأن ما نحن فيه من باب عطف الجملة الاسمية على الفعلية وهو غير مستحسن لأن التناسب بين المتعاطفات مطلوب عند أهل الفصاحة، أُجيب: أما أولاً فالمقصود من التَّنْظِيرِ عطف الحملية على الشرطية، وإما ثانياً فلأنَّ المَصَّحَحَ عند علماء البلاغة أن الاسمية التي خبرها ظرفية إلا أن هذه هي فعلية تقديرًا بناء على أن المرجح عندهم أن الظرف مقدر معه الفعل فتنبه.

فتأتي الفاء عاطفة، وتأتي فعل مضارع مرفوع للتجرد بالضمّة المقدّرة على الياء المانع من ظهورها الاستثقال، وفاعله ضمير الهموم مستتر فيه جوازاً، والجملة معطوف على جملة تثوب عطف المفصل على المجمل كقولهم: توضعاً فغسل وجهه ويديه ومسح رأسه وغسل رجليه لبيان كيفية ثوابها وحذف صلة تثوب أي عليّ إما لأنّ القصد بيان أصل الفعل كقولهم: فلان يعطي ويمنع وإما للعلم به.

من تحيت: من حرف جرّ، وتحيت اسم مجرور محلاً بناء على أنّه كقبل وبعد فلما حذف المضاف منه ونوي معناه بني على الضمّ وهو الرّواية ولا يعارضه التّصغير الذي هو من خواصّ الأسماء كالإضافة لأنه فيه ليس قصدياً بل لدرج البيت.

ومن عل: معطوف عليه وحكمه حكمه، والجار والمجرور متعلق باتى يقال: منّ عل بالكسر، والضمّ فالأول على حذفه ونية لفظه، والثاني على حذفه ونية معناه كقوله: [الطويل]

مَكْرٍ مَقْبَلٍ مُدْبِرٍ مَعَا كَجُلُودٍ صَخْرٍ حُطَّ السَّيْلُ مِنْ عِلِّ

والتزم فيه ابن هشام الجرّ بمن وقطعه عن الإضافة وردّ على الجوهري وابن مالك في تجويزهما إضافته مستدلين بقوله: ارمض من تحت وأضحى من عله، بأنّ الهاء فيه للسكت لأنه مبني ولا وجه لبنائه لو كان مضافاً والمعنى: أن تصيبه الرّمضاء من تحته وحرّ الشمس من فوقه هـ.

المعنى:

إنّ هذه الهموم ترد عليّ فإذا أشرفت أرجعها وادفعها بما اقدر عليه ثم تغلّبني فتكرّ عليّ راجعة فتأتيني من فوقني ومن تحتي.

تكميل:

إنما خَصَّ هاتين الجهتين بالذكر دون غيرهما إما لانهما لا يتبدلان كما برهن عليه في الحكمة فإذا دهمته الهموم منهما لا يقدر على دفعها إذ كلما تحرك على الغبراء فهي تحته وكلما سار تحت الخضراء فهي فوقه فإذا جاءت الهموم من قبلهما أصابته ولا بد بخلاف اليمين والشمال والامام والوراء أو لأنَّ التَّحْتَ بجهة وطأه والفوق جهة غطاءه فلما صارت السَّناسن سرير الحافة والتَّجُوم نقش لحافه، تذكر قومه وأهله وثروته وفضله ولم يزل الشيء يذكر بمثله، ويدرك بادراك ما هو كشكله فتسترسل له الفكر فتكثر منه الهموم والكدر، ولعمري لقد ذلَّ العفُور بعد شماسه، واستوحش المخمور غبَّ إيناسه، والله دره فإنه مع هذا مولى الصَّبر، لا يعجز عن الكرِّ والفَرِّ كما صرَّح به في البيت الآتي، وفي هذا البيت من محاسن البديع الالتفات من الغيبة الى التكلُّم.

قال الناظم^(١):

٤٩- وإني لمولى الصَّبر أجتأبُ بزُّهُ على مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ، والحَزْمُ أَفْعَلُ

اللغة:

المولى: له معان كثيرة المناسب للبيت منها الصَّاحِبُ والحليُّفُ والمُحِبُّ والتَّابِعُ، والأنسب مفوض إليك فعليك باستخراجه والسَّلام عليك.

استطراد:

قضية كلام المجد اللغوي أن المطر يُسمَّى ولياً بالتخفيف وكلام البحري وغيره

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": مؤلى الصبر: وليُّه وحليفه. واجْتِيَابُ البِزْرِ - أي: السلاح هنا -: لُبْسُهُ، كاجْتِيَابِ القميص. والسَّمْعُ، بالكسر والعين المهملة: ولد الذئب من الضَّبُع، وهو أجبث حيوان يضرب به المثل في شِدَّةِ العدو، وفي شِدَّةِ السَّمْعِ، فيقولون: (أَسْمَعُ مِنْ سَمْعٍ)، (ومن السَّمْعِ الأَزَلِ). من الأوَّل قول الشَّنْفَرَى هذا في مؤثية خاله تَابَّطَ شَرًّا: [الرملة] مُسْبِلٌ فِي الْحَيِّ أَخَوَى رَفَلُو إِذَا يَغْزُو فَيَسْمَعُ أَرْلُ

والحَزْمُ: الضبطُ والأخذُ في الأمور بالأحوط، وهو منصوبٌ مفعولٌ مُقَدَّمٌ بِ(أفعل) مُضَارِعٌ (فَعَلْتُ). والمعنى: إنَّ تَرْيِينِي كما ذَكَرْتُ فَإِنِّي لَحَلِيفُ الصَّبرِ؛ أي: مُلَازِمُهُ، في حال كَوْنِي أَلْبَسُ سِلَاحَهُ عَلَى قَلْبٍ مُمَائِلٍ لِقَلْبِ وَلَدِ الذَّئْبِ الَّذِي أُمُّهُ ضَبُعٌ، وناهيك بِقُوَّتِهِ وَجُرَأَتِهِ، وَأَفْعَلُ الحَزْمَ في الأمور، واحتاطُ فيها، فلا تفرِّطُ عندي ولا إضاعة.

يقتضي أنه بالتشديد قال: [الطويل]

مضى منك وسمي فجداً بوليّه وعودت من نعماك فضلاً فواله
ويمكن أن يقال: إنما شدّد لأجل الشعر، على أنه لو قال: فجداً لي بوليّه، لوافق
قضية كلام المجد فتدبر.

الصَّبْرُ نَقِيضُ الْجَزَعِ يُقَالُ: صَبِرَ يَصْبِرُ صَبْرًا، فهو صَابِرٌ وَصَبِيرٌ وَصَبُورٌ وَتَصَبَّرَ
وَاضْطَبَّرَ وَأَضْبَرَهُ أَمْرُهُ بِالصَّبْرِ كَصَبَّرَهُ.

اجتَاب: أي ألبس، يقال: اجتَابَ القميص إذا لبسه.

البَزُّ: الثياب.

السَّمْعُ: بكسر السين المهملة، ولد الذئب من الضَّيْع، ويزعمون أنه لا يموت حتف
أنفه كالحيّة، أسرع من الطير، ووثبته تزيد على ثلاثين ذراعاً أجراً من الأسد الورد.

الحَزْمُ: ضَبْطُ الأَمْرِ والأخذ فيه البثقة، كالحزمة والحُزْمَة، حزم ككرم فهو حازمٌ
وحزيمٌ.

الإعراب:

وَأَيُّ: الواو للاستئناف أو الحال، وإن حرف من الحروف المشبهة بالفعل، الياء
اسمها محلّه النَّصْب.

لمولى: اللام لام المرحلة، مولى خبر أن مرفوع بالضمة المقدرة لأنه اسم مقصور
مضاف إلى الصبر.

والصبر: مجرور بالمضاف والجملة لا محلّ لها من الإعراب على الأول ومحلّها
النَّصْب على الثاني.

اجتَاب: فعل مضارع مرفوع للتجرد بالضمة الظاهرة، والفاعل ضمير مستتر وجوباً
تقديره: أنا.

بَزّه: مفعول به منصوب ومضاف إليه، والجملة في محلّ النَّصْب على الحال.

من ضمير المتكلم أو مستأنفة استئنافاً بيانياً.

على مثل: جار ومجرور متعلق بمحذوف على أنه حال من الضمير في اجتاب متداخلة على الأول، وغير متداخلة على الثاني، مضاف إلى قلب وهو مضاف إلى السمع والمضاف إليه مجرور بالمضاف وعلامة جرّه الكسرة.

والحزم: الواو عاطفة، الحزم مفعول مقدم للدلالة على القصر القلبي أو الافرادي أو التعييني.

وأفعل: فعل مضارع مرفوع للتجرد، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً بتقدير أنا، والجملة معطوفة على جملة اجتاب بزه؛ فهي في محل نصب على أحد التقديرين السابقين.

المعنى:

بعد أن وصف نفسه بأنه طريد جنائيات وأسير مصائب ومحنات، وأنّ الهموم قد ساورته، والاكدار قد حاورته، وصف نفسه مع ذلك بأنه مولى الصبر وحليفه واليفه، وأنه في حالة هو فيها كقلب السمع في الثبات، وأنه لا يفعل إلا الحزم في هذه الآفات، فله درّه من رجل لا تطيش عقله الخطوب، ولا تنهه الاكدار والكروب، فالببت كله سيق للاحتراز والاحتراس كما أن قوله: والحزم أفعل، كذلك عند الحذاق من الناس.

تكميل:

في قوله: على مثل قلب السمع، ﴿مِثْلُ ذَا بٍ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [غافر: ٣١]، من تتابع الإضافات.

والأصح أنه غير مخّل بالفصاحة، وفي قوله: أجتاب بزه، استعارة مصرّحة تبعية، واستعارة مصرّحة أصلية واستعارة مكنية تبعية لدى المحققين من أهل الدراية.

استطرد:

أُصيب رجل من قريش بمصيبة فجزع جزعاً شديداً، وأتته جماعة من قريش تعزيه فاطرق ساعة ثم قال: [الطويل]

وما أنا بالمخصوص ممن رأيته ولكن أتنني نوبتي في النوائب

ثم أقبل علينا وقال: والله ما منكم أحد إلا وقد رأيته عن مصيبتة وما أنا إلا كأحدكم، فما برحنا حتى رأينا العزاء في وجهه.

وذكر ابن خارجة الفزاري بالحلم والصبر والعقل فأراد قوم من أهل الشام امتحانه فكتبوا على لسان بعض أهله: أن لديك قد توفيا، فأخذ الكتاب وهو محتب فقرأه ووضع ولم يحل حبوته، ولم يتبين ذلك فيه، ف قيل له: ما في هذا الكتاب؟ فقال: خبرت أن ابني نزلا منزلاً سبقاني إليه وأنا لابد نازله بعدهما، قالوا: ليس في هذا شيء وإنما أردنا أن ننظر كيف صبرك، قال: أن لم يكن فسيكون.

قال الناظم^(١):

٥٠- وإما تريني كابتة الرمل ضاحياً على رقة أخفى ولا اتعل

اللغة:

ابنة الرمل: حية توجد فيه مؤذية جداً، وأصل ابنة ابن فألحقت الهاء للتأنيث، والرمل: معروف واحده رملة، وبها سميت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ويجمع على رمال وأرمل.

وفي كتاب "الأسماء والصفات" من أسماء الرمال صفاتها: الصريمة والصرائم، والحميئة والخمائل، والجوع والجرع، والشقية والشقائق، والحقف والأحقاف، والدهاش، والمذلول، والهداليل، والنهابير، والوعث، والجماهير، والظفرة، والمواعش، والعقدة، والنقا، واللوى، والدغص، والعاقد، والقوز، والهائل والأهيل، والعاقز، والعقنقل، والبطحاء، والوعساء، والميثاء، والعواتك، والكثيب، وفي كتاب الأصمعي في صفتها أيضاً: اليناهير، والتياهير، والامل، واللبيب، والعداب، والإسناد، والسند، والسقط

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": ابنة الرمل: البقرة الوحشية. والضاحي: البارز للشمس، والرقة: خلاف الغلظة، والرقة في القدم: أن يرق أسفل حتى يؤلمه المشي، ويسمى لذلك (حفاً) بالقصر، مصدر حفي الحيوان بالكسر بذلك المعنى. وأما المشي بلا نعل فحفاً بالمد، وهو أيضاً مصدر حفي بالكسر، وأخفى مضارعه، أي: أمشي بغير نعل. والتعل تكلف لبس النعال.

يقول مخاطباً لمؤنث: فإن تريني مثل البقرة أو الظبية في حال كوني بارزاً للشمس، وفي حال كوني أمشي بغير نعل، مع رقة في قدمي يؤلمني المشي بسببها، ولا أتكلف مع ذلك لبس النعال.

والمسقط، والسَّلاسُلُ، والخُلُ والواوَعُسُ، والجراثيمُ، والأهدافُ، والمرادى كجبارى،
والرغامُ، والهيامُ

استطراد:

قال أبو علي: الأَراملُ المَساكِينُ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، ويقال لهم أيضاً إن لم يكن
فيهم نساء، ويقال: امرأة أرملة وكذا نسوة أرملة والأرملة التي مات زوجها ورجل أرمِل
ذهب زاده، قال القُتَيْبِيُّ: لو أوصى بمال للأرامل أعطى الرِّجال، ورُدَّ بأنَّ الحكم الشرعي
لا يحمل على الشذوذ كما لو قال: ثلث مالي للرجال لم تعطِ النِّساء وإن كان يقال
للمرأة رجلة أو للغلمان لم تعطِ الأنثى وإن كان يقال لها غلامه. انتهى.

ولك أن تفرق بأنَّ لفظ الأَرامل يتناول الصيغتين مثل اراقم وأرقم بخلاف لفظ
الرِّجال والغلمان فلا يتناول الأنثى وإن كان يقال للواحدة رجلة وغلامه لأنَّه لا يصح أن
يكون جمعاً لأنهما إنما يجمعان بالألف والتاء نحو: مسلمة ومسلمات.

ضاحياً: أي بارزاً للشمس، وأَرْضُ مَضْحَاةٍ: لا تكاد تَغِيْبُ عنها الشَّمْسُ.

الرِّقَّةُ: لها معانٍ متعدّدة المناسب منها هنا: الأرض التي نَضَبَ عنها الماء، لأنَّها التي
يصعب المشي عليها بلا نعل.

استطراد:

قال صاحبُ "العناية في شرح الهداية" في أوَّل الكلام على الكفارة: (واعترض على
(المص) أنَّه لَمْ يُسَمَّعْ عن أئمة اللُّغة: رَقَّه حتَّى يَشْتَقُّ منه: المرقوق، وإنما رَقَّ إذا صارَ
رقيقاً، أي عبداً، وأُجِيبَ: بأنَّ الأزهري حكى عن ابن السكيت أنَّه جاء: عَبْدٌ مَرْقُوقٌ،
وكلاهما ثقة).

أَحْفَى: من الحَفَاءِ، وهو رِقَّةُ القَدَمِ والحُفِّ والحافِرِ، والمَشْيُ بلا حُفٍّ ولا نعلٍ،
وهو المراد هنا، ويجوز كلاهما عندنا معاصر الشافعية.

انتعل: أي ألبس النعل، وهو ما وَقِيَتْ به القَدَمُ من الأرض كالنَّعْلَةِ مُؤَنِّتَةً جَمْعُ
نِعَالٍ.

الإعراب:

وإما: الواو استئنافية على الأظهر أن أداة شرط جازم تجزم فعلين الأول فعل الشرط والثاني جوابه، وما زائدة.

ترني: فعل الشرط مجزوم بحذف الألف لأنه فعل مضارع معتل الآخر بالألف، والياء ضمير الفاعل والنون للوقاية والياء الأخيرة ضمير المفعول به إن جعلت الرؤية بصرية وهو الظاهر، وضمير المفعول الأول أن جعلت علمية.

كابنة الرَّمْل: الكاف حرف تشبيه وجَرّ، وابنة الرَّمْل مجرور بالكاف ومضاف إليه والجار والمجرور متعلّق بمحذوف على أنه حال: إما من ضمير المتكلم قبله أو من الضمير في ضاحياً وقَدِمَ لأنَّ العاملَ مشتق كالفعل يسوغ تقديم الحال عليه كما يسوغ على الفعل نفسه فتكون حالاً متداخلة وإما مفعول ثاني لتريني على تقدير كونها علمية.

وضاحياً: إما حال من الضمير المستقر في الظرف قبله على الوجه الأوّل أو من الياء على الثاني، وإما مفعول ثاني لرأي الجار والمجرور حال من ضميره مقدّم عليه كما مرَّ وجهه.

وعلى رقة: جار ومجرور متعلّق بـضاحياً أي بارزاً للشمس فوق رقة أو بأحفى.

وأحفى: فعل مضارع مرفوع للتجرد بضمّة مقدرة على الألف، والفاعل ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنا.

ولا أتنعل: الواو عاطفة، أتنعل فعل مضارع مرفوع للتجرد بضمّة ظاهرة في آخره، والفاعل ضمير المتكلم المستتر وجوباً، والجملة معطوف على الجملة.

أحفى، وجواب الشرط يأتي في قوله: فلا جزع اهـ.

المعنى:

بعد أن ذكر أنه طريد جنائيات وأليف هموم، وأنه في ذلك كله مولى الصبر على الهموم خاطب أم قسطل حيث كانت مبتتسة عليه لكونه أحد أعوانها والمعظم من أركانها فقال لها: فإن تريني كحيتة الرَّمْل بادياً للشمس لا لباس أدفع به الحرّ والقرّ ولا

سلاح استعين به في الكرّ والفرّ، ولا نعل تقي مناسمي خشونة الرقة، ولا مساعد عن محبة ومقة فلا جزع إلى آخره ما يأتي.

تكميل:

في تشبيه نفسه بابنة الرّمل إشارة إلى ما يقال: فلان كالأرقم وفي أنيابه السّم ناقع.

قال الناظم^(١):

٥١ - وَأُعْدِمُ أحياناً وَأُعْنَى وإنها ينالُ الغنى ذو بغية المتفضل

اللغة:

وأعدم: من العُدْم بالضّمّ الفِقدانُ، وغلب على فِقدانِ المالِ.

قال العلامة ابنُ الكمال في شرحه على الهداية عند قوله: (ولا ينعدم به) ما نصه: (واعلم أنّ الانعدام وإن كان من الألفاظ المحدثّة، فإنّ أهل اللغة لم يجوزوا عدمته فانعدم، فإن علمته بمعنى لم أجد، وحقيقته تعود الى قولك فات، وليس له مطاوع، كذا عدمت إذ ليس فيه إحداث فعل).

وذكر في المُفَصَّل: (ولا يقع - يعني: الفعل - حيث لا علاج ولا تأثير، ولهذا كان قولهم انعدم خطأ).

إلا أنّه لمّا شاع استعماله في الكتب، صار استعماله أولى من غيره، لأنّه أقرب الى الفهم، ولهذا قيل: (الخطأ المستعمل أولى من الصواب المهجور).

أحياناً: جَمْعُ حِينٍ، وهو هنا الوقتُ المُبْهَمُ يَصْلُحُ لجميعِ الأزمان طال أو قصر يكون سنةً أو سَتَيْنِ أو سِتَّةَ أَشْهُرٍ أو شَهْرَيْنِ أو كُلُّ غُدوةٍ وعشيّةٍ.. وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤]، أي: حتى تنقضي المُدَّةُ التي أمهلوها.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الإعدام: الافتقار، وأُعْنَى بالفتح: مضارعُ غَنِيَ بالكسر، بمعنى استغنى. والبُعْدَةُ، بالضّمّ كالرُّحْلة: السَّفَرَةُ. والمُتَبَدِّلُ: الذي يتكلّف ابتدال نفسه؛ أي: امتنانها.

يقول: أفعُلُ الحزمَ، وأُفَقِّرُ أزمَنَةً من الدهرِ، وأستغني كذلك، وما يُدْرِكُ الغنى إلا صاحبُ السَّفَرِ الذي يتكلّف امتهان نفسه بالاغتراب عن الأهل، وقطع المفاوز والقفار. وفي هذا الحثُّ على استعمال الأسفار، والتحذير من فُلْأزمة القرار؛ فإنّه عينُ الافتقار.

استطراد:

نُقل عن ابن يعيش: (إنما يُسمَّى المغني مغنياً لأنه يغن صوته أي: يجعل فيه غنة، والأصل مغن بثلاث نونات، فأبدلت الأخيرة ياء تخفيفاً، يُقال: غناه بالشعر وتغنى به).
البغية: ما أُبتغي، يُقال: بَغَيْتُهُ أُبْغِيهِ بُغَاءً وبَغَى وبُغِيَةً بِالضَّمِّ وبُغِيَةً بالكسر: طَلَبْتُهُ..
والبُغْيُ الأُمَةُ أو الحُرَّةُ الفاجرة التي تبغي الرِّجال، وهو فعول عند المُبرد أي بمعنى الفاعل وأصله بغوي فأدغمت الواو في الياء، وقال ابنُ جَنِّي: هي فعيل، ولو كانت فعول لقليل: بغوّ مثل: فلان نهوّ عن المنكر، وردّ ما قال ابنُ جَنِّي بأنّ نهو شاذ مخالف للقياس.

المتفضل: من الفَضْل ضِدُّ النَّقْصِ، وقولهم: (فضلاً عن كذا) مصدر منصوب بفعل محذوف أبداً يتوسط بين الأدنى والأعلى للتنبيه بنفي الأدنى واستبعاده على نفي الأعلى واستحالته، فيقع بعد نفي صريح أو ضمني، كما في قولك: تقاصرت الهمم عن ظواهر العلوم فضلاً عن دقائقها، أي: لم تبلغ.

الإعراب:

وأعدم: الواو حرف عطف، وأعدم فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر وجوباً تقديره: أنا، والجملة معطوفة على جملة الشرط قبلها.
أحياناً: ظرف منصوب على الظرفية.
وأغنى: مضارع مرفوع بالضمة على الألف للتجريد، والفاعل ضمير أيضاً، والجملة معطوفة على الجملة قبلها.

وإنما: الواو للاستئناف، إنما أداة حصر.

ينال الغنى: فعل مضارع ومفعول.

ذو: فاعل ينال مرفوع بالواو لكونه من الأسماء الخمسة مضاف إلى البغية، وهي مجرورة بالمضاف وعلامة الجرّ كسره في آخره.

والمُتَّفَضِّل: صفة بعد صفة إذ ذو بتقدير موصوف أي رجل ذو بغية، وهكذا يقدر في جميع مواد استعمالها لكن لما شاع حذف هذا الموصوف تسامح المعربون فأعطوها أحكام موصوفها فتبته.

المعنى:

إِنِّي أَعْدَمُ أَحْيَانًا وَأَغْنَى أَحْيَانًا فَلَيْسَ الْعَدَمُ بَاقِيًا وَلَا الْغِنَى بَاقِيًا فَلَا يَأْسُ مَعَ الْبُؤْسِ، وَلَا بِطَرِيقِ الْغِنَى لِعِلْمِي بِزَوَالِ كُلِّ مَنَّهُمَا وَأَعْقَابِ الْآخِرِ إِيَّاهُ وَإِنَّمَا يَنَالُ الْغِنَى صَاحِبُ بَغْيَةٍ مُتَفَضِّلٍ لَا نَقْصَ عِنْدَهُ، وَفِي تَقْدِيمِهِ الْعَدَمَ عَلَى الْغِنَى إِشْعَارٌ بِتَقْدِيمِهِ فِي الْوَضْعِ إِذْ يُولَدُ الْإِنْسَانُ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ حَتَّى يَضْرِبَ بِهِ الْمَثَلَ وَيُقَالُ: هُوَ أَفْلَسُ مِنْ ابْنِ يَوْمٍ، وَلِعَمْرِي أَنَّ شَنْشَنَةَ الشَّنْفَرَى أَحْسَنَ الشَّنَشَنَاتِ، وَعَادَتُهُ أَحْسَنَ الْعَادَاتِ، وَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحِظُّ الْأَوْفَى، قَالَ الْبُوصَيْرِيُّ: [الخفيف]

لَا تَحُلُّ الْبِأَسَاءُ مِنْهُ غُرَى الضُّبْرِ وَلَا تَشْتِخِفُّ الشَّـرَاءُ

تكميل:

فِي قَوْلِهِ: وَإِنَّمَا الْخُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْفَقْرَ لَا فَخْرَ فِيهِ وَإِنَّمَا الْفَخْرُ فِي الْغِنَى لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِمُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ بِخِلَافِ الْفَقْرِ، جَعَلْنَا اللَّهَ مِنَ السُّعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفِي قَوْلِهِ: وَأَغْنَى، إِكْتِفَاءً أَيْ: أَحْيَانًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، أَيْ مِنْهُ.

قال الناظم^(١):

٥٢ - فَلَا جَزْعٌ مِنْ خَلَّةٍ مُتَكَشِّفٍ وَلَا مَرَحٌ تَحْتَ الْغِنَى يَتَخِيلُ

(١) قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ ابْنُ زَاكُورٍ الْفَاسِي فِي "تَفْرِيجِ الْكَرْبِ": الْجَزْعُ، بَزَنَةُ الْفَرَحِ: الَّذِي جَزَعٌ بِالْكَسْرِ، أَيْ: ذَهَبَ صَبْرُهُ، وَالْمَصْدَرُ الْجَزْعُ بِالْتَّحْرِيكِ، وَالْخَلَّةُ، بَفَتْحِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ: الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ. وَالْمُتَكَشِّفُ: الْمُظْهِرُ لِحَاجَتِهِ، وَالْمُتَخِيلُ: الْمُظْهِرُ الْخَيَالَ.

قَوْلُهُ: جَزْعٌ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ؛ أَيْ: فَلَا أَنَا فَاقِدُ الصَّبْرِ مِنْ أَجْلِ احْتِيَاجِ عَرَضٍ لِي، مُظْهِرٌ لِحَاجَتِي. وَلَا أَنَا مَرَحٌ، أَيْ: دُوْ مَرَحٍ - بِالْتَّحْرِيكِ - أَيْ: بَطَرٍ، وَهُوَ الْخُرُوجُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ النَّعْمُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْهَا لِعَدَمِ احْتِمَالِ النَّفْسِ لِذَلِكَ.

فَقَوْلُهُ: (تَحْتَ الْغِنَى أَنْتَحِيلُ) مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ مِنْ "مَرَحٍ"، وَهَذِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ اللَّازِمَةِ لِلْمَدْحِ. وَالْمَعْنَى: وَلَسْتُ بِمَرَحٍ فِي حَالِ كَوْنِي مُخْتَلًا تَحْتَ الْغِنَى، أَيْ: لِأَجْلِهِ، وَهَذَا مَعْنَى مَطْرُوقٍ جَدًّا. وَحَاصِلُهُ أَنَّ الدَّهْرَ يُؤْمَانُ: يَوْمٌ لَهُ، وَيَوْمٌ عَلَيْهِ. فَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ لَمْ يَضْحَجْ، وَإِنْ كَانَ لَهُ لَمْ يَبْطُرْ، لِاعْتِيَادِهِ بِكُلِّ مَنْ نَعِيمِهِ وَبُؤْسِهِ، وَسَعْيِهِ وَضَيْقِهِ، وَشِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ، مُهَذَّبٌ مُجَرَّبٌ كَالْجُدِيلِ الْمُحَكَّكِ، وَالْعُدُوقِ الْمُرَجَّبِ.

اللغة:

الْجَزْعُ مُحَرَّكٌ نَقِيضُ الصَّبْرِ، وَقَدْ جَزَعَ كَفَرَحَ جَزَعًا وَجُزُوعًا فَهُوَ جَازِعٌ وَجَزَعٌ كَكَثِفٍ.

الْخَلَّةُ: الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ وَالْخِصَاصَةُ، وَفِي الْمَثَلِ^(١): (الْخَلَّةُ تَدْعُو إِلَى السَّلَّةِ) أَيُّ إِلَى السَّرِقَةِ، وَمَا أَخْلَكَ اللَّهُ مَا أَحْوَجَكَ، وَالْأَخْلُ الْأَفْقَرُ، وَبِأَلْفٍ بَعْدَ الْخَاءِ أَخْتُ أَمَكِ وَالْخَالُ أَخُوهَا، وَقَدْ أَنْشَدَ أَبُو الْعَبَّاسِ ثَعْلَبٌ فِي بَعْضِ أَمَالِيهِ فِي مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِ لَفْظِ الْخَالِ فَقَالَ: [الطَوِيل]

تَعَرَّفْتُ أَطْلَالًا شَجَوْنَكَ بِالْخَالِ	وَعَيْشَ زَمَانٍ كَانَ فِي الْغُصْرِ الْخَالِي
لِيَالِي رَيْعَانِ الشَّبَابِ مُسَلِّطٌ	عَلَيَّ بَعْضِيَانِ الْإِمَارَةِ وَالْخَالِ
وَإِذَا أَنَا خِدْنٌ لِلْعَوِيِّ أَخِي الصَّبَا	وَلِلْغَزْلِ الْمَرِيحِ ذِي اللَّهْوِ وَالْخَالِ
وَلِلْخُودِ تَضْطَادُ الرِّجَالِ بِفَاحِمٍ	وَخَدِّ أَسِيلٍ كَالْوَذِيلَةِ ذِي خَالِ
إِذَا سَكَنْتُ رَبْعًا رَيْمْتُ رَبَاعَهَا	كَمَا رَيْمَ الْمَيْثَاءِ ذُو الرِّبِيَّةِ الْخَالِي

المراد بالخال هنا الرجل الغريب وأصل الميثاء: الأرض السهلة، وسميت بذلك المرأة اللينة الخلق، قال الأعشى:

لَمَيْثَاءَ دَارٍ قَدْ تَعَفَّتْ طُلُوهَا

ويقال: رَيْمُ بَفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِ الْهَمْزَةِ إِذَا أَحَبَّ، فَمَعْنَى الْبَيْتِ: أَيُّ أَحَبُّ مَا تُحِبُّ، فَإِذَا أَحَبْتُ رَبْعًا أَحْبَبْتُهُ كَمَا يُحِبُّ الْغَرِيبَ الْمَرْأَةُ اللَّيْنَةُ الْخَلْقِ ثُمَّ قَالَ:

وَيَقْتَادُنِي مِنْهَا رَخِيمٌ دَلَالُهَا كَمَا اقْتَادَ مُهْرًا حِينَ يَأْلُفُهُ الْخَالِي

وهو الَّذِي يُخْلِيهِ، أَيُّ: يُلْقِي اللَّجَامَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ:

زَمَانَ أَفْدِي مَنْ يَرَاخُ إِلَى الصَّبَا	بِعَمِّي، مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ، وَالْخَالِ
وَلَا أَرْتَدِي إِلَّا الْمُرَّةَ حُلَّةً	إِذَا ضَنَّ بَعْضُ الْقَوْمِ بِالْعَضْبِ وَالْخَالِ
وَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي وَإِنْ دَنْتُ لِلصَّبَا	إِذَا الْقَوْمُ كَاعُوا، لَسْتُ بِالرَّعِيشِ الْخَالِي

(١) انظر: مجمع الأمثال ٢٤١/١، وزهر الأكم ٢٢٢/١.

وإنَّ أَنَا أَبْصَرْتُ الْمُحُولَ بِبَلَدَةٍ
فَحَالِفٍ بِحِلْفِي كُلِّ حِلْفٍ مُهَذَّبٍ
فَإِنِّي حَلِيفٌ لِلْسَّمَاحَةِ وَالنَّدَى
وَنَالِثًا فِي الْحِلْفِ، كُلُّ مُهَنَّدٍ
أَلُمُّ بَرْبَعِ الدَّارِ بَانَ أَنِيسُهُ
خَلَا مِنْهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَحُلْ مُهَجَّتِي
وَكَمْ جَلَلَتْ أَيْدِي النَّوَى وَضُرُوفُهَا
وهي طويلة جداً.

متكشف: أي مفتضح، من كشفته الكواشف فضحته.

المرح: والمريح كسكين الأشر البطر، يقال: مرح كفرح اشر وبطر يتخيل أي يتكبر ويعجب بنفسه.

الإعراب:

فلا جزع: الفاء رابطة للجواب، ولا نافية، جزع خبر مبتدأ محذوف، أي: لا أنا اجزع، والجملة في محل جزم على أنها جواب أن في البيت السابق.
من خلّة: جار ومجرور متعلق بجزم.
متكشف: خبر بعد خبر.

ولا مرح: الواو حرف عطف، والجملة معطوفة على الجملة قبلها.
تحت: ظرف مكان منصوب على الظرفية بمرح أو يتخيل مقدّم عليه مضاف الى الغنى.

يتخيل: فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة، والفاعل ضمير مستتر فيه جوازاً تقديره: هو، والجملة إما حال من ضمير مرح أو خبر بعد خبر.

المعنى:

قد علم مما تقدم، وفي قوله: تحت الغنى استعارة مكنية تتبعها استعارة تخيلية.

قال الناظم^(١):

٥٣- ولا تَزْدهي الأَطماعُ حلمي ولا أَرى سؤْلاً بأَعقابِ الأحاديثِ ينملُ

اللغة:

الإزدهاء: الاستخفاف كالزَّهو.

الأطماع: جمع طمع، وهو الحرص على الشيء.

حلمي: الحلم بالكسر الأناة والعقل جمع أخلام وحُلوم، ومنه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ﴾ [الطور: ٣٢]، قيل: لم يبعث نبي بالحلم غير إبراهيم وإسماعيل لعزته.

المسؤول: فعول من السؤال معروف، ويُقال: سأل كذا وعن كذا بمعنى عنه.

الأعقاب: جمع عقب، وهو آخر كل شيء كالعاقبة، وعقب لغة قليلة فيه، واعلم أنَّ الفقهاء يستعملون عقب بالياء، فيقولون: عقب الفرض، عقب الصلاة، والمشهور عقب بحذف الياء، ذكره أبو البقاء بن الضياء في البحر العميق في الفصل الثاني من الباب السابع في الإحرام من كتابه المذكور.

الأحاديث: جمع حديث، وهو الخبرُ قاله المجد اللغوي، أقول: الخبر اعم في اصطلاح المحدثين لتناوله ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره أو هما غيران، لاختصاص الحديث بالمروي عنه صلى الله عليه وسلم، والخبر بما روي عن غيره؛ ولهذا قيل لمن يشتغل بالأخبار النبوية مُحَدِّث ولَمَن يشتغل بالأخبار إخباري، وذكر في شرح الحماسة: رجلٌ حَدَّثَ أي شأَبٌ، فان ذكرت السِّنَّ قلت حديث السِّنِّ، فأحفظ هذا

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الحلم: الأناة، وإزدهاؤه: استخفافه. والأجهال: جمع جهل، وأرى مبني لما لم يسم فاعله؛ أي: لا أوجد ولا ألقى. والسؤال: الذي يُكثَرُ السُّؤالُ. والأقاويل: جمع أقوال، جمع قول. وأنمل، بالضم: مضارع نمل بالفتح. ثم يقول: لا تستخف الأجهال على حلمي، ولا تحرك سكوني، ولا يلفيني أحدٌ كثيراً لسؤال الناس في حال كوني أنم بأعقاب الأقاويل؛ أي: أواخرها؛ أي: أنقلها إلى الغير على وجه الفساد بينه وبين من نُسبت له. وسُميت هذه الأقاويل أعقاباً لتأخرها عن الاعتبار والاعتداد بها عند ذوي الهِمَم، والله أعلم. أو لأن الذي يُحفظ ويُتقل هو آخر ما يقال في الغالب. فباء (بأعقاب) مُتعلِّقة بـ (أنمل) على ما قررنا.

فإنَّه ممَّا يغلط فيه كثير ممن يدعي الفصاحة، والحدوث تكوّن الشيء بعد أن لم يكن، وأحدثه الله فحدث أي: وقع، والحدث والحدثي والحادثه بمعنى، واستحدثت خيراً أي وجدت.

ينمل: أي يكذب، يُقال: نَمَلْ كَنَصَرَ وَعَلِمَ كَذَبَ، والنَّمْلُ معروف وأحدثه نَمْلَةٌ، وقد تُضَمُّ الميمُ، وقد تُضَمُّ النون وبهما قرأ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا﴾، وقال الزمخشري: (الأصل النَّمْل بوزن الرَّجُل والنَّمْل بالفتح مُخَفَّف عنه، كما في قولهم السَّبع والسَّبع. انتهى). ونملة سليمان - عليه السلام - أنثى لقوله تعالى ﴿قَالَتْ﴾، لا لقوله: ﴿نَمْلَةٌ﴾، لأنَّ التاء للوحدة لا للتأنيث.

الإعراب:

الواو عاطفة، ولا نافية.

وتزدهي: فعل مضارع مرفوع للتجرد بضمة مقدرة على الياء.

الأطماع: فاعل، وهو مرفوع بضمة ظاهرة.

حلمي: مفعول به منصوب بفتحة مقدّرة على الآخر منع من ظهورها اشتغال المحل بكسرة المناسبة، مضاف إلى الياء، وهي محلها الجرّ بالمضاف، والجملة معطوفة على جملة قوله: فلا جزع الخ على الأرجح.

ولا أرى: الواو عاطفة أيضاً، ولا نافية، وأرى: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع بضمة مقدّرة على الألف، وفيه ضمير نائب الفاعل، أي: ولا يعتقدي أحد.

سؤولاً: مفعول ثان.

وبأعقاب الأحاديث: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلّق بنمل، وهو مضارع مرفوع للتّجرد بضمة ظاهرة، والفاعل ضمير مستتر فيه جوازا تقديره هو، والجملة صفة سؤولاً.

المعنى:

إنَّ الأطماع التي مِنْ شأنها تستخفّ بصاحبها لا تستخفّ حلمي، ولا العدم يوهي عزمي فيراني النَّاس سؤولاً يكذب بأعقاب أحاديثه، ومن كان بتلك الصفة من السائلين، كان من أقبح المساكين؛ إذ كذبه لا يخلو إما لو صفه المسؤول بما هو ليس أهله، وأمّا

لإظهاره الفاقة بالكَلِّية، وهو بخلاف ذلك، وكلاهما مذموم، بل ورد في الثاني من الوعيد الدال على أن هذا السائل يحشر يوم القيامة ووجهه عظم ولا لحم فيه.

ويروى: ينحل مضارع مبني للمجهول من النحلة وهي العطاء، وعليه يكون المعنى: ولا يراني أحد أعطى بأعقاب أحاديثي لأنَّ السؤال ذلَّ ولو أين الطريق، بل هو ليس من دأب عالي الهمة، وذلك ترى عالي الهمة يركب المشاق، ويغدو على القوت الزَّهيد، ولا يرتكب السؤال من أقاربه فضلاً عن الابعاد، بل يكثر التنقل والأسفار والوغول في البوادي، ولو قدر على أن يحصل بالسؤال ألف دينار، قال ابن عنين^(١): [الكامل]

فإلى متى أنا بالسِّفار أَضِيعُ الـ
يَبْنَا أَصْبَحُ بِالسَّلامِ محلَّةً
أَيَّامَ بَيْنِ الشَّدِّ والإِضَاعِ
حَتَّى أَمْسِي أَهْلَهَا بِوَدَاعِ
وَقَالَ غَيْرُهُ: [الكامل]

ومشَّت العزمات لا يأوي إلى
ألف النوى حَتَّى كَأَنَّ رَحِيلَهُ
سَكَنَ وَلَا أَهْلَ وَلَا جِيرَانَ
لِلْبَيْنِ رَحْلَتَهُ إِلَى الْأُوطَانِ
وَقَالَ ابْنُ عَنِينَ: [الكامل]

فَحَتَّامَ لَانْفِكَ فِي ظَهْرِ سَبَسٍ
أَشَقُّ قَلْبَ الشَّرْقِ حَتَّى كَأَنِّي
أُهَجِّرُ أَوْ فِي بَطْنِ دَوِيَّةٍ قَفَرِ
أَفْتِشُ فِي سَوْدَائِهِ عَن سَنَا الْفَجْرِ
وَقَالَ الْجَزَارُ: [الكامل]

وَالْأَرْضُ قَدْ ثَقَلَتْ عَلَيْهَا وَطَأَتِي
حَتَّى مَ امْسَحَهَا فَلَوْلَا أَنَّ لِي
إِذْ عَمَّهَا الْإِدْبَارُ وَالْإِقْبَالُ
عَيْنِينَ قَالَ النَّاسُ ذَا الدَّجَالِ
وَقَالَ الْغَرْنَاطِيُّ أَبُو الْحُسَيْنِ: [الكامل]

يَا لَيْتَ شَعْرِي وَالْأُمَانِي كُلَّهَا
هَلْ تَرْبَعَنَّ رَكَائِي فِي بِلْدَةٍ
بَرْقُ يَغْرُكُ أَوْ سَرَابٌ يَلْمَعُ
أَمْ هَكَذَا خَلَقْتَ تَحَبُّ وَتَوَضُّعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ مَنْزِلَ وَأَحَبَّةُ
كَالظِّلِّ يَلْبَسُ فِي الْمَقِيلِ وَيَخْلَعُ

وقال ابن زريق البغدادي من قصيدة: [البسيط]

تَأبَى الْمُطَالِبُ إِلَّا أَنْ تُجَشِّمَهُ لِلرِّزْقِ كِدْحاً وَكَمْ مَمَّنْ يُودِّعُهُ
كَأَنَّمَا هُوَ مِنْ حِلٍّ وَمُرْتَحِلٍ مُوَكَّلٌ بِفَضَاءِ الْأَرْضِ يَذَرُّعُهُ

قال الشنفرى^(١):

٥٤ - وَلَيْلَةَ نَحْسٍ يَضْطَلِي الْقَوْسَ رَبُّهَا وَأَقْطَعَهُ اللَّاتِي بِهَا يَتَّبِلُ

اللغة:

الليْلَةُ: مؤنث اللَّيْلِ، وهو من غروبِ الشَّمْسِ إلى طُلُوعِ الفَجْرِ أو الشَّمْسِ.

النَّحْسُ: الريح الباردة.

يَضْطَلِي: أي يَسْتَدْفِئُ، ويقال: صَلَّى عَصَاهُ عَلَى النَّارِ، وَتَصَلَّاهَا لَوْحٌ بِهَا عَلَيْهَا، وَصَلَّى اللَّحْمَ يَضْلِيهِ ضَلِيًّا شَوَاهُ أَوْ أَلْقَاهُ فِي النَّارِ لِلْإِخْرَاقِ كَأَضْلَاهُ، وَصَلَّى يَدُهُ بِالنَّارِ سَخَّنَهَا.

القَوْسُ: معلوم، وَقَدْ تُذَكَّرُ، قال الجوهري: فَمِنْ أَنْتَ صَغَرَهَا عَلَى قُوَيْسَةٍ وَمِنْ ذَكَرَ قَالَ: قُوَيْسٌ وَجْمَعُهَا قَيْسِي وَأَصْلُهُ قُؤُوسٌ لِأَنَّهُ فُعُولٌ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدَّمُوا اللَّامَ فَصَارَ قُؤُوسٌ وَعَلَى فُلُوعٍ ثُمَّ قَلَبُوا الْوَاوَ يَاءَ وَكَسَرُوا الْقَافَ كَمَا فِي عَصِيٍّ وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهَا قُسُويٌّ بَرَدَهَا إِلَى الْأَصْلِ، وَذُو الْقَوْسِ حَاجِبٌ بَنُ زُرَّارَةَ أَتَى كِشْرَى فِي جَذْبٍ أَصَابَهُمْ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريع الكرب": النحس هنا: الشؤم والشدة. والاصطلاء: التسخن بالنار، واضطلاء القوس: اصطلاء النار التي أوقدت بالقوس. والأقطع: جَمْعُ قِطْعٍ - بالكسر - وهو هنا السهم. والتتبيل: تكلّف الرمي بالتبيل، ولا واحد للتبيل من لفظه، وقيل: واحده تبلة.

والتقدير: وَرَبَّ لَيْلَةٍ شُؤْمٍ وَشِدَّةٍ بَرَدَ موصوفة بما ذَكَرَ مِنَ الاصطلاءِ بِالنَّارِ الْمُوقَدَةِ بِأَعْوَادِ الْقَوْسِ الَّتِي لَا غَنَى لِمَالِكِهَا عَنْهَا، لَعَدِمَ مَا يُوقَدُ بِهِ النَّارَ سِوَاهَا وَسَوَى سَهَامِهَا الَّتِي يَتَكَلَّفُ الرَّمِيَّ بِهَا نَبَالاً. وَيَصِحُّ - وَهُوَ الْأَوَّلَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ - أَنْ يَكُونَ مَعْنَى يَتَّبِلُ يَصِيرُ نَبَالاً صَاحِبَ تَبَلٍ، بِالضَمِّ؛ أَيْ: ذِكَاً وَحِدْقاً، وَلَا شَكَّ أَنَّ إِجَادَةَ الرَّمِيِّ بِالْقَوْسِ مِنْ أَمَثَلِ مَا يَدْخُلُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي زُمَرَةِ النَّبَالَةِ كَالْفُرُوسَةِ وَالسَّبَاحَةِ.

قوله: (وليلة) مخفوضٌ بِ(رُبِّ) الْمُقَدَّرَةِ بَعْدَ الْوَاوِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ مَرْفُوعٌ الْمَوْضِعِ بِالْإِبْتِدَاءِ؛ لِأَنَّ (رُبَّ) حَرْفٌ زَائِدٌ يَدْخُلُ عَلَى الْمُبْتَدَأِ. وَجَمْلَةٌ (يَضْطَلِي) صِفَةٌ (لَيْلَةٍ).

صلى الله عليه وسلم يَسْتَأْذِنُهُ لِقَوْمِهِ أَنْ يَصِيرُوا فِي نَاحِيَةٍ مِنْ بِلَادِهِ حَتَّى يُخَيَّوْا - أي يرزقوا الحيا - أي المطر، فقال: إِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الْعَرَبِ غُدُرٌ وَخُرْصٌ؛ فَإِنْ أَذِنْتُ لَكُمْ أَفْسَدْتُمْ الْبِلَادَ، وَأَغْرُتُمْ عَلَى الْعِبَادِ، قَالَ حَاجِبٌ: إِنِّي ضَامِنٌ لِلْمَلِكِ أَنْ لَا يَفْعَلُوا، قَالَ فَمَنْ لِي بِأَنْ تَفِي، قَالَ: أَرْهَنُكَ قَوْسِي؛ فَضَحَكَ مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ كِسْرَى: مَا كَانَ لِيُسَلِّمَهَا أَبَدًا؛ فَاقْبَلَهَا مِنْهُ وَأَذِنَ لَهُ، ثُمَّ أَحْيَوْا بِدَعْوَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ مَاتَ حَاجِبٌ، فَارْتَحَلَ عَطَارِدُ ابْنِهِ إِلَى كِسْرَى فَطَلَبَ قَوْسَ أَبِيهِ، فَزَدَهَا عَلَيْهِ وَكَسَاهُ حُلَّةً فَلَمَّا رَجَعَ أَهْدَاهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَقْبَلَهَا، فَبَاعَهَا مِنْ يَهُودِيٍّ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ، وَذُو الْقَوْسِ أَيْضًا سِنَانُ بْنُ عَامِرٍ لِأَنَّهُ رَهَنَ قَوْسَهُ عَلَى أَلْفٍ بَعِيرٍ فِي الْحَارِثِ بْنِ ظَالِمٍ عِنْدَ الثُّغَمَانِ الْأَكْبَرِ، وَلِبَعْضِ الشَّيْبَانِيِّينَ يَخَاطَبُ قَوْمَهُ مُفْتَخِرًا بِهِمْ: [الطويل]

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذئ قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب
يريد عروش كسرى وأصحابه، وقصة ذي قار مشهورة، ولولا الإطالة لذكرتها عن آخرها.

رَبِّهَا: أي مَالِكُهَا وصَاحِبُهَا.
وَأَقْطَعَهُ: الْأَقْطَعُ جَمْعُ قَطِيعٍ كَأَمِيرٍ، وَهُوَ الْقَضِيبُ الَّذِي تُبْرَى مِنْهُ السِّهَامُ أَوْ جَمْعُ قِطْعٍ بِالْكَسْرِ، وَهُوَ نَضْلٌ صَغِيرٌ غَرِيضٌ أَوْ الرَّدَىءُ مِنَ السِّهَامِ.
الإعراب:

وليلة: الواو واو رب، وليلة مجرورة لفظاً بها منصوبة محلاً بدعست ولا يجوز الرفع محلاً على أنه مبتدأ؛ لخلو الجملة بعدها عن الرابطة كَرَبِ رَجُلٍ كَرِيمٍ لَقِيتَ، ولو وجد الرابطة جاز الرفع والنصب بفعل محذوف يفسره المذكور، نظير: زيداً رأيته، مضاف إلى نحس، وهو مجرور بالمضاف وعلامة جره الكسرة في آخره، وجملة يصطلي القوس ربها، صفة ليلة أو حال منها لتخصيصها بالإضافة، والعائد في الاحتمالين مقدَّرٌ أي فيها.

واقطعه: الواو عاطفة، واقطعه عطف على القوس.

اللاتي: اسم موصول محله النصب صفة أقطع.

بها: جار ومجرور متعلق بـيَتَنَبَلْ، وهو فعل مضارع مرفوع للتَّجَرَّد، والفاعل ضمير مستتر جوازاً فيه تقديرًا، هو والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

قال الناظم^(١):

٥٥- دَعَسْتُ عَلَى غَطْشِي وَبَطْشِي وَضَحْبَتِي سَعَارَ وَإِرْزِيْزَ وَوَجَرَ وَأَفْكَلُ

اللغة:

دعست: من الدَّعَسِ كَالْمَنْعِ شِدَّةُ الْوَطْءِ.

وغطشى: ظلمة من الليل.

والبطش: الأخذ بالعنف والسَّطْوَةُ كَأَبْطَشَهُ، الأخذ الشديد، والبأس، والكلُّ محتمل هنا.

السُّعَارُ: كغُرَابِ الْجُوعِ.

الأَرِيزُ: الصَّقِيقُ، والأَرِزَةُ اللَّيْلَةُ الْبَارِدَةُ.

الوجر: الإشفاق، يقال: وَجَرَ مِنْهُ كَفَرِحَ أَشْفَقَ فَهُوَ وَجِرٌ.

الأَفْكَلُ: الرِّغْدَةُ.

الإعراب:

دعست: فعل وفاعل.

على غطشى: جار ومجرور متعلق بدعست.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الدَّعَسُ هنا: شِدَّةُ الْوَطْءِ. وَالْغَطْشُ، بِالْغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ: الظَّلَامُ. وَالبَّغْشُ، بِالْغَيْنِ وَالشَّيْنِ الْمُعْجَمَتَيْنِ بَعْدَ الْمُوَحَّدَةِ التَّحِيَّةِ: الْمَطَرُ الْخَفِيفُ. وَالضُّحْبَةُ، بِالضَّمِّ: الصَّحَابَةُ، الْوَاحِدُ صَاحِبٌ. وَالسُّعَارُ، بِالضَّمِّ: حُرُّ الْجُوعِ. وَالْإِرْزِيْزُ، بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ فَرَاءٍ سَاكِنَةٍ فَرَاءَيْنِ بَيْنَهُمَا يَاءٌ: تَكْمُشُ مِنَ الْبَرْدِ. وَالْوَجْرُ، بِالْجِيمِ بَيْنَ الْوَاوِ وَالرَّاءِ: الْوَجَلُ. وَالْأَفْكَلُ، بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ فَسْكَوْنِ الْفَاءِ: الرِّغْدَةُ مِنْ خَوْفٍ أَوْ بَرْدٍ وَنَحْوِهِ.

يقول: وَرُبَّ لَيْلَةٍ نَحْسٍ سَرِيْثٍ فِيهَا، وَاطْنَأُ الْأَرْضُ بِشِدَّةٍ مَعَ ظَلَامٍ وَمَطَرٍ، وَضَحْبَتِي - أَيِ: الْمَلَاذِمُونَ لِي فِي سُرَايَ - جَوْعٌ شَدِيدٌ، وَبَرْدٌ شَدِيدٌ، وَخَوْفٌ وَرِغْدَةٌ مِنْهُ وَمِنَ الْبَرْدِ. فَجَمَلْتُ (وَضَحْبَتِي) فِي مَحَلِّ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْفَاعِلِ، وَ(عَلَى) فِي (عَلَى غَطْشِي) بِمَعْنَى (مَعَ).

وبطشي: معطوف على غطشي.

وصحبتني: الواو للحال، وصحبتني مبتدأ ومضاف إليه.

سعار: خبره، والبقية معطوفة عليه، والجملة في محل نصب على الحال من التاء في دعست.

المعنى:

في مثل هذه الليلة ذات الريح الباردة التي فيها لبردها يصطلي القوس صاحبها ويصطلي أيضاً ما يتنبل فيه مع غلاء القوس عند العرب كما علمته أنفاً، شددت وطئي على ظلمة من الليل وأخذت بعنف وسطوة، والحال أن مصاحبي الجوع والصقيع والإشفاق والرعدة، المقتضي كل منها خمود نار الهمة.

تكميل:

ويحتمل في على أن تكون على بابها، ويكون شبه ظلمة الليل بالأرض مبالغة في اعتكارها، وخيل الوطء عليه، فالاستعارة مكنية تتبعها استعارة تخيلية، ويحتمل أن يكون اللام نظير قوله تعالى: ﴿وَلْتَكْبُرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي شددت وطئي لأجل تهية أسبابه من ظلمة الليل والسطوة مع ما معي من مقتضيات الجبن: من الجوع وما عطف عليه.

قال الشنفرى^(١):

٥٦ - فَأَيَّمْتُ نِسَوَانًا وَأَيَّمْتُ إِلْدَةً وَعُذْتُ كَمَا أَبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلِيلُ

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زكور الفاسي في "تفريج الكرب": تَأْيِمُ النِّسْوَةِ: تَضْيِيرُهُنَّ أَيَّامِي، وَالْأَيِّمُ: التي لا زوج لها. كما أَنَّ الْإِيَّامَ: تَضْيِيرُ الْإِلْدَةِ يَتَامَى، وهمزة الإلدة أضلها واو. والعوذ: الرجوع، ضد البدء والإبداء أيضاً، بدأ الشيء وبدأه كابتدأه، فعلة ابتداءً. والليل الأليل: الطويل، كالיום الأيؤم، مُبَالِغَةٌ فِي الطَّوِيلِ، وهكذا كُلُّ وَصْفٍ لشيءٍ مِنْ لَفْظِهِ.

وقوله: (فَأَيَّمْتُ) معطوف على قوله: (دَعَسْتُ)، مُسَبَّبٌ عَنْهُ أَيُّ: سَرَيْتُ مُصَاحِبًا لِمَا ذَكَرْتُ، فَتَسَبَّبَ عَنْ ذَلِكَ تَأْيِيمِي نِسَوَانًا كَثِيرَةً بِقَتْلِي أَرْوَاجَهُنَّ. وَإِيَّامِي أَوْلَادًا كَثِيرِينَ بِقَتْلِي آبَائِهِنَّ، وَرَجَعْتُ سَالِمًا إِلَى مُحَلِّي عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي أَبْدَأْتُ السَّرَى بِهَا، وَاللَّيْلُ طَوِيلٌ جِدًّا، أَيُّ: بَقِيَ مِنْهُ بَعْدَ عَوْدِي كَثِيرٌ. والمعنى: أَنَّهُ فَعَلَ مَا فَعَلَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ، وَهُوَ وَسَطُهُ مَثَلًا، وَفَضَّلَ مِنْهُ عَنْ سُرَاهُ كَثِيرٌ.

اللغة:

أَيَّمْتُ: أُرْمِلْتُ، وَالْأَيَّامَى: الَّذِينَ لَا أَزْوَاجَ لَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَأَصْلُهَا أَيَّائِمُّ فَقُلِبَتْ، لِأَنَّ الْوَاحِدَ رَجُلٌ أَيِّمٌ، سِوَاهُ كَانَ تَزَوَّجَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ لَمْ يَتَزَوَّجْ. وَامْرَأَةٌ أَيِّمٌ أَيْضاً، بِكَرٍّ كَانَتْ أَوْ ثِيْباً. وَقَدْ أَمَّتِ الْمَرْأَةُ مِنْ زَوْجِهَا تَيْيَمٌ أَيْمًا وَأَيُّومًا وَأَيِّمَةً. وَفِي الْحَدِيثِ: "أَنَّهُ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْإِيْمَةِ"^(١)، وَتَأَيَّمَتِ الْمَرْأَةُ وَتَأَيَّمَتِ الرَّجُلُ زَمَانًا، إِذَا مَكَثَ لَا يَتَزَوَّجُ. قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ الثَّقَفِيُّ: [مَجْزُوءُ الْكَامِلِ]

كُلُّ امْرِئٍ سَتَيْيَمُ مِنْهُ — — — الْعُرْسُ أَوْ مِنْهَا يَيْيَمُ

وقال آخر: [الوفر]

نَجَوْتُ بِقُوفِ نَفْسِكَ غَيْرَ أَنِّي — — — إِخَالَ بِأَنْ سَتَيْيَمُ أَوْ تَيْيَمُ
أَي: يَيْيَمُ ابْنُكَ وَتَيْيَمُ امْرَأَتُكَ.

وقال يعقوب: سمعتُ رجلاً من العرب يقول: أَيُّ يَكُونُنَّ عَلَى الْإِيْمِ نَصِيْبِي، يَقُولُ: مَا يَقَعُ بِيَدِي بَعْدَ تَرْكِ التَّزْوُجِ أَيُّ امْرَأَةٍ صَالِحَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَأَيِّمُهُ اللَّهُ تَأْيِيماً. وَقَوْلُهُمْ: مَالُهُ أَمَّ وَعَامٌ: أَيُّ هَلَكَتِ امْرَأَتُهُ وَمَاشِيَتُهُ، حَتَّى يَيْيَمَ وَيَعِيَمَ. فَعَيْمَانُ إِلَى اللَّبَنِ، وَأَيْمَانُ إِلَى النَّسَاءِ.

وَالْحَرْبُ مَأْيِمَةٌ، أَيُّ تَقْتُلُ الرِّجَالَ فَتَدْعُ النِّسَاءَ بِلَا أَزْوَاجٍ. وَقَدْ أَمَّئْتُهَا وَأَنَا أُيِّمُهَا، مِثَالُ أَعَمَّئْتُهَا وَأَنَا أُعِيْمُهَا. وَالْإِيْمُ: الْحَيَّةُ. قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: أَصْلُهُ أَيِّمٌ فَخُفِّفَ، مِثْلُ: لَيْنٍ وَلَيْنٍ، وَهَيْنٍ وَهَيْنٍ. وَأَنْشَدَ لِأَبِي كَبِيرٍ: [الْكَامِلُ]

إِلَّا عَوَاسِرُ كَالْمِرَاطِ مُعِيدَةً — — — بِاللَّيْلِ مَوْرِدُ أَيِّمٍ مُتَغَضِّفُ
وَالْجَمْعُ أَيُّومٌ، وَالْإِيَامُ: الدَّخَانُ، وَالْجَمْعُ أَيُّمٌ.

وَأَمَّ الرَّجُلُ إِيَامًا، إِذَا دَخَنَ عَلَى النَّحْلِ لِيَخْرُجَ مِنَ الْخَلِيَةِ فَيَأْخُذَ مَا فِيهَا مِنَ الْعَسَلِ.
قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ^(٢): [الطويل]

(١) انظر: غري الحديث ٤٩/١.

(٢) انظر: أدب الكاتب ٣٣٩/١.

فلما جَلَّاهَا بِالْإِيَامِ تَحَيَّرَتْ ثُبَاتٍ عَلَيْهَا ذُلُّهَا وَاجْتِبَاهُهَا
النِّسَوَانُ: والنِّسْوَةُ: جمعُ امرأةٍ من غير لفظها، وتصغيرُ نِسْوَةٍ: نُسَيْيَّةٌ، ويقالُ: نُسَيْيَاتٌ،
وهو تصغير الجمع.

وَأَيْتَمْتُ: من اليَتِيمِ في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم، ويقالُ:
أَيْتَمَتِ المرأةُ فِيهِ مَوْتَهُمْ، أي صار أولادها أَيْتَاماً. وجمع اليتيم أَيْتَامٌ وَيَتَامَى، نظيره فهو
يتيم، يقالُ: دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ. والظاهر أنه لم يمكن وجد أخ لليتيم لفقد أبيه، والأخ قيل:
للدرة العزيرة النظير: يتيمة.

وَالْإِلْدَةُ: الأولادُ جمعٌ وَلَدٍ كَوُلْدَةٍ بِالضَّمِّ.
وَعَادَ إِلَيْهِ يَعُودُ عَوْدَةً وَعَوْدًا: رَجَعَ. وفي المثل^(١): (العَوْدُ أَحْمَدُ).
وقال الشاعرُ: [الطويل]

جَزَيْنَا بَنِي شَيْبَانَ أَمْسَ بِقَرْضِهِمْ وَجِئْنَا بِمِثْلِ الْبَدْءِ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
وَأَبْدَيْتُ: أَمَّا من البداية، أو من بَدَا الْقَوْمُ بَدْوَاً إذا خرجوا إلى باديتهم، وليلُ أَلَيْلُ:
شديدُ الظُّلْمَةِ، قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

وَاللَّيْلُ مُخْتَلِطُ الْغَيَاطِ لَيْلُ أَلَيْلُ

الإعراب:

الفاء للتعقيب أو للتفريع، وايمت: فعل وفاعل، والجملة عطف على دعست.
نسواناً: مفعول، وكذا وايمت.
والكاف حرف تشبيه وجر، وما مصدرية.
أبدأت: فعل وفاعل مؤول بمصدر محذوف مجرور بالكاف صفة لمصدر محذوف
أي عوداً كابدائي، والواو واو الحال.
والليل: مبتدأ، خبره أليل. والجملة في موضع نصب على الحالية من فاعل عاد.

(١) انظر: المستقصى ٣٣٥/١، وشرح كتاب الأمثال ٢٥٢/١.

المعنى:

انه بعد ما وصف الليلة بالظلام والبرد والمطر والرعد وأنها لا يخرج فيها الا الأبطال الفوارس والليوث العوايس الذين لا يروهم خوض الأهوال، ولا ينههم احتمال قرب الآجال، وانه دعسها مقتحماً لج الاخطار، متجنباً عن صحبة الاوهام والافكار، ذكر أنه ايم النساء من الرجال، وايتم الالدة الاطفال، وفعله ذلك امّا لاخذ ثأر أو لنهب مال، وعاد مسرعاً اثر بدايته، والليل على أوله لا نهايته.

ولعمري هذا أمر لا يرتكبه مثله من الرجال، ولا يقتحمه الا من شنشته ركوب الاخطار والاهوال.

انما آتي بالفاء دون ثم اشارة الى ان فعله هذا كان عقيب العس من غير مهلة، وذكر المفعول به في الشطرين لإفادة التكثير.

قال الناظم^(١):

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الغَمِيضَاءُ، بالغين المعجمة مُضْعَرًّا مَمْدُودًا: مُوضِعٌ أَوْقَعَ فِيهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَنِي جَذِيمَةَ إِثْرَ فَتْحِ مَكَّةَ. وفريقانِ تَثْبِيَةٌ فَرِيقٌ، بمعنى مُفَارِقٍ لغيره، وهو اسم (أَضْبَحَ)، و(جالساً) خَبَرَهَا، وأفردَهُ وَلَمْ يَقُلْ: جالِسَيْنِ لِطَبَاقِ (فريقانِ) لفظاً؛ لِأَنَّ فَرِيقَانِ فِي مَعْنَى جَمْعٍ مُخْتَلَفٍ. و(مَسْئُولٌ) خَبِرَ مُبْتَدَأٌ مُحَذَوْفٌ، أَيُّ: فَرِيقٌ مَسْئُولٌ. (وَالْآخَرُ يَسْأَلُ)، وهذا تفصيلٌ لِإِجْمَالِ فَرِيقَانِ. وَأَهْلُ الْمَعَانِي وَالْبَدِيعِ يُسَمَّى مِثْلَ هَذَا الْمُثْنَى الْمُفَسَّرِ بِاسْمَيْنِ عَلَى إِثْرِهِ فِي آخِرِ الْكَلَامِ تَوْشِيْعًا، وَهُوَ فِي اللَّغَةِ لَفُّ الْقَطْنِ الْمُنْدَوْفِ، وَوَجْهُهُ أَنَّ الْمُثْنَى - وَهُوَ لَفْظٌ وَاحِدٌ - لَمَّا كَانَ مَعْنَاهُ مُتَعَدِّدًا كَانَ كَلَفَ الْقَطْنِ بَعْدَ نَذْفِهِ، وَ (عَنِّي) فِي (عَنِّي) مَعْنَاهَا التَّعْلِيلُ، وَلَيْسَتْ مُتَعَلِّقَةً بِ (مَسْئُولٌ) وَ(يَسْأَلُ)، حَتَّى يَكُونَ الْمَعْنَى: فَرِيقٌ مَسْئُولٌ عَنِّي، وَفَرِيقٌ سَائِلٌ عَنِّي؛ لِأَنَّ الْمَسْئُولَ عَنْهُ مَبْهُمٌ غَيْرُ مُعَيَّنٍ، بِدَلِيلِ السِّيَاقِ. وَتَعَلُّقُهُ بِهِ يَقْتَضِي أَنَّ يَكُونَ صُورَةَ سُؤَالِهِمْ هَكَذَا: أَفَعَلَ الشَّنْفَرَى؟ أَوْ الشَّنْفَرَى فَعَلَ هَذَا؟ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

ولا يَلَزَمُ مَنْ كَوَّنَ الْجُلُوسَ فِي الْغَمِيضَاءِ لِأَجْلِهِ أَنْ يَكُونَ مُعَيَّنًا عِنْدَهُمْ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا أَيْضًا لَازِمٌ فِي جَعْلِهَا لِلتَّعْلِيلِ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: قَوْلُهُ: (عَنِّي) لِأَجْلِي، مَعْنَاهُ أَنَّ الْجُلُوسَ سَبَبُهُ فِعْلُهُ هُوَ وَسُرَّاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا بِهِ وَلَمْ يَطْلُبُوا عَلَى مَا فِي الْأَمْرِ مِنْ ذَلِكَ، فَجَلَسُوا مُسْتَكْشِفِينَ عَمَّا كَانَ. وَمَعْنَى الْبَيْتِ: وَأَصْبَحَ لِأَجْلِ فِعْلَتِي الْمُنْكَرَةِ فِي الْغَمِيضَاءِ جَمْعٌ مُخْتَلَفٌ جَالِسًا؛ بَعْضُهُمْ مَسْئُولٌ وَبَعْضُهُمْ يَسْأَلُهُ. وَحِكَايَتُهُمْ مَا ظَنُّوهُ سَبَبًا لِهَرِيرِ الْكَلَابِ عِنْدَ سَمَاعِهِ لِرُؤْيَا مَا تَكْرَهُهُ. قَوْلُهُ:

٥٨ - فَقَالُوا: لَقَدْ هَرَّتْ بَلِيلُ كِلَانَا فَقُلْنَا: أَذُتْ عَسَّ أَمْ عَسَّ فُرْعُلُ

معناه: مَا قَدَّمْنَا مِنْ جُلُوسِهِمْ لِلتَّحَدُّثِ وَالِاسْتِخْبَارِ عَمَّا كَانَ بِسَبَبِ سُرَّاهُ؛ أَيُّ: فَقَالُوا جَمِيعًا - أَوْ مَنْ

٥٧- وَأَصْبَحَ عَنِي بِالْغُمَيْصَاءِ جَالِساً فريقان: مسؤول وآخر يُسأل
٥٨- وقالوا: لقد هَرَّتْ لَبِيلُ كِلَابِنَا فقلنا: أَذِئْبَ عَسَّ أَمْ عَسَّ فُرْعُلُ

اللغة:

أَصْبَحَ: ههنا بمعنى صار لِإِتصاف اسمها بخبرها في الصُّباح، والصُّباح نقيض المساء وكذلك الصُّبْحَة تقول منه اصبح الرَّجُل وَصَبَّحَهُ اللهُ وَصَبَّحَتْهُ أَي قَلتَ له: عَمَّ صباحاً، وَصَبَّحَتْهُ أَي اتَّيَتْهُ صباحاً، ولا يراد بالتشديد هاهنا التكثير.

والغُمَيْصَاء: اسم مكان

والجَالِسُ: خِلَافُ الْقَائِمِ، وقيل: القعود ما كَانَ عن قِيَامٍ، والجلوس ما كَانَ عن اضْطِجَاعٍ.

والفريق: طائفة من النَّاسِ أَكْثَر من الفرقة.

وَهَرَّ الْكَلْبُ يَهْرُ هَريراً أَي: صَاحَ بلا نُبَاحٍ، قَالَ الشَّاعِرُ يَصِفُ شِدَّةَ الْبَرْدِ: [الطويل]

إِذَا كَبَدَ النُّجُومُ السَّمَاءَ بِشَتْوَةٍ على حين هَرَّ الْكَلْبُ وَالثَّلْجُ خَاشَفَ

والهَرُّ: السَّيْتُورُ، والجمعُ هَرَرَةٌ كَقَرْدٍ وَقَرْدَةٍ. والانشى هَرَّةً، وجمعها هرات، ورأس هِرٍّ موضعٌ، وهِرٌّ اسمُ امرأةٍ. والهَرُّ: اسم من قولك: هَرَرْتُه هَرّاً، أَي كَرِهْتُهُ. وفي المثل^(١): (فَلَانٌ لَا يَعْرِفُ هِرّاً مِنْ بَرٍّ). أَي: لَا يَعْرِفُ مَنْ يَكْرَهُهُ مِمَّنْ يَبْرُهُ. وقيل: الهِرُّ فِي هَذَا المثل: دُعَاءُ الْغَنَمِ، وَالْبَرُّ سَوْفُهَا.

الْكِلَابُ: جَمْعُ كَلْبٍ حَيَوَانٍ مَعْرُوفٍ، وَرَبِّمَا وَصِفَ بِهِ فَقِيلَ: امْرَأَةٌ كَلْبَةٌ وَقَدْ يُجْمَعُ على أَكَلْبٍ وَأَكَالِبٍ جَمْعُهُ.

قَالَ مِنْهُمْ: لَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُنَا فِي اللَّيْلِ هَريراً مُرَدِّداً لَمْ نَعْلَمْ سَبَبَهُ فَقُلْنَا جَمِيعاً - بِمَعْنَى أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَهُ لِبَعْضٍ، فَالْقَائِلُ السَّائِلُ، وَالْمَقُولُ لَهُ الْمَسْئُولُ: أَذِئْبَ عَسٌّ؟ أَي: سَرَى طَالِباً، أَمْ عَسَّ فُرْعُلُ، وَهُوَ وَلَدُ الصُّبُعِ. وَهَذَا حِكَايَةٌ لِقَوْلِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِهِمُ الْهَرِيرَ، وَهُوَ صَوْتُ ذُو نُبَاحٍ لَبُزْدٍ أَوْ غَيْرِهِ بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِمْ، وَهُوَ أَنَّ سَبَبَهُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ: عَسَّ الذِّئْبِ أَوْ الْفُرْعُلِ، مَنْ غَيْرِ قَطْعٍ بِأَحَدِهِمَا.

(١) انظر: أدب الكاتب ١/١٣٨، وجمهرة الأمثال ٢/٤٠١، ومجمع الأمثال ٢/٢٦٩.

قال ابنُ سيده : وَقَدْ قَالُوا فِي جَمْعِ كَلْبٍ كِلَابَاتٍ، وَالْكَلْبَةُ أَنْثَى الْكِلَابِ وَجَمْعُهَا كَلْبَاتٌ وَلَا تَكْسَرُ.

والذئب: معروف.

وَعَسَّ يَعُثُّ عَسًّا وَعَسًّا أَي: طَافَ بِاللَّيْلِ، وَفِي الْمَثَلِ^(١): (كَلْبٌ عَسَّ خَيْرٌ مِنْ كَلْبٍ رَبَضَ).

وَالْفُرْعُلُ: كَقَنْفَذٍ وَلَدُ الضَّبْعِ، وَفِي الْمَثَلِ^(٢): (أَغْزُلُ مِنْ فُرْعُلٍ) وَهُوَ مِنَ الْغَزَلِ وَالْمَرَاوِدَةِ.

الإعراب:

الواو: للعطف.

وأصبح: فعل ماضٍ ناقص.

عني: جازٍ ومجرور بمسؤول أو يسأل.

بالغميصاء: خبر أصبح مقدم.

وفريقان: اسمها مؤخر.

ومسؤول: صفة لموصوف محذوف أي: فريق مسؤول بدل من فريقان، بدل مفصل من مجمل.

وآخر: معطوف عليه

ويسأل: فعل وفاعل صفة لآخر، وقالوا: فعل وفاعل معطوف على البيت قبله.

لقد: اللام موطئة للقسم، وقد للتحقيق لدخولها على الماضي، أعني قوله: هَرَّتِ الْمُقْتَرَنُ بَتَاءِ التَّائِيثِ.

بليلى: متعلق به.

كلابنا: فاعله، مضاف الى الضمير.

(١) أساس البلاغة ١/١٥٥، وتاج العروس ٢٥٤/١٦. ويروى: خير من أسد ربض أو ندس.

(٢) انظر: مجمع الأمثال ٦٥/٢.

فقلت: الفاء للتعقيب العطف، وقلت: فعل وفاعل معطوف على قالوا.

أذنب: والهمزة للاستفهام، وذنب مبتدأ، وجملة عس خبر.

أم: حرف عطف معادل للهمزة ولا يقع بعد هل.

عس فرعل: فعل وفاعل.

المعنى:

لما ذكر الشنفرى طروقه في الليل، لإخفاء المكائد والويل، ولا بُدُّ للطارق من هزير الكلاب إذا بدا، ومن عدوها عليه إذا عدا، ذكر أنه لما بدا: [الكامل]

كسرى الضباح فوق صهوة أشقر وسطا الضياء على الظلام بخنجر

وتناثر نور ذكاء وتبدد، فكأنه على أديم الأرض قراصة عسجد، واجتمع الناس في الغميصاء للحديث إذ جرى البحث في السؤال عن هذا الأمر الحديث، فسأل بعضهم بعضاً عن سبب الهزير، إذ لا يكون ذلك إلا عن أمر خطير، فأراد أن يخفى أمره، ويكتم سرّه، حتى صار سائلاً لا علم له بذلك، لئلا ينسب إليه سلوك تلك المسالك، فقال يا قوم: أذنب عس الليلة على الغنم أم ولد ضبع على الحلة هجم، لأن عادة الكلاب الهزير على الضباع والذئاب.

وفي هذا البيت من المحسنات البديعية: تجاهل العارف.

تكميل:

إنما صير الشنفرى نفسه سائلاً كي لا يظن صدور هذا الأمر منه لعلمه أنهم لا يتهمون سواه، ولا يعنون بذلك أحد إلا إياه لأنّه الأجرأ والأشجع والأقوى والأمنع.

استطراد:

الذنب يهمز ولا يهمز، والأثنى ذئبة وجمع القلّة أذؤب والكثرة ذئاب، ويسمى السيد كما مرّ وذؤالة والسرّحان والعلمس والسلق والأثنى سلقة والسّمسام وكنيته أبو مذقة.

لأنّ لونه كذلك، ومن كناه أبو جعدة، وأبو ثمامة، وأبو جاعد، وأبو سلعامة، وأبو العطلس، وأبو كاسب، وأبو سبلة. ومن أسمائه الشهيرة: أويس ككميت ولحيف، ومن أوصافه الغبش، وهو لون كلون الرماد.

والأسد والذئب يختلفان في الجوع والصبر عليه، فالأسد شديد التهم حريص رغب شره، ومع ذلك يحتمل أن يبقى أياماً لا يأكل شيئاً، والذئب وإن كان أفقر منزلاً، وأقل خصباً، وأكثر كدّاً، إذا لم يجد شيئاً اكتفى بالنسيم فيقتات منه، وجوفه يذيب العظم المصمت، ولا يذيب نوى التمر، ولا وجود الالتحام عند السّفاد إلا في الكلب والذئب، ومتى التحم الذئب والذئبة وهجم عليهما هاجم قتلتهما كيف شاء إلا أنهما لا يكادان يوجدان كذلك لأنهما إذا أرادا السّفاد توخيا موضعاً لا يطاؤهُ الإنس خوفاً على نفسيهما، ويسفد مضطجعاً على الأرض.

فائدة:

روى البيهقي عن عبدالله بن زيد قال: سألت أبا هريرة عن ولد الضبع، فقال ذاك الفرعل فيه نعجة من الغنم، والذي يراد من هذا الحديث في قوله نعجة من الغنم حلة، يقول: إنها حلال بمنزلة الغنم كذا قيل، والصواب أن النعجة جزأه إذا قتله محرم والجمع الفراعل قال الكمي: [الطويل]

ويسمع أصوات الفراعل حوله يعاوين أولاد الذئب الهقالسا

فائدة أخرى:

في الكلب من جملة طباعه: الحراسة، وحبّ الجيف، ويكرم أهل الوجاهة من الناس، والنباح على الأسود منهم، ومن طباعه: البصبة، والترضي والتودّد إلى الناس بحيث إذا دعي بعد الطرد والضرب، اقبل، وإذا لاعبه ربّه، عضّ العضّ الذي لا يؤلم، ويقبل التأديب والتّعليم وبينه وبين الضّبع عداوة شديدة، وذلك أنّه إذا كان في مكان مرتفع، ووطئت الضبع ظلّة في القمر، رمى بنفسه إليها مخذولاً فتأكله.

وفي كتاب "فضل الكلاب على كثير ممّن لبس الثّياب" عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قتيلاً، فقال: ما شأنه؟ فقالوا: أنّه وثب على غنم بني زهرة، فأخذ منها شاة، فوثب عليه كلب الماشية فقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قتل نفسه، وأضاع دينه، وعصى ربه، وخان أخاه، وكان الكلب خيراً منه" (١).

(١) انظر: فضل الكلاب ١/١٢.

وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبة لهم، فخرج في بعض متزهاته ومعه ندماءؤه، فتخلف منهم واحد، فدخل على زوجته فأكلا وشربا، ثم اضطجعا، فوثب الكلب عليهما، فقتلهما، فلما رجع الحارث إلى منزله، وجدهما قتيلين، فعرف الأمر، وأنشأ يقول: [الطويل]

وما زال يرعى ذمتي ويحوطني ويحفظ عرسي والخليل يخونُ
فيا عجباً للخلل يهتك حرمتي ويا عجباً للكلب كيف يصونُ

قال الشنفرى^(١):

٥٩ - فَلَمْ تَكْ إِلَّا نَبَاةٌ ثُمَّ هَوِّمَتْ فَقُلْنَا: قَطَاةٌ رِيعٌ أَمْ رِيعٌ أَجْدَلُ

اللغة:

النَّبَاةُ: بفتح النون، وسكون الموحدة، الصَّوْتُ الخَفِيُّ أو أصوات الكلابِ هومت: من التَّهْوُم، وهو هُزُّ الرأسِ من النَّعَاسِ.

رِيع: بكسر الرَّاء من الرَّوْع، وهو الْفَرْعُ، والرُّوْعُ بالصَّيم: القلبُ، أو هو مَوْضِعُ الْفَرْعِ منه، أو سَوْدَاهُ، والذَّهْنُ، والعَقْلُ، ومنه الحديث: "أَفْرَحَ رُوعُكَ، مَنْ أَدْرَكَ إِفَاضَتَنَا هَذِهِ فَقَدْ أَدْرَكَ - يعني الْحَجَّ -"^(٢).

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": النَّبَاةُ: هُنَا: صَوْتُ الْكِلَابِ، أو صَوْتُ مُبْتَدِئٍ لَا مَادَّةَ لَهُ، وكذلك أصوات الكلابِ. والتَّهْوِيمُ: هُزُّ الرَّؤُوسِ مِنَ النَّعَاسِ. وَرِيعٌ: أَصَابَةُ رَوْعٍ؛ أَيْ: فَرْعٌ. وَالْأَجْدَلُ: الضَّعْفُ. قوله: (نَبَاةٌ)، يُرْوَى بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّ (يَكْ) تَائِمَةٌ، وبالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهَا نَاقِصَةٌ، وَالْأَسْمُ حَيْثُ ضَمِيرُ الْهَرِيرِ.

والمعنى: أَنَّهُمْ قَالُوا فِي تَمَامِ الْحِكَايَةِ: فَلَمْ يَكْ الْهَرِيرُ الَّذِي سَمِعْنَاهُ إِلَّا خَفِيًّا، أَيْ: لَمْ يَفُوقْ وَلَمْ يَدْمُ، ثُمَّ نَامَتْ الْكِلَابُ بَعْدَهُ، فَتَغَيَّرَ اعْتِقَادُنَا أَنَّ سَبَبَهُ مَا تَقَدَّمَ مُعْتَقِدِينَ خِلَافَ ذَلِكَ، فَقُلْنَا لَمَّا هَوِّمَتْ عَلَى حَسَبِ اعْتِقَادِنَا أَيْضًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُطَابِقًا أَيْضًا: أَقْطَاةٌ حَصَلَ لَهَا رَوْعٌ فَطَارَتْ، أَمْ صَفَرٌ هُوَ الَّذِي أَفْرَحَ فَطَارَ؟ فَهَرَّتِ الْكِلَابُ فَانْقَطَعَ ذَلِكَ، فَانْقَطَعَ هَرِيرُهَا، إِذْ لَوْ كَانَ سَبَبُهُ اعْتِسَاسُ الذَّنْبِ أَوْ الْفُرْعُلُ لَدَامَ؛ لِأَنَّ الْهَرِيرَ بِحَسَبِ مُوجِبِهِ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ، وَطِيرَانِ الْقَطَاةِ وَالْأَجْدَلِ عِنْدَ الرَّوْعِ أَضْعَفُ مِنْ حَرَكَةِ الذَّنْبِ وَالْفُرْعُلِ فِي الْاعْتِسَاسِ، فَالْهَرِيرُ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَى الْأَوَّلِ أَضْعَفُ مِنَ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَى الثَّانِي. وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ يُسْتَدَلُّ بِصِفَةِ الْهَرِيرِ عَنْ سَبَبِهِ، وَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ عَدَمُ مُطَابَقَةِ اعْتِقَادِهِمُ الثَّانِي أَيْضًا مِنْ كَوْنِ الْهَرِيرِ لِقَطَاةٍ أَوْ أَجْدَلٍ رِيعٌ، قَالُوا مَا حَكَاهُ هُوَ عَنْهُمْ.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في أمثال الحديث (٨٣/١)، رقم (١٩٨).

أَيَّ خَرَجَ الْفَرْعُ مِنْ قَلْبِكَ، وَيُرْوَى: رَوْعُكَ، أَوْ هِيَ الرِّوَايَةُ فَقَطْ. أَيَّ زَالَ عَنْكَ مَا تَزْتَاغُ لَهُ وَتَخَافُ، وَذَهَبَ عَنْكَ وَأُنْكَشَفَ، كَأَنَّهُ مَأْخُودٌ مِنْ خُرُوجِ الْفَرْخِ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَفِي حَدِيثٍ مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى زِيَادٍ: (لِيُفْرِخَ رَوْعُكَ) بِالضَّمِّ أَيَّ: أَخْرَجَ الرَّوْعَ مِنْ رَوْعِكَ، يُقَالُ: أَفْرَخَتِ الْبَيْضَةُ إِذَا خَرَجَ الْفَرْخُ مِنْ مَوْضِعِ الْفَرْعِ، وَهُوَ الرَّوْعُ بِالضَّمِّ، يُقَالُ: أَفْرِخْ رَوْعَكَ عَلَى الْأَمْرِ أَيَّ: السَّكُنُ وَأَمْنٌ، وَالْأَرْوَعُ: مَنْ يُعْجِبُكَ بِحُسْنِهِ وَجَهَارَةٍ مَنْظَرِهِ أَوْ بِشَجَاعَتِهِ كَالرَّائِعِ.

الْأَجْدَلُ: بِهَمْزَةٍ مَفْتُوحَةٍ، وَبِالْجِيمِ الصَّفَرُ وَهُوَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي غَلَبَتْ عَلَيْهَا الْإِسْمِيَّةُ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْجَدَلِ، وَهُوَ الشَّدَّةُ، وَالْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّهُ مَصْرُوفٌ كَأَخِيلَ.

الإعراب:

فلم: الفاء عاطفة، ولم: حرفُ نفي وجزم.

تَكُ: فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون: واصله تكون، فسكنت النون، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، ثم النون تخفيفاً، وهي تامة، والتامة على الأصح هي المكتفية بالمرفوع على المنصوب.

إِلَّا: أداة حصر.

نبأة: فاعله.

ثُمَّ: حرف عطف.

هوَمت: فعل ماضٍ، والتاء علامة التانيث، والفاعل ضمير الغائبة.

فقلنا: الفاء عاطفة، قال: فعل ماضٍ، ويصح جعل الفاء فصيحة.

قطاة: مبتدأ.

ريع: فعل ماضٍ مبني للمجهول، وإعلاله مشهور، ونائب الفاعل ضمير راجع إلى القطاة، وتذكير الفعل لأنَّ التاء في القطاة للوحدة وليست للتانيث.

أم: حرف عطف.

ريع: فعل ماضٍ مبني للمجهول.

أجدل: نائب الفاعل.

المعنى:

فلم تكن إلا أصوات خفية وهومت الكلاب وهزت رأسها من النعاس ولكن قد عظم المصائب، فقلنا كلنا: أقطاة افزع أم صقر إذ حصل لهذا الصوت الخفي مما جرى من الأمر.

تكميل:

يمكن أن يكون المراد بالصوت الخفي صوت أهل الحي الذين غزاهم وفعل بهم ما فعل، ويمكن التهويم من التباة حيثذ على طريق المجاز، ويحتمل أن يراد به صوت مجيئه إلى حي أهله، هكذا ذكر بعض الشراح، والأخير غير مناسب لما تقدّم من توحشه عن أهله وغيرهم من أبناء جنسه، فليتأمل.

وقد كان يسمع لعدوه هفيئ الطير، فهزت الكلاب، ثم هومت وإنما وافق القوم بقولهم: قطاة ريع أم ريع لأجدل للإلباس عليهم، ويكون من قبيل التفسير لقوله: وقالوا لقد هزت. والله اعلم.

ولقد أحسن ابن خفاجة كل الإحسان حيث قال: [الطويل]

لَقَدْ جُبْتُ دُونَ الْحَيِّ كُلِّ تَنُوفَةٍ	تَحُومُ بِهَا نَسْرُ السَّمَاءِ عَلَى وَكُرٍ
وَحُضْتُ ظِلَامَ اللَّيْلِ أَسْوَدَ فَحْمَةٍ	وَدُسْتُ عَرِينَ اللَّيْلِ يَنْظُرُ مِنْ جَمَرٍ
وَجِئْتُ دِيَارَ الْحَيِّ وَاللَّيْلِ مُطَرِّقُ	مُنْمَنُ ثُوبِ الْأَفْقِ بِالْأَنْجُمِ الزُّهَرِ
أَشِيمُ بِهَا بَرَقَ الْحَدِيدِ وَرُبَّمَا	عَثَرْتُ بِأَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ الشُّمَرِ
فَلَمْ أَلَقْ إِلَّا صَعْدَةً فَوْقَ لَأْمَةٍ	فَقُلْتُ قَضِيبٌ قَدْ أَظْلَلَ عَلَى نَهَرٍ
وَلَا شِمْتُ إِلَّا غُرَّةً فَوْقَ أَشْقَرِ	فَقُلْتُ حَبَابٌ مُسْتَدِيرٌ عَلَى خَمَرٍ
فَسِرْتُ وَقَلْبُ الْبَرَقِ يَخْفِقُ غَيْرَةً	هُنَاكَ وَعَيْنُ النَّجْمِ تَنْظُرُ عَنْ شَزَرِ

قال الشنفرى^(١):

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": أُبْرَحَ: فعلٌ ماضٍ فاعله ضميرُ الطارقِ المدلولُ عليه بما تقدّم. ومعنى أُبْرَحَ: أتى بالبحر بالسكون، أي: الشدة. والطارق: الآتي ليلاً. و(كها) جارٌّ ومجرورٌ، وهو ضميرُ الفِعْلَةِ المفهومة من سياق الكلام. وجَرُّ الضميرِ بالكافِ شاذٌّ، منه قولُ العجاج: [الرجز]

٦٠- فَإِنْ تَكُ مِنْ جِنِّ لِأَبْرَحَ طَارِقًا وَإِنْ تَكُ إِنْسًا مَا كَهَا الْإِنْسُ تَفْعَلُ

اللغة:

أبرح: مضارع بَرَحَ مكانه بالكسر: زَالَ عنه، وصَارَ في البراح.

طارقًا: بالتَّصْبِ من الطُّرُوقِ، وهو الْإِنْيَانُ بِاللَّيْلِ، وَأَطْرَقَ: سَكَتَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ. وأَرخَى عَيْنِيهِ يَنْظُرُ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَطْرَقَ فَلَانٌ فَحَلَهُ: أَعَارَهُ لِيَضْرِبَهُ فِي إِبْلِهِ، وَإِلَى اللَّهِو مَالٍ، وَاللَّيْلُ عَلَيْهِ رَكَبَ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَإِلَابُلُ تَبَعَ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَأَطْرَقًا عَلَى لَفْظِ أَمْرِ الْاِثْنَيْنِ: اسْمُ بَلَدٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: عَلَى أَطْرَقًا بِالْيَاثِ الْخِيَامِ

ولا أَطْرَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ: أَي لَا صِيرَ لَهُ مَا يَنْكِبُهُ، وَطَرَقَتِ الْقَطَاةُ خَاصَةً حَانَ خُرُوجُ بِيضِهَا، وَالثَّقَاةُ بَوْلُهَا إِذَا نَشِبَ، وَلَمْ يَسْهُلْ خُرُوجُهُ، وَأَطْرَقَتِ الْإِبِلُ كَافْتَعَلَتْ ذَهَبَ بَعْضُهَا فِي أَثَرِ كَتَطَارَقَتْ، وَتَفَرَّقَتْ عَلَى الطَّرِيقِ.

الإعراب:

فإن: الفاء للتفصيل، وإن: حرف شرط، وتك: فعل الشرط مجزوم، واسمه ضمير راجع إلى النبأ والفعللة المفهومة من المقام.

وَأُمُّ أَوْعَالٍ كَهَا أَوْ أَفْرَبَا

قوله: (فإن يك) حرف شرط وفعلُهُ، وَهُوَ مُضَارِعُ (كَانَ) النَّاقِصَةِ، وَاسْمُهُ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى الطَّارِقِ، (وَمِنْ جِنِّ) خَبَرٌ (يَكُ)، (وَلِأَبْرَحَ) جَوَابُ الشَّرْطِ. (وَطَارِقًا) حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (أَبْرَحَ). وقوله: (مَا كَهَا) جَوَابُ قَوْلِهِ: (وإن يكُ إِنْسًا) جَزْءُهُ مِمَّا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْفَاءِ ضَرْوَرَةٌ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ حَسَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرْهَا

وَحَلَّ الْبَيْتِ: فَإِنْ يَكُنِ الطَّارِقُ مِنْ جِنِّ وَمَنْ يُحْلَفُ بِهِ لَأَتَى بِأَمْرِ عَظِيمٍ وَدَاهِيَةٍ ذَهِيَاءَ مَعَ قَلَّةِ زَمَانِهِ وَخَفَاءِ مَكَانِهِ، بَحِثْ ظَنًّا ذَبِيًّا أَوْ فُوعُلًا اعْتَسَسَ، ثُمَّ ظَنُّ قَطَاةً أَوْ أَجْدَلُ حَصَلَ لَهُ رَوْعٌ، وَإِنْ يَكُنِ الطَّارِقُ إِنْسًا فَمَا مِثْلُ هَذِهِ الْفَعْلَةِ تَفْعَلُ الْإِنْسُ، فَقَدْ خَرَجَ عَنْ نَظَائِرِهِ مِنَ الْإِنْسِ بِفَعْلَتِهِ الْمُنْكَرَةِ الْمُقَرَّرَةِ. وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ كَوْنِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ مِنْهُمَا مَطْلُوبُ التَّصَوُّرِ لَا مُعَيَّنًا مُشْكُوكًا فِيمَا نُسِبَ إِلَيْهِ، وَيُسَمَّى الْأَوَّلُ تَصَوُّرًا، وَالثَّانِي تَصَدِيقًا.

هذا وَالْإِنْسُ فَاعِلٌ فِعْلٍ مُقَدَّرٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْمُؤَخَّرُ، فَهُوَ مِنَ الْاِشْتِغَالِ فِي الْمَرْفُوعِ، نَظِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾.

من جن: جار ومجرور متعلق بمحذوف وجوبا خبرتك.

لا برح: اللام موطئة للقسم، وابرح: فعل مضارع مرفوع للتجرد عن الناصب والجازم، والفاعل ضمير المتكلم.

طارقاً: حال من ضمير ابرح.

وإن تك: الواو عاطفة، وإن شرطية، تك: مجزومة على أنها فعل الشرط، واسمها ضمير راجع الى احد الاحتمالين السابقين.

وإنسا: منصوب بنزع الخافض، والتقدير، من إنسان، وهذا سماعي في غير إن وان وكى، قال ابن مالك: [الرجز]

نَقْلًا، وفي أَنَّ وَأَنْ يَطْرُدُ مَعَ أَفْنٍ لَيْسَ: كَعَجِبْتُ أَنْ يَدُوا والتقدير: من أن يدوا أي: يُعْطُوا الدِّيَّةَ.

ما كهأ: ما نافية، والكاف حرف تشبيه، والضمير محله الجر بالكاف، وبه استدللّ النحاة على دخول الكاف على الضمير شذوذاً، ويقول الآخر: [الكامل]

خَلَى الذَّنَابَاتِ شَمَالًا كَتَبَا وَأُمُّ أَوْعَالٍ كَهَا أَوْ أَقْرَبَا
الإنس: مبتدأ.

تفعل: فعل مضارع، وفاعله يعود الى الإنس، والجملة خبر وأنته بتأويل الطائفة والجماعة.

المعنى:

أنه أراد التعمية عليهم، فقال: إن كانت هذه الفعلة من الجنّ لازيلنّ عن مكاني وأصير في البرّ الواسع، إذ لا طاقة لي بتلك الموانع وإنّ تك هذه الفعلة من الإنس فما تفعل الإنس مثلها إذ هي فعلةٌ تَعْجُزُ عنها قوّة الإنس، ولا قدرة لها عليها.

استطراد:

الجنّ عند الحكماء أجسامٌ روحانيةٌ لطيفةٌ لا تقبل التشكل، وزعم بعض من لا دراية له منهم أنها لا تدخل بدن الإنسان، ولا غيره من الأبدان، إذ على تقديره يلزم

تداخل الأجسام، وهو محال عند أولئك الأقوام. وذلك خطأ من قائله، لأنَّ تداخل الأجسام عندهم محالٌ إذا فُرِضَ جِسْمٌ في جِسْمٍ من غير ازديادٍ للجسم الذي هو محلُّ ولا انضغاطٍ لاجزائه، وتحقق ذلك غير معلوم إذ الجنِّي لو تَلَبَّسَ في إنسانٍ فإزدادَ بَدَنُهُ مقدارَ عرضِ تبنَةٍ مثلاً لم يكن مُحالاً عندهم، لكن لما لم يشعر هذا القائل بهذه الزيادة حكى بمحالية التداخل، وهو عن الحقِّ بمراحلٍ.

استطراد آخر:

قد أبهم صلى الله عليه وسلم على المشركين إذ سألوه نحن أم أنت على هدي؟ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] مع أنه مُتَحَقِّقٌ عنده أنه على هُدى، والمشركون على ضلالٍ.

واستشهدوا على مجيء أو للتشكيك بهذه الآية

فالعلمُ الجَزْمُ بأحد الطرفين، وإدراكُ الطرفِ الرَّاجِحِ، والوَهْمُ بخلافه، والشُّكُّ مساواةُ الطرفين، والتشكيكُ: إيقاعُ الخَصْمِ في الشُّكِّ، وعند المنطقيين: العلمُ إدراكُ أنَّ النسبةَ واقعةٌ أو ليست واقعة، وقد يُرادُ به الإدراكُ مُطلقاً، فيكونُ أعمُّ من اليقين، وتفصيلُ ذلك مذكورٌ في مطوَّلاتِ المنطق.

فإن قلت: كيف جاز له صلى الله عليه وسلم إيهامُ الواقعِ مع أنه مأمورٌ بالتبليغِ، وإظهارِ الصَّوابِ فكان ينبغي أن يُبيِّنَ لهم أنه على حقٍّ، وما جاء به صوابٌ وغيره باطلٌ، أعمُّ من أن يُقروا بذلك أولاً، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

قلت: لعلَّ ذلك كان منه أدعى إلى انقيادهم، وقد تَحَقَّقَ عنده أن السائلين ليس مُرادُهُم إظهارُ الحقِّ والإيمانُ بما جاء به، وكان صلى الله عليه وسلم حليماً رؤوفاً لا يكسر خَاطِرَ أحدٍ، وقد ذَكَرَهُ اللهُ في كتابه العزيز بتلك الخصلة وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال صلى الله عليه وسلم: "أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ جَبْرُ الْخَوَاطِرِ"^(١).

فأراد أن يؤهم عليهم، ولا يفاجئهم بما هم عليه من الضلال، خلافاً لما ذهب إليه الشيعة من إثبات التقية للأنبياء، وأنهم يروون حديثاً لا أصل له بل هو افتراء من عند أنفسهم أنه من لا تقية له لا إيمان له، وأن رضاء علي رضي الله عنه بخلافة الصحابة الراشدين رضي الله عنهم كانت تقية منه، وحاشا ثم حاشا، بل ذلك إنما ضلال منهم حيث ينسبون الجبن لأبي الحسن رضي الله تعالى عنهم، وما كان ذلك إلا لعلمه بأحقية الخلافة لمن قبله من الصحابة، وكيف لا؟! وقد شمر عن ذراعيه بعد ذلك، وانه لو كان ممن يرتكب التقية لارتكبها هنالك فتباً لهم ولما اعتقدوه من الضلال، وخيبة لما هم عليه من الآمال.

قال الشنفرى^(١):

٦١- ويوم من الشعرى يذوب لعابه أفاعيه في رمضائه تتململ

اللغة:

الشعرى: بكسر الشين المعجمة وسكون العين المهملة مقصوراً الكوكب الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر، وهما شعريان: العبور التي في الجوزاء، والشعرى الغميضة التي في الذراع، وتزعم العرب أنهما أختا سهيل.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الشعرى: نجم، وهما شعريان: العبور وهي المُرادة هنا، سُميت بذلك، لأنها عبرت نهر المجرة، والأخرى الغميضة. وكان الشعرى العبور تطلع في شدة الحر. ولؤاب اليوم ولعابه: ما يرى فيه عند الهجرة متديلاً في الجوز كخيوط الحرير ونسج العنكبوت، وقد يضاف ذلك للشمس أيضاً، فيقال: لعاب الشمس، كما قال أبو الطيب: [الطويل]

وأضدى فلا أبدي إلى الماء حاجة وللشمس فوق العيملات لعاب

وقال الآخر: [الطويل]

وَذَابَ لُؤَابُ الشَّمْسِ فَوْقَ الْجَمَاجِمِ

وواحد الأفاعي: أفعى بالتونين، مصروف، وقد لا يضرف كظائره، وهي: (أجدل) و(أخيل). والرمضاء الأرض التي ترمض فيها أقدام من مشى عليها لاشتداد حرها. والتململ: الثقل ظهراً لبطن من شدة الحر هنا، أو من شدة الوجع. قوله: (ويوم) مخفوض بـ (رُب) المُقدَّرة بعد الواو، وما بعده من الجمل وما في معناها صفات له، ومع ذلك فهو مرفوع المحل بالابتداء.

وسمتهما بذلك لما اشتهر من أحاديثهم أن الشعرى قطعت المجرى فسميت عبوراً، وبكت الأخرى على أثرها حتى غمصت، وثبت عن بعض العرب أنه كان يعبدها.

يذوب: مضارع من الذوب، وهو ضد الجمد، قال الشاعر: [الوافر]

يذيب الرعب منه كل غضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

اللُّعَابُ: بضم اللام، والمراد هنا لُعَابُ الشَّمْسِ، وهو ما يرى في شدة الحرّ مثل نسج العنكبوت، كأنه ينحدر من السماء، وذلك إذا قام قائم الظهيرة.

الأفاعي: بفتح الهمزة جمع أفعى، هو حَيَّةٌ خَبِيثَةٌ، قال الشاعر: [الرجز]

قد سالم الحيات مني القدا الأفعوان والشجاع الشجعما

وسالم من باب فاعل، هو أن يكون احدهما فاعلاً صريحاً مفعولاً ضمناً والآخر بالعكس.

الرَّمْضَاءُ: الارضُ الشديدة الحرارة، والرَّمْضُ شدة وقع الشمس على الرمل وغيره، وقد رمض يؤمنا بالكسر يرمض رمضاً أشتد حرّه وسوي شهر الصوم رمضان، لأن تسميته وافقت شدة الحرّ.

تَمَلَّمَلْ: أي: تَتَقَلَّبْ ولا تستقر مكانها.

الإعراب:

ويوم: الواو ربّ، وهي هنا للتكثير، والأكثر معناها التقليل، لكن التحقيق أنها للتكثير كثيراً وللتقليل قليلاً، ويوم مجرور بها ولا تجر غير النكرة، كقول الشاعر: [الكامل]

وَقَصِيدَةٍ تَأْتِي الْمُلُوكَ غَرِيبَةً قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا

وجرها الضمير نادر، كقولهم: ربّه رجلا.

من الشعرى: جار ومجرور متعلق بمحذوف على أنه نعت ليوم، لأنه بعد المعارف أحوال، وبعد النكرات صفات.

يذوب: فعل مضارع.

لغابه: فاعل يذوب، مضاف الى الهاء، والجملة: إما صفة ثانية، أو حال لتخصيص النكرة بالصفة مثله في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. فإذا اعتبروا وجود الألف واللام، وهي معرفة كانت جملة: (يَحْمِلُ أَسْفَارًا) حالاً، وإذا اعتبروا أنها للجنس، وأنها في معنى النكرة كانت الجملة صفة.

أفاعيه: مبتدأ مضاف الى ضمير الغائب.

في رمضائه: جار ومجرور مضاف الى الضمير متعلق بتململ وهو فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الأفاعي، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة حال من ضمير يوم مجرّدة عن الواو اكتفاء بربط الضمير.

المعنى:

بعدما فرغ من وصف نفسه بالصبر على شدة البرد أخذ في وصفه بالصبر على شدة الحرّ، أي كثيراً ما صادفت في سفري يوماً شديداً الحرّ، وأفاعيه من حرّ أرضه ووهجها تتقلب، وليس لها مستقر، وأمل كأنها في ملّة من شدة حرّ الرمل والتراب تتململ، وذلك أي: أن حادي القوم قال لهم: قبلوا وناموا في الظّهيرة الى أن يسكن حرّ الهواء، وتكسر سورة الرّمضاء إذ لا طاقة لكم في المسير في هذا الحرّ الشديد، والزفير الغفير، وأنّ الجنادب التي شطّ لها المزار، وتأوي الى كلّ موحش قاتم الأعماق من القفار، فتضرب الحصى بأجنحتهن، وتدفع بعضها عن بعضهنّ، فانه موقت ارتفاع النهار الذي هو محلّ الهجير والتهاب نائرة الحرّ والزفير الكثير.

قال الشنفرى^(١):

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الكُنْ، بالكسْرِ: السَّتْرُ والغطاء. والأَتْحَيَّ: بُزْدٌ منسوبٌ إلى أَتْحَمَ على ما قيل، وهي بُلَيْدَةٌ باليمن، وليس هذا في القاموس. والذي فيه: أنّه كالأَتْحَمِيَّة، والمُتَحَمَّةُ كُمُكْرَمَةٍ ومُعْظَمَةٍ - بُزْدٌ معلوم. وفيه أيضاً تَحَمَّ الثوب: وشأه، والثَّاجِمُ: الحائِكُ. والمُرْعَبُلُ: الْمُتَحَرِّقُ.

والمعنى: ورُبَّ يومٍ كائنٍ من أيّامِ الشَّعْرى ذائبٍ لُغابُه، فهو يَسِيلُ من شِدَّةِ حرِّه، مُتَقَلِّبَةً أفاعيه في أرضه الحامِيَّة من شِدَّةِ وَهَجِ الشمس، نَصَبْتُ وجهي لحرِّه؛ أي: سَرْتُ فيه منكشفَ الوجهِ لشُعاعِ

٦٢ - نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَلَا كُنْ دُونَهُ وَلَا سِتْرَ إِلَّا الْأَتْحَمِي الْمُرْغَبِلُ

اللغة:

نصبْتُ: أي أقمتُ، يقال: نصبْتُ الشيء إذا أقمته.

الكنُّ: بالكسر وقاء كل شيء وسِتْرُهُ كالكنَّة والكنان بكسرهما، والبيت قال الشاعر:

كَيْسٌ وَكَنٌّْ وَكَانُونٌ وَكَأْسٌ طَلَاءٌ مع الكباب وكُسْ نَاعِمٌ وَكَسَا

جمعه: أَكْنَانٍ وَأَكْنَّةٌ وَكَنَّْةٌ كَلَانًا وَكُنُونًا، وَأَكْنُهُ: سِتْرُهُ، وَأُسْتَكَنَّ: أَسْتَتَرَ، وَالْكُنَّةُ بِالضَّمِّ: جَنَاحٌ يَخْرُجُ مِنْ حَائِطٍ أَوْ سَقِيفَةٍ فَوْقَ بَابِ الدَّارِ أَوْ ظِلَّةٌ هُنَالِكَ أَوْ مَخْدَعٌ أَوْ رَقٌّ فِي الْبَيْتِ.

الْأَتْحَمِي: بفتح الهمزة، وسكون المثناة الفوقية، وفتح الحاء المهملة، وكسر الميم، آخر الحروف مثناة تحتية مُشَدَّدة: ضُرِبَ مِنَ الْبُرُودِ.

المرعبل: بضم الميم، وفتح الراء، وسكون العين المهملة، وفتح الموحدة: الْمُخْرَقُ، يُقَالُ: ثَوْبٌ مُرْغَبِلٌ إِذَا كَانَ مُخْرَقًا، وَقَدْ يُقَالُ: جَاءَ فُلَانٌ فِي رَعَابِيلٍ أَي: فِي أَطْمَارٍ وَأَخْلَاقٍ.

الإعراب:

نصبت: فعل ماضٍ، والتاء ضمير الفاعل.

له: جار ومجرور متعلق بنصبت.

وجهي: مفعول، وعلامة نصبه الفتحة فتحة مقدرة على ما قبل الياء منع من ظهورها حركة المناسبة، وذلك لأنَّ الياء تستدعي انكساء ما قبلها مضاف إلى ضمير المتكلم.

ولا: الواو للحال، ولا نافية للجنس تعمل عمل إن.

كن: اسمها مبني معها على الفتح.

الشمس ولا سِتْرٌ كائِنْ دُونَ وَجْهِهِ يَبْقِيهِ مِنْ وَقَعِ الْحَرِّ عَلَيْهِ، وَلَا غَطَاءَ إِلَّا الْبُرْدُ الْمُسَمَّى بِالْأَتْحَمِي الَّذِي تَخْرَقُ وَصَارَ رَعَابِيلَ: أَيِ قِطْعًا. ثُمَّ عَطَفَ عَلَى (الْأَتْحَمِي).

دونه: ظرف منصوب على الظرفية مضاف الى الضمير متعلق بمحذوف إما خبر لا أو صفة لاسمها، والخبر يكون محذوفاً تقديره الا إلا تحمي، حذف للدلالة الثاني عليه. ولا: الواو عاطفة، ولا أيضا عاملة عمل أن.

وستر: اسمها مبني معها على الفتح.

إلا: أداة حصر.

الأتحمي: خبرها.

المرعبل: نعت له.

المعنى:

يقول: قد نصبت وجهي في ذلك اليوم المتقدم وصفه، ولم يكن هناك ستر أتوقى به مما لاقيه من شدة الحر إلا البرد الأتحمي البالي المخزق.

استطرد:

قال بعض ذوي العلم بالحكمة: بتعدد الحاجات يكون الهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأئمة فالأمثل"، والله در ابن مقرب حيث يقول: [الطويل]

أفي كل يوم للخطوب أصالي	إلا ما لأحداث الزمان ومالي
تفجعني في كل حين تمر بي	بأنفس مال أو باشرف آل
إذا قلت جلي بعض همي أبت له	نوائب أمضى من حدود نصال
وهل يقطع الشكل الجواد الوفا	ولو جال في الآراء كل محال
ولا ذنب لي إلا حجا وبراعة	ومجد وبيت في ربيعة عالي
وميلي الى أهل التواضع والعلي	بودّ وبعضي الأسفل المتعالي
ولو شئت قد كنت المداد لأنني	أصول بأيدي في الأنام طوال

وما أحسن قول النحرير السويدي - رحمه الله - في مدح الوزير المرحوم أحمد باشا ابن المرحوم حسن باشا تغمدهما الله بغفرانه وأسكنهما بحبوحه جناته، حيث قال:

[الرمل]

ما سمعنا غارةً ملحاحَةً في سموم دونه في الحرّ جمر
يوم لا تضحى حرايبه ضحى بل غدت موتى لها الفئران قبر
هان لفح الرّيح في مطلوبه والرّئيس الحُرُّ لا يشينه حرّ
غيرُ بدع كونها (نزاعةً للشّوى) من بعدما عمّ شرّ
مستحيل في سموم عادةً غارةً فيها على الأعداء نصرّ

وهي طويلة، وذلك حيث سار من بغداد في يوم وليلة طالبا الأعراب بني قشعم، فأدركهم في هذه المدة القليلة، فوق مكان يقال له شَقَّائِي بأربع فراسخ بموضع يسمى بالرحالية مع أنهم في مكانهم، عند بغداد نحو ثمان مراحل أو تسعة للراكب المجدّ، وكانت الواقعة في شدة الحرّ من تموز، فأخذهم عزيز مقتدر، واصرف في تلك الغزوة على عساكره مقدار خمسمائة كيس، ولما جمعت الغنائم أوهبها لأخت شيخهم، كرمًا منه، فيالها من همةٍ يعجز عنها ذوو الهمم العلية من الوزراء، ويا لها من مكرمةٍ يعجز عنها سخاء حاتم في وقت الرخاء، وما أحسن ما نظم النحرير والعلم الشهير السيد عبد الله أفندي فخري زاده في مدح الوزير المشار إليه، وذلك تلك الغزوة من الإشارة إلى اسم القبيلة واسم الأمير الذي هو رئيسهم، حيث يقول من قصيدة طويلة أعطاه جازتها ألف دينار: [الطويل]

عقاب الوغى لما بدا طار صقرهم إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم

قال الشنفرى^(١):

٦٣- وضاف إذا ما هبّت الرّيح طيّرت لبائِد من أعطافه ما تُرحلُ

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الضّافي: الشعرُ الكثيرُ الطويل. وهبوبُ الرّيح له: إصابتها إيّاه عند هبوبها؛ أي: هيّجَناها. وتطيّرها لبائده. جمعُ لبيدة بمعنى ملبودة: ما تلبّد من الشعر. رَفَعُها إيّاها عند الهبوب. والأعطاف: الجوانب، واحداً عطَفَ بالكسر، وترجيلُ الشعر: تسريحُه بالمشط بعد الإدهان.

والمعنى: ولا سترٌ دونَ الوجهِ إلّا الأتحمي المَرغَبُ، وشعرٌ كثيرٌ طويلٌ، إذا هبّت الرّيح منتهيةً إليه في هبوبها رفَعَتْ ما تلبّد منه لَعَدَم تسريحه وإدهانه وبُعْد تفقّده.

ضاف: النعت من الضَّفْو، وهو الشُّبُوعُ، يقال: ضفا الماء إذا كثر ورجل ضافي الرأس أي: كثير شعر الرأس

لبائد: جمع لبدة - بالكسر والضَّم - على غير قياس، والقياس: لَبْدٌ، وهو كلُّ شعرٍ وصوفٍ متلبّد، ومنة لبدة الأسد: للشعر الذي على عاتقه، قال الشاعر: [الطويل]

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَدِّفٌ لَهُ لَبْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمِ

الأعطاف: جمع عطف بالكسر وهو الجانب.

ترحل: بفتح المثناة الفوقية على بنائه للمعلوم أي تنقّل، وبضمّها على بناء المجهول من قولهم: رحلت فلاناً إذا اظعنّته وأرسلته، ويجوز أن يكون من بناء المعلوم بطريق المطاوعة كرحلته فترحل.

الإعراب:

وضاف: الواو حرف عطف، وضاف معطوف على الأتحمي.

الأتحمي: مرفوع بضمّة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين نظير قول المجنون^(١): [الطويل]

وَلَوْ أَنَّ وَاِشَ بِالْإِمَامَةِ دَارَهُ وَدَارِي بِأَعْلَى حَضْرَمُوتِ اهْتَدَى لِيَا

إذا: ظرف لما يستقبل من الزّمان.

وما: زائدة.

هبت: هبّ فعل ماضٍ، للتأنيث.

والريح: فاعل.

طيرت: فعل ماضي جواب إذا، والتاء مثلها في ما قبلها، والفاعل ضمير يعود الى الريح.

(١) انظر: المقتصد في شرح الإيضاح ٤١٩/٢.

لبائد: مفعول به.

من أعطافه: جار ومجرور مضاف إلى الضمير، والجار والمجرور متعلق بالفعل بعده.

ما: اسم موصول، بدل من لبائد.

وترحل: فعل مضارع بحذف أحد التائين، والفاعل ضمير يعود على لبائد، والجملة صلة الموصول.

استطراد:

قيل: إِنَّ بُيُوتَ الشَّعْرِ تَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ مَقَاصِدٍ: مَدْحٌ، وَهَيْجَاءٌ، وَفَخْرٌ وَتَشْبِيهٌ، وَقَدْ كَانَ جَرِيرٌ فَحَلَ شُعْرَاءَ الْإِسْلَامِ فِي الْأَرْبَعَةِ، فَالْفَخْرُ فِي قَوْلِهِ فِي عَشِيرَتِهِ^(١): [الوافر]

إِذَا غَضِبْتُ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ طَنْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا
والمدح قوله^(٢): [الوافر]

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْذَى الْعَالَمِينَ بِطَوْنٍ رَاح
والهيجاء قوله^(٣): [الوافر]

فَعُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَغَبًّا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابًا

(١) انظر: خزائن الأدب ١٦٣/٢.

(٢) لجريز، قيل: إنه أمدح بيت قالته العرب، ولو كان على الاستفهام الحقيقي لم يكن مدحا البتة.
انظر: الأغاني ٤٦/٨، والجلس الصالح ١٢٦/١، والعقد الفريد ١١٨/١، وبهجة المجالس ١١١/١،
وجواهر الأدب ٣٣٢/١، والأمال ٤٥/٣.

(٣) من شعر جرير يهجو الشاعر النميري.

الشاهد فيه: (فَعُضَّ الطَّرْفَ) فإنه يروى بضم الصاد وفتحها وكسرهما؛ فأما ضمها فعلى الإتيان لضمّة الغين قبلها، وأما فتحها فلقصد التخفيف؛ لأنّ الفتحة أخفّ الحركات الثلاث، وأما كسرهما فعلى الأصل في التخلص من التقاء الساكنين.

انظر: الكتاب ٥٣٣/٣، والمقتضب ١٨٥/١، وشرح المفصل ١٢٨/٩، وشرح الشافية ٢٤٤/٢،
وأوضح المسالك ٣٥٠/٣، والتصريح ٤٠١/٢، والهمع ٢٨٨/٦، والأشمونى ٣٥٢/٤، والديوان ٨٢١/٢.

والتَّشْيِيبُ قوله^(١): [البسيط]

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَا يَحْيِيْنَ قَتَلْنَا
يَتْرَكْنَ ذَا الصَّبْرِ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهْنٌ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

قال أبو عبيدة التقي جريزٌ والفرزدق بمنى، وهما حاجان، فقال الفرزدق لجريز شعراً^(٢):

فإِنَّكَ لَاقَ بِالْمَنَازِلِ مِنْ مَنَى فَخَاراً فَأَخْبَرَنِي بِمَا أَنْتَ فَاخِرُ
فَقَالَ جَرِيْزٌ: بَلِيْبِكَ اللَّهُمَّ لِيْبِكَ، قَالَ أَبُو عبيدة: وَأَصْحَابُنَا يَسْتَحْسِنُونَ هَذَا الْجَوَابَ
مِنْ جَرِيْرٍ، وَيَعْجَبُونَ بِهِ.

قَالَ الشَّنْفَرَى^(٣):

(١) ديوان جريز: ٥٩٥.

(٢) انظر: الأغاني ٣٧/٨.

(٣) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": فهو تذييل، أي: مُؤَكِّدٌ لمفهوم ما قبله.
قوله: (بعيدٌ)، فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ، وهو خبرٌ مُقَدَّمٌ. و(عَهْدُهُ): مبتدأٌ مُؤَخَّرٌ، ويصحُّ أَنْ يَرْتَفَعَ عَهْدُهُ عَلَى أَنَّهُ فاعِلٌ (بعيدٌ) لاعتماده على المبتدأ المحذوف، بناءً على أَنَّ التقديرَ (هو بعيدٌ)، ولا محلاً للجملَةِ على التقديرَيْنِ؛ لَأَنَّهَا تَذْيِيلِيَّةٌ. وقلبي الرأس: استخراجُ قَمْلِهِ، وضوْابه. والضُّوَابُ، بَزَنَةُ غُرَابٍ: بيضُ القَمْلِ، ويَجْمَعُ على صِبْآنٍ. والعهدُ: التعهُّدُ، أي التَّفَقُّدُ. والعَبَسَ، بالعينِ المهملةِ والتحريكِ: ما تَعَلَّقَ بِأَذْنَابِ الْإِبِلِ مِنْ أَوْصَارِهَا وما يَبْسُ على أَفْخَاذِهَا مِنْ ثَلْطِهَا وَأَبْوَالِهَا. والعَافِي: المَثْرُوكُ على حَالِهِ حَتَّى عَفِيَ؛ أي: كَثُرَ وَطَأٌ مِنْ تَرَائِكُمُ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ، وَقَدْ يُشَبَّهُ بِالْقُرُونِ، كما قال أبو النجم: [الرجز]

كَأَنَّ فِي أَدْنَى أَبْهَنَ الشُّوَلِ

مِنْ عَبَسِ الصَّيْفِ قُرُونِ الْأَيْلِ

والغسلُ بالكسر: العَاشُولُ الَّذِي يُغْسَلُ بِهِ الرَّأْسُ، وهو الطُّفْلُ، وقيل: آسٌ طَيِّبٌ وماءٌ. والمُحَوِّلُ: اسمُ الَّذِي أَحَالَ؛ أي: أَتَى عَلَيْهِ حَوْلٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

قوله: (بمَسِّ الدُّهْنِ) مُتَعَلِّقٌ بِ(عَهْدُهُ) وَإِنْ كَانَ فِي مَعْنَى الْمَصْدَرِ؛ أي: (تعهدُهُ)، لِأَنَّ الصَّحِيحَ جَوَازُ تَقْدِيمِ مَعْمُولِ الْمَصْدَرِ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ ظَرْفًا أَوْ جَارًا وَمَجْرُورًا لِلاتِّسَاعِ فِي الظُّرُوفِ. وقوله: (عَافٍ) يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ وَضْفًا لـ (عَبَسَ)، وَعَلَيْهِ مَا تَقَدَّمَ فَهُوَ حِينَئِذٍ بِمَعْنَى كَثِيرٍ، و(مِنْ الْغَسْلِ) يَتَعَلَّقُ بِ(مُحَوِّلٍ) لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى (مَغْفَرٍ)، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْصَافِ (ضَافٍ) و(مِنْ الْغَسْلِ) حِينَئِذٍ يَتَعَلَّقُ بِ(عَافٍ).

٦٤- بَعِيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ وَالْفُلْيِ عَهْدُهُ لَهُ عَبَشٌ عَافٍ عَنِ الْغَسْلِ مُحَوِّلٌ

اللغة: المس: اللمس مصدر مَسَّهْتُه.

الْفُلْي: بفتح الفاء، وسكون اللام مصدر فَلَى رأسه بحثه من القمل.

العَهْدُ: له معان كثيرة، ولكن المناسب شيئان: المعرفة والالتقاء، ومن الأول قولهم: عهدي بموضع كذا.

الْعَبَشُ: بغين معجمه، وباء موحدة مفتوحتين: بقية من الليل، ويقال: ظلمة آخر الليل، والمراد هنا شدة سواده.

عَافٍ: النعت من عفا الشعر والنبت وغيرهما، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَؤَا﴾ [الأعراف: ٩٥]، والعافي: الطويل الشَّعْرُ، وكلاهما جائزان هنا.

مُحَوِّلٌ: بضم الميم وسكون الحاء المهملة، وكسر الواو: النعت من أحول الصبي، إذا أتى عليه حول.

الإعراب:

بعيد: إما صفة لضاف، أو خبر مبتدأ محذوف على حد الاستثناف البياني.

يمس: جار ومجرور مضاف الى الدهن من إضافة المصدر للفاعل أو المفعول.

عهد: فاعل ببعيد لكونه صفة مشبهة مضاف الى ضمير الغائب، ويجوز أن يتعلق به الظرف وقدم عليه.

والفلي: معطوف على مس، وهو الظاهر، ويجوز عطفه على الدهن بتأويل.

له: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدّم.

غيش: مبتدأ مؤخر، والجملة صفة أخرى.

والمعنى: هو - أي الشعر الضافي - بعيد تعهده: أي تفقده بمس الدهن، وباستخراج القمل ويبيضه منه. له من أجل ذلك وسخّ وودّح لبّد شعره لكثرتيه وتوفره. أو هو - أي: الضافي - عافٍ: أي دارس من الطفل والحطميّ أتى عليه عام من عهده بما ذكر من التزجيل والغسل والفلي.

عافٍ: صفة بعد صفة وقد تقدم إعراب نظيره، وإعلال الجميع إعلال قاض فتذكر.
عن الغسل: جار ومجرور، متعلق بمحول، وهو أيضا صفة أخرى وصحّ تعليق
الجار والمجرور به لما فيه من معنى المجاوزة.

المعنى:

يقول: أن هذا الشعر بعيد عهده عن مسّ الدهن، والبحث عن قملة، وانه لعدم
غسله حولا كاملا، قد تلبد ولزق بعضه ببعض مما وافاه من عدم تعهده إياه بالدهن
والتسريح والغسل.

استطراد:

قال أبو فراس حين كان في السجن عند ملك الروم، وقد أعيت به الجراحة، وقد
كتب به الى والدته يقول^(١): [الطويل]

مصابي جليل والعزاء جميل	وعلمي بان الله سوف يديل
واني في هذا الصباح لصالح	ولكن خطبي دائما لجليل
تطول بي الساعات وهي قصيرة	وفي كل دهر لا يسرك طول!
تناساني الأصحاب إلا عصابة	ستحلق بالأخرى، غدا أو تحول!
ومن ذا الذي يبقى على العهد أنهم	وان كثروا دعواهم، لقليل!
وليس زماني وحده لي غادر	ولا صاحبي دون الرجال ملول
تصفحت أقوال الرجال فلم يكن	الي غير شاك للزمان وصول
أكل خليل هكذا غير منصف	وكل زمان بالكرام بخيل!
نعم دعت الدنيا لى الغدر دعوة	أجاب إليها عالم، وجهول
وقبلي كان الغدر في الناس شيمة	وذم زمان واستلام خليل
فيا أُمي لا تعدمي الصبر انه	الى الخير والنهج القويم رسول
ويا أمتا لا تحبطي الأجر انه	على قدر الصبر الجميل جميل
ويا أمتا صبرا فكل فكل ملمة	تجلى على علاتها وتزول

أما لك في ذات البطايق أسوة ، بمكة، والحرب العوان تجول
قال الشنفرى^(١):

٦٥- وَخَزَقِ كَظْهَرِ الثُّرَيْسِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ بِعَامِلَتَيْنِ ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَلُ
اللغة:

الخزق: بفتح الخاء، وسكون الراء المهملة الفَقْرُ أو الأرض الواسعة تنخَرَقُ فيها
الرياح والجمعُ خُرُوقٌ.

الثُّرُسُ: بضم المثناة الفوقية، وسكون الراء المجن، وجمعه ثِرْسَةٌ وأتراس وثُرُوس،
قال يعقوب: ولا تقل أترسة.

القفر: بفتح القاف، وسكون الفاء مفازة لا نبات فيها ولا ماء والجمع قفار، قال
الشاعر، ويروى للجن^(٢): [الرجز]

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زكور الفاسي في "تفريج الكرب": الخزق، بفتح الخاء
المُعْجَمَةِ: المكان الذي تَحْتَرِقُ الرياح لِإِقْفَارِهِ مِمَّا يَشْتَرِ الرياح من بناءٍ وشجر. والثُّرُسُ: المجن الذي
يَتَقَى به في الحرب من الطعن والضرب. وَقَطَعَ الْقَفْرُ: الخروج منه وتخليقه وراء الظهر بالسير.
والعاملتان هنا: قيل الرُّجُلَانِ، وكان الشنفرى - كحالِه تَأَبَّطَ شَرًّا - يعدو على رجلَيْه، وهكذا شأن
لُصُوصِ العرب. و (يُعْمَلُ) بالبناء للمفعول، أي: لا يُعْمَلُ فيه بالحرب والغرس لكونه لا يُنْبِتُ.
قوله: (وَحَزَقِ) مخفوض لفظاً بِرُبِّ المحذوفة، مرفوعاً محلاً بالابتداء، و(كَظْهَرِ الثُّرَيْسِ) و(قَفْرٍ) من
أوصافِ الحَزَقِ. وقوله: (قَطَعْتُهُ) خبره، وجملة (ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَلُ) من أوصافِ الحَزَقِ تَصْنَعَتْ
الاحتراس مِمَّا عسى أَنْ يَتَوَهَّم من كونه يصحُ إعمالُه ويتأتَّى. والأولى أَنَّ هذا إِيْغَالٌ لِحَتْمِ البيت به مع
كونه مُفِيداً لِنُكْتَةٍ يَتَمُّ أصلُ المعنى بدونها، وأصلُ المعنى هنا: قَطَعُهُ المَفَازَةَ الخالية التي تُشَبِّه ظَهْرَ
الثُّرَيْسِ بِرِجْلَيْهِ. وهو تَأَمُّ لا يتوقَّف على ما حَتَمَ به البيت الذي أفاد أَنَّ المَفَازَةَ لا يَتِمَكَّنُ فيها البقاء
لِكونِها غيرَ معمولةٍ لعدم صلاحها لذلك، فليس فيها من ساكنٍ لأجل ذلك.

ووجهُ الشبه بين الحَزَقِ والثُّرَيْسِ قِل: الاستواء، والأولى إِنْ شاءَ الله كثرةُ مَسَارِبِهِ التي يَتَحَيَّرُ فيها
السَّالِكُ، وتَحْمِلُهُ على الضلالِ كثرةُ آثارِ ظَهْرِ الثُّرَيْسِ بالضرب والطعن واختلافها وتفاوتها.

(٢) البيت لا يعرف قائله، ويقال: أنه من شعر الجن قالوه في حرب بن أمية بن عبد شمس لما قتلوه
بثأر حية منهم، قتلها القفل الذي كان فيه، ودفن ببادية بعيدة، وكان حرب المذكور مصافياً لمرداس
السلمي أبي العباس الصحابي قتلها الجن جميعاً، وهذا شيء قد ذكرته الرواة في أخبارها والعرب
في أشعارها.

انظر: محاضرات الأدباء (١٠٤/٢) وسر الفصاحة (٣٣/١) والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر
(١٠٥/١) والبيان والتبيين (٢٠/١).

وقبُرُ حربٍ بمكانٍ قُفِرَ وليس قرب قبرٍ حربٍ قُبِرَ

الإعراب:

وفرق: الواو واو ربّ، وخرق مجرور برّب، والمراد هنا التكثير.

كظهر: جارّ ومجرور مضاف الى الترس.

قفر: نعت لخرق.

قطعته: فعل ماضٍ وفاعله ومفعوله.

بعاملتين: جار ومجرور متعلّق بالفعل الذي قبله.

ظهره: مبتدأ مضاف الى ضمير الغائب.

ليس: فعل ماضٍ على الأصحّ خلافاً لمن زعم حرفيتها، من أخوات كان ترفع الاسم وتنصب الخبر، واسمها مستتر فيها، وجملة يعمل من الفعل ونائب الفاعل في محلّ نصب خبر ليس، واسمها وخبرها في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الكبرى بأسرها: إما صفة لخرق أو حال منه باعتبار وصفه بما تقدم.

المعنى:

بعد أن فرغ من وصف نفسه بالصّبر على مشاقّ السّهول أخذ في وصف نفسه بترقيّه على الجبال وموانسة وحوشها له، والتّزول في أرض فقر لا نبات فيها ولا ماء كأنها المجدّن ملساء قطعتها برجلي والحال إن ظهر تلك الأرض ليس بواضح ولا مسلوک وتفسير عاملتين بالرجلين هو الأولى والأنسب للمقام إذ لا مدح في قطع الخرق بالجمال، وذلك بعيد عن الإفهام، على أنّ الشَّنْفَرى كان عداءً، فيكون على التفسير الأول صفة مؤكدة، وعلى الثاني مخصّصة وتخصيصنا بالأولوية والأنسيّة لا مكان أن يكون توخّشه عن أبناء جنسه فقط.

استطراد:

قال أبو فراس: [الكامل]

غيري تُعَيِّرُهُ فعالٌ الجافي ويَحُولُ عن شيم الكرام الوافي
لا يرتضي وُدّاً إذا هو لم يَدُم عند الجفاء، وقلة الإنصاف

ولو أَنَّهُ عاري المناكب حافي
فإذا قنعت فكل شيءٍ كافي
خَلَّ كان صروفه إخلافي
ولقد عُرِفَتْ بمثلها أسلافي

إِنَّ الغنْيَ هو الغنْيُ بنفسه،
ما كُلُّ ما فوق البسيطة كافياً
لا أَقتني لضرورة دهري عدا
شيمٌ عُرِفَتْ بهنَّ، مَذُّ أنا يافعٌ
وقال أيضاً: [البسيط]

ولا لدار عفتها الريح وضافا
كانوا وكنا اخلاءً والآفا
سلَّت عليه جفون البين أسيافا
وما رأى عندهم بؤساً ومخافا
ما خاف قط ولا وانى ولاضافا
فما أبالي أزداد الدَّهر أم جافا

ما كنت بالربع قبل اليوم وقافا
حتى تولى الخليط المستقل بهم
فمن يجير معنَى القلب مكتئباً
إني لمن معشر ماضيهم جارهم
من كل مشتمل بالضَّبر مدَّرع
إذا ظللت بنصل السَّيف منصلتا
وقال أيضاً يفتخر^(١): [الطويل]

وعزمُ كحدَّ السَّيف غير مفلَّل
ولمَّا يقم بالزَّمح أمري ومُنْصلي
جرى متى يعزم على الأمر يفعل
إذا هو لم ينزل بأكرم منزل
وكلَّ معلاة الرِّجال بأجدل
قريبة حاج المديح المتعجل
منارة قسَّيس، وقبالة هيكل
على كفر طاب صوبها لم يجوَّل
وأقبلت لم أرهق ولم أتحيل

إِبَاء إِبَاء البكر غير مذلَّل
وأغضى على الأمر الذي لا أريده
عزوف أنوفٍ ليس يخشى من الرَّدَى
شديدٌ على طيِّ المنازل صبره
بكل محلاة الرجال بضيفهم،
لعوب برجليها إذا هي أقبلت
كأنَّ أعالي رأسها وسنامها
سريتُ بها من ساحل البحر اغتدي
وقدَّمْتُ نُذري أن يقولوا غدرتنا
إلى أن قال: [الطويل]

(١) انظر: الديوان ٢٨٤/١.

وعدت كريم البطش والصفو ظافراً
ومن كان أضحى بالدنائة راضياً
قال الشنفرى^(١):

٦٦ - فالحقُّ أولاهُ بأخراهُ موفياً على قنّةٍ أقعِي مِراراً وأمثُلُ
اللغة:

موفياً: نعت من أوفى على الشيء أي: أشرف.
القنّة: بضَمّ القاف، وتشديد النون المفتوحة: أعلى الجبل، كالقنّة والجمع قنّان،
كمبرومة وبرام، وقنن وقنّات.
أقعي: بهمزة مضمومة، وقاف ساكنة، فعين مهملة مكسورة: من الإقعاء، وهو أن
يلصق الرجل أليته بالأرض وينصب ساقيه ويتساند إلى ظهره.
أمثل: إما مضارع مثل بين يديه مثولاً أي: انتصب قائماً، ومنه قيل: لمنارة المسرحة،
أو مضارع مثل إذا لطي بالأرض وهو من الأضداد.

(١) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": الضميران للحزق. وإلحاق
الشيء بغيره: جعله لاحقاً به، وإلحاق أولى الحزق بأخراه كناية عن قطعه بالسيف وجوازه إلى غيره.
والموفاي: الذي أوفى؛ أي: أشرف.
والقنّة: رأس الجبل الأعلى. والإقعاء بالنسبة للإنسان: جلوسه على أليته ناصباً فحذيه كأنه متساند
إلى ما وراءه.

وإقعاء الكلب: جلوسه على أليته مفترشاً رجله ناصباً يديه. ومثل يمثّل، بكسر المضارع: انتصب
قائماً.

قوله: (فألحقْتُ)، الفاء للترتيب الذكري؛ لأن إلحاق أولى الحزق بأخراه نفس قطعه لا غيره، رتب
عليه وعطفه عليه لتفصيله إجمال القطع؛ لأن في إلحاق الأولى بالأخرى تنصيصاً على أنه استوعبه
بالسيف، ولم يترك منه شيئاً، والقطع له محتمل لغير ذلك من الاختصار على مُعْظَمِهِ مثلاً، والله أعلم
سبحانه.

والمعنى: أنه فعل ما ذكر من إلحاق إحدى الغائتين بالأخرى في حال كونه مُشْرِفاً على رأس جبل،
رَبِيئَةً، وفي حال كونه يجلس على أليته مِراراً، ويتنصب مِراراً أخرى، قائماً يُقْعِي إذا خاف أن يُفْطَنَ لَهُ
ويُعلم بمكانه، ويتنصب إذا آمن من ذلك لِشَرَفٍ على مَنْ تَحْتَهُ لِيُضِدَّهُ للغارة إن أمكنته فرصة
انتَهَرَهَا.

الإعراب:

أَلْحَقْتُ: الفاء عاطفة، وألحق: فعل ماضٍ، والتاء ضمير فاعل.
أولاه: مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف، مضاف إلى الهاء.
باخره: جار ومجرور بكسرة مقدرة على الألف، مضاف إلى الهاء متعلق بالفعل الذي قبله.

موفياً: حال من الفاعل.

على قنّة: جار ومجرور متعلق بالحال.

أقعي: فعل مضارع من الإقعاء، وفاعله ضمير المتكلم مستتر فيه وجوباً.
مراراً: منصوب على الظرفية.

وأمثل: فعل مضارع معطوف على ما قبله، وفاعله ضمير المتكلم المستتر فيه.

المعنى:

يقول: فألحقت أولى تلك الأرض المقتدم باخرها مشرفاً على أعلى الجبل، فتارة أقعي حال صعودي وتارة انتصب حالة وقوفي على مكان مستو أو أنه يقعي وينتصب لتشرف المارة وغيرها كما هو شأن ربيّة القوم.

تكميل:

قوله: أَلْحَقْتُ أُولَى الْأَرْضِ بَاخِرَهَا، كناية عن سرعة سيره، وعدم مكثه في مكان يقال: فلان تتقاذفه الفياضي والقفار، وترمي به في المهامه في الاقطار، ولقد بالغ في وصف نفسه على تلك الحال، وأبدع في حسن تأدية المقال، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥ - ٢٢٦]

استطراد:

قال أصحاب التواريخ: لما وليّ عمر بن عبد العزيز زمام الخلافة، وفد الشعراء إليه، وأقلموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، فبينما هم، كذلك إذ مرّ بهم رجاء بن حيوة، وكان

جليس عمر، فلما رآه جرير داخلاً، قام إليه وأنشد^(١): [البسيط]

يا أيُّها الرَّجُلُ المرخي عمامته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا
فدخل، فلم يذكر له شيئاً، ثم مرَّ بهم عديُّ بن أخطاة، فقال جرير أبياتا آخرها^(٢):
[البسيط]

لا تنس حاجتنا لقيت مغفرةً قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني
قال: فدخل على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك، وسهامهم مشمومة،
وأقوالهم نافذة، قال ويحك، يا عدي! مالي وللشعراء؟! قال له عدي: - أعزَّ الله الأمير -،
إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم امتدح وأعطى، ولك في رسول الله صلى الله عليه
وسلم أسوة حسنة، افتدحه العباس بن مرداس، فأعطاه حلة، فقطع بها لسانه، قال: أو
تزوي من قوله شيئاً؟ قال: نعم، فأنشد قوله^(٣): [الطويل]

رَأَيْتُكَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا نَشَرْتُ كِتَاباً جَاءَ بِالْحَقِّ مُعْلِماً
شَرَعْتَ لَنَا دِينَ الْهُدَى بَعْدَ صَدْنَا عَنِ الْحَقِّ حَتَّى أَصْبَحَ الْحَقُّ مَظْلِماً
وَنَوَّرْتَ بِالْبُرْهَانِ أَمْرًا مُدْشِنَا وَأَطْفَأْتَ بِالْإِسْلَامِ نَاراً تَضَرِّمًا
فَمَنْ مُبْلَغُ عَنِّي النَّبِيِّ مُحَمَّدًا وَكُلُّ امْرِئٍ يُجْزَى بِمَا كَانَ قَدَمًا
أَقَمْتَ سَبِيلَ الْحَقِّ بَعْدَ اغْوِجَاجِهِ وَكَانَ قَدِيمًا رُكْنُهُ قَدْ تَهْدَمًا

قال عمر رضي الله عنه: ويلك يا عدي! من في الباب منهم؟ قال عُمرُ بنُ أبي ربيعة،
قال: أليس الذي يقول^(٤): [الخفيف]

ثُمَّ نَبَّهْتُهَا فَمَدَّتْ كَعَابَا طِفْلَةً مَا تُبَيِّنُ رَجْعَ الْكَلَامِ
سَاعَةً ثُمَّ إِنَّهَا بَعْدُ قَالَتْ: وَيِلْتَا قَدْ عَجَلْتَ يَا ابْنَ الْكَرَامِ

فلو كان عدوُّ الله إذ فجر كتم على نفسه لكان استر له، لا يدخل عليَّ والله أبداً،

(١) انظر: الديوان ٥٢٠/١.

(٢) انظر: الجليس الصالح والأنيس الناصح ٦٥/١.

(٣) انظر: العقد الفريد ١٢١/١.

(٤) انظر: الديوان ٥٠٥/١.

فمن بالباب سواء؟ قال: الفرزدق، قال: أليس الذي يقول^(١): [الطويل]

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقضّ باز أقتم الرأس كاسره
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا: أحيي؟ فيرجى أم قتيل نحاذره!
لا يدخل عليّ، فمن سواء بالباب؟ قال: الأخطل، قال: هو الذي قال^(٢): [الوافر]

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر جملاً بكوراً إلى بطحاء مكّة للنجاح
ولست بزائر بيتا عتيقاً بمكّة أبغى فيه صلاحي
ولست بقائم كالعير أدعو قبيل الصبح حيّ على الفلاح
ولكنّ سأشربها بكوراً وأسجد عند منبلج الصّباح

فقال: والله ليدخل عليّ، وهو كافّر أبداً، فمن بالباب؟ قال الأخوص، قال: أوليس
الذي هو يقول^(٣): [المنسرح]

الله بيني وبين سيدها يفرّ منّي بها وأتبّعه
فما هو بدون من ذكرت، فمن هاهنا؟ قال جميل، قال هو الذي يقول^(٤): [الطويل]
ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن أمّث يوافق في الموتى ضريحي ضريحها
فلو كان عدوّ الله تمنّى لقاءها في الدنيا، فيعمل بعد ذلك عملاً صالحاً لكان أضلّح
له، والله ليدخل أبداً. فمن سواء؟ قال: جرير، قال: إما أنّه يقول^(٥): [الكامل]
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حينّ الزيارة فارجعي بسلام

(١) انظر: العقد الفريد ١/١٢٢.

(٢) انظر: الديوان ١/٤٩.

(٣) انظر: العقد الفريد ١/١٢٢.

(٤) انظر: طيب المذاق ١/٦٣.

(٥) انظر: خزانة الأدب ٥/٤١٤.

فان كان ولا بدّ، فهو الذي يدخل، فلما مثل بين يديه، قال يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقاً، فأنشد من قصيدته المشهورة^(١): [البسيط]

إِنَّا لَنَرْجُو إِذَا مَا الْعَيْثُ أَخْلَفْنَا من الخليفة ما نرجو من المطر
جاء الخِلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر
هذي الأرامِلُ قد قضيت حاجاتها فمن لحاجة هذا الأرمِلِ الذكر
الخير ما دُمّت حياً لا نفاذ له بوركت يا عمر الخيرات يا عمر

ويروى البيت الثاني: أو كانت، فقال: يا جرير ما أرى فيما هاهنا لك حقاً! قال بلى، يل أمير المؤمنين، إني ابن سبيلٍ ومُتَقَطِّع، فأعطاه من طيب ماله مائة درهم، قال: ويحك يا جرير، لقد ولينا هذا الأمر وما نملك إلا ثلاثمائة درهم: فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله، يا غلام أعطيه المائة الباقية، فأخذها جرير وقال: والله لهي أحب إلي مما اكتسبته، ثم خرج، فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجت من عند خليفة يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وإني عليه راضٍ، ثم أنشد يقول^(٢):

رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفِرُّهُ وقد كان شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِياً

قال الشنفرى^(٣):

٦٧- تَزُودُ الْأَرَاوِي الضُّحْمَ حَوْلِي كَأَنَّهَا عَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْمُلَاءُ الْمُذِيلُ

(١) انظر: الديوان ٢٦٥/١.

(٢) انظر: العقد الفريد ١٢٢/١.

(٣) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": تزود: أي تجيء وتذهب، وتقبل وتدبر في طلب ما تأكله. وواحد الأراوي: أروية، وهي الشياه الجبلية. والملاء اسم جمع، وهي الرِيْطَةُ والملحفة.

والمذيل: المطال. والضحم، جمع أضحم وصحماء، وهو ما في لونه ضحمة - بضم الصاد - أي: صفرة تضرب إلى السواد.

المعنى أن إيفاءه على القته كما كان في حال إقعائه مرة، ومثوله أخرى، كان أيضاً في حال زود شياه الجبل الضحم حوله.

والمقصود أنه ارتقى إلى موضع من الجبل ليس فيه إلا الأروية، فهي تجيء وتذهب غير مكترثة به لأنها من أن تؤتى هنالك بمكروه، أو لأنها ألفتة وأنست به، فهي لذلك لا تتفر منه، وقد شبهها في حالة زودها حوله بالأبكار اللائي لبست الملاحف المذيلة.

اللغة:

ترود: من رادَ الشَّيْءُ إِذَا جَاءَ وَذَهَبَ.

الأراوي: بفتح الهمزة، والراء المهملة، هي الوَعْلُ من الثلاثة الى العشرة.

الصُّحْمُ: بضم الصاد، وسكون الحاء جَمْعُ أَصْحَمَ، وهو الأسودُ الَّذِي يَضْرِبُ إِلَى الصُّفْرِ.

الثاني ياء مكسورة جَمْعُ عَذْرَاءَ، وهي الْبُكَرُ.

المَلَاءُ: بضم الميم جَمْعُ مَلَاءَ، وهي الرِّيطَةُ غير ذاتِ لِفْقَيْنِ كُلُّهَا نَسَجٌ وَاحِدٌ وَقِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ.

المُذَيِّلُ: كمعظم، طويل الذَّيْلِ.

الإعراب:

ترود: فعل مضارع، وفاعله الأراوي.

الصحم: نعت له.

حولي: ظرف مكان مضاف إلى ياء المتكلم، معمول لترود.

كأنها: كأنَّ حرف من الحروف المشبهة بالفعل، ومعناها التشبيه، الهاء اسمها، والعداري هو خبرها.

عليهنَّ: جار ومجرور متعلّق بمحذوف، خبر مقدم.

الملاء: مبتدأ مؤخّر، والجملة محلها الرفع نعت للعداري، ويجوزُ جعل الملاء فاعلاً بالظرف لاعتماده على موصوف.

المعنى:

يقول: إن الوعول تجيء وتذهب حولي يتبخرن فيها.

تكميل:

قد قرّرنا أن الملاء جمع ملاء فكيف يصح وصفه بالمذيل وهو مفرد؟!

والجواب إن نافية للجنس، وهي تبطل معنى الجمعية كما نصّ عليه في موضعه فليراجع.

استطراد:

الشعر عند المنطقيين قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ أَقْوَالٍ تَنْبَسِطُ مِنْهَا النَّفْسُ أَوْ تَنْقَبِضُ، كقولهم: الخمر ياقوته سيالة، والعسل مرة مهوَّعة.

فللشعراء ميادين ينسون بها المشقة والتعب، ولهم ألفاظ تكاد أن تكون سحراً يغذون النفس بها عن الشَّعب، إلا ترى تشبيه التَّأظم مشي الوعول بمشي الأبقار الحسان اللاتي لم يطمئنَّ انس ولا جان.

قيل: إِنَّهُ مَرَّ عَلَيَّ بِنِ الْحَسِينِ بْنِ عَلِيٍّ - رضي الله تعالى عنهم - فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ عَلَى جَارِيَةٍ حَسَنَاءَ وَقَفَتْ عَلَى بَابِ دَارِهَا وَبِيَدِهَا سَبْحَةٌ، فَقَالَ: فَاتَكَّةُ نَاسِكَةٌ، فَقَالَتْ: [الكامل]

عُرِّ حِسَانٌ مَا هَمُّنَ بَرِيَّةٍ كظباء مكة صيدهن حرام
وقال الشاعر: [الطويل]

وزندان لو لم يُمَسِّكَا بدمالج لَسَالاً مِنَ الْأَكْمَامِ سَيْلَ الْجَدَاوِلِ
وقال أبو الطيب^(١): [البيط]

أَفْدَى ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضُغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِبِ
وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَامِ مَائِلَةً أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِبِ
وقال أبو العلاء المعري من قصيدة طويلة^(٢): [البيط]

أبعد حول تناجي الشوق ناجية هلاً ونحن على شعر من الشعر
كم بات حولك من ريم و جارية يستحدثناك حسن الدل والحوور
ورب صاحب وشي من جاذرها وكان يرفل في ثوب من الوبر
فالحسن يظهر في شيئين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر

وما أحسن ما قال شهاب في هذا المعنى^(٣): [الطويل]

(١) انظر: الخزانة ٢٥/٢.

(٢) انظر: معاهد التنصيص ٣٤٧/١.

(٣) انظر: ديوان ابن معتوق ٩٨/١.

تَلَوُّحٌ فَتَسْتَدْعِي الْفِرَاشَ وَتَبْسُمُ
وَتُبْدِي ثَنَائِيهَا لَنَا كَنَزَ جَوْهَرٍ
وَتَقْضِي فِيمَسِي السِّحْرِ فِي غَمْدٍ فِتْنَةٍ
إِمَّا وَحُبَابٍ وَهُوَ ثَغْرٌ مُفْلَجٌ
وَمِرَّةٌ بَلُّورٌ صَفَتْ وَهِيَ غَرَّةٌ
لَصْنَوَانٍ مَسْمُومٍ السَّهَامِ وَلَحْظُهَا
وَقَامَتُهَا وَالسُّمَهْرِيُّ وَإِنَّهَا
هِيَ الْبَذْرُ فِي الْإِشْرَاقِ لَوْلَا حِجَالُهَا
وَبَيْضُ الدَّمَى لَوْلَا الْبَرَاقِعُ وَالْحَيَا
مَهَاةٌ لَدَيْهَا السُّمُرُ فِي حَرَمِ الْهَوَى
فَكَمْ حَوْلَهَا لَيْثٌ بِحُلَّةِ أَرْقَمٍ
تَحَامِي حِمَاهَا وَآخَذَرِ الْمَوْتِ دُونَهَا
وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَزَارُهُ

فَيَفْتَرُ ثَغْرُ الصُّبْحِ وَاللَّيْلِ مُظْلِمٌ
فَتَرُضُّهَا فِي فَرْعِهَا وَهُوَ أَرْقَمُ
وَتَرْنُو فَيُضْجِي مُضْلَتَنَا وَهُوَ مَخْدَمٌ
وَجَامِدٌ خَمِرٌ وَهُوَ خَدٌّ مُعْنَدٌ
وَانْبُوبٌ دَرٌّ وَهُوَ سَاقٌ مَجْدُومٌ
وَمُبْسِمُهَا وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ تَوَامٌ
لَأَعْدَلُ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْفَتْلِ أَظْلَمُ
وَشَمْسُ الصُّحَى لَوْلَا السِّجَافُ الْمُخَيَّمُ
وَطَبْيُ الْحَمَى لَوْلَا الثَّوَى وَالتَّكَلُّمُ
تُحِلُّ دِمَاءَ الصَّيْدِ وَالْبَيْضُ تَحْرُمُ
يَطُوفُ وَكَمْ خَشْفٍ بَعَيْنِهِ ضَيْمٌ
فَلَيْسَ الْحَمَى إِلَّا الْجَمَامُ الْمُرْخَمُ
غَزِيرًا إِلَيْهِ لَا يَجُوزُ التَّوَهُّمُ

وقال أيضاً، وانظر إلى حسن هذا القسم^(١): [الطويل]

أَمَّا وَمَوَاضِي مُقَلَّتِيهَا الْفَوَاصِلِ
وَيَافُوتُ فِيهَا إِنَّ جَوْهَرَ جِسْمِهَا
وَوَرْدٌ مُحْيَاها النَّظَرِ لَقَدْهَا
مِنَ الْعَيْنِ إِلَّا أَنَّهَا فِي كِنَاسِهَا
كَعَابٍ تَحْدُ الْحَتَفَ فِي أَيِّ نَاطِرٍ
ذَكَاءٌ حَكَّتْهَا الشَّمْسُ وَهِيَ أَسِنَّةٌ
تَطْنُ رُغَاءَ الرُّغْدِ زَفَرَةٌ مُدْنِفٌ
وَقُضْبَانٌ بَلُّورٌ بَدَتْ فِي خَوَاتِمِ
فَمَا اخْتَالَ طَبْيٌ قَبْلَهَا فِي مَدَارِعِ

لَتَشْبِيْهَا بِالْبَذْرِ تَحْصِيلُ حَاصِلِ
هُوَ الْمَاءُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ سَائِلِ
هُوَ الرُّمْحُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ ذَابِلِ
تُظَلِّلُهَا أَشَدُّ الشَّرَى بِالْمَنَائِلِ
مِنَ الْفَنَجِ إِذْ تَرْنُو بِمُقْلَةٍ خَاذِلِ
وَقَامَتْ لَدَيْهَا نَيِّرَاتُ الْمَشَاعِلِ
فَتَرُشُّهُ حُرَاسُهَا بِالْمَعَاسِلِ
وَأَعْمَدَةٌ مِنْ فِضَّةٍ فِي خَلَاجِلِ
وَلَا مَالٌ غُضُنٌ يَنْعُ فِي غَلَائِلِ

(١) انظر: ديوان ابن معنوق ٩١/١.

وقال أيضاً^(١): [الطويل]

رَوَتْ عَنْ تَرَاقِيهَا الْعُقُودُ عَنِ النَّحْرِ مَحَاسِنَ تَزْوِيهَا التُّجُومُ عَنِ الْفَجْرِ
وَحَدَّثَنَا عَنْ خَالَهَا مِسْكٌ صَدَغَهَا حَدِيثًا رَوَاهُ اللَّيْلُ عَنْ كُلْفَةِ الْبَدْرِ
وَرَكَّبَ مِنْهَا الثَّغْرُ أَفْرَادَ جُمْلَةٍ حَكَاهَا فَمُ الْإِبْرِيْقِ عَنْ حَبَبِ الْحَمْرِ

وأردنا أن نرخي عنان القلم في هذا المضممار، وننشر محاسن ربّات الجمال، إلاّ أنّه خشينا التطويل، وإفضائه إلى ما ليس إليه تعويل.

قال الشَّنْفَرِيُّ^(٢):

٦٨ - وَيَزْكُذْنَ بِالْأَصَالِ حَوْلِي كَأَنِّي مِنْ الْعُضْمِ أَوْ فِي يَنْتَحِي الْكِخُ أَعْقَلُ

اللغة:

يركدن: من الرُّكُود، وهو الشُّكُونُ، وكُلُّ ثابتٍ في مكانٍ فهو راكِدٌ.

(١) انظر: ديوان ابن معتوق ٨٤/١.

(٢) قال الشيخ محمد بن القاسم ابن زاكور الفاسي في "تفريج الكرب": فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي ذَلِكَ. وَرُكُودُ الْأُرْوِيَّةِ: رُبُوضُهَا، أَيْ: بُرُوكُهَا سَاكِنَةً. وَالْأَصَالُ، جَمْعُ أَصِيلٍ: وَهُوَ الْعَشِي. وَالْعُضْمُ جَمْعُ أَعْصَمٍ وَعَضْمَاءٍ: وَهُوَ مَا فِي مَعَصِمِهِ بَيَاضٌ مِنَ الْوُغُولِ وَالظُّبَاءِ. وَالْأَذْفَى: الَّذِي طَالَ قَرْنَاهُ وَانْعَطَفَا إِلَى ظَهْرِهِ حَتَّى كَادَا يَمْسَانِ عَجْرَهُ. وَالْأَعْقَلُ: الَّذِي تَدَانَتْ رِجْلَاهُ. وَالْإِنْتِخَاءُ الْقَصْدُ.

والكِخُ، بالكافِ المكسورة فالياءِ فالحاءِ المهملةِ: سَفْحُ الْجَبَلِ وَسَنَدُهُ. فَقَوْلُهُ: (كَأَنِّي مِنَ الْعُضْمِ)، فِي مَحَلٍّ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْيَاءِ فِي (حَوْلِي)، وَ(مِنَ الْعُضْمِ) حَالٌ مِنْ (أَذْفَى)، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ نَعْتُ لَهُ، فَلَمَّا قُدِّمَ عَلَيْهِ انْتَصَبَ عَلَى الْحَالِ كَغَيْرِهِ مِنْ نَعَوَاتِ النُّكْرَةِ الْمُتَقَدِّمِ عَلَيْهَا، وَ(أَعْقَلُ) كَ (يَنْتَحِي الْكِخُ) نَعْتَانِ لَ (أَذْفَى). وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْأُرْوِيَّةَ - مَنْ قَرِطَ أَنْسَهْنَ بِي - يَزْكُذْنَ فِيمَا قُرِبَ مِنِّي عِنْدَ الْعَشِيِّ حَتَّى أَشَبَّهَتْ بِمَخَالَطَتِنَّ لِي، وَعَدِمَ اسْتِحَاشَهُنَّ بِمَكَانِي، وَغَلَا طَالَ قَرْنَاهُ وَانْعَطَفَا إِلَى نَاحِيَةِ أَلْيَتِهِ فِي حَالِ كَوْنِهِ مِنَ الْأُرْوِيَّةِ الَّتِي انْبَضَّتْ مَعَاصِمُهَا مَوْصُوفًا بِتَدَانِي الرِّجْلَيْنِ، وَيَقْصِدُ سَفْحَ الْجَبَلِ. جَعَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ قَصْدَنَا، وَحَصَرَ فِي قَصْدِهِ مَقَاصِدَنَا، آمِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَجَلَ مَقْصُودٍ، وَأَعْظَمَ مَحْمُودٍ، عَلَى تِمَامِ مَا قَصَدْنَا مِنْ شَرْحِ (لَامِيَةِ الْعَرَبِ). وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى مَا يَسَّرَهُ مِنْ ذَلِكَ وَسَنَاهُ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَذَا اللَّهُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى أَفْصَحِ الْعَرَبِ قَاطِبَةً، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي فَصَاحَةُ كُلِّ فَصِيحٍ مِنْ فَصَاحَتِهِ رَاهِبَةٌ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُقْتَبِسِينَ مِنْ فَصَاحَتِهِ مَا امْتَنَطُوا إِلَيْهِ سَنَامَ الْبَيَانِ وَغَارِبَهُ.

الْأَصَالُ: بِمَدِّ الهمزة جَمْعُ أَصِيلٍ، وهو الوقت بعد العصر الى المغرب، ويجمع على أَصِيلٍ وَأَصَائِكَ وَأَصْلَانٍ، مثل: بَعِيرٍ وَبُعْرَانٍ.

العصم: بضم العين، وسكون الصاد المهملتين: جَمْعُ أَغْصَمٍ، وهو من الظباء والوعول الذي في ذراعيه بياض. قاله الأصمعي، وقال أبو عبيدة: الأعصم الذي بإحدى يديه بياض، والإسم العُصْمَةُ، والوعول كلها غُصْمٌ. أَوْفَى: أشرف.

انتحى: من الانتحاء، وهو الإعتماذ والميل في كُلِّ وجهٍ، والانتحاء أيضاً الإعتماذ على الجانب الأيسر.

الكيح: بفتح الكاف، وسكون المثناة التحتية، آخر الحروف حاء مهملة: عرض الجبل، وما قالك منه وعلا من السَّفْحِ، والكاح مثله.

أعقل: هو إمّا من قولهم بَعِيرٌ أَعْقَلُ وناقَةٌ عَقْلَاءُ بَيِّنَةُ الْعَقْلِ، وهو التواء في رجل البعير واتِّسَاعٌ كثيرٌ، أو بمعنى عاقل، وهو الْوَعْلُ، قال الجوهري: عَقَلَ الْوَعْلُ، امتنع في الجبل العالي، يَغْقَلُ عَقُولاً، وبه سُمِّيَ الْوَعْلُ عَاقِلاً.

الإعراب:

ويركدن: الواو عاطفة، ويركدن فعل مضارع مبني على السكون، وفاعله ضمير النسوة.

بالأصال: جار ومجرور متعلق بويركدن، وكذلك حولي.

كأنني: كان واسمها.

من العصم: من حرف جر، ومعناها التبيين متعلق بمحذوف حال من اعقل وتقديم المبين على المبين شائع ذائع.

أوفى: فعل ماضي وفاعله ضمير يعود الى أعقل آخر البيت والإضمار قبل الذكر لفظاً لا رتبة جائز شائع.

ينتحي: فعل مضارع والفاعل ضمير يعود الى اعقل.

الكيح: مفعول به.

اعقل: خبر كان.

المعنى:

يقول بعد مؤانسة الوحش له، والألفة معها، إذا كان وقت الأصيل سكنّ حولي فكأنني وعل في رجليه التواء، أشرف يعتمد عرض الجبل فتأنس بي، ولم ينفرن عني، ظانين أنني من نوعهنّ، وهي اشدّ في الإيناس مبالغة، لأن وقت الأصيل، هو وقت مقرهنّ وموضعهنّ للنوم فيما يتعهدنه من شعب الجبال وشعثها.

تكميل:

لا يخفى على أن من استقرأ أبيات هذه القصيدة اللامية أن الشنفرى كان متوحشاً يألف الوحوش وتألفه، وأنه جوّاب قفار من الجبل والسهل، فذكر أولاً قطعة السهل وموافقه لوحوشها وأنه زاد عليها في طباعها، وانه لذلك إلف وحوش الجبال مثل وحش السهل، وانه مرّة في الجبال، ومرّة في السهل، وانه ليس له مكان مقر، ولا يتبغي عن صروف الزمان مقرّ.

وهذا آخر ما قصدنا إيرادَه في حلّ المعاني وفكّ المباني، وأسأل الله تعالى الهداية ظاهراً وباطناً، وأنه كما ختم كتابي بالشهادة، أن يجعل خاتمة عمري بمحبته ورضاه، وعاقبة أمري ما يستوجب كمال السعادة السرمدية يوم لقاه، وأحمد لله ربّ العالمين دائماً بدوام نعمه، مستمراً باستمرار لطفه وكرمه، أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على الرسول المبعوث من بني عدنان وعلى آله الطيّبين الطّاهرين وأصحابه النجباء البررة الغر الميامين وعلى التابعين وتابعي التابعين بإحسان إلى يوم الدّين، ما ترنّمت البلابل في الحداثق، وتزيّنت الرياض بالأزهار والشقائق.

قال الشارح المحقق غفر الله ذنوبه وستر عيوبه: وقد كان إتمام هذا الشرح يوم التاسع والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة الثامنة والسبعين بعد المائة والألف.

فَهْرِسْت

٥	مقدمة التحقيق
٧	ظاهرة الشعراء الصعاليك في الأدب العربي
٧	الصعلكة في اللغة:
٨	التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة:
١١	أخبار الصعاليك في المجتمع الجاهلي:
١٢	الظواهر الفنية في شعر الصعاليك:
١٣	١- شعر المقطوعات:
١٤	٢- الوحدة الموضوعية:
١٤	٣- التلخص من المقدمات الطلية:
١٤	٤- التحلل من الشخصية القبلية:
١٥	٥- القصصية:
١٥	٦- الواقعية:
١٦	أشهر الشعراء الصعاليك:
١٦	١- عروة بن الورد - أبو الصعاليك:
١٧	٢- السليك بن السلكة - من صعاليك العصر الجاهلي:
١٧	٣- تأبط شراً - من صعاليك العصر الجاهلي:
١٨	٤- أبو النشاش النهشلي - من صعاليك العصر الأموي:
١٨	٥- الأحيمر السعدي - من شعراء الصعاليك في العصر الأموي:
١٩	الشنفرى أبرز شعراء الصعاليك
١٩	المبحث الأول: اسمه ونسبه:
٢١	المبحث الثاني: ما هو سبب الاختلاف في نسب الشنفرى؟
٢١	المبحث الثالث: ضبط اسمه:
٢١	المبحث الرابع: لقبه وسبب تلقيه بهذا اللقب؟
٢١	المبحث الخامس: تاريخ مولده ومكانها:

٢٢	المبحث السادس: صفاته الخُلُقِيَّة:
٢٢	المبحث السابع: صفاته الخُلُقِيَّة:
٢٢	المبحث الثامن: سبب تصعلك الشنفرى:
٢٣	المبحث التاسع: وفاة الشنفرى وسببها:
٢٣	كيف قُتِلَ الشنفرى؟
٢٥	لامية العرب (أجمل آيات الشعر العربي)
٢٦	شروح لامية العرب
٢٨	نص لامية العرب
٣١	ترجمة المؤلف سليمان بك الشاوي
٣٢	وصف النسخة الخطية
٣٣	عملنا في الكتاب
٣٧	مقدمة المصنف
٣٩	شرح لامية العرب
٣٤٢	الفهرس